بلاد ما بين النهرين بين ولاءين

خواطر شخصية وتأريخية

تأليف : سر ارنلد تي . ويلسون

نقله الى العربية ، قدم له ، وعلق عليه

فؤاد جميل

تقديم ومراجعة الدكتور علاء نورس

الجزء الثالث

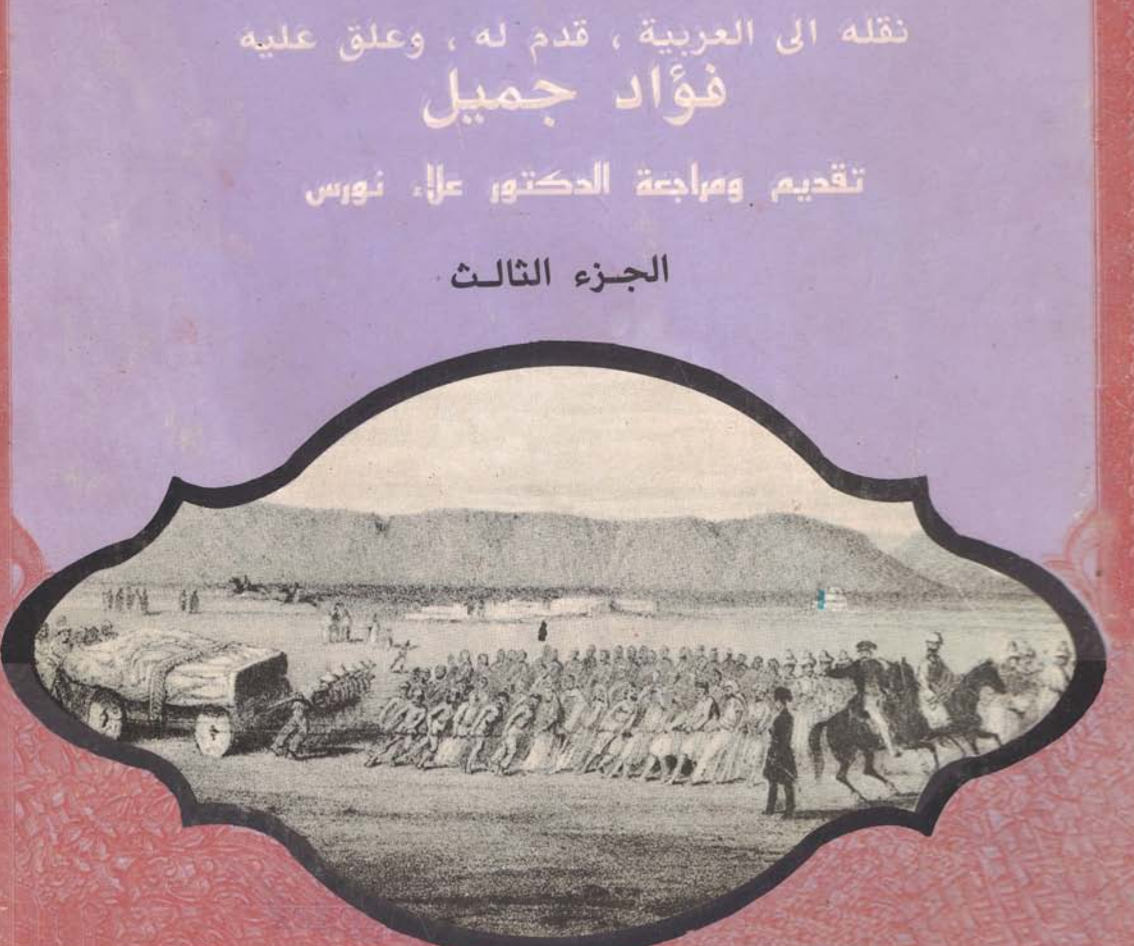

وزارة الثقافة والاعــلام
دار الشؤون الثقافية العامة

بغــــداد ـ ١٩٩٢

طباعة ونشر
دار الشؤون الثقافية العامة
حقوق الطبع محفوظة
تعنون جميع المراسلات
بأسم السيد رئيس مجلس الادارة
العنوان :
العراق ـ بغداد ـ اعظمية
ص٠ب٠ ٤٠٣٢ ـ تلكس ٢١٤١٣ ـ هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

بلاد ما بين النهرين

بين ولاءين

خواطر شخصية وتاريخية

تاليف : سر أرنلد تي. ويلسون

وكيل الحاكم الملكي البريطاني العام

(أيام الاحتلال الدابر)

نقله الى العربية ، قدم له ، وعلق عليه :

فؤاد جميل

تقديم ومراجعة

الدكتور علاء نورس

الجزء الثالث

الطبعة الأولى

مقدمة

الفصل الثاني والعشرون

قبس من كتاب (تأريخ مؤتمر الصلح في باريس : لمحرره (اج.دبليو. ڤي. تيمبرلي) :

(History of the Peace Conference of Paris Vol. VI, 1924, p. 179. By H.W.V. Temperely.)

مهما كان النظر الرسمي الى مستقبل العراق ، فمن المحتم أن يهيمن هذا على الاجراءات المتخذة لحسم قضية البلاد . ان نقل السيطرة عليها اثر سقوط الكوت ، من حكومة الهند الى الحكومة البريطانية لم يكن ليعني اختلاف السياسة الرسمية . كانت لدى البريطانيين فرصة سانحة ، إن لم نقل ان ذلك واجبهم لتحسين أوضاع شعب متأخر ، السياسية منها والاقتصادية والاجتماعية . لقد شهدوا حياة العرب منعزلة فقيرة سيئة قاسية وقصيرة ، ولعلهم لم يدركوا أن العرب يفضلون ذلك . ولكن ، لو فضّل ذلك العرب فليس هذا بدليل على أن العرب مصيبون ، أو أننا في محاولة تحسينها مخطئون . ولعلنا كنا في سبيل ذلك جد مسرعين ، واننا بدلاً من أن نهدف الى الأفضل كان علينا أن نرضى بما هو دون ذلك . إن البيان الذي أذيع بعد نزولنا الى أرض البلاد تواً ، ومنشور الجنرال مود بعد سقوط بغداد ، كانا يتضمنان ، في الأقل ، أن علينا تجاه العرب واجباً : هو أن نمكّنهم من أفضل ما في مقدورنا . وان كل ما هو أقل من ذلك شأناً عرّضنا الى تهمة قوية محصلها أننا نحرمهم من حكومة ترعى شؤونهم ولا نعطيهم أي شيء أفضل منها .

يجب أن نتذكّر أيضاً أنه بعد سقوط بغداد في آذار سنة ١٩١٧(*) ،

(*) ان محرر هذا البيان لم يكن الجنرال مود نفسه وانما هو ثعلب الدبلوماسية البريطانية (سر مارك سايكس) ، لقد كتبه بلغة اصطنعت لبعث الآمال العراض في نفوس العراقيين واضعاف أية مقاومة بأزاء الجيش المحتل ، مع ذلك رأى الجنرال مود معارضة نشره ، وحجته في ذلك أنه يحفّز أهل البلاد على مناهضة الاحتلال ويجعل مهمة جيشه عسيرة ، ويدفع بهم الى نشدان الاستقلال ! ولو أنعمنا النظر في هذا المنشور لوجدناه خلواً

كان خط القتال يبعد عن القاعدة في(البصرة) مسافة ٣٥٠ من الأميال، بحساب أقصر سبيل ، و٦٧٠ بحساب الطريق الأقرب المحاذي لسكة الحديد ، أو السبيل البري أو النهري •

لقد كان من الضروري وجود ادارة قوية ، أعني ادارة يضطلع بها موظفون بريطانيون ، ولو من دون ضمان الاحتلال البريطاني العسكري • وكانت هذه الادارة في أعقاب (الهدنة) مفرطة في التشبث وكثيرة التكاليف• من اليسير أن يقال أن مثل هذه النتيجة يجب أن تكون مرتقبة مسبقاً• لكن ليس من اليسير الكشف عن مستقبلها حقاً ، وما هو النظام الآخر المختلف الذي كان يجب الأخذ به بديلاً عنها •

الفصل الثاني والعشرون

شكوك تساور العراق واضطرابات تسود كردستان

كانون الاول ١٩١٨ ــ آب ١٩١٩

وبقلب كبير عدت من لندن أجرّ الخطى الى باريس والقاهرة، ومنها، خلال الاسبوع الاول من أيار سنة ١٩١٩ ، طرت الى بغداد ، عبر حلب ودير الزور •

لقد قبلت مقترحاتي بشأن المستقبل المباشر من دون نقاش ، سواء أكان ذلك من قبل لورد كرزن أم من قبل (اللجنة الشرقية التابعة لوزارة الحرب) • لقد ظهر اللورد كرزن عالماً ببواطن الأمور كالعادة ، وأكثر عطفاً مما كنت آمل • وبحسبان التوتر القائم بينه وبين مستر موتتاكيو ؛ وهو ما كنت أحيط به خبراً ، لم يكن من المتوقع أن يعود سر پرسي كوكس من طهران الى بغداد مبكراً • ان تعيين سر پرسي كوكس كأول مفوض سام وفي أسرع وقت مستطاع أمر على نصيب وافر من الخطر وحيوي بالنسبة

من أي وعد بالاستقلال • وأن حقيقة نوايا حكومته في المعاهدة المقترحة باسمه واسم صاحبه الفرنسي (سايكس بيكو) هي تقسيم البلاد العربية الى مناطق نفوذ . ان هذه السياسة هي التي حفزت العراقيين على الثورة (لأن قعيد الذل حي كميت) • (المترجم)

الى أسلوب العمل الذي أدعو له ، والذي وافقت الحكومة عليه • لقد سألني كل من اللورد كرزن ومستر مونتاكيو ان كنت أرغب في المنصب إن كان من المستحيل التخلي عن سر پرسي كوكس في طهران ، فكان جوابي لهما أنني لا أرغب في ذلك وأفضّل العودة الى الهند • لقد كنت أعلّق على عودة سر پرسي كوكس أهمية بالغة ، وما كنت أريد أن أشجّع فكرة بقائه أكثر مما هو ضروري في طهران • وعلى كل حال ، قلت : انني راغب في الاستمرار على العمل بوصفي (المفوض المدني) لحين عودته بوصفه (المعتمد السامي) • ان هذه الظروف شدّت من أزري وقوّت من سطوتي في لندن والعراق على حد سواء ، ذلك أنها بددت العامل الشخصي من أذهان المعنيين بالأمور كافة ، والى أبعد حد ما(١) •

* * *

وأني لأعلم سأجبه لزاماً بعداء لا يوصف من قبل بعض العناصر في سورية ، وبضمنها عدد كبير من الضباط البريطانيين الذين عقدوا العزم على أن يعدوا للشريف عبدالله أو الشريف زيد ، أو لكليهما ، عرشاً • لقد وصل مبعوثون مملّون من قبل الحكومة العربية في سورية ونشطوا في

---

(١) ان الوضع السياسي في ايران حمل الحكومة البريطانية يومذاك على الاستعانة بسر پرسي كوكس فانتدبته وزيراً مفوضاً في طهران وحل محله في العراق وكالة (المؤلف) ، وبقي على هذا من ربيع سنة ١٩١٨ حتى خريف سنة ١٩٢٠ حين عاد رئيسه فترك العراق الى غير عودة • ويكاد ينعقد الاجماع على انه كان يحمل أفكاراً سياسية متطرفة ، ويعمل على تحقيقها بعنف يصل حد الهوس ، ولعل في حداثة سنه بالنسبة الى منصبه الخطير مما يفسر اندفاعه • واليك بعضاً من أخباره :

روى طه الهاشمي في مذكراته (ص٧١) ان المس بيل قالت لمن يثق به « ان الحاكم السياسي ولسن أحمق لأنه لم يجلب الضباط العراقيين الموجودين في سورية ودير الزور خشية من انهم يشاغبون ويحدثون ثورات وقالت انهم جياع فاذا ما توظفوا يهدأون • الا ان ولسن احتج عليها قائلا بأنهم سوف ينشئون جيلا أشد منهم وطنية واخلاصاً لشعبهم » • وهذا نموذج من نماذج آرائه .

ويقول لونكريك في كتابه (العراق ١٩٠٠ – ١٩٥٠) ص١٠٠ الاصل الانكليزي : لو ان احتجاجات ولسن ومجادلاته أهملت ولو أن كوكس بقي في العراق لتخلصنا آنذاك من كثير من العناء والخسار .

(المترجم)

سبيل اثارة الخواطر بازاء (الادارة) ، على أساس من الدين والسياسة معاً ، وفي كل لواء (محافظة) تقريباً • ودعمت جهودهم في الموصل جهود الدعاة المبعوثين الأتراك ، والموظفين المدنيين السابقين في أغلب الأحايين • لقد كان هؤلاء دائبين على نشر الشائعات القائلة بأن الموصل ستعاد الى تركية، وقد أضجرتني جميع الجهات إذ ألحّت عليّ أن أصدر بياناً رسمياً أناهض به هذه الأقاويل التي كان مروّجوها وأغلب من يسمعها يصدقها • وما كنت غير مخول باصدار تصريح حول الموضوع حسب ، لكنني كنت ممنوعاً منعاً باتاً من اتخاذ أية خطوات يستنتج منها أننا نسعى الى إقامة طراز من الادارة والتنظيم السياسي الذي يجعل ولاية الموصل على حال ولايتي بغداد والبصرة سواء بسواء • ولم يبدر من حكومة صاحب الجلالة في أي وقت من الأوقات ما ينم عن أنها تحمد الخطوات التي خطاها سير ويليم مارشل ، إبان مفاوضاته مع علي احسان باشا ، لجعل ولاية الموصل « ضمن أراضي العراق ، أو ضمن الاراضي التي احتلتها قوات صاحب الجلالة البريطانية • ومنع طبع عبارة العراق تحت ظل الاحتلال البريطاني » على طوابع البريد في دوائره بولاية الموصل ، وكانت الطوابع المالية التركية تستعمل بدلها وتطبع عليها حروف ام•أي•اف : M.E.F بريد • ووردت عليّ الموافقة الرسمية بشأن المقترحات المعروضة عليهم يوم الـ ١٠ من ايار بعد ٢٤ ساعة من وصولي بغداد ، وكانت على الوجه الآتي :

« دستور العراق • نخولك تشكيل خمس مناطق في (العراق الأصل) على الاسس التي أوصى بها هويل والواردة في ملحقي كتابك المرقمين (٥) و(٦) • تقدم أيضاً الى خلق منطقة عراقية في الموصل تحاذيها دويلات كردية يحكمها رؤساء أكراد يشاورهم حكام سياسيون بريطانيون • نصادق على تشكيل مجالس أقاليم ، وابتعاث مجالس ادارية وبلدية وتشكيلها أيضاً • ان الاشارات الى (العراق الأصل) والى اقليم الموصل العربي كانت صائبة• ونرتاي أن من الضروري حسم مستقبل الموصل واقرار ذلك بتصريح مفرد وذلك قبل أن نمضي فنتخذ الاجراءات اللازمة للنظام الدستوري المصادق عليه من قبل حكومة صاحب الجلالة » • وفي اليوم الثامن من تموز،وجواباً

على برقية يرجع تأريخها الى ما قبل شهر ، رجوت فيها تخويلي اصدار تصريح بشأن الموضوع تسلمت الجواب الآتي :

« لا ترى وزارة الخارجية أن من المرغوب فيه سياسياً اتخاذ أية اجراءات يحتمل أن تبعث اعتقاداً بأن قرارات مؤتمر الصلح هي من أحكام حكومة صاحب الجلالة المسبقة . لقد صودق على تشكيل المجلس بوصفه خطوة في سبيل لا مركزية الادارة العسكرية القائمة ، وانتقالها . يجب ألاّ يفترض أي قرار ينطوي على تجميع الأقاليم على الوجه المسند الى وصاية حكومة صاحب الجلالة الدائمة أيضاً . إن أي اجراء يثير في ولاية الموصل أو في غيرها انطباعاً فحواه أن وضع العراق القابل قد حسم ، ويجب تجنب ذلك بكل حذر وحيطة » .

وجاءت في أعقاب ذلك مخابرات أخر ، ورجوت ، كرّة أخرى، السماح لي بأن أصدر تصريحاً محدداً بصدد نوايانا ، وأن يعقب ذلك إجراء ما . وأخيراً استطعت أن أستنبط البيان الآتي من وزارة الخارجية (٩ آب) :

« ان محاولة القيام بتجارب دستورية أمر مبتسر وذلك حتى يتخذ مؤتمر الصلح قراره بشأن الدولة المنتدبة وطبيعة الانتداب . وليس في نية حكومة صاحب الجلالة أن تجعل مثل هذا القرار متحيّزاً ...

ولم يكن من قبيل التفاؤل التطلع الى نجاح حكومة تغلب عليها الصفة العربية . إن كل ما رأيته أو سمعته يشير الى أن الأمير فيصلاً هو الشخص الوحيد الذي يؤمل نجاحه في العراق ، وكان قد نصّب في سورية . ومهما كانت الحال ، كنت عازماً على أن أقوم بالتجربة على الأسس التي وافقت عليها وزارة الخارجية ، وأن أبذل ما في وسعي لانجاحها . ومما يدرك لأول وهلة أن هذه البرقية كانت ضربة أيدة ، وما كانت بأقل خطراً بسبب توجيهها الى القاهرة ، وإعمامها على جماعة من الضباط البارزين العراقيين العاملين في خدمة الشريف أيضاً ، لأنها نتاج مخابرات دامت أربعة أشهر وزيادة .

لقد حاولت تعيين حاكم عربي في البصرة ، ولكن من اتصلت بهم بهذا القصد أبوا تحمّل التبعة لحين قيام الحكومة باصدار بيان واضح بشأن

صلاتها القابلة بالعراق ، وتبعتهـا بأزائه ، وعـرض ذلك على (ناجي بك السويدي) ببغداد فقبل منصب (رئيس البلدية) بمشاهرة سخية ، لكنه استقال بعد مدة قصيرة •

كان عسيراً عليّ ، في ذلك الوقت ، أن أفهم أسباب وقوف وزارة الخارجية موقف المناهض لجميع المقترحات المتصلة بمستقبل الادارة في العراق • لقد جعلني مستر لويد جورج أفهم شخصياً أن قضية الموصل ، بقدر تعلقها بفرنسة ، قد تم حسمها ، وانه لم يبق إلاّ إجراء مفاوضة حول معاهدة صلح مع تركية على أسس تحقّق نية الحكومة في جعل الموصل وبغداد والبصرة دولة عربية واحدة • ومما لا ريب فيه أنه كان يرتكن في ذلك الى أسباب متينة ، كانت قصة مفاوضاته مع مسيو كليمانصو بشأن الموصل غير معلومة حتى الآن على وجه التمام ، وذلك على الرغم مما جاد به في هذا السبيل رجلان أحدهما ممن يعول عليهم هو مسيو تارديو(٢)، والآخر ممن لا يعول عليهم هو : آر•اس• بيكر(٣)•

يلخص : اج•دبليو•في• تمبرلي(٤) على ما هو معروف عن الموضوع على الوجه الآتي:

« يقول مسيو تارديو أن مسيو كليمانصو وصل لندن في كانون الاول سنة ١٩١٨ وهو واقف على الحقائق تماماً • طلب لويد جورج ادارة بريطانية في فلسطين بدلاً من ادارة دولية ، ونقل الموصل من النفوذ الفرنسي ــ العربي الى النفوذ البريطاني ــ العربي • وأظهر كليمانصو موافقته على هذه المطالب وذلك بموجب ثلاثة شروط هي :

(١) تحصل فرنسة على حصة في نفط الموصل عن طريق تعديل الاتفاقية (١٥ ــ ١٧ أيار سنة ١٩١٦)•

(٢) مساعدة فرنسة مساعدة تامة بازاء الاعتراضات الامريكية •

(٣) عند الاخذ بنظام الانتداب تكون دمشق وحلب واسكندرونة وبيروت تحت الانتداب الفرنسي •

---

(2) L'illustration, 19th June 1920 and Hansard, H.C. 10 March 1922.

(3) Baker, R.S. Wilson and World Settlement, Vol. I, pp. 70, 74, 76.

(4) History of the Peace Conference Vol. PI, p. 182.

واستؤنفت المفاوضات في مؤتمر الصلح وجرت مباحثات بشأن عقد اتفاقية نفط بين بيرنجر ومستر ولتر لونك (لورد ولتر لونك بعد ذلك) في ٨ نيسان وكانت النتيجة أن :

(١) تحصل فرنسة على ٥٠ بالمئة من جميع حقوق النفط في المستعمرات البريطانية •

(٢) تحصل فرنسة على ٣٤ بالمئة من النفط القابل للتصريف في المستعمرات البريطانية •

(٣) تحصل بريطانية العظمى على ٣٤ بالمئة من النفط القابل للتصريف في المستعمرات الفرنسية •

(٤) تحصل فرنسة على حصة المانية ٢٥ بالمئة من رأسمال شركة النفط التركية في الموصل وبغداد •

(٥) يكون لبريطانية العظمى حق مد أنابيب من الموصل ، عبر منطقة الانتداب البريطاني الى البحر المتوسط •

ومهما كان من أمر ، فان قضية امتيازات النفط هذه تعقدت بسبب من السيطرة الاقليمية • ففي ٢١/٢٢ ايار يعلن مسيو تارديو أن مناقشتين تتسمان بحرارة اللهجة دارتا بين مسيو كليمانصو ومستر لويد جورج وختمتا بقول كليمانصو : « لو قلت لي في كانون الاول ١٩١٨ أن الحاق الموصل سيلحقه الحاق منطقة كبيرة لرفضت منذ تلك اللحظة اعطائكم الموصل(٥) •

إن اتفاقية بيرنجر — لونك ابرمت من قبل وزارة الخارجية الفرنسية يوم ١٦ ايار ، لكن مسيو كليمانصو رفضها بوصفها طارئة على تكييف أرضي يرتضى • وخابت كل محاولة لتجديد التضامن في كانون الاول ، وكانت القضية على ما يذهب اليه مسيو تارديو غير محسومة حين استقال المسيو كليمانصو في ٢٠ كانون الثاني ١٩٢٠ • وليس من الصواب مناقشة الحقائق التي يوردها مسيو تارديو ، ولكن ذلك هو ما فعله مسيو بريان

---

(٥) بالنظر الى ما أورده بيكر ان لويد جورج وكليمانصو قالا انهما لا يعلمان عن اتفاقية النفط شيئاً حتى يوم ٢٢ ايار • (المؤلف)

في البرلمان الفرنسي يوم الـ ٢٥ من حزيران سنة ١٩٢٠ • لقد أعلن انه في إحدى المحادثات غير الرسمية خلال مؤتمر الصلح وليس ثمة سجل لها• وخلال مؤتمر الصلح وافق الفرنسيون على ترك الموصل وفلسطين • وكان ذلك في زمن تفاقمت فيه المصاعب عندهم • وعارضه مسيو تارديو في خطاب ذكر فيه الحقائق التي سبق القول عنها ، والتي يظهر أن مستر بيكر يقرّها وهي :

أولاً — إقرار الانتداب على بلاد ما بين النهرين : ومهما كان التفسير السليم له فان قضايا النفط والاراضي تمّ حسمها في أيار سنة ١٩٢٠ •

ثانياً — اتفاقية (سان ريمو) في ٢٤ نيسان سنة ١٩٢٠ : ان هذه الاتفاقية الموقعة في ٢٤/٢٥ نيسان سنة ١٩٢٠ من قبل سر جون كادمن ومسيو برثيلو ، نيابة عن حكومتيهما لم تكن إلاّ من قبيل تكييف اتفاقية بيرنجر — لونك نفسها وهي :

(١) تحصل فرنسة على ٥٠ بالمئة من جميع الحقوق التي حصل عليها البلدان في رومانية ، لكنها ، وبقدر تعلّق الأمر بأراضي الانبراطورية الروسية الراحلة لم تذكر نسبة ما ، كما لم يذكر شيء بصدد غاليشية •

(٢)و(٣) تحصل بريطانية العظمى على ما لا يقل عن ٣٥ بالمئة (بدلاً من ٣٤ بالمئة) من النفط القابل للتصريف في مستعمرات التاج البريطاني ، وبالنسبة نفسها للبريطانيين في المستعمرات الفرنسية في شمال افريقية ، وليس ذلك في (طوميني Tomini)(٦) أو (نيوكاليدونية) ، حيث أخبر عن وجود النفط •

(٤)و(٥) تحصل فرنسة على ٢٥ بالمئة (أي :حصة المانية) من شركة النفط التركية • وتسهيلاً لنقل النفط بوساطة الأنابيب أو بالسكة الحديد في كل من بلاد ما بين النهرين وفارس عبر مناطق الانتداب الفرنسي الى ميناء واقع شرقي البحر المتوسط •

---

(٦) هي في غينية الفرنسية • ولم يعثر على النفط فيها ولا في نيوكاليدونية بكميات تجارية • (المؤلف)

ان الكلمات التي يختم بها مستر تمبرلي تحليله لهذه الروايات المتضاربة تعكس بصدق أحاسيسي في ذلك الوقت • لقد كتب يقول : « ومهما كان التأريخ الحق لهذه المفاوضات المعقّدة ، فمن الواضح الجلي أن الريب وسوء الفهم كانت سائدة حتى هذه اللحظة • إن الشكوك التي اكتنفت سياسة الحكومة البريطانية قد انعكست بالطبع على وجهة نظر الموظفين العاملين في بلاد ما بين النهرين وكانت لها أسوأ النتائج المحتملة » • دعونا نتركها عند هذا •

وبرزت القضية الكردية بعد الهدنة مباشرة • لقد عرضت القضية نفسها على الحلفاء من ثلاث وجهات مترابطة ترابطاً وثيقاً وهي :

(١) مستقبل الجزء الذي يسكنه الاكراد بالدرجة الاولى من ولاية الموصل•

(٢) مستقبل المناطق الكردية الكائنة فيما وراءه، أي : شمالي ولاية الموصل•

(٣) الاضطراب الذي نجم في صفوف القبائل الكردية في المنطقة الفارسية، والذي حرّض عليه الكرد القاطنون عبر الحدود لمقاصدهم الخاصة •

ان تعبير كردستان ، على غرار تعبير (بلاد ما بين النهرين) تعبير غير وثيق • لا دلالة جغرافية مقبولة له عموماً • ان الاكراد شعب آري وهم ذوو صلة نسب بشعوب اوربا الشرقية من جهة ، والأعم بسكان هضبة فارس من الجهة الأخرى• ولعل لغتهم من أقدم اللغات في آسية الغربية ، وهي على صلة باللغتين الأفستية والبهلوية • ان لهجاتها تختلف كثيراً بحيث يصعب فهم ما يقوله أهل السليمانية في العمادية • ولعل الاكراد من حيث التكوّن الجسماني من ألطف نماذج الجنس البشري في الشرق الاوسط ، وهم يشبهون الافغان في الخلق ، والى حد ما في الخلقة • انهم نسل الماذيين مباشرة ، وانهم يعيشون منعزلين عن جيرانهم في وديان عميقة • وحتى عهد قريب كانوا على استقلال تام عن العالم الخارجي • فما لهم من المعاملات معه إلاّ القليل ، وهم يجهلون ، والى حين قريب كان القانون الوحيد الذي يعرفونه هو القانون القبلي ، والولاء الوحيد عندهم ــ وهو سهل التغيير ــ هو الولاء لزعماء القبائل • وخمّن المجموع الكلي للاكراد في ولاية الموصل

ـ وتحقق ذلك منذ ذلك الحين ـ بأكثر من نصف عدد سكان الولاية نفسها • لقد جاد الاكراد بخيالة غير نظامية خلال الشطر الاول من الحرب، لكنهم لم يرسلوا إلاّ القليل من المكلفين الى الجيش النظامي التركي • لقد عانوا على يد حلفائنا الروس وأتباعهم من الأرمن والآشوريين أمراً يبعث على الأسى ، وما أن سنحت لهم الفرصة إلاّ وثأروا من الأخيرين في صيف سنة ١٩١٨ • لقد كانوا جميعاً ، ومن دون استثناء تقريباً ، يتوقون الى عرض طاعتهم على تركية ، إلاّ أن انسحابنا الفجائي من كركوك في ايار ١٩١٨ بعث على ما تبين في الفصلين الاول والرابع خوفاً عميقاً واستنكاراً • لقد استقبلنا السكان بحرارة ، وسرعان ما وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه تلقاء الاتراك العائدين الذين أجهزوا على ممتلكاتهم وقراهم وبساتينهم وبيوتهم انتقاماً • وتلاشى الاستنكار في الأخير ، إلاّ أن جو الشك بنوايانا النهائية بقي قائماً ، وما كان في مقدورنا أن نفعل شيئاً في سبيل تنقية ذلك الجو ، إذ أن نوايانا في الواقع كانت مريبة حتى تعيين الحد الشمالي لولاية الموصل من قبل (عصبة الأمم) بعد ست سنوات •

وعندما عقدت الهدنة مع تركية كنا نحتل كركوك كرّة أخرى ، شأنها شأن التون كوپري واحتلت أربيل بعد ذلك بأيام قليلة وذلك لتأمين تجهيز المواد الضرورية من الوقود والحبوب • أما السليمانية ، والتي كان الشيخ محمود يدعونا اليها منذ أمد بعيد ، فلقد كانت القطعات التركية تحتلها • لقد انسحبت هذه القطعات بموجب شروط الهدنة وأوفد (الرائد بويد) ليقدم عن الوضع فيها تقريراً • وكان أن بلغها في منتصف تشرين الثاني فاستقبل استقبالاً حاراً • وكانت تعليماتي اليه على الوجه الآتي :

« عينت حاكماً سياسياً على (لواء) كركوك من اليوم الاول من تشرين الثاني •••• ان (لواء) كركوك يمتد من الزاب الأسفل الى ديالى والى الحدود التركية ـ الفارسية في الشمال الشرقي • انه جزء من ولاية الموصل، وان مصيرها النهائي ستنظر فيه حكومة صاحب الجلالة •

وفي الوقت الحاضر يجب أن تعتبر ضمن منطقة الاحتلال العسكري وتحت ادارة قوتنا وعليك أن تمضي بفرض من هذا في معاملاتك مع الرؤساء

المحليين ، وان لا يغفل عن ذهنك أنه ليس من المحتمل أن تستبين السلطات العسكرية طريقها فتفرد قطعات دائمية للسليمانية ، أو للأماكن الأخرى الواقعة شرقي خطنا الحالي . يجب أن يكون هدفك إجراء ما ينبغي لإعادة الأمن الى نصابه وذلك بالتعاون مع الرؤساء المحليين .. في الأماكن الواقعة خارج حدود الاحتلال العسكري بخاصة . وفضلاً عن ذلك عليك عزل عملاء العدو وتجهيز البضائع التي تحتاجها قطعاتنا . أنت مخول بصرف ما هو ضروري لتحقيق ذلك شريطة أن يكون الصرف وفق السلطة المخولة لك سابقاً . وليكن مفهوماً لديك ، وعليك أن تفهم الرؤساء المحليين أيضاً، بأن كل ما تتخذه من تدابير هو بالضرورة شيء وقتي خاضع لمعاودة النظر فيه في أي وقت . أنت مخول بتعيين الشيخ محمود ممثلاً لنا في السليمانية، إن رأيت أن ذلك لازماً ، ولك أن تجري تعيينات مماثلة في جمجمال وحلبجة ...الخ على ما يبدو لك صواباً . يجب أن يوضّح لرؤساء القبائل التي تتصل بها أن ليست هناك نية في فرض ادارة غريبة عنهم ، لا تنسجم مع عاداتهم ورغباتهم . يجب أن يشجّع رؤساء القبائل على تشكيل أحلاف لحسم قضاياهم العامة ، تحت ارشاد الحكام السياسيين البريطانيين . ويجب أن يطلب منهم الاستمرار في دفع الضرائب القانونية المفروضة عليهم بموجب القانون التركي ، وأن تكيّف وفق الضرورة وللغايات المتصلة باستتباب الأمن في هذه البلاد » .

ولدى وصول الرائد نوئيل الى السليمانية بادر الى تنفيذ هذه التعليمات ، وادخال حكم موقت فيها كان مؤملاً أن يحظى بقبول الشعب ويحقق لهم آمالهم في تأسيس ادارة كردية . كما وعيّن الشيخ محمود حاكماً على المنطقة ، وعيّن في كل من المناطق الصغرى موظفاً كردياً يعمل تحت اشراف أحد الحكام البريطانيين السياسيين ، كما نقل في الوقت نفسه وحسب الامكان الموظفين العرب والاتراك وعيّن محلهم من أهل كردستان . وأعيد الضباط الاتراك والقطعات التركية تحت الحراسة الى بغداد . وجعل كل زعيم مسؤولاً بازائنا وبوساطة الشيخ محمود عموماً ، وذلك بقدر تعلّق الأمر بحكم قبيلته ، كما اعترف به موظفاً حكومياً يتقاضى معاشاً .

وكان أول واجب علينا معالجته هو أمر العوز والجوع السائدين في تلكم البلاد ۰ لقد غدا شطر كبير من المدينة إبان الحكم التركي خراباً وركاماً ، وركدت الحركة التجارية أمداً طويلاً ، وسرى الفقر الى الاراضي المجاورة وعمّت فيها المجاعة ، لذا تم استيراد مواد الاعاشة واتخذت التدابير اللازمة لانعاش الحركة التجارية ۰ كما جرى تصليح البنايات الرئيسة العامة والمساجد ودفعت معاشات القضاة الاكراد وغيرهم من الموظفين الاكراد وغيرهم من الموظفين شبه الدينيين ۰

لقد قوبل استتباب الأمن والنظام بترحاب من جميع الرؤساء العشائريين باستثناء قلة منهم وسرعان ما عمّت وانتشرت فكرة كردستان للاكراد ولكن تحت الحماية البريطانية ۰

زرت يوم الأول من كانون الاول السليمانية جواً ، وقابلت عدداً من الرؤساء الاكراد وأعقبت ذلك محادثات طويلة مع الشيخ محمود ومع قلة من أولئك الرؤساء ۰ ولقد أكّد لي أن الريف سيقاوم عودة الاتراك بالقوة ، والعودة هذه أمر لا يزال يعدّ احتمالاً ، كما أن الحاجة الى نوع من الحماية البريطانية معترف بها ، ولكن لم يكن هناك اتفاق على الوسيلة التي تتخذ لضمانها ۰ لقد كان بعض الزعماء يحبّذ ادارة بريطانية حقّة لكردستان على حين كان البعض الآخر يناهضها ۰ وكان هناك من يريد أن يجعل كردستان تحت هيمنة لندن لا بغداد ۰ وأسرّ لي بعضهم أنهم لن يقبلوا بالشيخ محمود زعيماً ولكنهم لم يقترحوا عنه بديلاً ۰

واثر محادثات طويلة سلّم إليّ الشيخ محمود وثيقة متفقاً عليها موقعة من قبل نحو ٤٠ زعيماً فحواها :

« وما ان أفصحت حكومة صاحب الجلالة عن نواياها بشأن تحرير الشعوب الشرقية من نير الاتراك ومدّ يد العون اليها في ارساء استقلالها إلاّ وتقدم الزعماء بوصفهم ممثلي أهالي كردستان فرجوا قبولهم تحت الحماية البريطانية والحاقهم بالعراق ، كيلا يحرموا من منافع ذلك الاتصال ۰ وقد رجوا (الادارة المدنية في بلاد ما بين النهرين) ارسال ممثل لها مزوّد بالمعونة اللازمة لضمان تقدم الشعب الكردي تحت الاشراف

البريطاني وعلى آساس مدنية وتحت ظلال من سلام • فإن جادت الحكومة عليهم بالعون والحماية التزموا باطاعة أوامرها والأخذ بمشورتها » •

يضاف الى ذلك ان الشيخ محمود طلب ضباطاً بريطانيين لجميع الدوائر الحكومية ، وبضمنهم ضباطاً للمجندين (الليفي) الاكراد ، مشترطاً أن يكون المرؤوسون (حسب الامكان) من الاكراد لا العرب • واستجابة لطلبه حرّر اليه خطاب محصله :

إن أية قبيلة قاطنة بين الزاب الأعلى وديالى (باستثناء من تسكن الأراضي الفارسية) وتقبل عن رضا وطواعية بزعامة الشيخ محمود ، يسمح لها بذلك ، وان الشيخ محمود سينال دعمنا الأدبي في ميدان السيطرة على المناطق السالف ذكرها نيابة عن الحكومة البريطانية ، وهو الذي التزم باطاعة أوامرها •

لم تكن قبائل لواءي كفري وكركوك وسكنة مدنهما براغبة في أن تكون تحت هيمنة الشيخ محمود ، ووافق الأخير على أن لا يصرّ على ضمها اليه • وأوضحنا الى ممثلي القبائل الكردية القاطنة في فارس بأن التزاماتنا العامة تحول دون الموافقة على ضمهم الى حلف جنوبي كردستان تحت الحماية البريطانية ، وان عليهم البقاء بوصفهم رعايا فرساً موالين • وقبلت هذه القبائل بالوضع الراهن هاشة باشة وبارتياح عموماً •

ومهما كانت الحال ، فان الشيخ محمود لم يكن قانعاً وراضياً • فلقد ادّعى أنه منتدب من قبل أكراد ولاية الموصل كلها ، ومن غيرهم في فارس أيضاً ، ليعرض رغبتهم في تشكيل دولة متحدة مستقلة تحت الحماية البريطانية • ان هذا الرأي كان يستأهل بشكل لا لبس فيه ولا غموض نظراً دقيقاً ، فلو ثبت سداده فاننا نأمل من ورائه تيسير فكرة تشكيل حكومة عربية من بقية الولايات الثلاث •

إن هذه الفكرة لم تكن جديدة عموماً • ذلك ان قد دعا الى مشروع إقامة دولة كردستان المستقلة ، تحت الحماية البريطانية ، زعيم متقدم من

قبيلة مكري في منطقة صاوجبلاق الفارسية وعرضها على العقيد كينيون سنة ١٩١٨ . وكان محصل فكرته : أن قيام ارمينية الحرة في المناطق الشمالية من تركية أمر يرضى به الاكراد شريطة قيام كردستان المستقلة بين الدولة الارمنية والدولة العربية . فضلاً عن أن سر پرسي كوكس ، إبان وجوده في لندن ، قد ألقى السمع الى مقترحات مشابهة . ذلك أن وجيهاً تركياً من أصل كردي ، اسمه شريف باشا ، كان يقيم في فارس ، وعلى الرغم من ابتعاده عن وطنه منذ أيام الطفولة بقي يُعنى عناية كبيرة بمستقبل كردستان الجنوبية ، وقد عرض خدماته علينا في كانون الاول سنة ١٩١٤ . وألحّ شريف باشا علينا في أن نعمد الى لمّ شمل الاكراد طراً ، واعلان سياسة بناءة بالسرعة المستطاعة . ومحصل مقترحه هو : ضمان الاستقلال لسكان كردستان الجنوبية تحت ظلنا ، وأن يوفد الضباط البريطانيون لهذه الغاية فيقوموا باسداء العون الاداري ويمارسوا السيطرة المالية اللازمة . وفي الواقع اننا يجب أن نضع للأكراد ما وعدنا العرب بصنعه . لقد أكّد أهمية إقامة ادارة عاملة فوراً ، ومن دون انتظار قرار شكلي يصدر من مؤتمر الصلح . يجب أن لا يقوم بالحاقات بل علينا أن نقيم دولاً مستقلة ونسيطر عليها . وفي الحق أن مشروعه لذكي بالنسبة الى نظام الانتداب . وفي تشرين الاول سنة ١٩١٨ كتب يقول : ان الوضع قد تعسّر بسبب ما يقوم به الأتراك في ميدان اثارة البغضاء بين الاكراد والارمن وغايتهم الاجهاز على الارمن ، ثم حرمان الاكراد من أية فرصة لهم في باب الاستقلال الوطني . وأصرّ على غرار اصرار الزعيم المكري على أن الفرصة الوحيدة في باب الوصول الى حل دائم شريف هي في اعتبار كل من الارمن والاكراد على حد سواء ممثلين لقوميات متساوية في الحقوق القومية ، وكل شعب ضمن منطقته المختصة .

وعلى الرغم من أن شريف باشا لم يكن على صلة وثيقة بكردستان ، فإن آراءه كانت تستدعي بحق انصاتاً عاطفاً . لقد اهتاج الرأي العام في

بلاد الدول المتحالفة ، وفي الولايات المتحدة من أهوال المذابح الأرمنية . وتراءى أن حلاً على هذه الآساس يكون من لدن مؤتمر الصلح مقبولاً . ذلك ان إحدى نقاط الرئيس ولسن الـ ١٤ كانت تنص على أن يكون للأجزاء التركية من الانبراطورية العثمانية الحالية سيادة مضمونة كما يجب أن نضمن للقوميات الأخرى التي هي الآن تحت الحكم التركي فرصة مطلقة من الابتعاث الذاتي .

إن الضرورة الاولى في اصدار حكم صحيح هي الوقوف على أتم المعلومات الممكنة ، وذلك بقدر تعلّق الأمر بماجريات الوقائع والأحاسيس في المناطق الكردية الاخرى . ولهذه الغاية أوفد الحكام السياسيون الى عقرة وزاخو وشرقي الموصل وشماليها على التوالي ، وللاتصال بالقبائل الكردية القاطنة في هاتيك المناطق . لقد ثبت أنه كان أمراً عسيراً جداً . وبالنظر لوجود طوائف نصرانية كبيرة ، وقرى مسيحية عديدة على الحدود الكردية والنفوذ التركي ما زال قوياً فيها ، والقضية الارمنية على حدتها ، وخارج الحدود كان الاتراك ناشطين في بث الدعاية المضادة لوجهات النظر النصرانية والبريطانية بين أبناء العشائر السذج . وجاء في إحدى الكراسات: « لن يمر طويل وقت إلاّ ويصمّ آذانكم رنين الاجراس ويخفت صوت المؤذن الى غير رجعة . سيعاملكم الموظفون النصارى كما عاملكم الروس وستقبّلون أقدام العرب والكلدان .

لقد غُذّيت مخاوف الاكراد بما فعله (ضباط الاغاثة البريطانية) الذين كانوا طوع أوامر (الحملة الاستكشافية المصرية) ، إذ وردت في تعليماتها العبارة الآتية : « ليس من الصواب التحقيق في الوقت الحاضر في قضايا صغار المجرمين ، لكن الواجب يقضي بجمع المعلومات والاسماء المسجّلة على ما هو وارد في (استمارة الاتهام) الواجب توزيعها على رجال الدين وغيرهم بالطرق السليمة . إذ ليس من خطة تنصبّ على اثارة الكره الديني كمثل هذا . إن مجرد إفادة يدليها نصراني بعد التحليف أمام أحد ضباط

الاستخبارات أو السيطرة تتضمن القاء القبض على مسلم يضطغن عليه(٧). لقد وقعت في حلب حوادث عديدة من هذا القبيل .

أدركت حكومة صاحب الجلالة خطل هذه السياسة فخولتني يوم السابع من ايار أن أكتب الى السيد طه ، وهو زعيم كردي في منطقة راوندوز ما يأتي :

« خولتني حكومة صاحب الجلالة أن أعطيك الضمان الشخصي التام بأنها لا تنوي ، بقدر تعلّق الأمر بها ، اتخاذ سياسة انتقامية تجاه الاكراد من جراء أية أفعال ارتكبوها خلال الحرب ، وانها على استعداد لمنحهم عفواً عاماً ، ولن يمنع هذا ممثلي الحكومة البريطانية من بذل الجهود الودية لمصالحة الأرمن والاكراد ، بقدر تعلّق الأمر بقضاياهم الشخصية ، كما وسيستخدمون أفضل السبل في سبيل حسم القضايا الناجمة بين الطرفين والمتعلقة بالأرض ، وبطريقة ودية من دون اللجوء الى التدخل المسلح . ان مصالح الاكراد ، على ما تريد حكومة صاحب الجلالة البريطانية أن أؤكده لكم ، لن يغرب عن بالها في مؤتمر الصلح » .

وبقدر تعلّق الأمر بالسيد طه فان هذا الكتاب حظي برضاه تماماً ، وتكررت زيارته لبغداد على الرغم من أن مصالحه العشائرية تستقر في الغالب في (شمسيدينان) ، ولعل ذلك خارج منطقة إجراءاتنا ، لكنه بذل أفضل ما يستطيع في سبيل تجنب الاصطدامات وتهدئة خواطر أتباعه المتمردين . ومن حسن الحظ أن يكون موجوداً في بغداد ليتسلّم الخطاب الآنف الذكر شخصياً ، في الوقت الذي حاول فيه الشيخ محمود ، على ما سنصفه فيما يأتي أن يحدث في السليمانية انقلاباً .

وفي الموصل كانت الدعاية لصالح فرنسة تثير بعض القلق ، كان يثيرها الفرنسيون المتمتعون بالحماية ، واتخذت نمطين :

---

(٧) أي من دون تقديم الادلة وحشد الشواهد ، فهل هذا هو الاسلوب الأمثل للحكم العادل ؟! . (المترجم)

أولاً : أنها كانت تبيّن للنصارى أن الفرنسيين على خلاف الانكليز الذين يرون الأديان سواسية ، يتمتعون دوماً بالسمعة التي محصّلها اسناد النصارى ورفعهم مكاناً علياً وان كانوا أقلية . وان الفرنسيين لو استولوا على البلاد فان اعلاء شأن النصارى فيها أمر مضمون ، لذلك فالأصلح لهم أن يطلبوا الحماية الفرنسية .

ثانياً : شاع أن الفرنسيين قادمون وشيكاً ، وان الادارة البريطانية ليست إلاّ شيء مؤقت .

إن وجود ٥٠ لاجئاً نصرانياً في بعقوبة كان مصدر قلق أيضاً ، وعلينا أن نعيد توطينهم في موطنهم السابق ، وهو اليوم في منطقة الاحتلال الكردي ، وان الاكراد كانوا بالطبع يأملون أن نظهر الى من نحن وإياهم على دين واحد من الميل شيئاً .

غادر النقيب نوئيل قبل نهاية كانون الاول السليمانية وطوّف في المناطق الكائنة غرباً وشمالاً حتى راوندوز ساعياً وراء ادخال نظام الحكم الجديد حيث يكون . وعيّن الحكام السياسيون في كوي ورانية وراوندوز . وأعيد الأمن الى نصابه سريعاً ، كما أعيد الموظفون الاتراك الى حيث كانوا . وأوضحت آراؤها بشأن كردستان الى رؤساء القبائل . لقد قبلوا جميعاً ممثلاً لبريطانية في كردستان ، وأعلنوا رغبتهم في الانضمام الى التحالف الكردي . لقد كان لدى كل عشيرة أربعة مرشحين للزعامة ، ولم يكن أياً منهم ليحظى بتأييد حماسي . وكان المزارعون والقرويون ينظرون الينا آملين الحد من سلطات الزعماء الطاغية ومعاودة الادارة البيروقراطية على الاساليب التركية . وكانوا ، في هذا الوقت على استعداد لقبول أي شيء نقترحه ، آملين أن يؤدي ذلك الى عودة الأمن الى نصابه ومعاودة النشاط التجاري وتعميم الرخاء .

وبعد أسابيع قليلة قفل النقيب نويل عائداً الى السليمانية فوجد الشيخ محمود يسيء ممارسة سلطته ، ولعدم وجود أية حامية عسكرية وجد

أنه صعب القياد ، ان سجله أيام الاتراك لا يبعث على الثقة ، فلقد دأب على الثورة عليهم ، لكن الهمسات كانت تذهب الى أن الناس في السليمانية قاسوا من رؤسائهم ومن السادة أكثر مما قاسوه من الموظفين الاتراك .. ومهما يكن من أمر فكان لزاماً علينا أن نجبه الواقع على أفضل وجه مستطاع . لقد كان للشيخ محمود نفوذ كبير ، ما الى الشك في هذا من سبيل ، ولعله اليوم أقوى مما كان قبلاً ومن دون تعاونه ومعونته كان لزاماً علينا الاتيان بحامية قوية لم ترَ السلطات العسكرية ضرورة لاتيانها . هذا ومن الناحية السياسية كان حقاً علينا أن يستتب الأمن في المنطقة ، ولكن اظهار القوة واستعمالها لهذه الغاية على حظ كبير من الخطر علينا تجنبها .

لقد نيط بنا تأسيس حكومة كردية مستقلة في جنوب كردستان تحت الاشراف البريطاني ، ولكون البلاد لم تبتعث بعد ولفقدان المواصلات وتفرّق كلمة القبائل ، اضطررنا الى العمل انطلاقاً من قواعد عديدة ، والى أن نحاول إعادة الأمن الى نصابه في مراكز قليلة ، تاركين أمر التنسيق الى مرحلة متأخرة . ولأسباب جغرافية وتجارية تجلى أن كردستان الجنوبية قادرة على الازدهار بوصفها شطراً من بلاد ما بين النهرين . إن الاسواق الوحيدة المحتملة هي أسواق الموصل وبغداد ، وان المواصلات الوحيدة هي المارة من بلاد ما بين النهرين . لقد أدرك هذه الحقائق كثيرون ووافقت قلة من المنورين الاكراد إبان محادثات خاصة على ان من المستطاع إقامة استقلال كردي ضمن كيان الدولة العربية ما دامت تحت الارشاد البريطاني . ومهما كانت الحال ، كان جلياً لدى الاغلبية الساحقة من رؤساء القبائل ان المستقبل الذي ينطوي على الخضوع الدائم لدولة عربية أمر لا يستساغ وبنظر أقلية منهم كان معنى الاستقلال لا يعدو الحرية في سلب واضطهاد جيرانهم الضعاف .

كان من العسير الوقوف على مدى ما تذهب اليه الحركة الاستقلالية في وجودها ، والى أي بعد تمتد بوصفها نتاجاً للمطامح الشخصية التي

تعتلج في نفوس الزعماء الاكراد • ومما لا ريب فيه ان الحركة كانت قوية في السليمانية ، وكان من الواجب الحد منها بالتذكير بأن حكومة صاحب الجلالة لم تقبل بتبعة كردستان إلاّ على مفهوم أن الناس والقادة فيها يحسنون التصرف ويأخذون بنصيحتنا في القضايا الخطرة •

لقد أوضح للناس أن موظفي الادارة سيكونون من الاكراد بقدر المستطاع ، كما ستشكل قوة المجندين (الليفي) بإمرة ضباط أكراد ، أما اللغة الرسمية في الحكومة فستكون الكردية • وستكيّف القوانين وفق الأعراف والعادات المحلية وستختط جباية الواردات ويوضع نظام الضرائب لملافاة حاجات الاهلين • سيحترم العرف العشائري وسيسمح ضمن حدود معقولة للزعماء العشائريين بممارسة السلطة على أبناء عشائرهم من الآن فصاعداً •

كان الشيخ محمود نفسه أعسر مشكلاتنا[٨] • لقد كان في جهالة الطفل ولم يكن في براءته (كذا) • كان ذا مطامع كبيرة ومكر طبيعي ؛ وكثيراً ما كان ينطلق على حين غرّة فتبدر منه انفجارات قسوة توحي الى شخص هادىء لمّاح مثل (سون) أنه ليس بمسؤول عن فعاله دوماً • ومع كل ذلك ، وعلى الرغم من أخطائه ، كان له في هذا الوقت أتباع كثيرون • ففي كردستان الجنوبية كان يقف أربعة من الموالين اليه بازاء واحد يناهض تعيينه • وعلى كل حال ظهر أن نفوذاً كنفوذه يمكن أن يستخدم بشكل مفيد في منطقة السليمانية • وحتى في المنطقة هذه كانت ثمة أقلية ذات نفوذ مؤلفة في الغالب من كبار الملاكين والتجار تفضل الادارة المباشرة من

---

(٨) ان الشهرة القوية والصيت البعيد تخلقان الاعداء وتصيب صاحبهما بخصومات مسمومة وجارحة لم يجترح في خلقها اثماً ولم يرتكب جناية • ولعل هذه كانت حال الشيخ محمود الحفيد البرزنجي رحمه الله •
(المترجم)

قبل الموظفين البريطانيين على الأساليب المتبعة في الحكومة التركية الراحلة بدلاً من العودة الى حكم عشائري شبه بربري •

لقد اتّضح في هذا الوقت بعينه أننا لسنا بقادرين على أن ندعم بسداد مزاعم الشيخ محمود في السيطرة على جماعات عشائرية كبيرة ، ولما كان هذا هو الواقع بعينه ، تمّ الاتفاق على ضرورة رسم سياستنا في كردستان الجنوبية عن طريق إدخال نوع من الادارة يشبه ما يعمل به في مكان آخر من العراق • وإثر محادثة شاملة انصبّت على الوضع وأسهم فيها كل من: نويل وليچمن وسون وكوردن روكر وغيرهم كثير ممن يمتلكون معلومات من الطراز الأول عن الموضوع تقرر بعدها وبموافقة نويل التامة أن يحل سون محله في السليمانية وهو من لم تكن له صلة سابقة مع الشيخ محمود• لكنه كان ذا صفات خارقة ومعلومات دقيقة عن المنطقة • وكان أن أوفد نويل بتعليمات من حكومة صاحب الجلالة ليقوم بجولة في كردستان وليتوثق من المدى الذي يمكن أن تطبق فيه •

وبعد استتباب الأمن وعودة التجارة اثر تعيين الرائد سون انفجر الشعور العام بأزاء الشيخ محمود • لقد اتّضح أن كثيراً ممن قبلوا به في البداية لم يكن ذلك عن حب لحكمه أو رغبة فيه ، بل من الخوف منه ، ولأنه حملهم على الاعتقاد بأن البريطانيين على استعداد لإقامة حكمه بالقوة عند الضرورة • لقد أصرّت قبيلة الجاف على أن يكون التعامل معها مباشراً ، وحذت حذوها جماعات أخرى ، واستجابة الى وجهات نظرها أوفد ضابط بريطاني الى هەلەبجە (حلبجة) لادارة المنطقة • وما أن شاع وعرف أننا لا ننوي إجبار القبائل على الخضوع الى حكم الشيخ محمود إلاّ وأخذ نفوذه يهوى سريعاً ، وفي نهاية شهر نيسان كانت قبائل عديدة وكبيرة قد انفصلت عن سلطانه • إن أتباعه الرئيسيين في هذا الوقت بعينه هم أفراد أسرته المسماة (برزنجة) وشيوخ ساروجيك وكربيجنيا ، تضاف اليهم قبيلة

هماوند ، وفرع ميكائيلي من الجاف • وجعلت الشرطة وقوات الليفي تحت السيطرة المباشرة ، لكن بعض الضباط كانوا قد حلفوا يمين الولاء الى الشيخ محمود لقاء المساعدات التي انهالت عليهم كثيراً •

إن وجود حامية بريطانية عسكرية في السليمانية ، في مثل هذا الوقت، ساعدنا على اجتياز هذا الظرف العسير • لقد كانت الحكومة البريطانية ترفض الموافقة على توسيع تبعاتنا العسكرية كما كان الجنرال مارشل يعارض في إطالة خطوط مواصلاته في هذا الوقت وهي خطوط لا سيطرة عليها •

كانت القطعات تغادر البلاد بأعداد ضخمة شهرياً ، ولم يكن هناك خفض مقابل في الواجبات العسكرية ، وبقي عندنا ٥٠ ألفاً من الأسرى الاتراك ومثلهم من اللاجئين • وكانت هناك مخازن ميرة كبيرة وعسكرية من كل نوع تتطلب التصرّف بها ، ومثل هذا الأمر مستحيل من دون شحنها الى الهند والمملكة المتحدة وكانت عمليات الشحن هذه محدودة ، وتحدّث التجار العائدون من البصرة وبغداد أن الجنود يرحلون يومياً ، وكان يدور بين الناس أننا سنعمد الى إخلاء كردستان مرة أخرى ونترك شأنها لأهلها أو الى أدعياء القوة المتنافسين فيها ، ثم غدا هذا يقيناً •

ولدى عودتي الى بغداد يوم الـ ٩ من ايار وجدت سر ويليم مارشل قد رحل الى بلادنا وحلّ محله جورج ماكمّن ، وهو من بين الجميع أصلح من يتولى القيادة العليا • لقد كان له دور طليعي في خلق الجهاز العسكري الضخم ، وهو ذو معلومات وثيقة بعملائه وصلاته مع (الادارة المدنية) جيدة ، وقد عمل كثيراً في سبيل التنسيق بينهما • كان يعرف شخصياً كل ضابط كبير في الدوائر المدنية ، وكان من قبل سراة القوم معروفاً • لقد استمتع طوال ثلاث سنوات بثقة (وزارة الحرب) وعون (حكومة الهند) معاً • وكنا نفهم بعضنا بعضاً • ولا معدى عن شيء من صدام ، كما لا مندوحة عن بعض الاخطاء ، لكن في وجوده ضمان التنسيق بين فاعليات الدوائر وتقليص الاغلاط الى الحد الأدنى •

قال لي مستر هول الذي كان عني وكيلاً ان الوضع في السليمانية غدا دقيقاً ، وكنت قد رتبت السفر اليها في نهاية أيار جواً لمقابلة الشيخ محمود شخصياً للوصول معه الى حل يجعل في الامكان المحافظة على قوام الاستقلال الكردي . وفي الوقت نفسه زرت لواء الكوت والعمارة والبصرة لمعاودة الاتصال شخصياً بمتقدمي العرب وبالحكام السياسيين . ثم قفلت الى بغداد راجعاً في يوم ٢٠ من أيار جواً . وبعد يومين حاول الشيخ محمود باستماتة إعادة هيبته، ولم يستطع أن يجنّد أكثر من (٣٠٠) أو نحو ذلك من الصفوة المنتقاة من قبائل الاكراد القاطنة على الجانب الفارسي من الحدود ، وما كان لنا عليهم من سلطان .

وما أن تجمّعت هذه القوة عبر الحدود إلاّ وهجمت على المدينة على حين غرّة . وقاتل المجندون (الليفي) قتالاً باسلاً ، لكنهم هزموا وأبيدوا، فغدا الشيخ محمود سيد الموقف وألقى القبض على الضباط البريطانيين . وكان (الرائد كرينهاوس) ينوب عن (سون) الغائب مؤقتاً ، وأودعوا في غيابة السجن . وتم الاستيلاء على الخزانة واعلن الشيخ محمود نفسه حاكم كردستان الاول ، ورفع له علماً خاصاً وأصدر طوابع بريد خاصة به ، وعيّن أتباعه للسيطرة على كل المنطقة . وقطع خط برق كركوك عمداً صبيحة يوم الهجوم على السليمانية ، كما قطع الطريق على السعاة المرسلين من قبل كرينهاوس الى كركوك . وبلغت أخبار هذه الحوادث مسمع الدنيا، بعد يومين عن طريق حلبجه وخانقين .

وطرت حالاً لأشاهد ما يجري فرأيت الضباط البريطانيين الستة على سطح سجنهم الموقت في السليمانية ، ثم عرجت في طيراني الى حلبجة آملاً الهبوط وأخذ (ليز : مساعد الحاكم السياسي) فيها ، لكن شحة البترول جعل ذلك مستحيلاً ، وكل ما استطعت أن أفعله هو رمي رسالة أطلب فيها اليه أن يرحل . لقد كان في هذا الوقت محاصراً من قبل العشائريين

الذين جاؤوا من وراء الحدود الفارسية بإمرة من عيّنه الشيخ محمود وهو حميد بك ، واستطاع في خاتمة المطاف أن ينجو ويصل خانقين سالماً • إن سيدة حلبجة (عديلة خاتون) كانت سبباً في ترتيب أمر هروبه ، وقد جوزيت على ذلك فمنحت اللقب الهندي : خان بهادور •

لقد كانت فترة مشوقة للجميع • إن أقرب القطعات البريطانيةالمسؤولة عن دعم السلطة المدنية ، على ما ورد في الخطاب الرسمي نصاً ، لم تكن في نقاط تحتاج هذه السلطة اليها فيها ، أنها في أماكن كانت السلطةالعسكرية تجد من السهل وضعها فيها أعني : على بعد ٧٠ ميلاً من السليمانية ، أما في كركوك حيث كان ثمة فوج مشاة وبعض العجلات الآلية المسلحة الخفيفة والخيالة • وعلى مسافة ٨٠ ميلاً جنوبي رأس السكة وعلى الجانب البعيد من نهر دجلة عند بيجي (بعيجي) كان ثمة لواء وبعض قطعات الفرقة•وبقصد القيام بزحف عام على السليمانية أوعز الى الآمر في كركوك بأن يرسل مفرزة متقدمة الى جمجمال ، وأعطيت الأوامرا لى اللواء الموجود في بيجي بالحركة الى كركوك بالسرعة الممكنة • ومن سوء الطالع أن الآمر فيكركوك حسب أن الظروف تسمح له بالتقدم الى مسافة أبعد فاجتاز الجبال ببعض قطعاته الراكبة والليفي ورشاشات اللويس المحمولة على سيارات فورد وبلغ بقوته هذه الى (طاسلوجة) التي تبعد عن السليمانية بنحو ١٢ ميلاً ، وحيث كان أسرانا • فأحيط بالقوة من كل مكان واجبرت على الانسحاب والاكراد في أعقابهم بمسافة ٢٥ ميلاً • لقد كانت خسائرها أربع سيارات مسلحة و١٩ سيارة فورد وضحايا فادحة في الأرواح •

أكّد هذا الحادث المؤسف المعتقد العام السائد الآن في كردستان الجنوبية القائل بأننا لسنا بقادرين على السيطرة على زمام الأمور • لذلك انتشرت الثورة عبر الاراضي الفارسية ، كما ثار عدد من العشائر على الحكومة الفارسية معلناً أنه من أنصار الشيخ محمود ومشروعه : كردستان

حرّة موحدة . ولم يكن الشيخ محمود مخطئاً كثيراً حين أعلن الى أتباعه أن قطعاتنا قد رحلت عن كردستان ، ذلك ان الاستنتاج الذي استخلصه من تدابيرنا العسكرية كان خاطئاً . وأدرك (القائد العام) أن من الواجب ازالة الانطباع الناجم القائل بأن البريطانيين عاجزون تواً فصدرت الأوامر الى الجنرال فريزر الذي يقود الفرقة الـ ١٨ في الموصل بالتجمع في كركوك بقوة مؤلفة من لواءي مشاة وخيالة وسيارات مسلحة باسم (قوة كردستان الجنوبية) والتقدم بأسرع وقت ممكن . ولكي نظهر أن قابلية الحركة لدينا ليست بأقل من نظيرتها لدى الأكراد ، أرسلت قوة صغيرة من المشاة والمدفعية الجبلية صُعُداً من قرب خانقين بإمرة المقدم بويد المنسوب الى وحدة (سسكس تويتوريالز) . ووصلت هذه القوة الى السليمانية في الوقت المطلوب بنجاح . وعند منتصف حزيران تجمّعت قوة الجنرال فريزر في جمجمال وكانت على استعداد للبدء بالحركات ، وفي اليوم الـ ١٧ من حزيران والحر على أشده(٩) تقدم الجنرال فريزر نحو الشيخ محمود الذي كان يحتل ممر (دربندي بازيان) في سلسلة قرەداغ على بعد ١٢ ميلاً شرقي جمجمال . انه الممر الوحيد في سلسلة التلال مؤلف من باب صخري علوه ٤٠٠٠ قدماً ، وفيه فتحة على شكل (V) عمقها ١٠٠٠ قدم قد سدّت بجدار من صخر هو الآن خراب . انه ذو فائدة عظيمة باعتباره ستر الصدر (breast work) ومن وسائل التحكيمات ، وقبل عشر سنوات فقط كان شاهداً على كارثة منيت بها قوة تركية اشتبكت في معركة مماثلة .

تقدّم الجنرال فريزر الى مدى تأثير مواضع الستر الكردية وبدأت القطعات بتسلّق المرتفعات في قره داغ قبل طلوع فجر اليوم التالي ووصلت

---

(٩) سارت بعض الوحدات وبضمنها وحدة الكركة ١/٣ من رأس السكة الحديد في (بيجي) على جانب دجلة الايمن عبر (الفتحة) الى كركوك وارهق القطعات الحر وفقدان الماء فسقط أكثر جنود الكركة صرعى . (المؤلف)

الى القمة تقريباً ، وحينذاك فتحت المدافع نيرانها على الممر • وكان الاكراد يأملون هجوماً جبهوياً على النمط التركي على امتداد الطريق العام ، لذا فشلت حركتهم عندما وجدوا أنفسهم مهاجمين من عل وقد أحيط بهم من كل مكان •

وبعد دقائق من الاشتباك القريب غلبوا على أمرهم ، وكان ذلك على يد (البورميين/٨٥) وهو فوج أغلبه من (الكاشين) وهم من جنس مغولي يقطن (اوليماثول) الكائنة في بورما العليا • لقد برهنوا في هذا الاشتباك، وهو أول اشتباك لهم بأنهم ليسوا بأقل شأناً من حيث القدرة العسكرية عن بني جلدتهم : الگرگه • وبانفجار الصبح غدا الممر كله بيدنا ، وجرح الشيخ محمود وأخوه ووقعا بيدنا أسيرين ، وتشتتت قوته فكان عدد القتلى ٤٨ والأسرى حوالي ١٠٠ ، وهو انجاز عظيم مع قوة معتصمة في الجبال •

كان الجنرال فريزر توّاقاً الى ضمان سلامة الأسرى الذين وقعوا بيد حرس الاكراد الفاشلين ، لذلك بادر فأصدر الأوامر الى وحدة (لانسرز/٣٢) بالتقدم مسافة ٣٠ ميلاً نحو السليمانية • لقد كانت هذه الوحدة تفتقد الضباط ويقودها اثنان من الضباط الاعوان الصغار ، إلاّ أنها اندفعت بسرعة فائقة وباغتت المدينة وتغلبت على قوات الحرس قبل أن تصل أنباء الهزيمة في (بازيان) وأطلقت سراح الأسرى بعد أن بقوا في أسرهم ١٠ أسابيع • ثم دخلت القوة الضاربة مدينة السليمانية صبيحة اليوم التالي •

وانقضت الأسابيع الست التالية في معاقبة الزعماء الثائرين ، وشرعت أرتال صغيرة بتمشيط كل جبل • وفي الاسبوع الأول من آب استتب الأمن تماماً ، وانسحب الجنرال فريزر بقواته بعد أن أعاد الى (الادارة المدنية) السيطرة التامة على المنطقة تاركاً حامية موقتة في السليمانية وأسس المقر العام في كركوك • وهكذا انتهت حركة رائعة ، وهي على الرغم من

اتكاساتها الأولى أظهرت أن القطعات الهندية ومنها وحدة البورميين/٨٥ التي لم تشهد حركات فعلية من قبل ، كانت أكثر من ند للأكراد ، وانها على الرغم من التقليص الكبير المستمر في قواتنا العسكرية ، قادرة بقيادة كفوءة على القيام بكل ما يطلب منها القيام به .

وجيء بالشيخ محمود الى بغداد حيث شفي من جراحه سريعاً . ومثل مع صاحبه الشيخ غريب أمام محكمة عرفية عسكرية حسب الأصول وحوكما بسبب الثورة وحكم عليهما بالاعدام . إلاّ أن القائد العام قد أبدل الحكم المذكور الى السجن المؤبد(١٠) ، ذلك لأن الشيخ محمود لم يضايق الأسرى البريطانيين بنفسه ، من جهة ، ومن الجهة الاخرى لأن وضعنا في كردستان الجنوبية وبالنظر الى السياسة (إن صح وصفها بسياسة) التي تتبعها حكومة صاحب الجلالة لا تبرر إلاّ نادراً هذا الذي تطلق عليه الحكومة السوفيتية: الاجراء الأسنى في الدفاع الاجتماعي.

وعلى الرغم من أني كنت عاطفاً على الشعور الذي انبثق منه فعل الرحمة هذا إلاّ أني عارضته رسمياً ، على أساس أن الشيخ محمود ، ما دام حياً ، فان أتباعه في كردستان سيبقون آملين ويبقى أعداؤه مشفقين من عودته في النهاية ، وان موته هو أقوى من أي عامل آخر في عودة الهدوء والسكينة (كذا) .

لقد رأيته في السليمانية ثلاث مرات وشهدته في المستشفى حين أنكر مزهواً أن أية محكمة عسكرية تستطيع أن تحاكمه ، واستظهر لي نقاط الرئيس ويلسون الـ ١٢ والتصريح الانكليزي ــ الفرنسي الصادر في الـ ٨ من تشرين الثاني ١٩١٨ ، وقد كتبت ترجمته الى الكردية على باطن غلاف القرآن الذي شدّ كطلّسم على يده . وعفي عنه بعد سنوات وسمح له

---

(١٠) وبقرار آخر الغي هذا الحكم سنة ١٩٢١ واستبدل بالنفي .
(المؤلف)

بأن يعود من منفاه • لقد بقي مبعث قلق الى حكومتي فارس والعراق منذ ذلك الحين •

لم يلق بيان السر جي• ماكمن ترحاباً سواء في كردستان أم بين صفوف المسؤولين العرب في بغداد • وزعم في الدوائر العسكرية البريطانية أن (ماكمن) قام بذلك منتصحاً بي ، وكان ما رميت به من همز ولمز كثيراً ، شأني شأن السياسيين أيضاً ، وقد رددت ذلك المطاعم العسكرية ونواديها • والتزمت جانب الهدوء والسكينة ولم أعمد الى افشاء مستندات القضية حتى الى القادة الغاضبين • لقد أسدى الجنرال سر جورج ماكمن ، كما أسدى الجنرال مارشل من قبل الى كل فرع من فروع (الادارة المدنية) عوناً لا يثمّن ، لذلك كان من المفيد أن يعرض عن بعض الأشخاص غير المسؤولين للمحافظة على جبهة موحدة مع (القيادة العامة) •

كانت أعباء المنصب الذي كنت شاغله موقتاً في هذا الوقت ثقيلة جداً ، وكنت مسؤولاً بوصفي القنصل العام في فارس عن جعل كل من (وايتهول) وحكومة الهند واقفة على المعلومات المتصلة بأحداث فارس الجنوبية • وكان واجبي باعتباري المقيم السياسي في الخليج العربي الاشراف على السياسة في عمان والامارات العربية في شرقي جزيرة العرب ، وبضمنها إقامة الصلات مع ابن سعود • وبصفتي (المفوض المدني) في بلاد ما بين النهرين كنت مسؤولاً عن ادارة الاراضي المحتلة ، ولكوني الضابط السياسي الرئيس في (القوة) كنت مسؤولاً تجاه وزير صاحب الجلالة في طهران وتجاه القائد العام وذلك بقدر تعلق الأمر بالشؤون السياسية في الاراضي الكائنة بين كرمنشاه الى انزيلي • وأضيفت الى هذه التبعات في حزيران تبعة معالجة القضايا الكردية ، سواء أكانت ضمن الاراضي المحتلة أم خارجها ، ومن منطقة حلب الى جوار ديار بكر وأورفه وتبليس واورمية • وعلى الرغم من كثرة هذه التبعات الشاقة فقد كانت لها فوائد متعددة • كما كان من الضروري

في مثل تلكم الظروف السائدة أن يكون هناك تنسيق ومطابقة من بغداد ضمن كل مكان في هذه المنطقة ◦ لقد كانت حكومة الهند مشغولة جداً في جهات أخرى ، ولم تكن عندها إلاّ رغبة ضعيفة ، إن وجدت رغبة ما ، لممارسة النفوذ والهيمنة على السياسة في هذه المنطقة، وأقل من ذلك السيطرة عليها ◦ وحال دون أن تلعب (وزارة الهند) دورها قرار الحكومة بأن تمتنع عن القيام بأي شيء يومىء الى شروط الانتداب ، وان ممثلي بريطانيا العظمى في الاصقاع المعنية الأخرى ــ فلسطين وسورية وتركية وفارس ــ كانوا مسؤولين بأجمعهم إزاء وزارة الخارجية ووزارة الحرب ◦

كانت إحالة القضايا المستعجلة الى لندن غير ذات جدوى ، فالجهاز الاداري في بريطانيا كان معقّداً الى درجة أن البرقيات لا يجاب عنها في أقل من شهر ، والاجابة في الغالب الأعم مبهمة وغير محددة بدرجة كافية فلا فائدة منها في أن تكون لعمل ما مرشدة ◦ إن المشكلة التي كانت تجبهنا في بلاد ما بين النهرين في هذا الحين بعينه خطيرة ومخيبة شأن أية مشكلة أخرى طرحت نفسها على مندوبي السلام في باريس ◦ إن ردود الفعل السياسية التي تجيء في أعقاب هذا الاجراء أو ذاك ، عند اتخاذ أي منها ، لا تعد ولا تحصى ، وكان من المستحيل النظر بجدّ في شروط الصلح مع تركية ما لم تتم تصفية حسابنا مع المانية مبدأياً وفي جميع الحالات ◦ وكان مستقبل آسية الغربية على كف القدر ، كما أن تركية في هذا الحين كانت مقهورة ◦ لقد حمّلت القوات البريطانية والهندية عبء الحملة بازاء تركية كله ◦ وذلك في تركية والدردنيل وسورية وفارس والعراق ◦ ومع ذلك كله كان حلفاؤنا الطليان واليونان يطالبون بصوت مزمجر لا يقبل الرفض بالتعويضات الاقليمية التي تجعل من تركية دولة لا تزيد مساحتها على مساحة دولة الصرب فيما قبل الحرب إلاّ قليلاً ◦ وكان الفرنسيون يطالبون بتنفيذ اتفاقية سايكس ــ بيكو ، كما كان العرب الممثلون ببطلهم الذي نصب نفسه : الملك حسين ، واثر حصولهم بعون من البريطانيين على الحكم الموقت

في سورية يتحدثون بدولة عربية اتحادية . أما ابن سعود الذي أخذ نجمه يتألق ، فقد كان يتربّص على غرار ما كان (آشير) يتربّص الفرصة ليطالب بحصته من الغنيمة . لقد أفهم الاكراد القاطنون عبر الحدود في تركية من قبل الحلفاء وبوساطة ممثليهم في اصطنبول أنهم سيقررون أيضاً نمط حكومتهم القابلة وأنهم سيحصلون على استقلالهم أيضاً . واقترح أكراد فارس الانضمام الى الدولة الكردية الجديدة . ووجد كل من اسماعيل آغا (سمكو) والسيد طه وغيرهم من القادة فرصتهم المرتقبة وأخذوا يرقبون التطورات بشوق ولهفة .

وبقدر تعلّق الأمر بالعراق ، فالمعلومات المتعلقة بالقضية كانت معروفة عند حكومة صاحب الجلالة من خلال التقارير الضخمة (والمتناقضة في بعض الأحيان) المرسلة اليها من قبلي باعتباري ممثلاً لها في بغداد . ولانعدام الدقة في هذه الوقائع في الغالب فان تقديرها ليس بيسير ، لذلك خاصم ما عرضناه أولئك الذين نصّبوا أنفسهم في سورية أبطالاً بكل قوة ، إن لم نقل باعتقاد راسخ . على أن أحداً منهم لم تكن لديه معرفة وثيقة بالعراق لا قبل الحرب ولا بعدها .

ليس من شأني في هذا الكتاب أن أحاول وصف النقاش الذي دار بشأن مستقبل الانبراطورية التركية ، بقدر تعلق الأمر بارمينية والأقسام الكردية الواقعة عبر حدود ولاية الموصل . وبالنظر لتأخر البريد كانت المخابرات كلها برقياً ، وكان الرجوع الدائب الى المعتمد السامي في اصطنبول أمراً ضرورياً ، شأنه شأن مراجعة اللورد اللنبي في مصر ، وقد سبق أن ذكرنا أن ضباطه الموجودين في دمشق وحلب وما وراءهما ، كانوا يأخذون بأطراف سياسة لا تتفق وسياسة حكومة صاحب الجلالة . وكانت هناك مفاوضات مع الفرنسيين أيضاً ، وهم الذين وجب أخذ وجهة نظرهم ومصالحهم بنظر الاعتبار مع الممثل البريطاني في تفليس . وكان من

الضروري أن يحاط الوزير البريطاني في طهران بالأمر علماً ، فالحكومة الفارسية كانت تشفق من عقبى سياسة الاستقلال الكردي وأثرها في القبائل الكردية في فارس ، وما كان ذلك غير طبيعي ٠

إن تبعتي الشخصية سواء بالنسبة الى اسداء النصح الى الحكومة وبالنسبة الى العمل الاجرائي عندما لا تكون هناك سياسة محدّدة كانت جدّ ثقيلة ، ومن طبائع الأشياء أن اسهام الغير بها كان أمراً متعذراً(١١) ٠ وما كانت التبعات الواقعة على الحكام السياسيين بأعنف منها ثقلاً ، لقد كانت دماؤهم على راحات أيديهم حيناً من الدهر ٠ إن مرد الفصل الرئيس اليهم إذا استطعنا أن نخرج من تلك الفوضى المادية والعقلية خلال أيام العسرة ، ومن دون أن يلحق اعتبارنا شيء ٠

ونجم مبدآن اثنان من حمأة المخابرات : علينا أن نحبط بكل وسيلة في يدنا أية محاولة يقوم بها الاكراد في فارس تنصبّ على الانفصال عن الحكومة الفارسية ، وعلينا أيضاً أن نترك الاكراد خارج حدود ولاية الموصل السابقة لشأنهم والى الحكومة التركية ٠ والمبدأ الاول كان منذ طالعة أمره جلياً بنفسه ، إذ أنه يعتدّ بمعاهداتنا مع فارس ويتصل بها ٠ أما الثاني فلقد تراءى واضحاً لمن كان في هذه البلاد ، لكنه لم يحظ بالقبول الرسمي في انكلترة حتى خيبة الحلفاء في الحصول على موافقة تركية على مسودة معاهدة سيفر التي انطوت على اعتراف رسمي بدولة كردستان المستقلة ٠ أما مستقبل الشعب الأرمني فكان يرتكن الى قبول الولايات المتحدة بالانتداب على ارمينية ٠ فإن رفضت ذلك ، بترك مصير الأرمن الى

---

(١١) رجوت وزارة الحرب في اليوم الـ ١٩ من تموز النظر في أمر ايفاد ضابط مجرب ذي مقام مرموق لزيارة العراق واسداء النصح إليّ والى حكومة صاحب الجلالة ٠ وأضفت : لو كان في الامكان ايفاد سر ولتر لورنس فأهلا به وسهلا ٠ (المؤلف)

تركية ، وطبيعة هذا المصير المحتملة ليست بخافية على أحد .

إن إعادة النظام الى سابق حاله في السليمانية ممكن وذلك بالالحاح على حكومة صاحب الجلالة للقيام بمد خط بعقوبة ــ خانقين الى كفري وكركوك(١٢) وذلك باعتباره أفضل وسيلة لاستتباب السلام في كردستان الجنوبية ، وتقريبها من بغداد . وأبرقت وزارة الهند يوم الـ ٢٤ من آب بما يأتي :

السكة الحديد المقترح مدها من قزلرباط الى كفري وكركوك : مهما كانت الفائدة القصوى من مدّ هذا الخط ، يوصى بانشائه فوراً ،وعلى أسس سوقية صرفة وضرورية للمحافظة على كردستان الجنوبية واشاعة السلم فيها . وبصرف النظر عن المصاعب المالية ، وهي حادة للغاية ، ترى حكومة صاحب الجلالة أن من الضروري دراسة السياسة التي تنطوي على حجج سوقية دراسة شاملة وذلك قبل المصادقة على مد هذا الخط . إن مستقبل كردستان أمر لم يحسم بعد ، ولكن ليعدّ يقيناً أنه على كل حال لن تكون تبعة حكومة صاحب الجلالة في هذه الأصقاع مجاوزة حد الاشراف السياسي المهين ، وأن لا يكون هناك شيء من الادارة البريطانية المباشرة(١٣) وفي هذه الظروف ترفض حكومة صاحب الجلالة رفضاً باتاً ما من شأنه أن يعتبر خطوة أولى نحو احتلال عسكري فعّال . لقد قامت حتى هذا الحين بدعم سياسة مدّ النفوذ البريطاني الى كردستان الجنوبية لأنها تعتقد أن السكان أنفسهم يرحبون بها ، وعلى هذا الأساس صادقت على مقترحاتكم الواردة في برقيتكم المؤرخة بتأريخ التاسع من ايار والقاضي بخلق دول كردية مستقلة تحت قادة أكراد يتراءى الآن أن هذا كان في غير محله ، وان

---

(١٢) أكمل مد الخط في سنة ١٩٢٥ . (المؤلف)

(١٣) وضع الخط تحت العبارة من قبلي . (المؤلف)
وفي الاصل كتابتها بحروف مائلة ، ولعدم تيسرها في العربية وضعنا تحتها خط . (المترجم)

السكان لا يرحبون بالنفوذ البريطاني وانهم أعداء ناشطون ، بحيث يتطلب الأمر مدّ سكك حديد سوقية لتقييدهم . أليس من الأفضل في مثل هذه الظروف سحب حكامنا السياسيين...الخ ، وترك الاكراد وشأنهم ؟ ان كل نهج بديل للمحافظة على الأمن والنظام بين القبائل الكردية الثائرة بواسطة السلاح يفتح الباب الى اتخاذ تدابير عسكرية لا ترى حكومة صاحب الجلالة مبرراً لها . إن آخر ما ترغب فيه هو خلق مشكلة حدود شمالية غربية جديدة على التخوم العراقية التي يكتنفها شك كبير .

وأجبت بما يأتي :

« ان الوضع الراهن يتطلب إعادة النظام الى ما كان عليه من قبل السلطات العسكرية في غضون شهر واحد ، وان (الادارة المدنية) السوية قد تأسست في غضون ثلاثة أشهر من تأريخ ثورة الشيخ محمود ، وهو الذي لم يستطع في يوم من الأيام أن يحشد أكثر من ٣٠٠ رجل من آلاف مؤلفة من الأكراد لدليل على أن النظام الحالي يلاقي ترحيباً من غالبية السكان . إننا نحكم كردستان الجنوبية بالرضى لا بالقوة ، ولكن ليس من حكومة تستطيع في هذا اليوم أن تحكم من دون قوة تسندها . ان الفكرة التي تنطوي عليها نقاط ويلسون الـ ١٤ والتي أقرها التصريح الانكليزي ــ الفرنسي الصادر في ٨ تشرين الثاني القائلة بالأخذ بالجنسية والدين والرس كقاعدة للحكم في الشرق الاوسط بدلاً عن القدرة على الحكم والمقدرة على إثارة الحزازات المتوارثة منذ مئات السنين ، جاءت بعد الحرب ، ولقد فسّرت من قبل كل شعب وكل طائفة تفسيرات شتى طبقاً لجبلاتها الرسّية . إن رد الفعل اليوم ملحوظ ، وأول بوادره الانشقاق الحاد في صفوف الاحزاب السياسية الموجودة في فلسطين وسورية وعلى الجانب العربي . أما في السليمانية فقد حلّ الجزر محل المدّ . فإثر عهد قصير من الفوضى الوطنية (كذا) لم تعد للقوم رغبة فيه ، وان واجب تنظيم (ادارة مدنية) على أسس كردية فيها موظفون أكراد تحت الاشراف

البريطاني أمر يسير سيراً مرضياً • إن طلب الناس الملحّ ينصب على اشراف بريطاني ، إلاّ أن عدم وجود الضباط يحول دون ذلك ، لذا يجب أن تعاني البلاد والشعب من جراء هذا • وحتى في هذه السنة ، تزيد الواردات المخمّنة على المصروف في اللواء بـ ٢٠٠٠٠ جنيه ، وستكون هذه أكثر بكثير في السنة القادمة •

إن هذه الحقيقة وحدها هي فيصل الاختلاف بين لواء السليمانية وبين أية منطقة حدود اعتيادية وسائر كردستان • لقد كان الاتراك يعتبرون هذا اللواء جزءاً من بلاد ما بين النهرين وليس في كردستان •

إن الاضطراب شائع في كل مكان ، ولكنني واثق من أننا إن صمدنا سنة أو سنتين وسلكنا سبيلاً قاصداً ودائباً على النهج المتبع اليوم لوصلنا شاطىء الأمان •

لقد عدّت ثورة الشيخ محمود اختباراً في بلاد ما بين النهرين الشمالية وذلك بقدر تعلّق الأمر بقدرتنا على المحافظة على النظام ونشر العدل ، وفي وجه معتقد شائع محصله : ان جميع قطعاتنا قد رحلت •

ان السكك الحديد والطرق عوامل مدنية قوية واني أنظر الى وجهتها هذه لا الى قيمتها السوقية عندما أتطلّع الى العواقب المنتظرة في كردستان الجنوبية •

لقد انسحبنا من راوندوز الآن ومهما كان القرار الأخير الذي يتخذ بشأنها فإننا لن نستطيع مغادرة السليمانية وتركها وشأنها • لأن ذلك سيترك للعناصر الفوضوية القدرة على السيطرة وسنحتاج الى قوة كبيرة في كركوك وكفري وأربيل أكثر مما عندنا الآن في السليمانية أو قربها •

إن الوقائع الأخيرة لم تبدّل من معتقدي هذا ، وبقدر تعلّق الأمر بضرورة تنفيذ سياسة صادقت عليها حكومة صاحب الجلالة في اليوم التاسع من أيار التي لأتنصب على إقامة حكومات كردية مستقلة تحت الاشراف البريطاني بقدر الحاجة الداعية اليه ، مرتكناً الى الاعتبارات السوقية •

يجب أن يكون الاشراف أوثق في لواء السليمانية بسبب من موقعها الجغرافي والسوقي وبسبب من غناء الأرضين فيها ، ورغبة الأهلين في ضمان حق تملك الارض ، وهو في أغلب الاحوال بيد أفراد مالكين • إن قدرة هذه الارض على الانتاج عظيمة ، ذلك ان الصقع هو مركز صناعة التبغ وغني بمنتوجات المراعي والغابات •

إن الحدود مع فارس على وجه حسن(١٤)• وفي ظل العهد الجديد في فارس هناك أمل وردي في أن الحكومة الفارسية ستستطيع المحافظة على النظام على جانبها من الحدود إن قمنا بذلك على جانبنا أيضاً ، وسواء أكانت هذه الحال أو لم تكن ، فليس من المحتمل أن تكوّن العشائر الفارسية القاطنة على الحدود خطراً على السليمانية ، في حين لو ترك أهل لواء السليمانية الى رحمة حاكميهم لغدو خطراً دائماً على كفري وكركوك ولخلقوا مشكلة حدود تتطلب قطعات أكثر مما هناك اليوم •

ستنجم مشكلة حدود لو تركت كردستان وشأنها• إن السكك الحديد والطرق تمكّن السكان من التوجه بأيديهم الى النهوض ببلادهم • لقد شهدنا ذلك يحدث في خلال السنوات الأربع الأخيرة في الفرات •

---

(١٤) من الممتع أن نذكر ان الحدود بين فارس والانبراطورية العثمانية كانت قد حددتها لجنة خاصة كان أحد أعضائها مؤلف الكتاب نفسه، وتمثلها جبال (زاغروس) الممتدة من آرارات شمالا حتى عربستان ـ خوزستان جنوباً ، واذا استثنينا المنطقة الاخيرة فسكان الحدود كلهم من الاكراد• ومن المعلوم ان الحدود بين الدول إما أن تكون جغرافية أو لاعتبارات قومية أو دينية أو غيرها • ولقد طبقت اللجنة المشار اليها جميع هذه العوامل جاعلة العامل الجغرافي في المقدمة ، كما انها فصلت الاتراك عن الفرس بالاكراد • ولا شك أن المؤلف اكتسب خبرة كبيرة في هذا الموضوع باشتغاله في اللجنة المذكورة وهكذا كان المستعبدون البريطانيون يعدّون رجالهم للحكم • (المترجم)

وبصدد وضع السكة الحديد : لقد اعترف كل خبير بشؤون السكك الحديد تقريباً بأن هذا هو الخط الوحيد النافع ، وان التحريات الشاملة التي جرت خلال السنتين الأخيرتين أيدت هذا الرأي • إني أعتبر الفوائد الاقتصادية أعظم من نظيراتها العسكرية • انه يمر خلال أرضين رئيسة تنتج الحنطة في بلاد ما بين النهرين ، ويشق مناطق وغابات رعوية • ومن المحتمل وجود ثروة معدنية يجب أن يحسب لها حسابها •

وبصدد راوندوز ••• إننا نقوم فيها بتجارب تنصبّ على ترك الأكراد وشأنهم ••• ان النتائج الأولى ليست مشجعة ، سواء بالنسبة الينا أم بالنسبة الى الأكراد • اننا نعتقد أن الاضطرابات في راوندوز وكردستان الوسطى ناجمة كلها من الدعاية التركية تقريباً ومن الشائعات المبالغ فيها والدائرة حول السيطرة الأرمنية (لا البريطانية) •

ولم تحظ هذه الآراء طوال أشهر بالقبول من لدن لندن ، حيث كان الرأي الملتزم به بقوة فيها يقضي بأن حدود الدولة العربية القابلة يجب أن ترتكن الى الرّس بقدر الامكان ، وليس الى التخوم الجغرافية والعوامل الاقتصادية • وإثر مخابرات متعددة أخرى عدت الى القضية في بواكير كانون الثاني سنة ١٩٢٠ ، وعلى ما جاء في البرقية الآتية :

انني لمتردد كثيراً في الاصرار على آرائي بصدد تعيين حدود بلاد ما بين النهرين الشمالية ، وبشأن وضع المناطق التي يسكنها غير العرب • وأني لا أحمل على هذا بسبب من أهمية الموضوع الكبيرة حسب وانما بسبب من قوة اعتقادي أيضاً •

أولاً : وبقدر تعلّق الأمر فيما بين حكومة صاحب الجلالة وبين مؤتمر الصلح أعرض : أننا لو قبلنا الانتداب على بلاد ما بين النهرين وجب علينا أن لا نلتزم بنظام خاص لمناطق معينة كلواءي أربيل والسليمانية • ان شكل الحكومة التي تقام في هذه المناطق هو من شؤون السياسة الداخلية تنظر فيها بالتالي الدولة المنتدبة في ضوء التجربة •

ثانياً : وبقدر تعلق الأمر فيما بيننا وبين تركية أو مؤتمر الصلح، أعرض أن الحد المقترح في برقيتي المؤرخة بتأريخ الـ ١٤ من حزيران ، التي جرى تكييفها ببرقيتي المؤرخة بتأريخ الـ ١٥ من كانون الثاني ، هو أصلح ما يكون (أنه الحد الحق الذي أقرّ نهائياً من قبل عصبة الأمم) • ان هذا الخط يجعل الطريق المؤدي الى شمالي – غربي فارس على ممر (كاليش) بيدنا ، ويضع كلاً من راوندوز وعقرة ودهوك وزاخو ضمن حدودنا • ولو وقعت هذه الأمكنة بيد غيرنا لغدت مصدر خطر دائم علينا • ان حقيقة وجودها ضمن حدودنا لا يجبرنا لا في المستقبل ولا في الحاضر على إبقاء قطعات فيها • أني لعلى يقين من أنه لن يمر وقت طويل إلاّ ونستطيع الاستغناء عن القطعات المرابطة في عقرة حالياً • ولن تكون لدينا قطعات في راوندوز، وسنجبي الضرائب فيها ونجعل الأمن وطيداً بوساطة وكالة أهلية • لن تكون هناك حاجة الى ادارة (الأرض المحايدة) الكائنة شمالي راوندوز أو الى حمل تبعة أخرى بشأنها ، ولعلها تسقط في أيدي القبائل تحت حكومة أخرى • يتفق الحاكم السياسي في الموصل والحاكم السياسي في أربيل على أن من الأفضل كثيراً أن تكون الحدود شمالي الخط الذي نلتزم به حقاً • لقد قبل الحد الموصوف آنفاً من الوجهة العسكرية ومن قبل سر جورج مكمن وبتأييد القائد العام الحالي أيضاً •

ثالثاً : اني لأصر على أن من الأسلم ترك السليمانية باعتبارها أحد ألوية بلاد ما بين النهرين على ما هي عليه الآن ، والسماح للسلطة المدنية الرئيسة بأن تخول (اللواء) سلطات على ما تقتضيه الحال ودستوراً محلياً •

رابعاً : وبصدد أربيل •••• في اجتماع خطر عقده الوجهاء في الشهر الماضي أوضحوا أنهم تواقون الى الانضمام الى سائر أشطار ما بين النهرين • أني أعتبر أي حل آخر غير عملي تماماً • واني لن أجد أية صعوبة في الحصول على ما يدل على الارادة العامة بشأن هذه القضية ، لكن الوجهاء قد أبانوا

آراءهم بشكل لا لبس فيه ولا غموض سنة ١٩١٩ ، وخلال الأشهر القليلة المنصرمة •

وفي نحو هذا الوقت تسلّمت كتاباً من (سون) الذي بيده زمام الأمر في السليمانية ، وما زالت الفقرات الآتية منه ممتعة مهمة لأنها تكشف عن أحاسيس اداري خبير في مثل ذلك الحين،• أفصح بها عن معتقده القائل بأنه ما دام الأمن في العراق مستتباً ، ففي الامكان المحافظة على النظام في كردستان الجنوبية من دون اللجوء الى القوة العسكرية ، شريطة أن تبنى طرق سيارات أكثر • وتابع حديثه قائلاً : « وبالنظر الى الرأي السياسي الشائع في بغداد أرى أن النجاح الذي أصابه البلاشفة حديثاً ، وتأخر عقد الصلح مع تركية يحملانا على عدم اغفال ما ينطوي عليه الوضع الخارجي• لا ريب في أن التأخير الطويل في عقد الصلح مع تركية هو عقبة ادارية تشغل بال أبرز الناس في كردستان الجنوبية • يضاف الى ذلك كله : أن اسم الشيوعية وفحواها ومحتواها أصبح معروفاً (بوساطة صحيفة كركوك بالدرجة الرئيسة) ووأسفا • وليست هذه هي الأسباب الوحيدة لأن نضرب أخماساً بأسداس أن اسمي أنور باشا وحسين كامل باشا(١٥) (كذا)معروفان جيداً ، وأن كثيراً من الرجال المسؤولين ليرون أنه ، وإن وقع عقد الصلح مع تركية وأطلقت القيود السياسية فان قوة كافية ستكون بيد هذين القائدين تمكنهما من إقامة حكومة اسلامية مستقلة عن مؤتمر الصلح وعن حكومة تركية •

إن من أصعب واجبات الادارة ، على ما تعلمون هي مكافحة الدعاية• ان الطبيعة البشرية على استعداد كبير لتصديق الجانب الآخر الأسوأ على الرغم من وجود الفوائد الظاهرة ، وأن تعزو الاجراءات السخية النافعة الى أشد الدوافع شؤماً ••• فإن استطعنا أن نمضي سنتين من دون اضطراب

---

(١٥) لعله يريد مصطفى كمال باشا (اتاتورك) • (المترجم)

وقلاقل يصبح في مقدورنا اهمال الدعاية التركية التي يروجها الرؤساء وروحانيي القرى ، ذلك لأن الفلاح يكون في مثل هذا الوقت قد حصل على كيان مستقل عن رئيسه وعن الاسلام (كذا) ولن يرغب إلا في ديمومة استقلاله وسعادته ، حسب » •

وجرت مخابرات كثيرة حتى تقرر نهائياً أن تكون كردستان الجنوبية ضمن حدود ولاية الموصل من العراق • بقي أن يتجلّى فيما إذا كان هذا القرار في صالح الأكراد والعراق أم لا ؟ إن تقرير (لجنة عصبة الأمم) يلقي ضوءاً قوياً على الموضوع • انها (اللجنة) التي عهد اليها أمر الحدود بين تركية والعراق •

إن صلات الأكراد بمواطنيهم العرب ، تشبه ، في بعض وجوهها، صلات الويلزيين بالانكليز خلال القرن السابع عشر • ولنتذكر في هذا الخصوص، أن قانون التوحيد (١٦٦٢ • ١٣–١٤ جارلز الثاني) نصّ على وجوب ترجمة كتاب الصلاة العامة على أصدق وجه وأدقه الى اللسان الانكليزي والويلزي • فإن أمكن حمل الحكومة العربية على تحقيق رغبة الأكراد والآشوريين في استعمال لسانهم وحكمهم من قبل موظفين من بني جلدتهم وطبقاً لعاداتهم وأعرافهم ، تراءى بصيص أمل في أن اتحاد كردستان الجنوبية مع العراق أمر منجز ، وبكثير من الضنى على ما بيّنا ، وليس بالأمر العابر على ما يظهر في يوم الناس هذا •

ليست التأملات الآن ، وفي هذه المرحلة من مراحل حديثنا بملائمة • لقد حسمت قضية مستقبل الشرق الاوسط في معركة كردستان في المجالس الاستشارية الاوربية • إن غرماءنا الاتراك رجال أجرياء وطنيون على وفق ما يعتقدون ، وان صدورهم لتضطرم بنيران الكره المتخلّف عبر قرون، مضافاً اليه شقاء اليوم • لقد كانوا مسلحين بسلاح أمضى من سلاح القلم ولقد غرسوا في وديان كردستان الضاحكة أسنان التنين فحصدوا ما زرعوا قبل ختام العام •

وأخذت المؤامرات التي يحوكها ــ من دون هوادة ــ الموظفون الاتراك في حزيران سنة ١٩١٩ تثير عبر الحدود الوقتية ، القلاقل في كردستان الجنوبية ، وتؤثر في السكان الاكراد القاطنين ضمن حدود منطقتنا الكائنة على تخوم ولاية الموصل الشمالية والشمالية الشرقية •

وبناءً على السياسة العامة المصادق عليها من قبل (الحكومة) والقاضية بالمحافظة على احتلال عسكري للولاية كلها ، ما دمنا على حال نستطيع فيها تأمين ذلك ، قام قائد الفرقة الـ ١٨ ، من دون مراجعة المقر العام ، بوضع حاميات في زاخو ودهوك ، ودفع مفرزة صغيرة الى مسافة ٤ أميال من العمادية • وفي آذار ، راجعت قبيلة (كويان) ، القاطنة قريباً جداً من خط الهدنة ، (النقيب بيرسن) مساعد الحاكم السياسي في (زاخو) راجية منهم أن يزورهم ، وبالنظر الى أنهم مسجلون في قائمة القبائل الموجودة ضمن منطقة نفوذ الاحتلال العسكري • ولعل هذه القبيلة التي كان علينا التعامل معها أشدّ القبائل توحشاً (كذا) ، كما كان الوادي الذي كانت القبيلة تحلّ فيه عسير البلوغ ، وعلى وجه أخص من الجنوب ومن الجانب التركي •

ومهما يكن من أمر ، فلقد كان بيرسون في مقتبل العمر ، شجاعاً ، مخلصاً لواجبه ، وكان لغوياً لا يشق له غبار ، وقد أظهر مهارة كبيرة في المفاوضات السابقة التي جرت مع الأكراد والقبائل الأخرى • ان تطمينهم بصدد نوايانا ، وحملهم على الامتناع عن سلب جيرانهم لقاء تجهيزهم بالحبوب ، يؤلفان خطوة مهمة في سبيل إحلال السلام في المنطقة كلها • وكان أن قبل الدعوة ، وصحبه مراسل كردي ، وقلة من الكويان واتخذ السبيل لمقابلة رؤساء الكويان في موطنهم • وقبل أن يبلغ مكان اللقاء خرج له كمين وأجهز عليه • وتناهى إليّ الخبر وأنا في باريس • وهذه أول بادرة تدل على أن الأمور لا تسير على الحدود سيراً حسناً ، وان عدم اتخاذ اجراء تأديبي من قبل السلطات العسكرية يومذاك كان شيئاً واقعياً ولبضعة

أشهر قابلة . إذ لم تكن الممرات قد سدّت بالثلوج حسب ، بل كانت الفرقة الثامنة تشكو من قلة بغال النقل فيها ، ولما كان التسريح قد بدأ فانها كانت تجد أن من العسير المحافظة على مفارزها المتعددة على مستوى القوة المطلوبة .

إن مقتل النقيب بيرسون ليظهر الأخطار التي تكتنف محاولة الحكام السياسيين التعامل مع القبائل الكردية القاطنة جنوبي خط الهدنة ، من دون أن يكون لديهم اسناد عسكري فيه كفاية . ولم يتّعظ بالدرس ، وبدلاً منه صرف النظر عن القضية باعتبارها حادثة وقعت في معزل ولا أهمية سياسية لها .

وبعد شهرين أنفذ العقيد لجمن ، من دون مراجعتي ، النقيب وايلي بوصفه حاكماً سياسياً في العمادية ، مرسلاً معه النقيب مكدونلد وتروب لإسداء العون في تشكيل درك محلي وتجهيزه . إن ذلك أسرع مما كنت أرغب فيه ، وبالنظر للوضع الدقيق في الاقسام الاخرى من كردستان فقد كنت أفضّل أن أرى مفرزة في السليمانية أولاً . ومهما كانت الحال ، فلن ينجم عن الانسحاب وقد تم إلاّ الضرر . واكتفيت بأن أؤكد وجوب الالتزام بسياسة الحذر والحيطة . وشرع وايلي ، وهو من كان معنا منذ سنة ١٩١٥ واكتسب خبرة عملية عظيمة في (علي الغربي) و(بدرة) و(مندلي) و(قصر شيرين) . لقد منح الأكراد والنصارى ، على حد سواء ، سلفات مالية جوهرية لشراء الحبوب وحيوانات لجرّ الأفدنة ، كما أنه شكل قوة درك من الجانبين ، وسعى الى إعادة الأمن والثقة الى ما كانت عليه .

لا جرَم أنه كان بالغاً النجح لو لم يقرر (القائد العام) في أيار سحب المفرزة الى موضع يوصل اليه على وجه أيسر . لقد خالفت هذا القرار حين قررت احتلال وادي العمادية في كانون الثاني . لم أكن مرتاحاً الى ارسال حاكم سياسي الى المدينة بدون أن تسنده قطعات عسكرية . إن القرار المفاجيء بسحب المفرزة المتخذ بدون حساب العواقب المحتملة بالنسبة الى

الوضع العشائري أقلقني كثيراً فطلبت إيقافه بشدة . ولما لم يحدث ذلك لأسباب عسكرية ألححت على سحب الحكام السياسيين . لقد كان كل من لچمن ووايلي على يقين من أن ذلك لن تعقبه نتائج شؤم وعارضا مقترحي بشدة . وسمحت لنفسي بأن أحمل على ذلك وقبلت التبعة بازاء وزير الخارجية الناجمة عن ابقائهم في العمادية .

كان وايلي مؤمناً ، وذا قلب أسد ، شأنه في ذلك شأن لچمن ، ولم يكن ليسمح لنقل القطعات بأن يؤثر الى أقل حد في الوقوف في سبيله . وكانت العمادية مسرحاً للثأر القائم بين مواطنين اثنين متقدمين ، وكل منهما يدعمه أتباعه . وقام وايلي بتجريد سلاح الطرفين ، وتسلّم منهما ضمانات نقدية لحفظ حسن السلوك في قابل الأيام . ووجد الرؤساء البلديون المعروفون بالأغوات ، وهم فزعون ، أننا ، على غرار سياستنا المقرّرة المطبقة في الأقسام الاخرى من الاراضي المحتلة ، نمنح سلفات الحبوب الى المزارعين مباشرة . ان الدرك جرى تشكيله من السكان وبإمرة ضباط أكراد أكفاء على حظ من التعليم جيء بهم من مناطق أخرى . لقد وجد الرؤساء أن امتيازاتهم التي أساءوا التصرف بها مهددة ، وأدركوا أنه لن يمر وقت طويل إلاّ وينجو المزارعون من وضع ليس بينه وبين العبودية من فارق ، ويتعلموا التطلّع الى الحكومة لا اليهم . لقد التهبت أدمغتهم بالدعايات التي يروجها الاتراك في الخارج القائلة بأن النصارى سيعلون على الأكراد علواً كبيراً . لقد عاش الكردي سواء أكان من المزارعين أو من الرحال منذ قرون لا تعد ولا تحصى في وديان قاصية ، وهو ذو روح قوية غريبة ، لكنه يجلس في الظلام ويطبق عليه الشقاء . ان زعماء الاكراد يرون في الحكومة مرادفاً للطغيان ، ويحسبون القانون ظلماً ، والنظام قيداً . وان الذي يجدون فيه لذاذة هو ما يضادّ الحرية الطاغية . انهم يرون في طرائق حكمنا مؤامرة عميقة تضع على عواتقهم عبء طغيان خارجي يناهض أعرافهم ودينهم ، وهي في الأزمنة الاعتيادية لا تعني بنظرهم كثيراً .

واختلى الأغوات يتشاورون ، لقد عميت منهم القلوب فلم يستبينوا أفضل من العنف نهجاً • وفي ليلة الـ ١٤ من تموز دخلوا المدينة وتسوروا جدران بيت الحاكم السياسي العالية ، وشقوا طريقهم الى غرفة ليقتلوا كلاً من ويلي ومكدونلد وتروب • وجاد المجندون الأحراس بأرواحهم ثمناً لولائهم • إذ أصيب كل واحد منهم وخرّ صريعاً •

لقد تمكنت الفرقة الـ ١٨ اثر هذا الحادث أن تحبط محاولة احتلال العمادية بالقوة • وسرعان ما ظهر أن عديداً من القبائل في الأمر يضلع • وتحشّد لواء بإمرة الجنرال نايتنكل المنسوب الى الفرقة الـ ١٨ في(سويرة) وهي من مواقع الستر التي تبعد عن العمادية مسافة ٢٥ ميلاً ، واليها انسحبت القطعات قبل ثلاثة أشهر • وأرسل لواء آخر بإمرة الجنرال وولدرج الى زاخو • وتولى قيادة الحركات الجنرال كاسلس وأوعز اليه من قبل سر جورج ماكمن بعد قليل بأن يمشط الارضين كلها على أتم وجه ، باعتبار ذلك السبيل الوحيد لمعاقبة القتلة واستعادة هيبتنا وسلطتنا • وتطلّب جمع القوة اسبوعين ، ذلك ان الأمر كان يتطلب سحب قسم منها من بغداد ، وأصبحت القطعات مستعدة في نهاية تموز • وفي اليوم الاول من آب أحاط الجنرال نايتنكيل بقرية (برنورني) واستولى على عدد كبير من البندقيات وألقي القبض على بعض متقدمي الجانحين الى الشر والفساد (كذا) ، وأعقب ذلك القيام بحركات تأديب في الوديان المجاورة كلها، استعر خلالها قتال مرير بلغت الخسائر فيه قدراً كبيراً بالنسبة الى الاكراد• وحوكم العديد من متقدمي الأغوات ممن عرفوا بعلاقتهم الوثيقة بمقتل الحكام السياسيين ، وأعدموا • ثم أن الرتل اخترق هضبة (سر عمادية) التي يبلغ ارتفاعها نحو ٨٠٠٠ قدم عن مستوى البحر للوصول الى القرى والأصقاع الواقعة ورائها ، حيث أنزل العقاب على قبائل (برواري) التي كانت المحرّك الرئيس للثورة •

وعلى حين كانت هذه الحركات تجري والتي لم تخلُ من انكسار، هاجم جمع من القبائل الأبعد موطناً ومن غربي نهر الخابور (سويره) وكان ذلك قبيل انبلاج الفجر ، وتم الاستيلاء على مرتفع يشرف على المعسكر، لكن قطعاتنا التي بوغتت في معسكرها تصرّفت تصرفاً رائعاً على الرغم مما منيت به من خسائر وتمكنت من استعادة المرتفع وطرد العدو ، وقد دلت تجهيزاته التركية الوفيرة ، من بندقيات وعتاد ، على أن التي حفزته على ما فعل هي السلطات التركية عبر الحدود •

وبدأت الصفحة الثانية للحركات يوم الـ ١٨ من آب ، حين تقدّم الجنرال وولدرج نحو (قبيلة كلي) التي قادت الهجوم على (سويرة)، بينما تقدم الجنرال نايتنكيل في الوديان التي هي أقل سهولة ووصول والواقعة خلف (سر عمادية) • والارضون في بعض أقسامها كثيفة الاشجار وجبلية وعرة على غرار بعض أقسام حدود الهند الشمالية ــ الغربية • كانت حرباً خبرها الجيش في الهند طويلاً ، لكنها جديدة تماماً بالنسبة لمعظم القطعات التي اشتركت فيها • لقد كانت تتطلب جهوداً فردية كبيرة وفاعليات عظيمة بالنسبة الى السرايا والفصائل • كانت الحركة الاولى نحو (قرية برنونة) وهي قرية محاطة بسلسلة تلال منحدرة تغطيها جموع غفيرة من الاكراد وترتكن الى حصن طبيعي مجاور • وكان على قطعاتنا أن تخترق مسالك متعددة الواحدة تلو الأخرى أكثرها صالحة للدفاع من قبل الرماة الماهرين• وثبت أنه لا يمكن التعامل مع القبائل على الشكل المناسب من دون اسناد آخر ، وقد تم ذلك بعد أسابيع قليلة • واندفعت قوة الجنرال نايتنكيل من (سر عمادية) لتنضم الى لواء الجنرال وولدرج • وارسل من بغداد فوج آثوري آخر من الجبليين النصارى بإمرة ضباط من البريطانيين والآثوريين• لقد برهنوا على صدق ما كتب الجنرال ماكمن نصاً « انهم مضاف ثمين جداً بالنسبة الى قواتنا ، وانهم ند للأكراد في أساليبهم التعبوية الخاصة » • وأمضيت الأسابيع القليلة التالية في اجراء حركات تأديب في جميع الوديان

التي تقطنها القبائل المعادية ، وكان أن خضعت باستثناء قلة منها في الـ ١٥ من أيلول .

وتطلّب وصول الجنرال وولدرج غربي الخابور الى مدة أطول من هذا . وأوشك أن ينسحب عند منتصف أيلول وهو يحسب أن واجبه قد تم ، حين ظهر جمع كبير من قبيلة الكويان الى جواره وقام بسلسلة من الهجمات الجريئة . وسرعان ما ظهر أن الأمر يتطلّب ، في الأقل ، إجراء حركات تأديبية في الوديان التي يسكنونها ، تحول دون معاودتهم إثارة المتاعب . ويعود الفضل في ذلك الى السر جورج مكمن الذي اتخذ قراراً بالتقدم والاستمرار في الحركات . وتجمّع الرتلان ، رتل الجنرال نايتنكيل في المقدمة وخلفه رتل الجنرال وولدرج واخترقا سلسلة التلال ، وبعد مناوشات عنيفة على نشز (بلاكيش) و(كروار) تم احتلال القرية الرئيسة في قلب أرض الكويان ، وحرق شطر منها انتقاماً لمقتل (بيرسن) المسكين . وبهذا انتهت الحركات التي دامت نحو ثلاثة أشهر ، (ونعاود الاقتباس من رسالة الجنرال سر جورج ماكمن أيضاً) :

« كان تعب القطعات التي جاءت في زمن تتطلع فيه الى الراحة والاستجمام كحق من حقوقها تستحق لمواصلتها القتال ثناءً مستطاباً وكانت التلال متحدرة تكسوها نجوم النبات وان حركات كل يوم كانت تتطلّب الصعود والنزول ٢٠٠٠ من الاقدام وحتى ٣٠٠٠ أحياناً » .

ولو جرت هذه الحركات من قبل قطعات مستجدّة قبل (الهدنة) لحصلت ، من دون ريب ، على تسجيل دائم مسهب في (التأريخ الرسمي) لحملة بلاد ما بين النهرين . في الواقع انهم كانوا أهلاً لذلك . ذلك أن اختراق كردستان الوعرة والنفوذ من خلال قبائل شرسة (كذا) مسلحة تسليحاً جيداً ولم تعرف الهزيمة قبلاً ، كان واجباً يرهق قطعات ماهرة في الحروب الجبلية . إن الظفر الذي أسفرت عنه هذه الحركات على أيدي

وحدات مؤلفة في الغالب من جنود غير مجرّبة تصحبها خميرة من الجنود القدامى ، وهم قلّة ، ممن كانوا يحاربون خلال سنوات الحرب الأربع في الخنادق والسهول ، كل ذلك شهادة رائعة على البسالة العسكرية التي تحلّت بها قوات الجنرال كاسلس ، وبينة تدل على ما كانت عليه قيادة اللواء والوحدات من مستوى جيد •

وبلغ مجموع الخسائر التي أسفرت عنها الحركات في كردستان الوسطى والجنوبية : ٣٣١ منهم ١٣٧ قتلى ومن القتلى ٣٧ من الجنود الهنود الذين وقع عليهم عبء القتال ويعود الفضل الأول في الفوز لهم •

ولم تختتم السنة من دون خسارة أخرى منيت بها (الادارة المدنية) ونزلت بأرواح عزيزة • فقد أوفد بعد الهدنة (معاون حاكم سياسي) الى (عقرة) الواقعة شمالي — شرقي الموصل ، قرب حافة السهل الكائن في منتصف الطريق بين العمادية وراوندوز • إن الجبال التي تفصل عقرة عن الزاب الكبير هي موطن الاكراد الزيباريين ، على حين تقع أراضي(شيخ بارزان) على الضفة المقابلة للنهر • لقد كان لبارزان تأريخ عاصف إبان زمن الاتراك • ذلك أن الشيخ عبدالسليم (كذا) (يريد عبدالسلام — المترجم) سبق أن عانى على يد الحكومة العثمانية كثيراً • وفي سنة ١٩٠٩ جرد الاتراك حملة عليه فلم تنل من النجح إلاّ قليلاً • وفي سنة ١٩١٠ نصّب (ناظم باشا) والياً على الولايات الثلاث : البصرة وبغداد والموصل، فكانت بيده مقاليد الأمور العليا ، وعقد صلحاً • ومهما تكن من حال، فلقد هوى ناظم باشا ، وهوت معه الترتيبات التي نجح في اجرائها • وعندما اندلعت الحرب غدا شيخ بارزان ، بحكم الدفاع عن النفس ، الى قبول العروض التي كان يعرضها عليه الروس غالباً وينشد حمايتهم دوماً •

كان هنالك ثأر قديم بين بارزان والزيبار ، واتباعاً للسبل المألوفة كان الاتراك يستغلون (فارس آغا الزيباري) ، وبعون منه أوقعوا الشيخ بارزان في شراك ، ثم شنقوه •

وورث وارثه : الشيخ أحمد ، الثأر بعينه ، ولكنه لم يرث ذكاءه الباهر . وعندما تأسست الادارة البريطانية في المنطقة ، رفض أن يكون تحت حكم عقرة إذ كان يعدّها بالناموس البرزاني مصطنعة ، وكان في وقت من الأوقات راغباً الى الارتحال الى منطقة راوندوز ، لكن مشروعه لم يحظ بتشجيع منا . ومهما كانت الحال ، منع فارس آغا من عبور الزاب الى أراضي برزان . إن محاولة حفظ التوازن أثارت عداء الطرفين وتركت ميداناً مرتجى للدعاية التركية التي كانت تدار بمهارة من (وان) ، من قبل حاكم سابق يدعى : حيدر بك . وتناهت التقارير في أوائل الربيع من سنة ١٨ ــ ١٩١٩ تفيد أن أنور باشا وصل (وان) ومعه نجدات مؤلفة من الاتراك والروس الهاربين ، وانه على اتصال مستمر مع (سيتو آغا الاورماري) شمالي العمادية ، والبرواري وغيرهم من الساخطين . والظاهر أن النزاع بين فارس آغا الزيباري والشيخ أحمد البرزاني قد سوّي ، بوساطة الاتراك ، موقتاً . وكان الوكلاء في سورية يعملون على نشر عقائد يعيرها الشيخ أذناً صاغية ، ذلك أن هذه العقائد تفتح باب أمل بعيد وسطوة اسلامية غير فعّالة ، تترك الأغوات يتمتعون بسطة حقة . والظاهر أن المزارعين العشائريين ممن سيضطرون الى البقاء تحت سيطرة رؤسائهم التامة لم يكونوا ، على كل حال ، ينظرون النظرة نفسها الى تلكم القضية .

تلك هي الحال حين تسلّم مستر بل زمام أمور الموصل من العقيد لچمن ، وكان ذلك في تشرين الاول سنة ١٩١٩ . ومستر جي.اج. بل من ضباط دائرة الخدمة السياسية الهندية وهو ذو خبرة طويلة اكتسبها في الحدود الشمالية ــ الغربية وفارس . لقد شعرت حيناً من الزمن أن تغييراً ما كان أمراً ضرورياً . ان لـ (لچمن) ، في التعامل مع العرب على التعميم ، والقبائل الرحالة منهم على التخصيص ، صفات ومزايا منقطعة النظير في بلاد ما بين النهرين ، وعلى ما كان عليه (سون) من عدم الارتياح بين ظهراني أحفاد اسماعيل (يريد العرب ــ المترجم) . لقد تشرّب كل منهما شيئاً

من كره الناس الذين كان يعرفهم على أفضل وجه • ولقد شعرت أيضاً ، بحاجة ، الى وجود شخص في الموصل يبذل عناية أكثر بالناحية الادارية ويجعلني واقفاً على التطورات على أفضل ما يكون • وكانت لي رغبة في أن أحول دون مبادأة من هو في الميدان لكني كنت أنوء بتبعة بأزاء حكومة صاحب الجلالة وبأزاء (القائد العام) كما كنت قلقاً من انعدام النظر البعيد في سكلجة الأكراد على ما كشفت الظروف عنها وأحاقت بمقتل بيرسون وويلي ومكدونلد • لقد شعرت بأسى لدى وفاة كل منهم • ولقد عرفتهم جميعاً حق المعرفة •

لقد حمدت لحكومة الهند الفضل وشكرتها لأنها جعلت خِدَم مستر بيسون على طرف التمام من يد (الادارة المدنية) حين حلّ محله في (بوشهر) : مستر تريفر • ان بيل صديق قديم ، وقد تطلعت بثقة الى تحسّن في الأحوال بمجرد أن يستطيع سبر الوضع • ولما كان حديث عهد بالولاية رغب في أن يتعرّف شخصياً عليها ، ولكي يصل بشأن القضية الكردية الى نتيجة ما • وكان أن زار مع النقيب سكوت (عقرة) في نهاية تشرين الاول وفرض غرامة على اثنين من الرؤساء الزيباريين : فارس آغا وبابكر آغا ، وكان أتباعهما قد تصيدوا دركنا ، وفي اليوم الاول من تشرين الثاني عبر الزاب ليفتش المجندين (الليفي) التابعين لرئيس محلي •

لقد استثار غضب الزيباريين أن يطلب منهم المحافظة على النظام وتفرض عليهم غرامة ، فراسلا الشيخ أحمد البرزاني الذي أرسل اليهم أخاه وعشرين من رجاله ليساعدوهما • لقد كمن هؤلاء ، ومعهم (فارس) و (بابكر) وأتباعهما ، وعدّتهم نحو ١٠٠ رجل جميعاً ، لمستر بل والنقيب سكوت قرب (بيره‌كبره) ، قرية بابكر ، وأصلوهما ناراً • وكان يصحبهما أربعة من الدرك ، قتل اثنان منهم ، أحدهما آشوري ، وحاول الثاني ، وهو عقراوي ، أن يدافع عن ضابطيه ، أما الاثنان الآخران ، وكانا من الزيباريين فذهبا الى العدو •

إن الدلائل جميعاً لتدل على أن مقتل الضابطين البريطانيين لم يكن مخططاً مسبقاً ، لكنه جاء في أعقاب غضبة مفاجئة متفجّرة ، هي من طبع الأكراد • وما أن تم ذلك إلاّ غدا الشرارة التي ألهبت نار الثورة • هجم الزيباريون والبرزانيون ونهبوا عقرة ، ولم يستطع ضابط الدرك البريطاني أن ينجو بنفسه إلاّ بشق الأنفس • وفي غضون يوم أو يومين تشاجرت القبيلتان على الغنيمة والاسلاب ، فاتخذ البرزانيون الى موطنهم سبيلاً • وأرسل عدد عديد من القبائل يعرض علينا العون ويظهر الولاء ، وعندما اتخذ النقيب كرك ، مساعد الحاكم السياسي سبيله الى عقرة يوم الـ ٩ من تشرين الثاني ، ولا يصحبه في ذلك إلاّ (الليفي) الأكراد ، وجد أن أهل المدينة يبتهلون الى الله تعالى راجين عودة (الادارة البريطانية) ــ كذا ــ وسرعان ما أنفذ سر جورج ماكمن رتل تأديب ، وما أن وصل هذا وادي الزاب ، إلاّ ورفعت جميع القرى رايات الاستسلام البيضاء ، ولعل ذلك من بوادر الاشفاق على الأغوات ، والترحيب بالحماية منهم •

وحرقت قطعاتنا بيوت رؤساء الزيبار ، وعبرت الزاب لانزال العقاب نفسه على بارزان ، لكنها ، اتباعاً للعادة المتبعة في حملة العمادية لم تعمد الى التعرض للقرويين • ولم يستطع الثوار الى إثارة القبائل المجاورة ، ومرد ذلك بالدرجة الاولى الى شخصية (عبدالقادر اغا شوش) المتنفذة والموالية لنا والقاطنة قرب عقرة ، كما لم نصادف في تندمنا أية مقاومة ما •

إن المجرمين (كذا) الأربعة : فارس وبابكر الزيباريين ، والشيخ أحمد البرزاني وأخاه لاذوا بالفرار الى التلال ناجين بأنفسهم •

ولم تحدث أية قلاقل في العمادية ، ورفض (سيد طه شمسدنيان) الاصغاء الى مقترح قائممقام (نيرى) ، حيث أبقى الاتراك فيها حامية صغيرة ، القاضي بالتعاون بينه وبين (سيتو اورامار) نيابة عن الزيباريين • إن موقفه هذا أقلق القائممقام وهدد سلامته الشخصية ، فغادر (نيرى) الى

(باشقال) • وعندما انتهت الحركات تقرر أن ننسحب داخل حدودنا الى عقرة ولا نحاول في الوقت الحاضر التمسّك بأرض زيبار الكائنة بين عقرة والزاب •

وعلى ذلك ما أن بلغت السنة نهايتها إلاّ انقطعنا عن ادارة الحدود الجبلية لكردستان الشمالية • ونقل موقع الستر البريطاني من راوندوز الى مسافة ١٨ ميلاً تقريباً ، جنوب غرب (باطاس) • لقد كان الخطر يمتدّ منها الى عقرة ودهوك تاركاً الجبال الكائنة على الضفة اليمنى من نهر الزاب الكبير والعمادية والزيبار خارج منطقتنا • لقد كان وصولنا أول مرة ، وفي كل حالة ، مرحّباً به لأننا هيأنا كل وسيلة لمكافحة ما خلّفه الاتراك من دمار ومجاعة • وكان أن وزعنا مواد الاعاشة والاغاثة من دون تحيّز أبداً الى المسلمين والنصارى معاً ، ولعل عوننا كان لمن بقي من المزارعين منقذاً • لكننا لم نكتم أننا نريد مبادلة اللاجئين النصارى الذين طلبوا الينا أن نحميهم وألحّوا علينا راغبين في العودة الى موطنهم دوماً • إن هذا التصميم العادل كان مادة الدعاية ضدنا • ولقد كان تجنّب إثارة عداء الأغوات منذ البداية أمراً متعذراً •

يلحظ المقدم نالدر في تعليق له على ثورة الزيبار : « ان وضع الآغا الكردي السوي لا يتفق ووضعنا ، أو وضع أية حكومة • انه على غرار (بارونات) القرون الوسطى يحتفظ بحاشية مسلحة ، ويطغي على المزارعين، على ما يشاء ويهوى • وان الاراضي التي يمتلكها فارس آغا وأخواه لا تضمن لهما دخلاً سنوياً أكثر من مبلغ مقداره (٥٠٠ جنيه)• ان ثروتهما ترتكن الى ما يبتزانه من القرى ، ومن نفوذهما المستمد من : ان المال الذي يجنيانه يصرف على المحافظة على الجماعات المسلحة التي تدعم سلطتهما • إن أمثال هذين الرجلين لا يمكن أن ينظروا الى أي نوع من الحكم المستقر إلاّ بقلق ، وأن أضيف الى ذلك الشعور المعادي الى النصارى وفعل

الدعاية التركية الواسعة ، أمكن إيضاح الاحساس الذي كان يطبق على حدود كردستان الشمالية بما فيه الكفاية .

لقد استطاع البارونات الأكراد أن يهزموا (الادارة) وشاعت الفوضى في كردستان الوسطى . أما في كردستان الجنوبية ، فلقد أزيح بالقوة الشيخ محمود الذي كان يجمع بين صفة البارون المتمرّد والروحاني الثائر (كذا) وعمّ السلم طوال سنة ١٩٢٠ . كما ان السلام كان ناشراً ظلاله على لواء أربيل وكوي .

واضطر (دبليو.آر. هَي) الذي نقل من مندلي الى كوي في تشرين الثاني ١٩١٨ ، وعلى ما قلنا آنفاً ، الى مغادرة راوندوز ، وتركها وشأنها موقتاً . ان خبراته فيها ، وفي أربيل وكوي ، مدونة ، على وجه طلي عاطف ، في كتابه الموسوم (سنتان في كردستان Two Years in Kurdistan) . ان هذا المؤلف يستحق ذكراً خاصاً ، وليس ذلك بسبب من مزاياه الجوهرية حسب ، وانما لأن مؤلفه هو الحاكم السياسي الوحيد في كردستان الذي جاد على العالم حتى يومنا هذا بسرد مسهب لادارته الشخصية .

ولم تحدث تطورات ذوات بال خلال المدة الواقعة بين كانون الاول وأواخر الربيع ، في كردستان ، أو في أي مكان آخر في العراق . وأطبق الشتاء على الوديان الجبلية فتعسّرت المواصلات ، وهطل المطر على السهول فنشط كل رجل ذو عزم الى فلح الأرض وحرثها . ولم تصبح منطقة واسعة فيما مضى ، على ما تعي الذاكرة الحيّة ، ميسورة للزراعة . وكان حب الحصيد ، وشكراً لدائرة الواردات وحمداً وفيراً . كما كانت الاسعار لا تزال عالية ، وقامت دائرة الري بتطهير عديد من القنوات في الفرات الاوسط وعاودت إعمارها . لقد كان وضعنا على الفرات عند دير الزور حسناً ، وانتفت ممارسة الاتراك لما يشبه السلطة في ولاية الموصل ، وان الاجراء المتخذ في المناطق الكردية جعل معاودة القلاقل أمراً مستبعداً ولأشهر

قابلة • لقد دلت التقارير الواردة من كل لواء في العراق أن البلاد تسير الى الاستقرار •

وكيفما كان الأمر بقيت المشكلة الرئيسة المتصلة بشكل الادارة التي سيصار اليها أخيراً تعدم الحل ، وكل شهر من التأخير كان يجعل اتخاذ الشكل العربي للحكومة أمراً عسيراً • لقد أخّرت القلاقل الخطيرة في كردستان التقدم من هذه الناحية ، في ولاية الموصل ، وقد مُنعتُ بوجه خاص ، من استباق قرارات مؤتمر الصلح ، بقدر تعلق الأمر بهذه المنطقة • ووجدت في بغداد وفي البصرة ، أن من المستحيل اجراء شيء ما قبل اتخاذ قرار يتصل بسياسة الحكومة القابلة ، أو اصدار بيان بشأنها •

وفي الحق قام رئيس الوزراء في الثامن عشر من كانون الاول سنة ١٩١٩ بتطمين العالم ، على غرار ما فعل مستر سنود كراس ، قائلاً « انه بسبيل البدء » • أما بصدد البقية ، فعلى الرغم من أن التنجيمات كانت لا تفصح عن شيء فان صدى الكلمات الخادعة كان يتردد في أسواق كل مدينة ، وفي أروقة العتبات المقدسة العظمى •

الفصل الثالث والعشرون

الادارة المدنية خلال سنة ١٩١٩

أحلّ (اكريكولا) الدرس الناجم عن خبرة غيره في سويداء قلبه ،ومحصله: أن ما ينجز لقليل ان جاء الظلم في أعقابه • لذا ، قرر أن يقتلع أسباب الحرب من أصولها • وبدأ ذلك بنفسه وبشعبه ••• وجعل ديدنه معرفة كل شيء ، وأعار أذناً غير صاغية الى الاعتداءات الهينة ، لكنه كان شديداً على ما عظم منها • وكان يقبل التوبة عموماً وعن العقاب بديلا • ولكي يؤهل للسلام شعباً غير منتمدين فهو على استعداد للحرب نسبياً ، ولكي يجعله هادئاً مرتاحاً ، عمد الى اسداء النصح للافراد ، والعون الى الجماعات ، ليبنوا المعابد والاسواق والمساكن ••• وشرع يدرب أبناء الرؤساء على عرق من تربية حرة سمحة ويفضل الاسلوب البريطاني الذي يمشي الهوينى •

(تاستيس : في وصف اكريكولا لبريطانية العظمى ٨٠ للميلاد)

(ترجمة : هوتون)

لم تسهم (الادارة المدنية) مع القطعات المكدودة من الحرب في شعور الراحة التي جاءت به الهدنة • ذلك أنها كانت تجابه انحلالاً مباشراً محققاً ما لم تعاود ، مهما كان من أمر تنظيم نفسها على أساس السلم •

وكان عدد الموظفين البريطانيين في كانون الاول سنة ١٩١٧ نحو ١٠٠، جاء من بينهم ٢٠ من سلك الخدمة المدنية الهندية والدوائر المدنية التابعة لحكومة الهند • ومن تاريخ الهدنة ازدادت هذه الاعداد فأصبحت: ١٦٤، من بينهم ٥٨ من الهند ، وكنا ، في الوقت نفسه ، نحمل تبعة ولاية الموصل، كما تجلّى أنه سيطلب الينا أن نأخذ من الجيش زمام أمر مديريات : الري

والزراعة والبرق والبريد والسكك والمصالح الضرورية الأخرى • وما أن انتهت المفاوضات مع الاتراك في الموصل ، وبوشر باجراء الترتيبات للاستفتاء الذي سلف القول عليه في فصل سابق ، إلاّ أبرقت في (٢٢ كانون الاول سنة ١٩١٨) الى وزارة الهند ما يأتي :

« ان الادارة المدنية في بلاد ما بين النهرين ، والدوائر شبه المدنية فيها: كالري والزراعة وغيرهما ، هي الآن على أساس حربي ، لا معدى عن أن يتحول قريباً لاستجابة المتطلبات المدنية ، وهي على غرار السكة الحديد ومديريات الصحة والبرق والاشغال والميناء تعاني وضعاً خطيراً نتيجة التسريح الجاري اليوم على قدم وساق •

لم أخوّل حتى الآن أخذ زمام دائرتي الزراعة أو الري ، لكن التسريح يهدّد بتفريق الموظفين الفنيين ذوي الكفاية العالية المنسوبين الى هاتين الدائرتين والدوائر التي أشرنا اليها آنفاً •

لقد استدعي كثير من الضباط الى الهند ، وآخرون منهم لا يرومون البقاء بعد التسريح إلاّ بعقد محدد الزمن ، فإن تفرق هؤلاء الاشخاص ، سيصبح في حكم المستحيل عملياً جمع نخبة من الضباط المدربين على تلكم الشاكلة •

لا أعرف ما قررته حكومة صاحب الجلالة البريطانية بصدد (اللجنة) التي اقترح أصلاً إيفادها الى هذه البلاد ، لمعالجة هذه القضية وقضايا أخرى • إن الفائدة من إيفادها الآن لواهنة الشأن ، حتى تظهر نتائج مؤتمر الصلح ، أعني : أنها لن تصل الى هنا إلاّ في الخريف القادم ، ولن تستطيع أن تقدم تقريرها الى حكومة صاحب الجلالة قبل ربيع سنة ١٩٢٠ •

إن المقترح الذي أعرضه الآن ، بموافقة القائد العام التامة ، هو أن أخوّل من قبل حكومة صاحب الجلالة ، بوصفي رئيس الادارة المدنية

المؤقت ، إبرام عقود ، وتقرير شروط خدمة للضباط المطلوبين بغية تصريف شؤون الدوائر المذكورة آنفاً بعد التسريح ، تكون مدة العقد من سنة الى ثلاث سنوات وفق مقتضيات الظروف ، وذلك لكي يكون الخفض التدريجي مستطاعاً .

وما من شك في أن حكومة صاحب الجلالة تدرك بأن الظروف التي تجيء في أعقاب الحرب لا تقل من حيث أنها غير سوية عن الظروف السائدة في أماكن أخرى . ان مَن منح منا خلال السنوات الأربع الأخيرة ، (نحن العاملين في بلاد ما بين النهرين) اجازة يقضيها في انكلترة هم قلائل . والكثير منا لم يمنح اجازة طوال سبع سنوات ، ومن المتعذر منح الضباط الدائميين العاملين في حكومة الهند الاجازة التي يرغبون فيها . ولو أريد حمل أفضل الضباط الموقتين على البقاء والتخلي عن أمل عودة مبكرة الى حرفتهم السابقة ، فلا معدى عن منحهم شروطاً معينة تتسم بشيء من طابع الديمومة .

وبشأن الموظفين الدائميين المنسوبين الى حكومة الهند أو السودان، يجب الحصول على موافقة الحكومة المختصة في كل حالة قبل إبرام العقود نهائياً . ان العقود ، وسأقدّم خطوطها العامة قريباً للمصادقة عليها، تحتوي على نصوص تتعلق بالمعاش والاجازة والمكافأة والتقاعد ، وفق متطلبات الظروف ، وبذلك ستصبح أساساً للقواعد الدائمة التي سيخدم بموجبها الرجال ذوو اللياقة ، في الوقت اللازم .

اني مدرك تماماً شعور الإحجام الذي قد يخامر الحكومة في تخويل هذه الصلاحيات . كما اني شاعر بأن منحها ينطوي على تغيير النظام القائم، ففيه تعدّ حكومة الهند مسؤولة بأزاء حكومة صاحب الجلالة عن جميع تفاصيل السيطرة على بعض نواحي الادارة المدنية في هذه البلاد ، واني لأقدّر تماماً الحاجة الملحّة الى الاقتصاد ، والى عدم خلق هيئة موظفين

مدنيين تكلف نفقات باهظة ، أكثر مما تحتمله البلاد ، وعلى غرار ما حدث في جنوب افريقية بعد الحرب •

واني لعازم على أن لا يلقى على عاتق خزينة صاحب الجلالة شيء يمكن تفاديه ، على أنه لا بد من تبديد موقت مبعثه سياسة الاقتصاد والبداية المتواضعة ، ولن أتردد في تقديم تقرير مفصّل يشمل كل اجراءاتي بهذا الصدد • لكنني أرى أن واجبي يقضي بأن أحذر الحكومة بأنها ما لم تكن على استعداد لمنح رأس الادارة المدنية في هذه البلاد التصرف الذي ينشده الآن ، فلن يكون في مقدوري أن أحول دون انهيار الادارة المدنية والدوائر التي أشير اليها بعد التسريح ، إن لم يكن قبله •

ووافقت (وزارة الهند) بعد شهر من ذلك ، واشترطت أن لا تعقد العقود مع الضباط لأكثر من سنة ، ما لم يكن ذلك ضرورياً على الاطلاق• وبعد تأخير دام اسبوعين آخرين وافقت حكومة الهند على هذه المقترحات، بقدر تعلق الأمر بها • وجاء في خاتمة برقيتها: « وفي الوقت الذي لا تستطيع حكومة الهند تحمّل تبعة جمع موظفين للخدمات المدنية في بلاد ما بين النهرين ، لكنها ستقوم بأفضل ما في وسعها لتلبية حاجات (المفوض المدني) الراهنة • وبقدر تعلّق الأمر بالضباط المدنيين ، فعلى الرغم من أن كل جهد سيبذل في سبيل الذين يخدمون اليوم في بلاد ما بين النهرين ، فان حاجة حكومة الهند الخاصة تجعل من المستحيل عملياً تقديم كمية محسوسة أخرى لهم • لا يمكن أن يستغنى إلاّ عن عدد محدود من ضباط الجيش النظامي للخدمة في (الادارة المدنية) ، ونقترح الافادة على أعظم وجه مستطاع من ضباط الاحتياط في الجيش الهندي ، ممن لا يشغلون وظائف دائمية في الحكومة ، وممن يمكن تسريحهم حالياً » •

ومهما كان من أمر ، فان حكومة الهند ، على أفضل ما تنطوي عليه من نوايا ، لم تكن لتستطيع الصمود بأزاء ضغط الحكومات الاقليمية والدوائر

المدنية ، لذلك انخفض عدد الضباط الذين جيء بهم من الهند في حزيران سنة ١٩١٩ من ٥٨ الى ٣٠ (ويستثنى من ذلك دوائر الري والزراعة والسكك الحديد التي كانت لا تزال تقنياً عسكرية) • وكان في الامكان الحصول على ٩ ضباط من السودان ومصر وسلك الخدمة القنصلية في ساحل البحر الأبيض • كان أفضل خبرائنا يقوم بالواجب في بلاد الجزيرة العربية الوسطى وكردستان وفي الجنوب العربي والشمال الغربي من فارس والخليج • ان الاقتراح المعروض أصلاً سنة ١٩١٧ كان يقضي بأن ما يحتاج اليه من الضباط في العراق يجب أن يؤتى بهم من الخدمة السودانية والخدمة القنصلية على ساحل البحر الأبيض • ولعل هذا هو الحل الأفضل ، لكن الاعتراضات التي انهالت كانت كثيرة ، لذا سيبقى الملاك صغيراً معرضاً للصعوبات التي تلازم الملاكات الصغيرة • وعلى وجه أخص : مدة الركود التي تحل متناوبة مع الترقية في غير موعدها ، وانعدام نسبة طفيفة من الدفينيات التي تتم على أساس المكافأة • وكتبت حكومة الهند تقول : « يتراءى من السداد الاقرار منذ البداية بأن بلاد ما بين النهرين لا تجود إلاّ بقليل من وسائل الترفيه ، فإن أريد جذب الرجل الصالح اليها حقاً وجب أن تكون ثمة امتيازات سمحة تتصل بالاجازة والمخصصات السخية • ومن دون هذه المغريات وغيرها ، يتراءى أن من المشكوك فيه أن يعمد كثير من ضباطنا العاملين اليوم في بلاد ما بين النهرين الى ترك مسلكهم في الهند عن رضا وطواعية أو ينتقلوا للتطوع في مسلك جديد على أساس موقت •

وفي نهاية أيلول وقّعت مع ٦٧ ضابطاً عقوداً أمد كل منها ثلاث

سنوات كما وقّعت مع ٢١٢ منهم عقوداً أمد كل منها سنة واحدة(*)

إن الشروط الواردة في البرقية والتي سبق اقتباسها نصاً ، وعدد العقود ذوات السنوات الثلاث المعطاة ، وهو قليل ، يكفيان لإظهار أنه لم يكن في النية خلق سلك خدمة بريطاني كبير . ولو لم يكن أمر منح أكثرية الضباط الاجازات في وقت مبكّر ضرورياً لكان العدد المذكور أقل كثيراً . ولم يستمتع باجازة تقضى في انكلترة إلاّ واحداً من بين عشرة ، خلال السنوات الأربع المنصرمة . إن قلة وسائط النقل جعلت الاجازة تمتد الى ثلاثة أشهر ، في الأقل ، والى أربعة عموماً . وكان الرجال يتوقفون في البصرة ثم في بومبي ، كرّة أخرى ، لأسابيع ، وكان الحصول على وسيلة نقل تقلهم الى انكلترة متعذراً لمدة شهر أحياناً بعد انتهاء الاجازة . وختمت رسالة بعثت بها الى وزير الخارجية في أيلول سنة ١٩١٩ بما يأتي :

(*) يبين الجدول الاتي توزيعهم على الدوائر

الدائرة	لثلاث سنوات	لسنة واحدة
السياسية	٤٢	٧١
الري والاشغال العامة	٤	٣٢
المجندون (الليفي)	٢	٢٧
الصحة	٤	٢٣
الكمارك	٧	٢
البريد والبرق	—	١٤
الزراعة	١	١٣
المالية والحسابات	٢	٧
العدلية	٣	٣
الشرطة	١	١٠
التربية	—	٣
المتفرقة	١	٧
المجموع	٦٧	٢١٢

(المؤلف)

« إن بناء كل دائرة من الدوائر ، ومعاودة البناء ، قائم على قدم وساق ، وما لم يكن لنا انتداب على البلاد يتراءى أن تثبيت الملاكات أمر مبتسر • إن عدد الموظفين في جميع الفروع محدّد بالحاجة المباشرة لهم في كل فرع منها ، يضاف الى ذلك : انه بالنظر الى الاقتراحات القاضية بأن يكون هناك سلك مدني واحد لساحل البحر الأبيض والسودان وعدن والعراق ، يتراءى أن من المرغوب فيه الحصول على أكثر مما تدعو اليه الحاجة في الوقت الحاضر •

إن حدود تبعات هذه الادارة لا تزال مبهمة • ، أن في مسقط والبحرين والكويت هيئة موظفين ينخرط فيها ضباط الدائرة السياسية التابعة لحكومة الهند ، وان كان هؤلاء ، في الوقت الحاضر ، ضباط هذه (الادارة) نفسها • إن تبعتنا في كردستان غير معيّنة ، وهناك ٨ ضباط يقومون بواجبات سياسية مع هذه القوة في الجنوب الغربي والشمال الغربي من فارس •

وبصدد مقترح دمج الخدمة المدنية يجب ألاّ يغيب عن البال أن أغلب الضباط العاملين اليوم في (الادارة المحلية المدنية) يستحقون التطوع للنقل الدائم • إن هذا الالتزام ، وإن أعطي بالدرجة الأولى الى الضباط البريطانيين التابعين للخدمات الهندية هو أكثر انطباقاً على الضباط الموقتين في الخدمات البريطانية والهندية • فلقد ترك كثير منهم مسالكهم الى أمكنة أخرى وانصرفوا بكليتهم الى هذه البلاد •

ولو تسنى لهذه (الادارة) أن تفتح مستقبلاً محدداً في باب الاستخدام الدائم ، لما بقي إلاّ قليل من الشك في الحصول على عدد من الأكفاء ، ولا أعني بذلك من كانوا في الخدمة الحكومية الدائمة والذين غادروا العراق اليوم • ومهما كانت الحال فان حدّ السنوات الثلاث على أنه غير كاف نسبياً لجذب ذوي الخبرة من الرجال المتقدمين ، لم يمنع الضباط الصغار

الأكفاء من قبول الخدمة في (الادارة المدنية) ، كما أن العدد الضئيل من الضباط الذين تركوا هذه (الادارة) من محض اختيارهم ، ليظهر من أول وهلة عن قوة هذه الادارة الفتية واهتمام أعضائها ، كما يكشف جذب العمل الرائد حتى في حال انعدام وسائل الرفه والصعاب والقلق المطبقة •

كان المحافظة على ديمومة الادارة كفاحاً مريراً ، وكان القلق الذي ساور المقر العام خلال الـ ١٢ شهراً التي سبقت الهدنة بالغاً وعلى غرار قلق سنة ١٩٢٠ • ومن مدعاة الغبطة أن يسجل : أن من بين الـ ٧٠ ضابطاً ممن قبلوا التعاقد لـ ٣ سنوات في أيلول سنة ١٩١٩ بقي منهم في العراق أكثر من النصف بعد عشر سنوات • وليس أبرز ملامح تلكم السنوات أن أخطاءً ارتكبت ، أو ان الادارة كانت مؤلفة من ضباط ليست لديهم الخبرة الكافية ، لكنه امكانية خلق أي نوع من الادارة المدنية ، من مَن هم في (قوة الحملة الاستكشافية) بالدرجة الاولى ، ومن دون ايقان أو أمل حسن بالديمومة والبقاء •

إن الملامح البارزة للادارة التي تضطلع بها (وزارة المستعمرات) في الاراضي المنتدب عليها ، العراق وفلسطين ، في خلال السنوات العشر ، هي: الفشل في اختطاط أي نظام يمكن ، في ظله ، جعل هيئة الموظفين البريطانيين في هذه المناطق في اطار الادارة الانبراطورية صالحة ، ويجدون فيها مستقبلاً رصيناً ، بقدر تعلّق الأمر بالترقية والضمان المالي ، سواء كان ذلك في ميدان المشاهرات أو ميدان التقاعد • لم يسبق ، فيما مضى ، أن كان اشرافنا على هذه المناطق معرّض للنقد بأكثر مما كان متعرّض له اليوم • إن القاء عبء المعاشات ، ومكافآت صندوق الضمان ، كلها على عاتق الحكومة العراقية ، والامتناع عن دفع معاشات التقاعد الى من لا يستحقها بسبب عدم انتمائه الى خدمة بريطانية عسكرية أو مدنية قائمة ، أنزل ذلك كله ظلماً حقاً بأناس كثيرين • إن هذا النظام ، أو فقدان النظام ،

قيّد من استقلالهم وحرمهم من الضمان ، وجعل من المتعذر على الحكومات المختصة ممارسة حرية اختيار الاستخدام الجاري ، لذلك كانت النتيجة : أننا بعد محاولة دامت ١٠ أو ١٥ سنة تمسّكنا خلالها بمعايير ادارة حكومة صاحب الجلالة ، ردّ الأكفاء من الرجال وعدم تحمّل وزارة المستعمرات أو الخزانة أية تبعة تتصل بمستقبلهم • « إن فقدان المستقبل المحدّد ، من الجهة الأخرى ، جعل من المتعذر على بعض أفضل الناس المستخدمين في (الادارة المدنية) سنة ١٩٢٠ البقاء فيها ، بوصفهم مستشارين للحكومة العراقية • لقد عادوا الى مسالكهم الخاصة ، وارتقوا في كثير من الحالات سلّم مناصبها ، حتى بلغوا أعاليه ، فضلاً عن امتيازات أكثر • إن الوضع في فلسطين هو على هذا الغرار ، من حيث انه لا يبعث على الرضى ، سواء بسواء •

لقد أشرت في محل آخر الى الصعوبات الناجمة وشعور العزلة ، المنبثقة عن المخابرات التحريرية البطيئة وهي قليلة ، المتبادلة بين (وايتهول) و (بغداد) • وكانت الأولى محرجة من قبل سيل المارين ببغداد في طريقهم الى فارس • لقد استطعت أن أضيّف فريقاً منهم على غير الوجه السمح وبقدر ما تتسع له بناية الدائرة السياسية المزدحمة ببغداد • ومرّ ببغداد سر سيدني ارميتيج ــ سميث ، أحد المنسوبين الى (الخزانة) ، بعد حضوره مؤتمر الصلح أوائل سنة ١٩٢٠ • لقد كانت معه هيئة موظفين لمساعدته وهو بسبيل تبوأ منصب المستشار المالي للحكومة الفارسية • وأقام سر هيوبرت ليولين سميث ، القادم من باريس أيضاً ، معي لأيام قبل مغادرته الى طهران ، حيث كان يشغل منصب الممثل البريطاني في لجنة التعريفة الكمركية الانكليزية ــ الفارسية • إن كلا الرجلين على حظ من الفَوَق في ميدان عملهما ، ولهما سجل انجازات في المفاوضات الدولية • إني لأقدّر شاكراً المشورة والمعونة التي أسديتا من قبلهما الى (ادارة المدنية) خلال مدة اقامتيهما القصيرتين • وكان مع (ارميتيج ــ سميث) خبراء في عديد من

فروع الادارة كالحقوق والاشغال العامة • وبرهنت الاحوال السائدة في فارس على انها معادية لبعثتيهما ، لكنهما كانا عاقدين الرأي على الرغبة في مساعدة الحكومة الفارسية لتصبح ، من الوجهة المالية قوية ، ومن الوجهة الادارية حرّة ، ما الى الشك في ذلك من سبيل • إن البحث في سياسة بريطانية في فارس ، ولو على سبيل الايجاز ، ليس من شأن هذا الكتاب • لقد دوّن (تمبرلي)(١) حقائقها ، كما قام بذلك (توينبي)(٢) ، بشيء من التحيّز غير التأريخي ، أيضاً • إن الوقت لكفيل بإظهار إن كان السبيل البديل الذي سلكه العبقري رضا شاه مكرهاً سيؤدي الى حقول خصبة من الرخاء الوطني • وما كان نجمه قد تعالى سنة ١٩٢٠ ، ولم تكن في الأفق شخصية تستطيع أن تفرض الطاعة العامة • إن الوقت ، على كل حال ، لن يكشف ما الذي كان يحدث في فارس لو تمّ المحافظة على الصفوة المختارة من المستشارين البريطانيين ، ولعلهم كانوا يصنعون لفارس، تحت ظل رضا شاه ، ما صنعه مستر ملز باو وعصبة مساعديه المخلصين أو قد يكون ذلك الصنيع أكبر • لكن القدر اختار غير ذلك ، فالتظنّي غير ذي جدوى •

وكان الزائرون الديبلوماطيقيون في بغداد كثيرين • وسنحت لي الفرصة بأن أقابل ، وأضيّف ، في الأحيان ، أعضاء جميع المفوضيات في طهران تقريباً ، ومرّ بها سنة ١٩١٨ السر والليدي مارلنك ، ومعهما الدوق الشاب ديمتري ، الذي نفاه القيصر الى باريس بسبب اسهامه في الوقائع التي أدّت الى ازاحة (راسبوتين) ذي الذكر السيىء • وفي سنة ١٩١٩ مرّ بها الجنرال باراتوف وعدد من أعضاء المفوضيتين : الفرنسية والايطالية • وجاء في سنة ١٩٢٠ مستر فان انكرت المنسوب الى المفوضية

---

(1) History of the Peace Conference. VI, 212.

(2) Survey of International Affairs p. 219.

الامريكية في طهران ، وهو شاب ذو نظرة واسعة خارقة وولع بالكثلكة ، وحتى بالنسبة الى ديبلوماطيقي ، وقد كانت لي معه بآخرة بعض مخابرات ممتعة ، وكان قد أمضى خلال الحرب سنتين بوصفه السكرتير الاول في السفارة الامريكية في اصطنبول ، على ما ذكرت في كتابي (ولاءات) ، وكان له دور بارز مشكور في اسداء العون الى أسرى الحرب البريطانيين • وتوقّف ببغداد لأسابيع وذلك بسبب الاضطرابات التي شاعت على طريق فارس • إن هؤلاء المسافرين ، وغيرهم ، جعلوني على اتصال بالعالم الخارجي ، وسعيت الى أن أرتّب لبعض الموظفين البريطانيين في سورية وفلسطين زورة الى بغداد لتبادل وجهات النظر • لكن المقترح لم يحظ بالترحاب ، ولم يزرنا في أي وقت من الأوقات ، أي ضابط ذو سلطة في تينك البلدين ، وذلك على الرغم من أن عدداً منهم كان يفصح عن رأيه بحرية ويتناول كيف يجب أن تحكم بلاد ما بين النهرين ؟

وعلى الرغم من ظهور بعض الصعوبات في العراق ، على ما شرحناه في الفصل الماضي ، نتيجة التشريع المتوافق في أقسام كردستان للسلطات البريطانية في سورية واصطنبول وللمبعوثين الفرنسيين ولممثلي الحكومات التركية والفارسية والروسية ، وحكومة الظل(٣) Shadow Goverment المرتقبة في دولة ارمينية القابلة ، فان هذه الصعوبات لم تؤثر فينا إلاّ بأقل من تأثير الصدام الجاري في (الجبهة الوطنية) بين وزارة الخارجية ووزارة الهند ، وهو الذي سرعان ما تطوّر فأصبح قطيعة مكشوفة• وفي يوم الـ٣٠ من حزيران سنة ١٩١٩ ، وبمحتوى جواب تحريري عن سؤال وجّه في مجلس العموم أعلم وكيل وزارة الخارجية الدائم المجلس ان القضايا السياسية في بلاد ما بين النهرين قد أقرّت فيما عدا الحالات التي تحال الى

---

(٣) مصطلح انكليزي يراد به رجال المعارضة الذين إن نالوا أكثرية المقاعد في مجلس العموم في الانتخابات ودعوا الى تأليف الوزارة تألفت منهم •

مجلس الوزراء من قبل وزير الخارجية بالمشاورة مع وزير الهند(٤) • وفي الحق ان التعليمات الصادرة من حكومة صاحب الجلالة حول القضايا غير العسكرية في بلاد ما بين النهرين كانت ترد دوماً موقّعة باسم وزير الهند بعد المشورة ، إن دعت اليها الضرورة ، مع وزارة الخارجية وحكومة الهند • لقد صرف النظر ، على كل حال ، عن احتجاجات مستر مونتاكيو •

وفي جواب عن سؤال وجّه في البرلمان يوم الثامن من تموز ، أجاب ناطق باسم وزارة الخارجية في مجلس العموم معلناً أن الحكومة مطمئنة تماماً الى الترتيبات الوقتية الراهنة بالنسبة الى (الادارة المدنية) في بلاد ما بين النهرين ، ولا ترى للتغيير ضرورة •

وبعد أسبوع من ذلك قال وزير الخارجية (مستر ونستن چرچل) :
إن المجندين المحليين لا يجندون ولا يدرّبون في بلاد ما بين النهرين ، وان السياسة المقبلة بشأن شرطة هذه البلاد لا يمكن اقرارها الآن ، حتى نحصل على انتداب فندير هاته البلاد • وبصدد جيش الاحتلال كانت سياستنا تقضي بخفضه الى أبعد حد مستطاع ، واستخدام نسبة كبيرة من الهنود والقطعات الأهلية حسب الامكان • ومهما كان من أمر ، فان مدى استخدام القطعات المحلية يعتمد على درجة كفايتها ، وهي في الوقت الحاضر غير معروفة • وكان المؤمل أن يستفاد كثيراً من القوة الجوية بغية الاقتصاد في القطعات وادامتها في المناطق القاصية غير المستقرّة •

إن مثل هذا صيّرني يائساً • لقد أرسلت ميزانيتنا لسنة ١٩١٩ الى

---

(٤) عندما كنت في باريس في باكورة السنة جرت لي محادثة مع أحد زملاء الرئيس وودرو ويلسون في مؤتمر الصلح هو الراحل مستر هنري وايت الذي كان على يقين من أن الولايات المتحدة ستقبل بالانتداب على أرمينية وألح بأن أعمل على وفق هذا الزعم (انظر نيفنس ــ هنري وايت ١٩٣٠
Neuins Henry White 1930

(المؤلف)

وزارة الهند قبل ذلك بزمن بعيد . وكانت تعتمد مبلغاً قدره (٣٣٥٠٠٠ من الجنيهات) الى المجندين الذين كانت عدتهم : (٤٠٠٠) ويستقرّون في كل مركز مهم تقريباً ، كما كانوا في إمرة ضباط من البريطانيين والعرب . لقد قاموا على العموم بعمل طيب وأظهروا أنهم أهل للاعتماد عليهم حيث كانوا في إمرة ضابط بريطاني . لقد عملوا مع القطعات في مناسبات عديدة، ونالوا في حالات عديدة أنواط شجاعة تجلّت في الميدان ، وبضمنها : صليبان عسكريان وأنواط عسكرية كثيرة . إن مثل هذه لا تمنح للقوات غير النظامية إلاّ نادراً . وكان يلحّ عليّ في زيادة عدتهم ، وذلك بغية حلولهم محل الوحدات النظامية ، ولم تجابه المقر العام ، في أي وقت من الأوقات صعوبة ما في باب تزويد الضباط والتجهيزات الاضافية . وعلى الرغم من ذلك كله ، أنكر حتى وجود هذه القوة في البرلمان !

وعلى الرغم من أن مستر مونتاكيو ، بوصفه سكرتير الدولة لشؤون الهند ، كان الوزير المسؤول عن (الادارة المدنية في العراق) لكنه لم يشر علناً الى هذا الموضوع في البرلمان سنة ١٩١٩ ، فيما خلا ما ورد في جواب عن أسئلة عابرة وجّهت اليه . إن كلمات قليلة منه ، أو من لورد كيرزون، لها الوقع في دوائر بغداد السياسية وفي سورية . وعلى الرغم من مقترحات عديدة قدمتها بشأن ضرورة الافضاء بتصريح يكشف عن أهدافنا ونوايانا، لم يصدر من ذلك شيء ما . وفي مجلس اللوردين ذكر العراق مرةواحدة، وذلك على لسان لورد كرزن ، بوصفه وكيل وزير الخارجية حين قال :

« إن التقدم الذي شهدته السنتان الأخيرتان في باب تطوير بلاد ما بين النهرين ، في ميادين الري والزراعة والغراس وادخال المكائن الزراعية وتربية الأطفال وفي كثير من السبل الأخرى ، كان رائعاً . إن ما صنع هذه الامكنة في سنتين فاق ما صُنع خلال خمسة قرون خلت ، ولست بمستطيع أن أتخيّل تجربة أكثر زهواً لكل بريطاني وفخراً أفضل من ذهابه اليوم الى بلاد ما بين النهرين وليرى بأم رأسه ما أنجز فيها » .

ولئلا يظن أنني أتحيّز الى بني جلدتي ، أود أن أقرأ جملة وردت في تقرير وصلني أمس الأول من امريكي مرموق جداً(٥) زار هذا الشطر من العالم لمصلحة الاغاثة ، وقال عن بلاد ما بين النهرين : « ان العمل المنجز من قبل البريطانيين ، منذ الاحتلال ، لعمل ممتاز من جميع الوجوه ، وان السكان أحرار سعداء ، والعدل موزّع بينهم ، والملكية مصونة وليس من ظلال في مثل هذه الصورة » .

انها لوهجة يا سادة ، وليس فيها ، على ما أعتقد أية مبالغة ، إنما هي للإشارة على مأثرة » .

لم تصلني كلمة انتقاد ، لطيفة كانت أم غير لطيفة ، من وزارة الخارجية خلال سنة ١٩١٩ ، لكني كنت أشعر بألم واستشف من المخابرات الجارية بين الدوائر ، ومن المصادر الأخرى ، هذا الاختلاف الحاصل في الرأي بين وزارتي الخارجية والهند ، وعجز الوزارتين عن السيطرة عن سورات وزارة الحرب ، وقد تراءت ، في هذا الوقت ، وكأنها وزارة مستقلة ذاتياً في حكومة صاحب الجلالة .

وعلى الرغم من هذه الصعوبات ، ومن أن جهاز الحكومة في (وايتهول) على ما يظهر ، لا يعمل على الوجه الصحيح ، بقدر تعلّق الأمر بالشرق الأوسط بعامة ، وبالعراق بخاصة ، لكن (الادارة المدنية) في (الاراضي المحتلة) ، كانت دائبة على عملها من دون ضجة وبأقل صدام . لقد تفتّح التعاون بين الدوائر المدنية والعسكرية عبر أربع سنوات وسار سيراً حسناً محموداً والى أبعد مدى ، ويعزى ذلك الى ما إتّسم به سر ويليم مارشل من حسن نية ورحابة صدر ، شأنه شأن خلفه سر جورج مكمن وضباط

---

(٥) لا أشك في أن الاشارة هذه هي الى الراحل الدكتور جرسن رئيس جامعة بنسلفانيا (شيكاغو) الذي زار العراق وفارس سنة ١٩١٩ نيابة عن صندوق اغاثة الشرق الأدنى . (المؤلف)

الأركان في المقر العام • وفي اليوم الاول من آذار نقلت مديرية الزراعة الى (الادارة المدنية) واحتفظت بتماسكها ، وإن كان ذلك على مقياس أصغر من ذي قبل بكثير • وفي الوقت نفسه نقلت مديرية الري ، باعتبارها قسماً من أقسام سكرتيرية الواردات • ومهما يكن من شيء ، فان الضرورة القاضية بخفض عدد الموظفين وانقاص المصروفات ألقيت على مسؤوليتي • لقد تسلّمنا جهازاً معداً للمقاصد الحربية ، ينتظم فيه في الغالب ، اختصاصيون على حظ عظيم من الكفاية ، صالحون لائقون • وكان من المتعذر أن يرصد في الميزانية المدنية عشر الاعتمادات اللازمة للمضي بالمشاريع المعدّة خلال الحرب ، أو استخدام أكثر من نسبة ضئيلة من هيئة الموظفين • ومع ذلك ورثنا من الادارة العسكرية عدداً من المشاريع التي لم يُنجز إلاّ نصفها ، وهي مشاريع ذوات قيمة مباشرة ، فإن لم يتم انجازها كلياً ، ضاع كل فلس صرف عليها ، وكانت سدة الهندية التي يرتكن اليها الفرات الاوسط بحاجة ملحّة الى التعمير • لقد وضع تصميمها سر ويليم ويلكوكس لغرض انشاء مجرى الى الحبانية يخفف عن السدة عند الفيضان • واندلع لهيب الحرب قبل أن يستطيع الاتراك القيام بشيء في هذه الناحية ، ومما يخامره الشك أن يكونوا قد نووا القيام بشيء ما في هذا الباب أيضاً • ان دائرة فنية شيء دقيق في أحسن الأوقات ، وان دائرة شكّلت في خلال ١٨ شهراً ، تحت ظروف الحرب ، ينتظم فيها ضباط موقتون أعارتهم الحكومات أو جيء بهم من الحياة المدنية ، لدائرة أكثر تعرّضاً للتصدع طبعاً • وسرعان ما غدت طلبات حكومة الهند المنصبّة على إعادة الضباط الذين أعارتهم ملحّة ، وكان لها المبرر التام بسبب من الظروف العسيرة التي أحاقت بالهند • وكان الرجال الصالحون الذين جيء بهم من الحياة المدنية مضطرين في الغالب الى العودة الى حرفهم الأصلية ، ما لم نقدّم لهم عقوداً محدّدة لمدة تزيد على ثلاث سنوات • وفي القيام بمثل هذا يعدّ استباقاً لشروط (الانتداب) ومستقبل البلاد • إن كل عقد يعطى هو بمثابة رهن لواردات

العراق . كما أن استخدام الاختصاصيين في الري يفرض، مسبقاً، صرف مبالغ ضخمة على المشاريع الجديدة، وصيانتها في المستقبل .

كان عمل دائرة الري، شأنه شأن مديرية الزراعة، عملاً محبباً الى جميع الناس، ذلك أن الملاكين والمزارعين في كل شطر من بلاد ما بين النهرين كانوا يرجون خدمات جلّى من هذين القسمين . وكان العمل يقدم في كثير من الحالات مجاناً، وفي أغلب الأحوال كنا قادرين على أن نطمئن أنفسنا بأن الاعمال المقترحة ستكون، من الناحية المادية، مربحة . وكان هناك نحو ٥٠ ألفاً من الأسرى الاتراك لا يزالون في البلاد، ومن الأفضل اشغالهم في أعمال، بدلاً من تركهم دون عمل . ولو أنهيت الاعمال كلها لهزم القصد العام الذي كنا نسعى اليه ونصب جهودنا كلها في سبيله، وأعني به تأهيل البلاد على أساس يتفق مع رغبات أهلها . واتخذ سبيل وسط، ونتيجته لا مفر منها . لقد رأى الناس عموماً أن أمل الابتعاث المباشر يتلاشى، وبيّنت (الخزانة) أننا نصرف أكثر مما نستطيع الى صرفه سبيلاً، انها تنظر في ذلك، الى أن سيطلب من العراق في الوقت نفسه تحمّل حصته من (الدين العثماني العام) ونفقات مدّ السكة الحديد والاعمال العديدة التي قام الجيش بها لصالح قوات (التاج) المسلحة وصالح السكان، سواء بسواء .

إن نفقات هذه المشاريع الباهظة جداً، وكون بعض المصروفات في بعض الحالات (كالسكك الحديد والميناء مثلاً) لا تزال فيما بعد الحرب جارية على مقياس واسع سعة مقياس ما قبلها، أثار نقداً لا مفر منه، وانصب على وزارة الحرب بالدرجة الأولى(٦) .

---

(٦) كان مستر مونتاكيو ينوي زيارة بلاد ما بين النهرين خلال ربيع سنة ١٩١٨ صحبة نائب الملك في الهند (لورد جيلمزفرد) حين كان على طريق العودة، ويتراءى أن وزير الخارجية كان يدبر في فكره نوعاً من نظام استعماري لبلاد ما بين النهرين (على ما حرر في شباط ١٩١٨ في مفكرتي

←

لقد ألححت بصفة خاصة قبل زمن مديد على مستر مونتاكيو لينظر في إمكان ايفاد لجنة حكومية صغيرة تتحرى جميع القضايا الرئيسة محلياً، وما اتصل منها بالادارة المدنية خصوصاً ، لتحقق بذلك أهداف الادارة المدنية المشروعة • واقترحت أن ترسل هذه اللجنة من قبل الحكومة لتعالج على الوجه الشامل ، القضايا التي يتراءى حلها عن طريق الرسائل المتبادلة متعذراً مهما كانت ضخمة • لقد وجد ، ولأسباب عدة ، أن ليس من العملي

الهندية ص.٢٥) معتقداً أن مثل هذا سيلقى من السكان ترحيباً • لكن كلا من پرسي كوكس وسر هملتن كرانت (الذي كان وزير خارجية حكومة الهند يومذاك) ينفيان أن تكون عندهما أية فكرة من هذا القبيل ، أو أنهما أفصحا عنها بأي وجه لتبعنا انطباع مستر مونتاكيو هذا . وفي الحقيقة أن جميع اجراءاتنا وسياستنا ، بقدر ما تمكنا من أن تكون لنا سياسة ، كانت تتجه وجهة معاكسة لهذا • لذا كتب الى سر آرثر هرتزل مساعد وكيل وزير الدولة لشؤون الهند يقول :

« ان تيارات مختلفة جداً •• تتدفق اليوم ، وعلينا أن نكيف مسيرنا بموجبها ان نشدنا على ما نريده من العراق • ان كلمات السر القديمة أصبحت من الكلمات الميتة • والقضية الآن كيف نحصل على ما هو ضروري منها . وفي الامكان تحقيق الامر ولكنه يتطلب توجيهاً جديداً . يجب أن يكون (الوجه العربي) أقوى مما كنا نسعى اليه قبلا » •

(المؤلف)

لا معدى عن تعليق ينير كثيراً من جوانب ما يتطرق اليه المؤلف • ان المؤلف بوصفه وكيل (رئيس الادارة المدنية في العراق) كان يسعى الى تأسيس حكومة هندية في العراق ، تحت الحماية البريطانية ، وكان ينقم على الرئيس ويلسون ـ مبدع نظام الانتداب ـ • أما رئيس الادارة المدنية الاصلي في العراق (سر پرسي كوكس) الموصوف بحق بـ (رجل ذي أربعين أذناً ولسان واحد) فلقد وصف بأنه قوي المنطق يؤثر المساومات في حسم الامور بدلا من الالتجاء الى العنف ، واستخدام القوات المسلحة ، وقد جاء في وصف آخر له أنه (فوكسي) أي ثعلبي السياسة وأن في العراق كثيراً من الزيت ، فسياسته تنصب على شؤون النفط ، أما چرچل فكان يريد للعراق وجهاً عربياً وحكماً بريطانياً •

(المترجم)

تنفيذ المقترح هذا ، وبدلاً عنه أرسلت (وزارة الحرب) موظفاً مدنياً هندياً مرموقاً جداً ، وأعني به : سر جون هوايت الى بلاد ما بين النهرين ، قبيل الهدنة مزوّداً بتعليمات تقضي بأن يراجع (مجلس الجيش) ويقدم تقريراً له:

(١) بشأن إدارة الشؤون المالية للمشاريع المعروضة والخاصة بابتعاث الري والزراعة في بلاد ما بين النهرين ، والسيطرة عليها نيابة عن الحكومة الانبراطورية .

(٢) هل ان الصرف في بلاد ما بين النهرين، من النواحي الأخرى،والمحسوب كلياً على صندوق الجيش الانبراطوري مقصور على الخدمات الحديثة والضرورية للحرب في الوقت الحاضر .

ثم طلب منه أن يقدم تقريراً يتناول « مدى امكانية الاعتمادات المالية الحالية أو القابلة ، لتحمّل نفقات المشاريع العديدة ، بدلاً من اعتمادات الجيش ، التي يجري صرفها في بلاد ما بين النهرين ويستفيد منها السكان المدنيون ، وما هي أفضل السبل لتنفيذ مثل هذا الترتيب ؟

وكان يصحبه مهندسا ريّ ذوا تجربة ومقام مرموق هما مستر بكلي المنسوب الى دائرة الري المصرية ومستر روش المنسوب الى دائرة الأشغال العسكرية في الهند . ومستر بورتر ، وسر هنري فرني ، وكان أن وصل البصرة في كانون الاول سنة ١٩١٨ وغادرها في آذار سنة ١٩١٩ .

كان سر جون هوايت نائب حاكم للاقليمين المتحدين : اكرا وعوذ في الهند ، وتقاعد سنة ١٩١٢ بعد خدمة ممتازة خارقة في سلك الخدمة المدنية الهندية . ولو جاء رئيساً للجنة أو عضواً فيها ، وبأمر من حكومة صاحب الجلالة أو وزير الدولة لشؤون الهند ، وهو على ما بيّنا عضواً في الوزارة مسؤولاً عن الادارة المدنية في بلاد ما بين النهرين ، مزوّداً بتعليمات أوسع ، لكانت مهمته ذات نتائج مفيدة للغاية . لقد كان مبعوث (وزارة الحرب) ولم يكن ذا تبعة بازاء (وزير الدولة لشؤون الهند) .

إنَّ نصوص تعليماته لم تكن لتجيز له تقديم تقرير يتناول الوجهات الواسعة المتصلة بمستقبل ادارة البلاد ، كما اني لم أخوّل البحث معه في مثل هذه القضايا بعينها • لقد كانت آراؤه بشأن الحكومة الهندية القابلة تناهض آراء وزير الدولة لشؤون الهند جذرياً ، كما أنها تعاكس آراء الوزارة عموماً ، ولم يكن هو ليخفي هذه الحقيقة سواء أكان في الهند أم في انكلترة أو في العراق أبداً • وعلى النقيض من ذلك ألقى ببغداد محاضرة في كانون الثاني حضرها جميع الضباط ونواب الضباط البريطانيين كان فيها متشائماً بصراحة ومعادياً لنصوص قانون حكومة الهند الذي كان معروضاً على البرلمان خلال أسابيع مما سبّب فيضاً من العرائض المتدفقة قدّمها الضباط العاملون في حكومة الهند يطلبون فيها الالتحاق بـ (الادارة المدنية) وحجتهم أن رجلاً بارزاً كجون هوايت يعدّ الخدمة في الهند زائلة حتماً • كان هذا ، من إحدى وجهات النظر المفيدة للادارة المدنية ، إذ أنه أدى الى أن يصح عزم المتمردين على البقاء في العراق • لكنه من وجهة نظر أخرى لم يكن كذلك • إن ما كنت أعرفه أو يخيل لي أني أعرفه ، من مجرى الحوادث في الهند أو غيرها من بلدان الشرق كوّن عندي اعتقاداً جازماً بأن من الضروري تغيير سياستنا ، والى حد ما وجهتها بسرعة • كان القدر يخط لنا أهدافنا في العراق ، وكنت أعمل على تخطيطها عموماً ، وعلى أفضل وجه ممكن • وبصدد الاصلاحات الهندية أنزل سر جون هوايت ضربات بيانية كان لها أثر ساحق ماحق في سامعيه •

وما كانت آراؤه ذوات صفة تطبيقية لاحبة بالنسبة الى مشروع الحكومة العراقية القابلة ، وهو المشروع الذي كنت قد قدمته قبل أقل من شهرين ، أو في الحق ، بالنسبة الى المبدأ الذي يرتكن اليه تصريحات الحلفاء وحكومة صاحب الجلالة الدائرة حول الموضوع • وتجلّى رجع الرأي العام ببغداد حالاً وقد كان في حينه مائعاً ، فغدا محيّراً • وأبرقت الى مستر مونتاكيو (إن كان ذلك شخصياً أو رسمياً) أحتج على نشاطات

سر جون هوايت باعتباره من رجال الاعلام ، ولم أتسلّم عن احتجاجي جواباً • لكن القضية أثيرت في تشرين الثاني في مجلس اللوردين على وجه لا يدعو الى الرضاء ومن دون نتيجة أو جدوى •

لقد كانت تحريات سر جون هوايت ببغداد شاملة بقدر ما سمحت به شروط مراجعته المقيّدة[٧] •

وبصدد القضية العامة دوّن قوله الفصل وفق ما يأتي :

« إننا نجمع بقوة على أن ليس هناك من أساس يرتكن اليه المقترح القاضي بأن الصرف من اعتماد الجيش قد حفزته الرغبة في تهيئة الابتعاثات التي تأتي في أعقاب الصلح ، ونرى أنه صرف ، على الشمول ، بقصد رئيس هو : ضمان كفاية القوة وراحتها • وثمة حالات صرفت فيها اعتمادات الجيش على مشاريع لا قيمة لها ، إلاّ موقتاً ، وبالنسبة لهذا الجيش بعينه، على حين ستكون لها قيمة دائمة لتطوير الحكومة المدنية وموارد بلاد ما بين النهرين ، وانها من الأمور المعروفة لدى الخاص والعام •

وإثر تخمين ما يعود الى اعتماد الجيش من مبلغ ، ومصدره الواردات المدنية ، ومقداره مليونا جنيه ، فيما خلا السكك الحديد ، يمضي تقريره قائلاً :

أعلمني وكيل المفوض المدني أنه لم تُعدّ أية ميزانية تضم الواردات والمصروفات المتعلقة بالأراضي المحتلة للسنة الجارية• كان صافي الواردات لسنة ١٦ ــ ١٩١٥ : ١٣٠٠٠٠ من الجنيهات ولسنة ١٦ــ١٩١٧ ٢٧٠٠٠٠ ١٨ــ١٩١٩ : ١٠٠٠٠٠ ، وذلك بموجب برقية حكومة الهند الى وزير الدولة لشؤون الهند المؤرخة في ٥ شباط ١٩١٨ • ويتجلّى من هذه الارقام أنه من

---

(٧) لقد حيل بينه مثلا وبين بيان المطالعة ، بشأن تطهير المجرى الذي يمر من بحيرة الحمّار بكلفة قدرها ٣٠ مليون روبية وهي تساوي بموجب سعر التحويل في ذلك اليوم نحو ٣ ملايين من الباونات . (المؤلف)

غير المحتمل أن تستطيع (الادارة المدنية) دفع القائمة المبيّنة في أعلاه مبكراً. وكتب الجنرال ويلسون رئيس الاركان العامة ببغداد في الـ ٨ من أيلول كتاباً ذا رقم ١٨٧٩١ جاء فيه : « اني أفترض بأن الأمر بالنسبة للسكك الحديد والاشغال ومعامل الكهرباء وغيرها ، والتي أقيمت في البلاد وتحتاجها فيما بعد الحرب ، يجب أن يتم على أساس تخمينها ، وتسليمها الى الادارة المدنية ، ثم تسلّم الى (الخزانة) سندات بموجب ذلك ، أما الفائدة ، وقسط الاستهلاك فيدفعان سنوياً . يظهر أن ترتيباً كهذا الترتيب الفذ يوافق الحال ، أما تفصيلاته فتعتمد على الوضع الذي سيقره مؤتمر الصلح لبلاد ما بين النهرين في المستقبل .

إن هذا كل ما يستطاع قوله ، ولا يمكن أن يجرى أكثر منه . ولم يتخذ إجراء ما بشأن تقرير سر جون هوايت الموسوم بـ (تقرير الى مجلس الجيش) والذي نشرته دائرة القرطاسية التابعة لوزارة الحرب في كانون الاول سنة ١٩١٩ . إنه لم يكن ليدعو الى الطمأنينة والرضى من وجهة نظر الادارة المدنية أبداً . وكان مصير اعتراضي على قبول ديون ضخمة ناجمة عن اشغال لا يمكن اعتبارها ضرورية لحاجات ما بعد الحرب الرفض في أغلب الأحوال . وجاء هذا الرفض مصحوباً بإزدراء أيضاً .

وفي حزيران سنة ١٩٢٠ نشرت (دائرة القرطاسية) ، بايعاز من (وزارة الحرب) ، ومن دون مراجعة وزارة الهند كراسة مؤلفة من ٢٣ صحيفة بحجم (الفولسكاب) على غلافها عبارة (حقوق النشر محفوظة للتاج) وبعنوان : (بعض الانطباعات عن بلاد ما بين النهرين سنة ١٩٢٠) بقلم: سر جون . بي . هوايت . وبالنظر لخبرة المؤلف ومقامه المرموق كانت هذه وثيقة ممتعة من بعض الوجوه وعلى حظ من قيمة ، لكن الظروف التي جمعت خلالها حالت دون أن تكون إلاّ سطحية في أحكامها . لقد تناولت موضوعات هي خارج مهمة المؤلف كلياً ، مثال ذلك : تأسيس دوائر صحية وزراعية على

آساس رصينة • كما بحثت في مشاريع الري التي اطلع عليها سر جون هوايت من دون الاشارة بالمرة الى آراء رئيس الادارة المدنية أو مستشاريه بقدر تعلق الأمر بصلاحها • لقد ثبّت رأيه القائل بأن موظفي (الادارة المدنية) غير مزوّدين بالمعلومات المتصلة بفروع الادارة ، كالواردات والشرطة ، وهي على حظ من خطر في بلد شرقي ، وكانت دائرة الواردات قد أسست من قبل (سر هنري دوبس)(٨) المنتدب خصيصاً من قبل حكومة الهند ، والذي كان على حظ كبير من المقدرة • وقد تطورت هذه الدائرة على أيدي المنتسبين الى سلك الخدمة الهندية المزودين بمعلومات خاصة تتصل بشؤون الواردات ، ومنهم مستر هويل ومستر كاربيت ، وكلهم ذوو خبرة جيدة في تلكم الشؤون • وكانت دائرة الشرطة بيد ضباط مدربين بصورة جيدة • ويمكن أن نقول مطمئنين غبّ مضي عشر سنوات ، أنه لم تجرِ الحكومة العربية إلاّ أقل تغيير في هذه الدوائر وموظفيها •

وكتب سر جون هوايت عن التطورات التي تحدث في أيامها القابلة قائلاً :

إن العزم المعقود على الحيلولة دون إسهام من بريطانية والدومنيونات في تطوير البلاد أمر يدعو الى الأسى • بلغني أن ذلك يرتكن الى الرأي القائل بأن البلاد يجب أن تتطور لصالح سكانها العرب • وعلى هذا الأساس يعدّ ادخال الانكليز والاستراليين اليها مفيداً جداً • إن في مقدورهم تطوير مساحات واسعة من أراضي التاج من دون المساس بالحقوق العشائرية • فإن أريد المقام الذي يجدر ببلاد ما بين النهرين أن تتبوأه ، بقدر تعلق الأمر

---

(٨) هو ثاني من سمي بالمندوب السامي البريطاني في العراق اثر الانتداب ، وفي أيامه توترت العلاقات بين العراق ودار المندوب السامي وتكاتفت صفوف المعارضة للسياسة البريطانية وانتشرت في البلاد روح عداء سافرة لها ، وهو لم ينكر في مقال نشر له في مجلة
(The Empire Review)

بمشاريع زراعة القطن ، وضع سكر البنجر ، وتربية الاغنام ، وجب أن يكون ذلك في تقديري على يد «الرجل الأبيض» ـ كذا ـ .

وعلى الرغم من أنه لم يشر الى القضايا السياسية ، فانه صيّرنا ندرك أن حامية ما بعد الحرب يجب أن تتألف من فرقتي مشاة ولواءي خيالة ، كما كان يذهب الى أن قوة بهذه السعة ، لا تكفي للمحافظة على الأمن والنظام .

إن طابع رسالة كهذه والاتفاق عليها من الأموال العامة وتعالج قضايا هي خارج اختصاص وزارة الحرب ، وبأمر من مجلس الجيش ، ومن قبل (دائرة القرطاسية) ، لأمر سيبقى تفسيره متعذراً . وكنت أعلم أن وزير الدولة لشؤون الهند ، باعتباره (الوزير المسؤول) لم يستشر ، كما كنت على يقين من أن وزير الدولة لشؤون الحرب (مستر ونستن چرچل) لم يرَ الكراسة بقدر ما اتصل بعلمي . الكراسة التي تناهض آراؤه وآراء الوزارة الأئتلافية أيضاً ، ثم آراء رئيس هيئة الاركان الانبراطورية سر هنري ويلسون . إن الحادثة لمثل يستأهل الذكر ، ولكنه ليس الى الحد الذي شهده جهاز الحكومة في (واينهول) في حزيران سنة ١٩٢٠ من تفكك .

وفي حالة انعدام أية امكانية بصدد اصدار قرار مبكر حول مستقبل العراق ، ليس لنا إلاّ أن ندأب على ادارة البلاد ، على أفضل وجه نستطيعه ، بشكل وقتي ، وعلى آساس تختط لتيسير تسليمها الى نظام جديد عندما يحين الوقت .

وكانت الاراضي المحتلة تنقسم لمقاصد الادارة الى ١٦ لواء(٩) كل

في أيلول سنة ١٩٢٩ : « ان تهمة نقض العهود التي يتهمنا بها الوطنيون العراقيون لا تخلو من حق » . (المترجم)

(٩) هي : العمارة وبغداد وبعقوبة والبصرة ودير الزور والديوانية والدليم والحلة وخانقين وكركوك وكوت العمارة والموصل والمنتفق وسامراء والشامية والسليمانية . (المؤلف)

منها بأمر حاكم سياسي يتخابر مع المفوض المدني مباشرة ، ومع سكرتيري هذا المفوض المولجين بشؤون الواردات والمالية والعدل والاشغال العامة والصحة وسائر الدوائر الأخرى ٠

إن الدوائر التي كانت تابعة لدائرة الواردات هي : الري والزراعة والمساحة والتسجيل العقاري ٠ أما الدوائر التابعة للمالية فمنها : الكمارك ومطابع الحكومة والتجارة ٠ وكانت دائرتا الصحة والحجر الصحي وشعبة الأنواء الجوية بإمرة سكرتير الصحة ٠ وكانت النية منعقدة على أن يقوم سكرتير الاشغال العامة بالاشراف على دائرة السكة الحديد وميناء البصرة عندما يتم انتقالهما الى (الادارة المدنية) ، وعلى المستودعات والمذاخر المدنية والبرق والبريد ٠ وحتى تعيينه بقيت تلكم الدوائر ودائرة الشرطة (الرائد بريسكوت) ودائرة المعارف (الرائد بومن) تحت سيطرة المفوض المدني مباشرة ٠ إنه لنظام مركزي جيد على الورق ، أما في الواقع فكان ثمة لا مركزية حقة ٠ إن الحكام السياسيين الذين نيطت بهم الألوية رجال من ذوي الكفاية الحقة والخبرة الواسعة ٠ وكان السكرتيرون(١٠) هم: هول (للواردات) وماي (للمالية) وسر بونهام كارتر (للعدل) والعقيد باتي (للصحة) وهؤلاء من كبار الموظفين الذين لهم سجل ممتاز في كل ناحية من نواحي اختصاصهم ٠ وكانت دوائر الشرطة والتسجيل العقاري والوقف، على التتابع ، بإمرة (بريسكوت وبويدز وكوك) الذين أصبحوا بعد عشر سنوات مستشارين مسؤولين لحكومة العراق في الدوائر نفسها ٠

كانت دوائر الواردات معنية بالقضايا الآتية : واردات الاراضي ، ضريبة الماشية (الكودة) ، الواردات الخاصة والمنوّعة ، المكس المفروض على المشروبات والأفيون ، الطوابع (باستثناء البريدية منها) ، الديون العامة ، انحصار التبغ ، التسجيل العقاري ، المساحة ، الأراضي (شؤون

---

(١٠) كان يطلق علي كل منهم اسم (ناظر) ٠ (المترجم)

الملكية والتأجير والعلاقات بين المالك والمستأجر) ، السلف التي تمنح للمزارعين ، مشاريع الزراعة والري والبلديات (باستثناء بغداد والبصرة).

من هذا يتبين أن اسم (دائرة الواردات) فيه شيء من التضليل . إذ يصح اعتبارها (دائرة وكالة الأرض) ، باعتبار أن العراق كله ملك يحتفظ به أمانة للحكومة القابلة .

كان كل حاكم سياسي يمثل السلطة السياسية الرئيسة في لوائه ، ومجموع أعماله كانت تدخل في باب الواردات ، على ما وصفنا .

وكان سكرتير المالية مسؤولاً عن الميزانية وأمور الصرف وقضايا العملة ويقوم بانجاز المعاملات المالية للدوائر المدنية والعسكرية معاً. وكانت أولى الاجراءات المتخذة انتقاء هيئة من الكتّاب وتدريبها لتصبح مؤهلة لاجراء المعاملات الحسابية باللغة العربية . كان الطلب التجاري المنصبّ على المتعلمين العرب ، لحين من الوقت بعد الحرب بدرجة تجعل من المتعذر على (الادارة المدنية) أن تنافس الرواتب المعطاة . إذ أن منحها رواتب ضخمة يؤدي الى إرباك مقاييس (المشاهرات) للادارة كلها . لذا وللضرورة المالية تقرر استخدام الكتّاب الهنود في الوقت الحاضر لحين الحصول على كتّاب يتكلمون العربية ويخدمون (بمشاهرات) مناسبة .

وكان وضع دائرة العدل مرضيّاً ، فكل من كان فيها من الضباط البريطانيين هم من دُرّاس العربية وذوي خبرة بالبلاد التي تتكلم العربية. وكان في استطاعتها أن تحصل على حاجتها من الكتّاب من بين المدنيين، شأنهم شأن كبار الموظفين الذين كانت تحتاج اليهم . وكانت دائرة الوقف تابعة الى سكرتير العدل ، كما كان (المجلس العلمي) ينظر في القضايا المتصلة بسياسة الوقف وهو مجلس من رجال الدين العرب الثقاة . وكانت هناك شعبة تشريع وترجمة يرأسها مدوّن قانوني و (المدعي العام) و (محامي الحكومة) للقضايا الاستشارية والقضاة .

وكانت المحاكم المدنية ، عموماً ، تتبع نظام المحاكم النظامية السابقة التي كانت على النمط الفرنسي . وتشكلت في بغداد محكمة بداءة من ثلاثة حكام ، شأنها شأن البصرة وبعقوبة والحلة والموصل. وكان في كل محكمة منها رئيس بريطاني وحاكمان عراقيان ، باستثناء المحكمة الثانية في بغداد التي كان يرأسها حاكم عراقي يهودي .

أما محكمة الاستئناف التي كان يرأسها حاكم بريطاني ، فكانت ببغداد . أما محاكم الصلح فجرى تشكيلها في الالوية الرئيسة ، ونيط تصريف شؤون العدل في الالوية التي يقل فيها الاستيطان بالحكام السياسيين بموجب تعليمات خاصة .

أما المحاكم الشرعية فأعيد فتحها في أي مكان وجد فيه عدد كبير من السكان السنّة للنظر في قضايا الزواج والطلاق والإرث وغيرها من الأحوال الشخصية لطائفة السنّة المحمدية . كما أسّس ببغداد (مجلس تمييز) للنظر في القضايا المحالة عليه من قبل تلك المحاكم . وكان المجلس مؤلفاً من ثلاثة من القضاة العرب . أما القضايا المتعلقة بطائفة الشيعةفكانت تمارس من قبل المحاكم المدنية التي ألحق بها رجال الشرع الشيعة علىغرار ما تمارسه المحاكم الشرعية السنّية .

وكانت محاكم الجزاء في كل لواء مؤلفة من :

(١) محاكم فيها ثلاثة حكام يرأسهم رئيس محكمة البداية في الأماكن التي توجد فيها محكمة مدنية ، وفي غيرها حاكم من الدرجة الاولى .

(٢) محاكم فيها حكام من الدرجة الاولى والثانية والثالثة يستطيعون اصدار أحكام السجن لمدة لا تزيد على سنتين ، وستة أشهر ، أو شهر واحد، على التتابع .

وكان (المفوض المدني) يمارس سلطة التصديق على الأحكام أو نقضها ، يعاونه في ذلك السكرتير القضائي .

وكان من حق القائد العام ، بناء على مشورتي ، أن يصدّق الاحكام الخاصة بالاعدام أو اسباغ الرأفة على المحكومين . ولم ترفض إلاّ مشورة واحدة قدّمت اليه ، ولم يفارقني الندم على أنني لم أجعل من مناسبتها قضية ثقة . وعندما حُمّلت عبء هذا الواجب كجزء من النظام العدلي ، شعرت بأن واجبي يقضي بحضور تنفيذ أحكام عدة وأن أستمع اليها شخصياً ، حسب الامكان ، الى استرحامات الرأفة التي يعرضها المحكومون وذووهم . إن هذه التجارب المريرة لم تزعزع ثقتي بضرورة وجود حكم الاعدام ، لكنها ساعدتني في أن لا أغفل عن الرحمة . وقد كبر هذا النهج في أعين الناس ، بقدر تعلّقه بالقرار الذي نشر فيهم أخيراً . ولعله زاد من عدد القضايا التي يؤجل فيها التنفيذ من دون أن يكون في ذلك ضرر بالسلامة العامة .

وكان القانون الذي يطبق من قبل محاكم الجزاء هو (قانون العقوبات البغدادي) الذي يرتكن في شطر منه الى قانون العقوبات العثماني المستقى من (قوانين نابليون : (Code Napoléon) : .

كانت الشعبة القضائية على حظ عظيم بسبب من وجود رئيسها الأول: العقيد نوكس المنسوب الى الدائرة السياسية الهندية ، وهو محام وقاض ذو خبرة كبيرة ، ومن ثم بخلفه سر ادكار بونام ــ كارتر الذي كان يتمتع بالتجلة والاحترام وأدرك نجحاً باهراً في وضع قانون تشريعي على آساس رصينة ، وبقي شامخاً على الزمن فلم تطرأ عليه إلاّ قلة من التغييرات المهمة منذ يوم وضعه .

وفي كانون الثاني من سنة ١٩١٩ كتب يقول : ومهما شابت في النظام القضائي من هنّات ونواقص ، فان منشور الجنرال مود اتّبع بأمانة « لقد وضعت آساس النظام القضائي تحت الاشراف البريطاني ، ولكن على أيد عربية ، وعلى أساس قوي من القانون الوطني وعادات الناس » .

وكانت دائرة الصحة تعنى بقضايا منها شؤون الموظفين الطبيين وحفظ الصحة ، وصحة المدن والمأكولات والمشروبات (بقدر تعلّق الأمر بنوعيتها وبغشها) وتسجيل الولادات والوفيات وتسجيل ممارسي حرفة الطب ، والصيدليات والقوابل ، والأمراض المعدية والتلقيح ونقل الزوار والجثث، من فارس والهند ، والحجر الصحي والمارستانات والسجون والاصلاحيات .

وما كانت دائرة المعارف بأقل حظاً سعيداً من دائرة العدل ، فلقد كان يرأسها بومن المنسوب الى دائرة المعارف المصرية والذي غدا مديراً لدائرة معارف فلسطين أخيراً .

إن له شخصية موحية وله حماس المبشّر ، وكل ذلك مكّنه في أيام الحرب التي تمزق الروح من تنظيم دائرته وانتقاء موظفيها من العراقيين حصراً ، مع مراجعة كل من السودان ومصر في حالات قليلة . وكان عندنا في كانون الاول سنة ١٩١٨ : ١٢٥ من المعلمين ، وفي نهاية سنة ١٩١٩ كان على قائمة المشاهرات (الرواتب) نحو : ٣٠٠ . ولم يهمل التعليم التجاري أو الصناعي وقبل نهاية السنة تأسست دار المعلمين في بغداد ، ثم جاءت في أعقابها مدرسة حقوق سنة ١٩٢٠ .

والى مبادأة الرائد بومن يرجع تأسيس (مخزن الكتب) في السراي تحت ادارة الراحل مستر مكنزي المتوفى سنة ١٩٢٨ ، وقد خلفه في ذلك شقيقه . ومستر مكنزي هو من محبّي الكتب وخبير ببيعها أيضاً . ولقد بدأ العمل بقرض من الخزانة المدنية فاقتنى كمية كبيرة من الكتب الشاملة لجميع نواحي المعرفة تقريباً ، العامة منها والتقنية . وكان الطلب عليه يفوق ما كان يأمل وازدهر العمل كثيراً حتى جاءت سنة ١٩٢٤ إذ جرى رفع السيطرة عن المشروع فحصل عليه مكنزي بشروط مفيدة له ولحكومة العراق على حد سواء .

ومن الدلائل الداخلية والخارجية معاً لا يشك في أن نظام التعليم في العراق تحت الحكم العثماني لم يكن مرضياً الى أبعد حد . صحيح أن

مدارس حكومية وجدت خلاله في جميع المدن المهمة ، كما وجدت دور معلمين في بغداد والموصل والبصرة ومدارس صناعية في مركز أو مركزين. وكان على رأس الكل وزير المعارف في اصطنبول . وثمة هرم من المديرين ومقراتهم وهيئة تفتيش في كل ولاية . وكانت التعليمات المتعلقة بالمناهج والضبط والربط والدوام وما شاكلها – جيدة على الورق – ومطبقة ، وبالنسبة للمراقب الخارجي ، في الأقل تراءت أن الاتراك أخذوا في آخر الأمر يعنون بالتعليم على غرار من انصرف اليها في أوربة وامريكة .

إن نتائج النظام على ما وجدناه ، مبعث الأسى . وشباب البلاد كلهم على التقريب من دون تعليم حق . انهم لقادرون على التكلم بالتركية والكتابة بها ، ولهم إلمام بمبادىء التأريخ والجغرافية والحساب ، لكنهم ، على العموم ، لا يستطيعون كتابة رسالة بالعربية من دون أخطاء نحوية واملائية . وما كانوا يعرفون شيئاً من الرياضيات والعلوم أو عن تأريخ العالم القديم أو الحديث وجغرافيتيهما ، ولا عن الآداب أو الفن أيضاً .

واسترعى انتباهنا منذ أيام الاحتلال الأولى أمر تعليم الأطفال . فلقد أعيد فتح المدارس الابتدائية الحكومية في البصرة وفي جوارها المباشر سنة ١٩١٥ . وأسست ببغداد سنة ١٩١٧ دار المعلمين ، ومدارس ابتدائية فيها وفي غيرها ، واعتمدت منح للمدارس الأهلية (الطوائف) اعتباراً من سنة ١٩١٦ فصاعداً⁽¹¹⁾ . ولم تختط سياسة تعليمية ، وينسّق النظام التعليمي إلاّ في أيلول سنة ١٩١٨ حين تأسست (المديرية) أول مرة .

---

(١١) كنت أعلق شخصياً أهمية عظمى على المدارس الاهلية (الطوائف) وأشجعها وما كنت أؤمن بامكان ادخال نظام التعليم الاجباري أو أعدّه شيئاً مرغوباً به ، وذلك على أسس غير طائفية التي تجري عليها مدارس الدولة في بد وجدت فيه أقليات رسّية ودينية لمدة عشرين سنة أو أكثر ، وقامت حضارته ونظامه التربوي على قاعدة دينية . ان فكرة الدولة

←

إن مثل هذا النظام القائم وراء ظهرنا جعل اتخاذ الخطوات الأولى أمراً عسيراً . وكان من البيّن أن النظام القديم يجب أن يزال من الوجود تدريجياً ، وأن يقام محله نظام متماسك رصين يتّسم بالديمومة ، لكن هذا يتطلب وقتاً ومالاً وكلاهما معدومان . ومن الجلي أن على الحكومة أن تقوم ببداية وتصطنع لذلك بما لديها من مادة ميسورة . وكان أن تقرر البدء بالتعليم الابتدائي وفتح مدارسه في الأماكن التي تكون فيها الحاجة ملحّة . إن الحاجة الرئيسة وجود المعلمين الأكفاء ، فلقد امتصت الحرب جلّ المعلمين الاتراك ، ومن بقي منهم لا فائدة ترتجى منه إلاّ قليلاً . وكان أن عيّن الأخيرون في أي وقت تسنى فيه تعيينهم ، واستطاعت مدرسة التبشير الامريكية في البصرة ، ودار المعلمين ببغداد من بعدها أن تخرّج رجالاً ، على الرغم من أنهم أبعد من أن يكونوا أكفاء ، فإنهم أفضل ممن دربهم الأتراك قبلاً . واتبعت هذه السياسة من دون انحراف حتى نهاية سنة ١٩٢٠ . وعلى الرغم من الطلبات والانتقادات رفضت (الدائرة) إجراء أي شيء في باب « التعليم الثانوي » ما لم تتأكد أولاً من وجود مدرسين أكفاء وثانياً من أن المادة البشرية الميسورة لدينا على استعداد كاف للإفادة . وكان التعليم الثانوي في العراق في عهد طفولته ، محصوراً في بعض مدارس الطوائف (الأهلية) ، ومنها مدارس الالبانس الاسرائيلية في البصرة وبغداد ، والمدرسة التبشيرية الامريكية في البصرة ، ومدرستي اللاتين والكلدان ببغداد . وكانت النية معقودة على ابتعاث التعليم الثانوي

الموحدة تراءت غير عملية وغير مرغوب فيها . ان الخطوط العريضة التي اتفق عليها هي على الوجه الآتي : (١) تدار المدارس من قبل الرؤساء الروحانيين وأن يكون المعلمون من الروحانيين . (٢) يكون المنهج الدراسي خاضعاً الى الاتفاق بين دائرة المعارف والرؤساء الدينيين . (٣) يكون نقل المعلمين من دون موافقة الرؤساء الدينيين . (٤) يتفق بشأن الكتب مع الرؤساء الدينيين .

(المؤلف)

في المدن الكبرى وجعل الدراسة في المدارس الثانوية أخيراً في خاتمة المطاف الى وظائف الحكومة •

ولم يكن هناك تعليم عال بالمعنى الحق • لكن محاولة جرت لاعطاء التدريب في بعض نواحيه نمطاً متقدماً وحيث دلت الظروف على الحاجة اليه ، وعلى الخصوص في دار المعلمين والمدرسة التجارية ، اللتين كانتا ببغداد • وما كان في أية واحدة من المدرستين طالب عنده تعليم مسبق كاف يؤهله الى متابعة دراسة متقدمة جداً ، لكن التعليم كان يجري على أساس أوسع مما هو في المدارس الأخرى ، وكانت الدراسة ، وأمدها سنتان في حالة ، وثلاث سنوات في حالة أخرى ، قد نظّمت لتوائم قابلية الطلاب•

وما كان التعليم النسوي تحت حكم الاتراك معروفاً • وكانت مدارس الاناث مقصورة على هذه التي تنظمها الهيئات الأهلية (الطائفية) بالدرجة الأولى ، وأخص بالذكر منها (الاليانس الاسرائيلية) و (أخوات الرحمة الفرنسيات) • أما مدارس البنات المسلمات فكانت قليلة ، ومتأخرة جداً وما كانت لتعلو على رياض الأطفال كثيراً • وكانت للرائد بومن بداية حذرة ، لكن تقبّلها كان مريجاً • إن تزويد المعلمات كان أمراً أدّاً شاقاً ، فالنسوة المسلمات المنحدرات من أسر طيبة ليس من اليسير حملهن على ترك قرابتهن في سبيل العمل في مجتمع يعج بالغرباء •

وكانت (الدائرة) تعدم البنايات والكتب والاثاث ، وليس أقل من ذلك حماس المدير وموظفيه(١٢) ، سواء أكانوا من البريطانيين أم من العرب • إن ذيوع اسم الدائرة وشيوعه في الناس طراً جعل التقدم أمراً اضطرارياً • ومع ذلك ، فاني مشفق من أن ليس هناك إلاّ قليل شك في أننا تلبية الى الفصل في الأمور التربوية ، سرنا سريعاً • وما كان مردّ ذلك الى الغريزة

---

(١٢) كانت مديرية المعارف مسؤولة في أيلول سنة ١٩١٨ عن تنظيم معرض فني ممتاز • (المؤلف)

الانكلو – سكسونية التي تنشد الكفاية ، أو الى حماس الرائد المتألق الغامر ، لكنه الى الطلب الشعبي الملح ، وهو ما كنا نشعر بوجوب تلبيته ذلك الى أقصى ما نستطيع ، انه في ذلك وفي غيره من الأمور سواء . هذا وان المشكلة الكبرى كانت إيجاد المعلمين دوماً . لقد ثبت ان نوعيتهم كانت على طرفي نقيض وعددهم ، وأن من كان منهم أعلى في رفع عقيرته بالمطالبة بمدارس أخرى كان هو أول من ينتقد نوعية المعلمين الذين أوفدوا لتدشين النظام الجديد .

كانت وساطة التعليم في جل المدارس الأولية والابتدائية العربية . على ان التركية والفارسية والكردية كانت تستبدل بها في المناطق التي تكون هذه اللغات فيها سائدة . وكانت العربية تدرس في المناطق الأخيرة باعتبارها لغة ثانية ، على حين كانت الانكليزية تقدم في الأماكن التي تمس فيها الحاجة اليها حسب .

وكان أمر التعليم الديني عسيراً معسراً جداً . فمن جهة ما كان يصر على ان (الادارة البريطانية) يجب أن لا تؤيد على القطع أي تعليم ديني غير مسيحي ، ولو تراءى أن ذلك غير صالح في بلاد مسلمة بالدرجة الاولى ، فالأولى نبذه كلياً . على أنه من الجهة الأخرى ، ظهر من تجربة حديثة أن منهجاً لا يحتوي على تعليم ديني يفتقد عناصر ضرورية لتنشئة الطفل وقد عرف هذا « بالتعليم اللا طائفي » ، أو أنه تعليم يتناول القواعد الخلقية والمعنوية المحضة . لقد خاب هذا النوع في إدراك هدفه بسبب من غموضه ، ولأنه لا يرتكن الى قاعدة دينية محددة . لقد استندت (الادارة المدنية) الى الحجة الأخيرة فاختطت لها سياسة محصلها تعليم كل طفل الدين الذي يعتنقه أبواه . وعلى الرغم من الانتقاد الذي انهال على هذه السياسة من بعض جهات السياسة ، لكنها حظيت بالرضى العام .

وجرت محاولة ، لم تعدم التوفيق ، في سبيل وضع منهج ديني للمسلمين ،

وقـبل المنهج من دون تذمر • أما في المدارس التي بلغت عدة طلبتها من طائفة ما الربع فأكثر، فلقد عيّن معلم على حساب الحكومة ، واتخذت الترتيبات اللازمة ليتعلم الطالب في بيته أو في المدرسة دينياً ، وفي مثل هذه الحال يدفع الأبوان للمعلم معاشاً ، ووضع المنهج الديني في المدارس المسيحية الحكومية في الموصل من قبل الرئيس الديني الأعلى ولم تتدخل فيه (الادارة) أبداً • ومن نافلة القول أن نذكر أنه لم يجبر أي ولد ينتمي الى طائفة ما على الاختلاف الى درس ديني يتعلّق بطائفة أخرى ، لكن المبدأ المقرر كان يلزم كل ولد في مدرسة حكومية على أن يتلقى درساً دينياً منبثقاً عن دينه الخاص ، عدد حصصه بقدر ما هو منصوص عليه في جدول الأوقات المدرسية تماماً •

وجاوز حماس (الرائد بومن) الطاغي حدود الصفوف المدرسية والمشاغل • فلقد نظّمت وحدات الكشافة ، فكان لكل وحدة بزتها الخاصة وشعارها الخاص ، ضمن كل طائفة دينية ، وصبّت كل محاولة ممكنة لابتعاث « الروح الكشفي » • ولم تلق الحركة رواجاً ، بعامة ، فقد أحاق بإدخال الكشفية ما يحيق بالأساليب الحديثة عندما تدخل بلداناً عريقة • لكنها كانت نافعة بالدرجة الأولى بسبب من الافكار الجديدة والاحساس بالضبط والربط ، وكلها لازمة لشباب العراق ولمن في غيره من البلدان من شباب أيضاً •

لقد وصفت عمل مديرية المعارف بشيء من اسهاب ، ولم يكن ذلك بسبب من أهميتها الجوهرية ، لكنه بسبب ما يتراءى لي ، وأكثر ما يتراءى بالنسبة للدوائر الأخرى ، من أن ذلك يجلي الروح التي كانت تغمر(الادارة) وهي ماضية للقيام بواجب جبّار (هرقلي) وأعني به خلق دولة جديدة وتكوين أمّة حديثة •

وفي ظل الحكم التركي كان كل ولد يختلف الى المدرسة ملزماً بارتداء

الزي الأوربي و(الطربوش) ، وبتحية العلم التركي ، ويتعلم باللغة التركية • وشجعنا ارتداء الزي العربي وتكلم اللغة العربية أو أية لغة أم" أخرى طبقاً للسان الطلبة • وما كان هناك من علم يحيّا ، ولم نستبدل العلم التركي بالعلم البريطاني ، كما لم يكن أي حاكم سياسي ، أو حتى (المفوض المدني) مخو"لاً بأن يرفع العلم البريطاني ، كان ذلك حكراً على (جيش الاحتلال) والقائد العام فقط • وعملنا حسب الامكان ، في خضم شكوك السياسة الدولية على اعطاء الادارة صفة قومية أصيلة • واني ليخامرني شك أن في الامكان أن يُنجح نحو هدف إقامة (حكومة عربية) بأسرع من ذلك •

إن نسيج المجتمع قد اهتز حتى أساسه ، وما كان هذا الأساس إلا" أقل عمقاً وتأصلاً من حيث العرف والعادة بالنسبة الى الكومنويلث الاوربية • وعلى غرار ما قال (بندار) : قد يهز الوضعاء دولة ما لكن معاودة الاستقرار الى الدولة المهتزة لعمل جبار • ما لم يرشد الله ذو الرحمة لتحقيق ذلك •

لقد أخّرت ، حتى مرحلة متأخرة من سرد هذه القضية والاشارة المفصلة الى الفاعليات المشتركة الخاصة بجيش الاحتلال والادارة المدنية ، بقدر تعلّق الأمر بتنفيذ المسوح وانشاء السكك الحديد ونماء البصرة من (مرسى) على نهر واسع الى ميناء مجهز تجهيزاً عصرياً •

لقد اختلط العمل في كل حالة بمقياس ، لولا ظروف الحرب الخاصة ، لكان متفوقاً على موارد البلاد كلياً • لقد كان من ضرورات الحرب ، ولو لم يؤخذ به لما تسنى طرد الاتراك من البلاد ، لذا ورثت (الادارة المدنية) ، والحكومة العراقية من بعدها من تراث الجيش ما هو ذو قيمة كبيرة وفائدة مباشرة ، لكن دفع ثمنه بأكثر الاسعار اعتدالاً كان أمراً لا تستطيع قدرة البلاد المالية اليه سبيلاً •

ومن بين هذه المآثر يجب أن يذكر ما قامت به (مساحة الهند) التي جادت ، منذ طالعة الأمر ، الموظفين اللازمين لجماعات المساحين العسكريين ،

ثم الى (الادارة المدنية) في فترة من الزمن لاحقة • وكانت (لجنة الحدود) خلال السنوات الست من سنة ١٩١٤ عاملة على تخطيط الحدود بين تركية وفارس من الفاو شمالاً • وقد ألحقت باللجنة المذكورة جماعة مساحين بإمرة العقيد رايدر المنسوب الى (مساحة الهند) وكان ان قامت هذه الجماعة بوضع خارطة لبقعة ضيقة من الاراضي كائنة على جانبي خط الحدود من الفاو حتى ارارط • لكنها لم تستطع إلاّ الأقل من الأهمية العسكرية التي ستكون عليها خرائطهم بعد أشهر قليلة •

وفي نهاية كانون الاول سنة ١٩١٤ ، وصل العقيد بيري المنسوب الى (مساحة الهند) ومعه مساحان ، سرعان ما بدءآ عملاً منهجياً من التثليث ووضع الخرائط المفصلة للمناطق التي لها أهمية عسكرية ، وقد اتسع هذا العمل وامتد الى كل جهة ممكنة عملياً • وضرب العقيد بيري ، الذي أنيطت به هذه العمليات بوجه دائم تقريباً من أول سنة ١٩٢٠ حتى نهايتها ، مثلاً عسكرياً محسوساً في باب معاناة الصعاب ، والتصميم على مجابهة الأمور الشداد ، والاستعداد لمعالجة كل شيء كلما سنحت الفرصة الى ذلك شخصياً • وكان على اتصال بالسر پرسي كوكس أو بي دوماً ، ومما يبهج القلب أن يستعيد المرء بذاكرته حماسه المهني المنصب على مسح أية منطقة، فوضع خارطة لها وذلك حالما يسمح الوضع العسكري أو السياسي بمثل ذلك ، ومن دون تعرض الى خطر ما •

واقتصرت المسوح ، خلال السنتين الأوليتين ، على الأراضي المجاورة لدجلة والفرات • إن في سقي هذين النهرين الأدنيين تقوم باسقات النخل التي تمنع رؤية جانبي كل منهما لمسافة تتراوح بين ميل وثلاثة أميال • ووراء حزام النخل هذا صحراء خفيضة معرّضة للغرق ، تمتد مسافة أميال، وللسراب تأثير أيضاً ذلك أنه يحجب الأشياء البعيدة الخفيضة ، أو يشوش مرآها ، لذلك لا فائدة منها كمعالم ولا جدوى • وفي شمالي القرنة مناطق

شاسعة تغمرها الأهوار ، كما أن في شمالي العمارة مناطق شاسعة أخرى تعدم المطر في الصيف ، لكنها خلال الشتاء تصبح مغمورة بالماء لا سبيل الى المرور منها • تتطلب المسوح الدقيقة ، في مثل هذه الظروف ، صفات خاصة قوامها التحمل ، ولم يجليهما أي صنف من صنوف القوة بأكثر مما جلاهما معاونو العقيد بيري، سواء أكانوا من الهنود أم كانوا من البريطانيين •

والى هذه الفاعليات أشار سر پيرسي ليك في رسالة مؤرخة بتأريخ الـ ١٢ من آب ١٩١٨ بالعبارات الآتية :

لقد قامت دائرة المساحة بعمل قيّم ، لا تظاهر فيه ، وتحت وطأة ظروف معاكسة غالباً • ومن مظاهر هذا العمل الملحوظة إنعدام الصدام مع العناصر المشكوك بها خاصة من السكان ، سواء أكانوا من المستقرّين أم كانوا من البداة ، والذين كانوا في الأرضين الممسوحة • إن هذه لحقيقة تفصح عن المشورة المهنية والمعونة المسدّاة من قبل الدائرة السياسية ، كما انها تجلي الحصافة والفطنة اللتان مارسهما موظفو المساحة •

وعندما جرى الزحف الأول على طيسفون في سنة ١٩١٥ رجا العقيد بيري أنْ يتقدم بمسوحه من علي الغربي شمالاً • وشعر سر جون نيكسون أنه ليس على أعداد الأحراس الضروريين بقادر وذلك بسبب عداء القبائل العربية السافر لهذا القرار ، لذا تعذر القيام بمسح دقيق للمنطقة الكائنة بين (الشيخ سعد) و (الكوت) ، وهو يفسّر : لِمَ كان الجيش، في كانون الثاني من سنة ١٩١٦ وخلال المحاولات اليائسة التي جاءت في أعقابها يعتمد على استطلاعات عاجلة ورسوم جوية • وعلى ذلك لم يكن عدم تزويد الجيش بالخرائط خطأ ارتكبته جماعات المسح ، وان (التأريخ الرسمي) إذ يثلب دقة الخرائط المزوّدة (موبرلي ٢ ص٣٢٢) فذلك يجب أن يفسر في ضوء هذا الايضاح • على الرغم من أن سر جون نيكسون لم يكن ، على وجه الاحتمال ، قادراً إلاّ على رفض تزويد الأحراس العسكريين ، فهناك سبب يحمل على الاعتقاد بأن في الامكان اعدادهم من العشائريين

لو أوعز الى الضباط السياسيين المرافقين للقوة بذلك ، ولا معدى عن شيء من ركوب متون الخطر ، ومثل هذا كان شيئاً مفيداً ، لكن سر جون نيكسون ، قد أغفل ، وهو المتفائل ، احتمال النكسة على ما يتراءى . ولو جرى تثليث ابتدائي ، لكانت قيمته القابلة، باعتباره أساس التصوير الجوي، لا تثمّن .

وثمة نقطة أخرى واهنة الشأن تتصل بتصريف الحرب أقضّت مضجع بعض الخبراء ، هي : تهجئة الأسماء . لقد خاب الضباط والجنود ، بوجه يدعو الى الأسف في التمييز بين حرفي (y) , (q) . ومهما كان من شيء فقد قضي الأمر فأصبحت (المكاصيص) وهو اسم حصن من طين (مقاصيص، Maqassis) التي توحي الى الذاكرة الأبهاء المرمرية . وغدا الشيخ غضبان ، حازّ الرقاب ، (Ghadhbban) : الزعيم . وأصبح من واجب (مساحة الهند) أن تبقي خرائطها سليمة من هذه الناحية . ولكن عندما أشغل الجند الطائش أنفسهم بابتداع أسماء جديدة ، أو حاولوا الرجوع الى الكتاب المقدس باعتباره ثقة في بعض المواقع الصغيرة في البادية ، من أمثال (برك سلوم) و(زوج لوط) أو (برج بابل) أو (عمود الملح) غدا الأمر أشد خطراً ، وكان على دائرة مساحة الهند أن تقوم بواجب رقابة حازمة . وعلى ذلك كان مما يبعث الغرور أن يجد الجيش أن (سدوم) و(كومّورة) المدينتين القديمتين اللتين يقال أن بقاياهما مدفونتان تحت البحر الميت ، قد عادتا الى الحياة في بلاد ما بين النهرين . لقد أدخل اسم كل منهما أول مرة في مخطط الفرقة الثالثة من قبل مستطلع هازل ، فقبلتها هيئة الركن ومقرات الفيالق . وكتب الضباط والجنود الى بلادهم عن أمجاد الماضي . وشاعت شهرة المدن التي أعيد اكتشافها وذاعت . وبعد أكثر من سنة أهملت هذه الأسماء في الهند ، لكنها اتخذت السبيل الى الصفحة المسماة (1/M Sheets) . وعلى ذلك استحالت (سدوم) الى (فورت سدوم) كما

جرى تهنيد (كمّورة) فأصبحت (كوماراة)(١٣) •

وكان ينظر الى تطور التصوير الجوي الجاري في ميادين أخرى بنظر الحسد في بلاد ما بين النهرين • وما كانت ثمة مكائن ميسورة له في الأيام الأولى ، وما أن وصلت قلة منها إلاّ تعذّر تسخيرها للتصوير المنهجي • ومهما يكن من شيء ، فلقد كانت ثمة بداية في بواكير سنة ١٩١٦ وجنبت منها تجربة ، وغدت المسوح على حظ كبير من خطر في مرحلة (الحملة) المتأخرة •

وبالإفادة من الوضع السياسي ، حسب الامكان ، تم إجراء المسح في جميع المنطقة المحتلة تقريباً ، أعني : جنوبي بلاد ما بين النهرين — الى الكوت على دجلة ، والى الناصرية وما وراءها على الفرات ، والى دزفول وتستر وشمالي الأحواز على نهر كارون ، ومن (أم قصر) الى الكويت — وكل ذلك لدى دخول القطعات بغداد ، وبلغت مساحة الاراضي التي تم مسحها بمقياس نصف بوصة أو بأكثر ، منذ كانون الثاني سنة ١٩١٥ ، ١٣٠٠٠ من الأميال المربعة وزيادة •

إن انتصاراتنا التالية أسفرت عن توسّع عظيم في التبعات المسحية ، إذ لم يكن هناك خط للمواصلات الممتدة من الكوت الى بغداد ، يتطلب التثليث وإعداد الخارطة له حسب ، لكن صلة تصل بالحدود الفارسية ، وأخرى الى الفرات وثالثة الى سامراء غدت مرغوب فيها أيضاً •و كان الطلب العاجل ، ينصب ، في الوقت نفسه ، على خرائط دقيقة لجبهات القتال الجديدة الجارية فيها حركات ، ذلك لأن هجوماً تركياً مضاداً كان مأمولاً ومرتقباً •

---

(١٣) وفي خاتمة المطاف سنة ١٩٢٥ شطب الاسم من الخرائط الهندية • لقد ذهب مجدها القصير وان بقي كان للالمان صيت الذين دأبوا على رد فضل (المسح الهندي) باستنساخ خرائطه جملة •
(المؤلف)

وقام العقيد بيري بتنظيم مركز تثليث جديد قرب بغداد ، تشعبت منه سلسلة من المثلثات نحو جميع الجهات الرئيسة • ثم كان ربط هذا المركز أخيراً بالنظام المرتكن الى البصرة ، ومدّ الى كرمنشاه والموصل وديرالزور وحلب •

وبعد (الهدنة) أرسلت مفرزتا شغل (levelling) من الهند للقيام بسلسلة من (اختبار الارتفاع والانخفاض بالشاقول) في المناطق التي يمكن أن تعمل فيها دائرة الري • وكان مجموع نتاج عملها نحو ١٠٠٠ ميل من شغل متواقت مضاعف أُستطيع خلاله تعيين ارتفاع نحو ٩٠٠ من علامات منضدة الشغل • وطبعت النتائج في كراسة شغل نشرت في دهرادن من أعمال الهند • إن حصيلة هذه الفاعليات وغيرها ، ومنها إعداد مسوح مفصلة بالتصوير الجوي للمدن الرئيسة ، هي ضرورة لدولة العراق ، وعيناها تتفتح للحياة لنظام تام من التثليث الرئيس ، والصغير شامل للبلاد كلها ، مصحوب بمعلومات صحيحة عن المستويات الكائنة على محاذاة الانهر الرئيسة والمناطق الصالحة للارواء ، وبمسوح صحيحة تضاف لها بمقياس نصف بوصة وبوصة لجميع المناطق الصالحة للزراعة والحدود تقريباً • وفي هذه الناحية يفوق العراق اليوم أية دولة آسيوية باستثناء الهند (البريطانية) • إن المسوح السليمة مقدمة لا معدى عنها للاعمار الاقتصادي ، مهما كان نوعه • لقد وضعت الآساس العلمية ، بصورة جيدة حقة ، ودرّبت هيئة من المساحين العراقيين الأكفاء للاضطلاع بالعمل • وسيظهر الزمن إن كانت الحكومة العراقية قادرة على الاستفادة من هذا التراث ، ومن غيره ، وقد تناهى اليها من العمل الصابر الذي صبّه من مشى على الدرب قُدماً في الأيام الأولى • لقد قيل ما فيه الكفاية لاظهار أنه لم يدخر وسعاً في سبيل تطبيق المعلومات العلمية الغربية منذ البداية لتكون نتائجها على طرف الثمام من الشعب فيستفيد منها •

ومن أوائل الامور التي شغلت بالي في انكلترة إيجاد الرجل الصالح لتسلّم تبعة الاشغال من الجيش ، شأنها شأن المواصلات في بلاد ما بين النهرين وبضمنها الري والسكك الحديد وميناء البصرة . من الضروري أن يكون مثل هذا الرجل جندياً ، ذلك ان الجهاز القائم كله كان عسكرياً. كما أن من الضروري أن يكون ذا سمعة لا شائبة فيها وذا رتبة عالية تساعده على التعامل مع الدوائر العسكرية ، على أساس الند للند كلها ، وكان من المرغوب فيه ألاّ يكون الرجل ممن خدم في العراق خلال الحرب الكويتية ، لكي يعالج المشكلات بعقلية جديدة طرية . واقترح سر جورج ماكدونوك الذي استشرته من وزارة الحرب ، اسم (اللواء) ثم السر ادوين تكنسون ، وهو من كانت له خدمة ممتازة في فرنسة ، وذلك باعتباره أفضل من يختار لها ، شريطة أن يحمل على قبول المنصب . وقابلته تواً ، وشرحت له الواجب الذي ينتظره مستقبلاً ، ووافق على أن يأتي العراق ليشغل منصب (سكرتير الأشغال العامة) شريطة أن يكون مفهوماً ، وأن تصبح (المواصلات) له ، في الوقت المناسب ، تابعة . وكان ان وصل في نهاية سنة ١٩١٩ ، وبه تمّت قائمة السكرتيرين في (الادارة المدنية) وفي الدوائر المختلفة . إنهم رجال تستطيع أن تعدّ حكومتي نفسها ، بهم سعيدة محظوظة ، لأنهم فيها أولو الحل والعقد .

وما كان لدى الجنرال اتكنسون إلاّ أقل وقت ليفعل أكثر من وضع الخطط لدائرة أشغال مدنية عسكرية مشتركة ، وللقيام بدراسة شاملة للمنطقة الكبيرة التي أنيطت به تبعتها وذلك كله قبل نشوب الاضطرابات سنة ١٩٢٠ . واسترعت قدرته التنظيمية اعجاب القائد ، لذلك استعار الجنرال اتكنسون مني لينيط به إمرة الرتل القائم بعملية شمالي البصرة . إنه أعظم من أن يبقى في العراق طويلاً ، لذلك عيّن في سنة ١٩٢١ مديراً للاشغال العسكرية في الهند ثم مديراً عاماً للتموين .

وفضلاً عن السكرتيرين الأربعة المذكورين في عاليه ، عيّنت العقيد باتّي ، المنسوب الى سلك الخدمة الصحية الهندية ، في اليوم الاول من نيسان سنة ١٩١٩ : سكرتيراً للصحة . وانعقدت النية على أن يشكّل منظمة تصبح ، في الحكومة الجديدة ، وزارة متكاملة ، وعلى غرار (وزارة الصحة) التي جرى تشكيلها في بريطانية العظمى في السنة نفسها . وكنت أطمح شخصياً الى ابتعاث تدريجي لسلك صحي كفء حقيقي ليقوم بتنظيف البلاد ويجهز على الأوضاع التي تبعث الأمراض ، وأوضاع المدن منها بخاصة ، ويقوم ، في الوقت نفسه ، بالاشتراك مع دائرة المعارف بتعليم الشعب كيف يحول دون سريان الاوبئة المروعة التي كانت تجتاحهم فيما مضى .

وطبيعي أنه لم يكن في الامكان القيام بشيء كثير في هذا الباب إلاّ في المراكز الكبرى ، ذلك أننا لم نكن بقادرين على دفع معاشات الموظفين ، كما لم يكن الاطباء المحليون ميسورين بأعداد كافية ، وإن سرنا دأباً جادين على تدريبهم قبل الهدنة بأمد مديد .

يجب أن نتذكر أن العراق ، من سنة ١٩٠٤ الى سنة ١٩٢٠ قد وبئ(١٤) ومني بأمراض معدية مستفحلة متتابعة ، أشرت الى بعضها في الجزء السابق من (مؤلفي) هذا . وكانت نسبة الوفيات عالية ، والبلاء نازل . لقد اجتاحت البصرة وبغداد أمراض : الطاعون والكوليرا والجدري والتيفوس ، شأنهما شأن المراكز الأخرى ، وغدت البرداء (الملاريا) أشدّ وطأة مما كانت عليه قبل الحرب ، ولعل مرد ذلك أن البعوض البلدي جاءته عدوى من (فايرس) ذي أشكال مستفحلة نقلته القطعات العسكرية من الهند وغيرها .

ودأبت على زيارة المستشفيات المدنية منذ طالعة أمر الحملة . إن المناظر

---

(١٤) وبئ البلد أي كثر فيه الوباء . (المترجم)

التي شهدتها والتقارير الواضحة التي وردت عليّ من كل منطقة ، والتي تتصل بالعجز والتردي الناجمين عن الضلالة وفقدان العناية الطبية ، كل أولئك كان له في ذهني أعمق الارتسامات • إن التعرّف على ما يعانيه البشر بوجه مخيف ، وهو أساس الحياة اليومية في آسية ، صيّر رغبتي الأولى أن يتصدر الطب وحفظ الصحة منهج ادارتنا المدنية ، فمن دون منهج صحي مدروس ، ومنفّذ بنشاط ، يغدو المال المنفق على التعليم ، والى أبعد حد ، مبدداً ، كما ان جهودنا في جميع المساعي الانسانية تصطدم بعقبات أيضاً • وكان ثمة سبب صحيح يحمل على أن سكان العراق كانوا في تناقص بطيء ، خلال حقب عديدة • إن الاجراءات الطبية والصحية هي السبب الرئيس في ذلك •

وحدث تقدم عظيم خلال الحرب • كان الضباط الطبيين القائمين بالواجب مع الوحدات المرابطة في المحطات الخارجة دائبين على بذل الجهود اللازمة لخدمة المدنيين • إن الضرورة الملجئة حملت على تنظيف المدن الكبيرة وزوّد عدد منها باسالة ماء الشرب النقي — وذلك على الرغم من عملية تنقيته بالكلورين ، التي لم تكن في الغالب جارية على وجه التمام — وكانت العملية هذه ، في الأحيان تنتج سائلاً مشبّعاً جداً ، مما جعل الأهلين يفضلون الطرق القديمة على الطرق الحديثة ، وما كان صنيعهم هذا من دون سبب معقول أبداً • وكان الضباط الاطباء المعارون الى (الادارة المدنية) على حظ من حماس ، ومعدل كفاية عال — ولو جاء أحد من طراز (روكفلر) في هذا الحين ، لكنا قد صنعنا الأعاجيب — وكانت اضطرابات سنة ١٩٢٠ سبباً في إنهاء مشروعات (العقيد باتي) القويمة المتقنة ، شأنها شأن مشروعات كثيرة أخرى • وما استطعنا إلاّ الحفاظ على هيكل ملاك في المراكز العظمى ، وكان الملاك هذا يتألف ، بالدرجة الاولى من اختصاصيين ، بضمنهم قلة من رئيسات المرضات والأخوات المرضات حصلنا على جلّهن

عن طريق (الوساطة الحميدة) التي قامت بها رئيسة ممرضات (قوة بلاد ما بين النهرين الاستكشافية) الآنسة بياتريس جونز ، المرأة المخلصة ربة الكفاية ، وما منها اليوم شيء ووأسفا • ومن المستحسن ، وإن جاء ذلك بعد عشر سنوات ، أن نسجل الأفكار التي انطوت عليها الاعتمادات الكبيرة نسبياً ، المرصدة تحت عنوان : الخدمات الطبية والصحية التي وردت في ميزانيتنا الأولى ، وأنها هي التي أثارت ثائرة دعاة سياسة العودة الى البصرة في السنوات المتأخرة •

لقد أشرت في محل آخر من هذا (الكتاب) الى ما بني لمقاصد حربية ، تحت اشراف سر جورج بيوكانن ، من أرصفة الميناء والسقائف في (المعقل) على بعد أربعة أميال شمالي البصرة بكلفة شاملة قدرها (٧٥٠٠٠٠) من الجنيهات • كانت هذه الأرصفة(١٥) التي ربطت بسكة حديد البصرة — بغداد بأخرة واجهة مستديمة على النهر طولها : ٤٠٠٠ من الاقدام وقد مكّنت ستاً من السفن عابرات المحيطات من تفريغ حمولاتها دواماً • كانت مبنية من خشب الساج ويجب أن تبقى عامرة حتى سنة ١٩٥٠ أو الى ما بعدها • وأقيمت أرصفة أخرى في (نهر عمر) على بعد ١٧ ميلاً ، شمالي البصرة ، وعلى نهر الخورة ، في أسفل العشار ، لكن بناء هذه كان خفيفاً كما كانت لمقاصد وقتية • كان القرار المتخذ بشأن بناء أرصفة في معقل منذ بداية الأمر أمر لا معدى عنه ، وذلك بسبب من مجرى شط العرب العميق ، وهو مجرى يستطيل هنا ، ولا في أي محل آخر ، الى مدى ميلين

---

(١٥) في كراسة نشرت سنة ١٩٢٣ انتقد مراسل جريدة الديلي ميل الخاص سر برسيفال فيلبس « ميناء البصرة » لقد تجاهل ، أو جهل ، تقرير سر جون هيويت ، أو الاشارات الواردة عن الموضوع في تقرير لجنة ما بين النهرين . ان عبارات الوقائع التي تضمنتها الكراسة مغلوطة غالباً كما ان استنتاجاته صبيانية واني لن ابدد قطرة حبر ، واستنفد صبر القراء ، في انتقاد آرائه أو آراء غيره ممن على شاكلته من العفاء القابلي • (المؤلف)

وتحت الضفة العالية للنهر بدلاً من أن يكون في منتصف الشط(١٦) • بنظره ان الموقع ملائم بحيث يمكن ربطه من دون عسر بخطوط سكة حديد الناصرية والبصرة ــ القرنة ــ العمارة ، كما أنه ييسر نقل البضائع والقطعات الى ظهور السفن النهرية ، وكان يربط الميناء الجديد بالمركز التجاري القديم طريق معبّد بالخرسانة يبدأ من معقل وينتهي عند العشار والبصرة •

وكانت ادارة الميناء منذ عهد مبكّر من عهودها ، مناطة بالكوماندر (ورد) المنسوب الى البحرية الهندية الملكية • وعندما أدمجت (دائرته) (بدائرة النقل النهري الداخلي) ، غدا يحمل طوال أيام الحرب رتبة عقيد وقتية في صنف المهندسين الملكيين ، واحتفظ بهذه الرتبة منذ ذلك الوقت حتى يومنا هذا • وكانت السيطرة على الميناء حتى ايار ١٩١٩ مناطة بمفتش المواصلات العام حصراً • ومنذ التأريخ المذكور حتى اليوم الاول من نيسان ١٩٢٠ غدا (العقيد ورد) المسؤول بازاء السلطتين : العسكرية والمدنية معاً • وفي اليوم الاول من نيسان سلّم زمام الأمر الى (الادارة المدنية) التي كانت من دون شك مثقلة حين ورثت ، لا الميناء الوحيد حسب والجهاز الذي يسيطر على (شط العرب) والحاجز أيضاً بل الجهاز الذي يصرّف أمورها جميعاً • ان (ورد) كان ولا يزال (١٩٣١) يشغل منصب مدير الميناء ومدير الملاحة العام ، رجل على حظ من الكفاية المشهودة • إنه في تقديري وفي ميدان التنظيم الدائري لا يبزّه إلاّ (بريسكوت) ، وذلك حق لا مراء فيه • وكلاهما موظفان في حكومة الهند ، رحّب ، بهما وبأغلب زملائهما ، العربُ ، سواء أكانوا من رؤساء الدوائر أم من الزملاء • لم يكن ثمة أساس أبداً لمزاعم كان يرددها (رجال لم يخدموا لا في الهند ولا في العراق)

---

(١٦) لهذا السبب أشغل المحل سنة ١٩١١ من قبل معتمدي شركة سكة حديد الاناضول لفصل مواد السكة الثقيلة الى بغداد •

(المؤلف)

محصلها : ان الضباط البريطانيين الذين يأتون من الهند غير صالحين، تدريباً ومزاجاً، للخدمة في أراضي العرب • لقد حصل (ورد) على شيء من التدريب في ادارة الميناء قبل الحرب حين كان يعمل في (البحرية الهندية الملكية) ومنها يستمد ضباط الموانى لاشغال مناصب الموانى الهندية الرئيسة • لقد طبّق خبرته معجلاً على الاوضاع البصرية الجديدة وجعل نفسه مطلعاً على كل نمط من أنماط الفاعليات المتصلة بعمله ، وسرعان ما امتد ذلك حتى شمل مسح النهر وتطهيره ، وادارة شؤون الفنارات والطوّافات في الخليج العربي • وفي غضون أشهر قليلة حوّل جهازاً ، كان يستهدف تلبية الحاجات العسكرية حصراً الى منظمة مدنية ذات كفاية ، منذ بداية أمرها بذاتها مكتفية ، وتسدي خدمة بأسعار خفيضة تقل بصورة محسوسة عن أسعار أغلب الموانىء التي من نوعها في الشرق • كان هدف (مديرية الميناء) الرئيس خلال الحرب التقليل من الوقت الذي تمضيه السفن في الميناء ، ذلك ان شحن السفن كان شيئاً نادراً ، فلم يتذمر أحد من صرف المال عليه أبداً • وأصبح أمر «الدورات» شيئاً عاجلاً ولم يدّخر مجهود في سبيل المحافظة على المعيار المقرر في خلال الحرب أو تحسينه • وجرى تحسين في تصميم السكة الحديد ، واكملت منطقة الترانسيت ، والمخازن ، وأسديت كل التسهيلات اللازمة للتجار في باب نقل بضائعهم من مخازن الميناء الى السفن النهرية مباشرة ، أو دفعها الى السكك الحديد لارسالها الى بغداد وما وراءها • إن الصعوبات الموروثة ازدادت بنتيجة عوامل خارجية ويذكر منها امتناع التجار ، من البريطانيين والعرب ، عن قبول النظام الجديد والإفادة منه على أفضل وجه • لقد كان مبعث ذلك في القليل، العمه المحض ، وفي الأكثر ، الى أن البيوت التجارية المختصة كانت قد استثمرت قبل الحرب مبالغ كبيرة من المال على الشاطىء الأمامي الكائن بجوار العشار ، جنوبي معقل ، وفي النقليات النهرية • إن بناء الأرصفة في معقل واكمال السكة الحديد صيّر هذه المملوكات تهوى مندثرة • وكانت

ثمة مصالح مركّزة عانت من جراء ذلك أيضاً • لقد نبذ سوق الحبوب القديم ووجد التجار أن خزن بضاعتهم في معقل أرخص من خزنها في البصرة • وحلّت الزوارق البخارية محل (الابلام) وأزاحت السيارات حمير البحرين ، والعربة التي يجرّها جوادان من المخيلة غير مأسوف عليها جميعاً • إن مثل هذه التغييرات نتيجة طبيعية للتقدم ، لا مفر منها ولا معدى عنها ، والى طائفة التجار العراقيين مردّ الفضل الأكبر في تكييف أنفسهم على استعجال ، وفق المتطلبات الحديثة في الجهات كلها(١٧) •

لقد تم تطهير الحاجز الطيني اليوم (١٩٣١) وذلك الى معدل عمق ٢٠ قدماً في الماء (M) الواطيء ، عند الخط الوسط ، وهو الذي يؤمن ١٠ أقدام من الماء المرتفع ، أي أن عمق الملاحة غدا ٣٠ قدماً ، وان مجموع ما طهّر من المواد حتى نهاية سنة ١٩٣٠ خمّن بنحو : ١٥ مليون طن •

ولم تظهر نسبة تجارة البصرة أي ميل نحو الازدياد ، ذلك ان الامتداد السابق خلل النقليات ، عبر بغداد ، الى فارس ، قد تحوّل الى حد ما الى جهات أخرى • لكن زيادة مطّردة طرأت في عدد السفن الداخلة الى شط العرب ، مسبّبة عن ازدياد نقليات عبادان •

ليس هذا محل سرد مسهب لنماء ميناء البصرة أو الملاحة في شط العرب • إذ هنا ، سار الابتعاث عموماً ، على الأساس التي وضعت سنة ١٩١٩ — ١٩٢٠ • إن النتائج تبعث من الوجهة المالية على الطمأنينة

---

(١٧) تجمعت ، عبر القرون ، رواسب عظيمة من الطين الذي يجيء به (الرافدان) الى شط العرب ، ابان فيضانيهما على وجه أخص ، فنشأ فيه حاجزان من الطمى يحولان دون سير البواخر ذوات الغاطس العميق ، أكبرهما عند ملتقى مياه شط العرب بمياه الخليج العربي وهو المقصود هنا — والآخر عند المحمرة (خرمشهر) •

راجع (رحلات .. الى العراق ج٢) لسر ولسن بج ترجمة فؤاد جميل ص٩ •

والرضا ، ولو امكن البدء بتنفيذ منهج من مناهج الصرفيات الكبرى على مشاريع الري ، متوافقة مع صرفيات معتدلة على البحوث الزراعية وتربية الحيوان وتحسين نوعه ، فليس هناك إلاّ أقل الشك في أن ربحها كان أكثر .

إن هذا لحق بلا مراء : فنظرة سر جورج بيوكانن ، صاحب المشروع الأصلي ، البعيدة ونظرة من كان يعمل معه ، و (الادارة المدنية) ، التي صيّرت نفسها مسؤولة عن إكمال سنة ١٩١٩ ــ ١٩٢٠ ، وطابق الخبر منها الخبر .

الفصل الرابع والعشرون

دائرة قسس الجيش الملكي العسكريين ، جمعية الشبان المسيحيين ، جيش الكنيسة ، حوانيت المعسكرات ، لجنة القبور العسكرية الانبراطورية .

> « ان هذا ، في رأيي ، هو النمط الفذ الذي نستطيع به تلمس هذه الاجتماعات . اجتماع الجنود في مخيماتهم لانشاد المزامير ، أو القاء السمع الى وعظ يتلوه عليهم أحد زملائهم ، ان ذلك على التجديد ليتسم بالبراءة التامة . وانه أفضل وجه لقضاء أوقاتهم ، بالنسبة الى سبل كثيرة أخرى يكلفون بها ويلتزمون . لكن الآية قد تنعكس ، ومع ذلك، فان الفساد قد يسري الى حد ما ، والضابط الآمر لا يعرف عنه شيئاً، ولا يستطيع أن يتدخل فيه أبداً . ان تدخله في آخر لحظة يتطلب أن تكون الحصافة به هادياً ، والا فسيكون ذلك سبباً في نجوم شر يفوق الخير المرتجى من وراء تدخله كما لن يكون عمله فعالا ، في أية حالة ، قدر ما يصدر عن رجل دين محترم . لذا أرغب في أن تنصرفوا بذهنكم الى هذا الموضوع ، بشيء أكثر ، وان كان قليلا ، وتنظموا خطة يمكن بوساطتها زيادة عدد رجال الدين المحترمين الأكفاء في الجيش » .

من دوق ويلنكتون الى مدير الادارة
في (القوة) في ٦ شباط ١٨١١

إن متطلبات الجيش في بلاد ما بين النهرين ، روحية وثقافية ، لم تختلف بوجه محسوس ملموس عن نظيراتها في الجيوش الأخرى العاملة في الميدان، خلال الحرب العظمى . لكن الظروف التي اكتنفت (حملتها) صيّرت هذه الناحية من نواحي حياة الجيش أشد خطراً .. لقد كانت القطعات ،

والوحدات البريطانية منها على الأخص ، معزولة عن بلادها ، وعن أعراف بلادها تماماً .. وكانت الاجازة التي تقضى في المملكة المتحدة تعطى في فرنسة بإسماح ويسر ، وعلى حين كانت في هذه البلاد ضرباً من المستحيل. وكانت الرسائل تستغرق من ٥ الى ٨ أيام ذهاباً وأوبة . إن وسائل الراحة المعيشية ، خلال السنتين الأوليين ، تكاد تكون معدومة تماماً ، وما كانت ميسورة ، في أي وقت من الأوقات ، إلاّ بنسبة قليلة .

كانت الحملة في بلاد ما بين النهرين عند بداية الحرب ، على ما شرحنا في محل آخر من كتابنا هذا ، تحت سيطرة حكومة الهند. وكانت(المؤسسة الكنسية الهندية) هي الجهة الوحيدة ، في الحكومة والكنائس ، القادرة على تزويد القساوسة العسكريين اللازمين للقوة . انها بالكاد قادرة على تلبية متطلبات السلم ، وما كانت لتستطيع تلبية حاجات قوة استكشافية كبيرة تماماً . وفي سنة ١٩١٤ كان ثمة قس عسكري واحد للقوة كلها ، هو (كيوان) وليس من القول المبالغ أن نذكر ان الجهود التي صبّها في سبيل أداء واجبه في ظروف عسيرة جداً هي السبب في صرم حبل حياته .وعندما زار مطران (لاهور) الدكتور دوران بلاد ما بين النهرين في أيلول سنة ١٩١٥ كان عدد القسس العسكريين : ٤ ، هم اورمنديبرج ، من كلكتا ، (مع الفرقة/١٥) ، وتيس ، من بمبي ، في البصرة ، وسبونر ، من كلكتا ، وبردج من مدراس (مع الفرقة/١٦) .

وكتب الدكتور دوران وكان موجوداً في حملة الكوت الاولى يقول : « ما كنا لنستطيع أن نعمل إلاّ قليلاً .لقد كانت القيادة العليا على تعاطف تام معنا وتعطف على ما كنا نعمل ، كما بلغ عطفها وعونها الغاية القصوى . وكان الجنرال طاونسند ، على وجه أخص ، راغباً في إقامة قداس كبير ، قبل الزحف على الكوت ، أي في حركة الحملة العظمى ,وحتى هذه المرحلة من مراحلها . وكان أن أقيم ذلك في (الصناعيات) ، في نحو العشرين من

أيلول ، فعلاً . طبيعي أن يقام ذلك في العراء ، وان ينتظم فيه الجنود على شكل مربع وتحوم الطائرات فوق الرؤوس عالياً . ولن أنس، ما حييت، الترتيلة التي حظيت بأن أتقدم بخطابها .... وفي كل صبح من صباحات ذلك الاسبوع كنا نحتفل بالسر المقدس (Holy Communion) وذلك في الاقسام المختلفة من المعسكر الكبير ، وكان يحضره عدد كبير من الضباط والجنود . ومن بين العدد الكبير الذين منحوا « التثبيت الديني » خلال زيارة المطران ، لقيت نسبة كبيرة منهم حتفها في المعركة ، التي تلتها ، ونضت عنها ثوب هذه الحياة الفانية . وكان القس سبونر أحد رجال حامية الكوت، وقد كتب الجنرال طاونسند عنه يقول (ص٣١٤) : كان لي خلال الحصار عوناً كبيراً ، ذلك انه كان هاشاً باشاً دواماً ، كما كان ، والنار الحامية تنهمر ، شجاعاً باسلاً كما كان الجنود يحبّونه حبّاً جماً . سأحمل له ما حييت تبجيلاً كبيراً ، وتقديراً وشغفاً . وكتب الملازم بيشوب (ص٢٥) يقول : من ملامح الكوت التي لا يمكن أن تنسى تلك الكنيسة الصغيرة التي أقامها قسنا في إحدى الغرف القليلة الباقية من غرف السراي المهدوم. لقد كان يعمل ، بجهد لا ينفد وهمة قعساء وذلك في كل ما يستطيع أن يعمله في المستشفيات ، إضافة الى واجباته الأخرى . وما كانت هذه الاشادات الوحيدات المعاصرات بحماسته وكفايته . وكان ثمة قس عسكري رومي عرفته (الحامية) في المدينة المحاصرة بأسم (الأب تيم) . وما كان القساوسة العسكريون يستطيعون ، خلال التراجع من طيسفون ، أن يعملوا أكثر من اسداء العون الى الاطباء وتخفيف شقاء الجرحى .

كتب المطران اللاهوري يقول : « كنت منحدراً في النهر على ظهر سفينة من طراز پي (P) ، وهو اسم يبعث ذكره الرعب والهول في كثير من الجنود الذين جرحوا في بلاد ما بين النهرين وكان على ظهر السفينة ١٨٠ من الجنود والضباط المثخنين بجراح بليغة وكلهم يحملون على النقّالات .

وما كانت لدينا أسرّة ، وكان الجنود يفترشون التبن متلاصقين الى حد لا تستطيع أن تمر بين صفوفهم من دون أن تدوس عليهم . وأصيبوا بقروح الفراش قبل أن يبلغوا البصرة ... وكان هناك طبيبان ، ولن أنس ما حييت ، ما جبلا عليه من ولاء مطلق ، يحمل على الاكبار ، مع مراسل ممرّض واحد فقط . وان كل ما كنت أستطيع عمله هو أن أخلع معطفي ، وأن أنصرف بكليتي لعمل يستطيع أن يعمله من هو غير مدرب في اسداء العون لخبراء في العناية بمن يعاني ويقاسي .

وكان من واجب (المطران) أن يكرّس القبور المعزلة . وكتب يقول بصدد الموضوع : ان ما يستقر في خاطري هو وجهة نظر الجنود نحو رفاقهم الراحلين . إذ لم تكن ثمة نازلة أعظم منها ، واعتادوا على أن يسيروا ، من تلقاء أنفسهم ، ميلاً اثر ميل ، عبر الصحراء ، وتحت سهام اوار بلاد ما بين النهرين المحرقة ، باحثين عن أمكنة سقط فيها بعض رفاقهم صرعى . وما أن كنا نصل اليها إلاّ كانوا يقفون بخشوع واجلال أمامها ، وأنا أقوم بتكريس القبر وأترحم على روح الجندي الراقد فيها ، وأكلّه الى رحمة الله تعالى .

وبصدد ما قام به القسس العسكريون خلال الشطر المبكّر من سنة ١٩١٦ ، وبقدر ما اتصل بعلمي ، ليس هناك من سجل تنصل ، انه ملخص في رسالة سر برسي ليك المؤرخة بتأريخ الـ ٣٠ من نيسان ، على الوجه الآتي : « أتوق الى تسجيل إحساسي العميق بالأثر الطيب الناجم في هذه (القوة) على يد القساوسة العسكريين ، على اختلاف طوائفهم . إن اخلاصهم في العمل وازدراءهم الخطر ، إبان قيامهم بالواجب ، يستأهل أسمى درجات التقدير » .

لم يبق في أن تضاف الى كلمات التبجيل هذه إلاّ أن نذكر أن قد ذكرت أسماء (١٠) من القسس العسكريين حتى نهاية سنة ١٩١٦ ، في

«الرسائل» كما ان أحدهم القس أديسن(١) قد مُنح صليب فيكتورية الحديد ، والآخر القس بيرج منح الصليب العسكري . كما قتل القس فولفورد إبان الحركات يوم الـ ١٥ من كانون الاول من السنة نفسها . وعندما تسلمت وزارة الحرب في تموز سنة ١٩١٦ وفي ظروف سلف القول عليها في محل آخر من هذا الكتاب تفصيلاً ، تبعة الحملة في بلاد ما بين النهرين ، أوفد القس العسكري جارفز (وقد غدا بعدئذ رئيس القسس العسكريين في الحملة كلها) لتحرير تقرير بشأن (دائرة القسس العسكريين) أنه ممن سبقت له خدمة في كل من غاليبولي ومصر . لقد وجد أن هذا الصنف واهن الشأن من حيث عدد من فيه ومن حيث التنظيم ، شأنه في ذلك شأن أغلب الصنوف الأخرى . وكان قساوسة كنيسة انكلترة العسكريون بإمرة مطران الأبرشية في الهند ، ومنها كانوا يفدون . ولقد كانوا معرضين الى الاستدعاء الى الخدمة المدنية من قبل مطارنتهم أنى شاؤوا . وما كانت واجبات رأس القساوسة العسكريين (جارفز)، على الوجه الواضح، محددة . وكانت قضايا الرتب تبعث المصاعب ، وما كان ذلك بسبب ان القساوسة العسكريين أنفسهم كانوا يعنون بمثل هذه الأمور ، لكن السبب أن أمثال هذه التفصيلات كانت عسيرة على قيام مؤسسة واحدة عاملة بمهامها . إن القساوسة الموفدين الى بلاد ما بين النهرين من (المؤسسة الدينية الهندية) كانوا يخضعون الى أنظمة الجيش الناصّة على أن القسس في الهند ليسوا بقسس عسكريين ، لذا فإنهم غير خاضعين للسلطات العسكرية . إنهم

---

(١) وذلك للبسالة المشهورة الباهرة ، فلقد حمل جريحاً الى ستر خندق وعاون آخرين وهم كثر على نقلهم اليه ، وذلك بعد أن ضمد جراحهم ونار البندقيات والرشاشات الحامية تنهمر ويتناثر شررها هنا وهناك . يضاف الى هذه الجهود المنفردة أنه كان يشجع ، باعتبارها مثلا ممتازاً غير آبه بالخطر المحدق به شخصياً ، حملة النقالات للتقدم تحت النار الحامية المنهمرة وجمع الجرحى . وبعد أن نال الوسام جرح على التعاقب في الحركات مرتين . (المؤلف)

قسس محطات ، وليسوا بقسس كتائب : وحيثما وجدت القطعات فان حاجتها الروحية بالنسبة لوقت القسس وعنايتهم ، لها الأولوية • وكانت التعليمات الخاصة بالقدم مما بينهم تختلف عما هو نافذ في بابها في (دائرة القسس العسكريين الملكية) ، وهي الدائرة التي زودت القوة بعدد من رجال الدين على اختلاف مذاهبهم • ومهما كان من أمر ، فان من حق القسس العسكريين الوافدين من الهند أن نذكر هنا ، أن قد كان لهم على العموم نفوذ بين الجنود بشكل يفوق نفوذ جلّ من وفد من انكلترة • كان هؤلاء في أغلب الاحوال يفتقدون الخبرة بالقطعات العسكرية • وعلى كل حال ، كان لا بد من تغيير جذري ، وما تلكأ الجنرال مود في إدخال نظام أفضل • لقد عيّن القس جارفز ، الذي خلف القس جيرفز رأساً للقساوسة العسكريين ، ونقل جميع القسس العسكريين والمبعوثين الدينيين من الهند ، لمدة الحرب ، الى دائرة القسس العسكريين الملكية ، شريطة أن لا ينالهم شيء يحط من مقامهم أو يقلّل من معاشاتهم ، كما ان خدماتهم لغرض التقاعد احتسبت وكأنها جارية في المؤسسة الدينية الهندية • لقد رفع هذا: الازدواجية والتضاعف في السيطرة ، وعلى ذلك أصبحت الكنيسة العسكرية طوال الحرب موحّدة • وجاءت النجدات من انكلترة على شريطة أن يستخدم عدد متفق عليه من رجال الهند دوماً ، كما ان استبدالهم يتمّ من الهند أيضاً • واحتفظ باحتياطي في بومبي ووضع رهن اشارة السلطات العسكرية للاستخدام المؤقت • لقد كان هذا أمراً ضرورياً بسبب المسافة التي تفصل بين انكلترة (القاعدة) وبيننا ومقدارها ٨٠٠٠ من الاميال • وأُخضع جميع القسس المنسوبين الى (دائرة القسس العسكريين الملكية)، باستثناء رئيسهم ، الى مشاهرة موحّدة • وأخضعت جميع السفن الماخرة بين بومبي والبصرة الى ولاية رأس القسس العسكريين وذلك بقدر تعلّق الأمر بالاشراف الروحي • وكان من واجب (رأس القسس العسكريين)

العناية بالمقابر ، والمحافظة على سجلات دفن الموتى جميعاً ، واستمر ذلك حتى ظهور (لجنة سجلات القبور) إياها •

وما أن تم الاتفاق على هذه الخطوات الاولى ونفّذت تماماً إلاّ انبعث نظام الادارة الجديد تدريجاً • وما كانت ثمة سابقة له أبداً ، فبلاد ما بين النهرين ، منذ طالعة أمرها ، كانت مبعث صعاب تختص بها وحدها •

وكان رأس الأساقفة الملحق بالمقر العام مسؤولاً عن الرعاية الروحية والخلقية(٢) في (القيادة) ، وذا سلطة ادارية فذّة يمارسها على الطوائف كلها • وعيّن خمسة من كبار القسس العسكريين للطوائف ، وأُلحقوا بالقوة وجرى تصنيفهم على أساس : (الصنف الاول) الموقت والطوائف المذهبية التي نشير اليها هي : كنيسة انكلترة ، والكنيسة البرسبيتيرية ، والرومية والكاثوليكية والكنيسة الويزلية ، والمجلس الموحّد — ولكل كنيسة منها واحد منهم • والقيت عليهم تبعة راعي الكنيسة الخاصة بوحدة عسكرية أو تشكيل ، كما كان مقرّهم ، على العموم ، في (القاعدة) • كان واجبهم إسداء المشورة الى (رأس القساوسة العسكريين) بشأن القضايا المذهبية ، والاشراف على أعمال القسس العسكريين ، المنتسبين الى طوائفهم ، وتنسيقها • وتحقيقاً لهذه الغاية سمح لهم بالقيام بجولة تفتيشية آنية • وكان من يحمل أعلى رتبة منهم وموجود في منطقة ما ، ومنتسب الى مذهب معترف به ، يعدّ القس العسكري الأقدم في القوات المنتسبة الى مذهبه والموجودة في منطقته • إن واجباته كانت تأمين ما ييسّر العبادة والعناية الروحية بالنسبة الى كل شخص ، طبقاً لمذهبه وعقيدته الدينية •

وسار هذا النظام رخاء فيسّر لدائرة القساوسة العسكريين أن تكون على اتصال منتظم بكل وحدة من وحدات القوة • وعلى كل حال ، لم يثبت

---

(٢) الجيش القوي : عدداً وعدة وقيادة سديدة خلاقة وهيئة اركان ذات اطلاع وكفاية وجنود مطيعة مدربة ، وفوق كل ذلك •••• روح معنوية عالية وأخلاق متينة •

عدم كفايته إلاّ في جهة واحدة • إن من التطورات العجيبة في الهند — والهند بلد العجائب — وجود الهنود النصارى — أطفال جمعياتنا التبشيرية الذين استجابوا الى داعي التجنيد في الهند وسيلان — • لقد خلق ذلك وضعاً جديداً تماماً — • وبعد مفاوضات طويلة عيّن خمسة من القسس العسكريين الهنود — اثنان ينتسبان الى الكنيسة الانكليزية وواحد الى الكنيسة البرسبيتيرية وواحد الى الويلزية وواحد الى المجلس المتحد • لقد نالوا من لدن جميع الناس إكباراً وتبجيلاً بعد ما أحسنوا عملا •

وما كان اهتمام الجنرال مود بعمل القسس العسكريين — ويشهد عليه مطران تاكيور — نابعاً من رغبته — وهي رغبة صناع — في ضمان تنفيذ كل جزء من أجزاء الجهاز الموجود في إمرته الى الواجب المطلوب منه، لقد نبع ذلك من التعامل الطويل، طول الحياة، في باب إقامة الشعائر الدينية، ومن تلك المعتقدات العميقة التي جعلت منه صنواً الى كل من سر فيليب سدني والجنرال غوردون وسر جارلس كوللي ولورد روبرتس ولورد هيك والى كثير غيرهم من قادة معارك الميدان العظام • لقد كان دائب التحري، لا يخيب الاسترحام، في كل ما يتصل بدائرة القسس العسكريين وبرعاية الجنود روحياً وخلقياً، وقد أصرّ، منذ البداية، على وجوب قيام مؤسسة للقسس العسكريين ذات كفاية • كتب الجنرال ريدي يقول : كان رجلاً يؤمن بالدين من الصميم، وما كان يوم من أيام الأحد يمضي إلاّ في القليل النادر، من دون أن يحضر الاحتفال بالقدّاس • لقد كان توّاقاً الى حضور (عشاء الرب)، قبل الزحف العظيم على بغداد، ونبقى في الخيمة، بعد الصلاة أمداً طويلاً، ويصلّي صامتاً •

وكتب القس جارفز عن ساعات الجنرال مود الأخيرة يقول : « مات على غرار ما كان يحيا • كان كل شيء يحيط به يعكس ببساطة الحياة : سرير المعسكر المعتاد، أغطية الجيش، وما كان يحمل أكثر من مخصصات

الضابط السوي ، لم يستطع لأسباب جسمانية أن يسهم في القربان المقدس، وبما أنه كان محموماً أو شبه محموم في أغلب الوقت ، فلقد كان يعلم أنه في حضرة القربان المقدس المحجوز . لقد كان يسهم في الصلواة جميعاً ، وبما أنه كان يقاسي مما كان يقاسيه ، فان نور السلام الهادىء الذي كان يشع من وجهه ليدل على أن الأشباح الدنيوية المتراجعة تجعل مجد العالم الروحي يوشك أن يغدو حقيقة أكثر .

وكانت الخاتمة رواء كلها . وقف من كان في إمرته المباشرة ، من الضباط الأركان ، والأطباء ، والممرضات والمراسلة ، حول فراشه متحلقين. وكانت خطوات الكركة الموزونة تتناهى من الخارج . وخيّم على الغرفة سكون . وبدأت الصلاة عند الساعة السادسة والدقيقة الخامسة ، وعندما كان عقربا الساعة يشيران الى السادسة والدقيقة الخامسة والعشرين ، وأنا أرتّل ...

يا إلهي ، امنحه الراحة الأبدية
ودع النور السرمدي يغمره
... وادخله الجنّة بسلام آمناً .

شعرت أن التطرق الى معتقدات الجنرال مود الدينية وممارسته شعائرها أمر له ما يبرره ، وذلك بقدر ما اطلعنا عليه من المستندات المنشورة ، وما كان ذلك لأنه أمراً ينفرد به ، لكنه في اعتقادي ، يمثل الشعور الداخلي الذي يراود نفوس كثير من المراتب . لقد اقتبست ما سرده رأس القساوسة العسكريين بشأن آخر ساعات الجنرال مود ، لكن ممارسة الشعائر نفسها، والمعتقدات نفسها ، والمؤاساة نفسها إذ ما زالت الساعات الأخيرة لمئات من الرجال الذين ودعوا هذه الدنيا الفانية ساعدت على دعم الوف مؤلفة من الناس على اختلاف مذاهبهم ، نالتهم جروح في أرواحهم وفي أبدانهم ،خلال مجرى الحملة كلها .

كتب ملتن يقول : « ان الانكليزي أقل ممن في كثير من الأمم إلحاداً، وانه ينطوي على فطرة طبيعية تبجّل الله تبجيلاً كبيراً ، لكنه ، بسبب من الضعف والحاجة الى تعليم أفضل ... قد يهوى صريع فكرة شاذة ،وليس هذا بشيء غير محتمل ، ويحدث لكثير من الناس في غالب الأحيان » .

ليس مشهد سيف معلّق على صليب حاد يعلو آيدة حرب شيئاً غير ذي موضوع بنظر كثير من الجند . انهما رمزا التضحية معاً . وليس هذا مقام نقاش ديني ، لكن من المناسب أن نقول الانتقادات ، السلبية عموماً ، المنصبّة على ممارسة الشعائر الدينية المنظّمة في الميدان قد اتخذت السبيل في الآونة الأخيرة الى صفحات الكتب التي تدعي أنها تمثل وجهات نظر الجنود ، وان من اللازم أن تؤخذ بحذر . إني أبعد من أن أزعم بأن العقول غير المدرّبة هي العقول الوحيدة التي تقبل النتيجة السلبية . لكني على يقين من أن عدد الذين يُفصح الدين المنظم عن معتقداتهم الصامتة ورغباتهم الخفية هو أكثر مما قد يزعم المراقب السطحي .

إن هروب نحو ٥٠٠٠٠ من اللاجئين النصارى الى بلاد ما بين النهرين خلق مشكلات جديدة لدائرة القساوسة العسكريين . لقد جاء معهم مطارنتهم وقسسهم من النساطرة والكلدان والأرمن والكاثوليك والأورثوذوكس . وكان هؤلاء بالنسبة للاشراف الروحي ، في عهدة رأس القساوسة العسكريين. وكانت إحدى القضايا التي طلب من رأس القساوسة العسكريين حلها هي إيجاد قس عسكري أقدم لكل من الكنائس الشرقية القديمة يصطفى من بين مطارنة اللاجئين في بعقوبة . وبلغت المشكلة ذروتها حين نيط به واجب تكريس بطريرك (ذلك ان الاتراك كانوا قد قتلوا مار شمّو) . وكان وريث البطريرك الراحل من العامة ، أي من غير رجال الدين وهذا يتطلب صلاة يستطيل أمدها من صبح السبت حتى ظهيرة الأحد ، تجري خلال ذلك طقوس هذه الكنيسة الخاصة التسع .

وفي آب سنة ١٩١٦ ، وفي سنة ١٩١٩ ، قام مطران ناكيور المتقاعد، الدكتور جاترتن ، بزيارات أسقفية الى بلاد ما بين النهرين . إن تجاربه مدوّنة في كراستين ولقد منح «التثبيت الديني» ، لمئات من الجنود ، فضلاً عن نحو ٥٠ من النصارى البغادّة ، وكرس المقابر والقبور المنعزلة معاً . لقد كانت لهذه الزيارات قيمة حقة ، وذلك بالنسبة الى الجيش ، والى القساوسة العسكريين على حد سواء ، كما عاونت على خلق انطباع في نفوس الطوائف الدينية البلدية محصله : ان كنيسة انكلترة لها هرمها الديني أيضاً ، وانه يستحق الاحترام من المراتب في الجيش كلها ، وهم يؤدونه حقاً ، وليس ذلك بأقل من احترام كبار الكهان في « الاعترافات الشرقية » .

يذكر مطران ناكيور في إحدى كراساته انه عندما جيء بابن سعود الى البصرة على ظهر بارجة بريطانية ، استأذن ليحضر قداساً إلهياً أقامه يوم الأحد ، نيابة عن القس البحري الغائب ، لواء الماء ويك . وقيل أن ابن سعود أبدى إعجابه من احترام المصلّين ، ومن أن الصلاة أقامها : لواء الماء نفسه . يجب أن لا يقلّل أحد من أثر هذا الحادث في ذهن رجل كان حليفنا في يوم من الأيام ، ورأس أقوى طائفة في الاسلام موجودة اليوم .

ويجب أن يضاف الى شهادة سر پرسي ليك بشأن الصنيع الذي قام به القساوسة العسكريون ، شهادات خلفائه : الجنرال مود الذي كتب في (١٠/٤/١٩١٧) يقول : « لم يدّخر القسس العسكريون جهداً من أن يكونوا ، عندما يدق الخطر ، في المقدمة في باب رعاية الحاجات الروحية للقطعات ، وزيارة المرضى والجرحى ، وما كان ذلك في سيارات الاسعاف والمستشفيات حصراً ، وإنما شمل ذلك ميدان القتال أيضاً » . وسجل الجنرال مارشل موافقته على هذه بالكلمات الآتية : (٢٩/٨/١٩١٨) « لقد كرّس القساوسة العسكريون ، على اختلاف مذاهبهم ، أنفسهم الى الرعاية

الروحية للقطعات العسكرية وأدوا واجبهم بشكل يبعث على رضاي التام . واني لمدين الى (كنيسة الجيش)(٣) لتجهيزها الخيم لمقاصد اجتماعية ودينية وهذه لم تهيىء الفرص للترفيه عن القطعات حسب ، لكنها ساعدت القساوسة العسكريين على اداء عملهم أيضاً » .

وليست هذه بمدائح مصطنعة ، انها تصريحات وثيقة مسندة تعكس الرأي المعاصر ، ويمكن أن يُعدّ ، بازائها ، السيل المتدفق الحديث من قصص الحرب التي يضعها المثقفون الضجرون « كريشة في مهب الريح » . ومنذ اندلاع نار الحرب حتى عقد الهدنة ، خدم في بلاد ما بين النهرين : ٢٨٦ من القسس العسكريين ، منح أربعة منهم ، همفري ونوت وماكفرلين واوروين ، نوط الخدمة الممتازة ، ونال الأخير ، فضلاً عن ذلك ، الصليب الحديد ، كما منح ستة آخرون منهم الصليب الحديد وهم : سبونر وبيرج وبولن وكوللي وطومسن وهزلدين . وسجلت لـ ٢٠ آخرين درجات وسام الانبراطورية البريطانية ، على حين نال جارفز ، الممنوح قبلاً الصليب الحديد للخدمة الممتازة في الميدان ، وسام كوماندر القديس مايكل والقديس جورج ثم حصل بعدها على شهادة دكتوراه في اللاهوت من يد رأس اساقفة كانتربري الراحل ، لورد ديفدسن .

يتراءى أن مما يثير ثائرة الحسد أن تذكر أسماء من أظهروا بسالة وجميل صنع ، على ما ذكرنا ، وهم كثر . ومهما كان من أمر فإن وجهة نظر الجنود تنصب على بعض القساوسة العسكريين فاقوا زملاءهم ، ومن هؤلاء الدكتور أروين ، الذي كان مع قطعة سيفورش ، وقد نال الصليب الحديد

---

(٣) كان يمثل هذه المنظمة في بلاد ما بين النهرين العقيد ستانلي الذي كان مفوض الصليب الاحمر أيضاً . لقد تعاونت مع رأس الاساقفة العسكريين وأعدت أكواخ جيش الكنيسة حيثما مست اليها الحاجة ، وقد نيط أمرها بالقساوسة العسكريين المحليين . وفي نهاية سنة ١٩١٧ أرسلت معتمداً أو معتمدين قاما بصنيع طيب .

في غاليبولي ، وجرح وعمره جاوز الستين سنة ١٩١٧ قرب بغداد . ومن الرجال اللامعين هيمنغ وهو مبعوث ديني بنجابي قام بواجب مع الفرقة الـ ١٤ منفرداً لمدة سنة فجذب كل فرد لخدمته . وغدا بعدئذ قساً عسكرياً لسملا (١٩٢٨ــ١٩٣٣) حيث برز ، وهو شاب ، حين ألقى خطبة عن دايفز ولازاروس أمام لورد كرزن . وكان ثمة رجلان آخران لامعان هما : مكفرلين وأروين ، ثم غدا رأس شمامسة دوركنك ، والذي جرح جرحاً بليغاً ومات متأثراً بجراحه سنة ١٩٣٠ .

وكانت ثمة وجهة أخرى للتمثيل الكهنوتي في بلاد ما بين النهرين قامت به أمة الانكليز ، أراني مضطراً على الاشارة اليها . لقد كان المظهر الديني الخارجي بالنسبة إليّ عوناً لكثيرين منا في تلكم الأيام الشداد . وكان المعتقد المستقر في نفوسنا هو : إن فضل بريطانية على رعاية البشرية يتمثل في نشر مبادىء النصرانية في حكمها . لقد آمنا بالعراق ، على ما آمن به هربرت ادودز بالنسبة للهند ، باعتباره وديعة لدى الحكومة البريطانية ، وانه بحاجة الى ما هو أكثر من معطيات مدنية مادية ، وأن سياستنا تنصبّ بالدرجة الاولى ، على تأهيله للحرية ، ثم جعله حراً طليقاً . وكنا نعتقد أن العراق ، ما لم يشبع بالمبادىء النصرانية ، غير لائق لممارسة هذه الحرية (كذا) . إذ ما أن يعترف بهذه المبادىء ويجري تطبيقها عن رضى شعبي وطواعية لا يستطيع العراق أن يلج تراث الحرية ، باعتباره أمة من أمم البسيطة ، وعندها نستطيع مغادرة البلاد تاركين لها مصادرها المبتعثة النامية ، وشعبها اليقظ الواعي المنوّر بمثّل أكثر سمواً وسعة ، غير معزولة بل مرتبطة بوشائج مع شعوب الدنيا المتمدنة . إن تراصّ الجنس البشري أمر متضمّن في النصرانية وفي مبادئها . لقد وضعت آساس الازدهار المادي ، وان المعرفة الجديدة التي جئنا بها الى العراق تحتوي على خير عميم . لم يترك لنا أن نقوم بأكثر مما نرغب القيام به في باب نشر المنظر

النصراني في الشؤون العامة • إن الرغبة في ذلك أوحت الى كثيرين ، وأصبحت هي القاعدة التي يرتكن اليها لا شعورياً في فعاليات الجميع تقريباً •

لقد شعرنا بذلك قبل تحرير (ميثاق عصبة الأمم) بأمد مديد ، ذلك ان الوصاية كانت جزءاً من الحياة اليومية لكل موظف بريطاني في البلدان الشرقية ، لكن المبادىء النصرانية في الحكم وئيدة النماء ، وقد قلّلنا من الرهق الذي أصاب الأمة البريطانية بنتيجة الحرب والعبء المالي الذي ألقته عليها • ولو استطعنا أن نستطلع خب المستقبل ، لكنا نظرنا بعين الرضى الى حدث بين سنة ١٩٢٠ و١٩٣٠ ، لكننا كنا قد شعرنا بأن قوام الحكومة يغدو بقدر ما يؤمل له من ديمومة ، أفضل لو أقيم على أساس من التبصّر الأكثر ، وأن تسنح للعراق فرصة أفضل في باب إقامة كيانه القومي ضمن رابطة الشعوب البريطانية (كذا)(٤) •

---

(٤) وعلى الرغم من ان تي•أي• لورنس عالج الموضوع من زاوية مختلفة ،فانه يرى الرآي نفسه في هذا الوقت بعينه وعلى وفق ما جاء في رسالة الى جريدة التايمس مؤرخة بتاريخ (٢٢/٧/٢٠) وفي رسالة جاءت بعد ذلك الى الديلي نيوز (٣١/١٢/٢٨) افصح عن مكنون نفسه بهذا الصدد على الوجه الآتي : « عندما يتكلم الناس عن الوحدة الاتحادية العربية الانبراطوريه فانهم يجرون وراء خيال ، ستمضي أجيال – على ما أتعشم – قبل أن تتحد دولتان عربيتان تلقائياً ، ما لم يسرع الشرق الخطى كثيراً • اني أتفق مع الرأي القائل بأن أملهم الوحيد هو في الاتحاد ، لكن ذلك يجب أن يكون عن طريق النماء الطبيعي • ان الاتحاد القهري ضار ،وان السياسة في مثل هذه الامور تأتي في أعقاب الجغرافية والاقتصاد • يجب تحسين المواصلات والتجارة قبل اتحاد الاقاليم • أعتقد أن مستقبلا عظيماً ينتظر الانبراطورية البريطانية باعتبارها ترابطاً تلقائياً ؛ واني لأصبو الى دول ترتبط بمعاهدات على مقياس كبير ، وتلتحق بها • ان عندنا كثيراً من أمثال هذه الدول : من نيبال فنازلا • فليكن عندنا العراق ومصر في الاقل ، مضافة اليها • اننا لشركة كبيرة تستطيع أن تجود على الشركات الصغيرة التي ترتبط بنا بمنافع فذة وذلك ان استطعنا أن نحصل على

←

لقد لعبت (جمعية الشبان المسيحيين) دوراً مهماً في باب تحسين حال البريطانيين ، والهنود الى حد ما والموجودة في العراق ، سواء أكانوا مرضى أم كانوا أصحّاء • وأسس المركز الاول في البصرة في تموز من سنة ١٩١٥ تحت سيطرة (المجلس القومي الهندي في كلكتا) وهو الذي أقام قبل الاستيلاء على بغداد في آذار سنة ١٩١٧ ، ما لا يقل عن ٢٧ مركزاً ، فيها ٥٢ من الرجال العاملين ، على حين كان يجري فضلاً عن ذلك ، عمل ١٦ من المستشفيات • وكان من بين هذه المستشفيات ١١ مستشفى بريطانيا ومن بين الـ ٢٧ مركزاً كان ١٦ بين البريطانيين أنفسهم • أما الـ ١١ مركزاً الباقية فكان يستفاد منها من قبل القطعات الهندية حصراً ، والعاملون فيها من الهنود أيضاً • وكان في وقت الهدنة ١٠٢ من الفروع في البلاد كلها تخدم القطعات البريطانية والهندية معاً وساعدت الزوارق البخارية التي تم الحصول عليها بنتيجة جهود الكونتيسة جستر فيلد ، و (اللجنة المساعدة في جمعية الشابات المسيحيات) على جعل الخدمة ، الى حد ما ، مستقلة عن النقليات العسكرية • وقبل وصول حوانيت قوة الميدان ، قامت مصلحة الحوانيت التابعة للجمعية بسد حاجة ملحّة عظيمة ، وبقيت ، بعد أمد مديد من وصولها ، لدى القطعات ، حبيبة أثيرة ، إذ قد وجدتها تقدم لهم أنواع شتى ، وبأكثر مما تقدمه لها الجوانب الرسمية ، وبأيسر وأسرع حال ، وسواء أكان من الاسواق الموجودة في (القاعدة) أم من الهند • إن ذلك شمل كل مادة يكون الطلب عليها مباشراً • وعلى ما ذكرنا في الفصل الحادي

شروط جذابة •

وأورد المؤلف بعد ذلك أبياتاً باللاتينية هذه ترجمتها :

« انها الوحيدة التي احتضنت الوليد وضمته الى صدرها : وما كانت انبراطورة • انها التي حمت الجنس البشري عن طريق اسم مشترك وهي التي دعت الذين هزمتهم الى الاسهام في مواطنتها وجمعت شعوباً نامية بروابط عاطفية » •

(المؤلف)

عشر من كتابنا هذا كانت الجراية الرسمية غير كافية ووافية ، وذلك طوال سنتي ١٩١٥ و١٩١٦ ، وبقدر تعلق الأمر بحفظ صحة الجنود • وقامت حوانيت جمعية الشابات المسيحيات في الأيام البكرة الاولى بتزويد الضروريات ، والكماليات أيضاً • وكانت هيئة موظفيها بإمرة مستر لينارد ديكسن الكندي ، وهو اليوم (١٩٣١) يعمل في جنوبي الهند ، من رجال الجامعات البريطانية والامريكية جميعاً ، وممن لا ينطرق الشك الى حالهم أبداً ، وان استقلالهم من السيطرة الرسمية جعلهم يفكّرون ، مسبقاً ، ويعملون سريعاً • وعن طريقهم ، حصراً ، وردت تجهيزات لعبة الهوكي ولعبة كرة القدم ، ولوازم الكتابة واسطوانات الحاكي والكتب والمجلات أيضاً • ولقد انفردوا بتنظيم الحفلات الموسيقية ، والسينمائية ، لوحدات كانت عاجزة عن أن تقدم لأنفسها أمثالها • ولقد قاموا ، وكانوا في ذلك منفردين أيضاً ، بتقديم الطعام للقطعات الموجودة في المحطات الخارجية، وفي مدينتي البصرة والعمارة ، ثم ببغداد بأخرة • ولبيت حاجة الهنود الخاصة ، في مراكزهم الخاصة ، وكانت في ذلك فذّة ، بالنسبة الى غيرها من الأمكنة • وجهزت الألعاب الهندية ، شأنها شأن السكائر والحلوى الهندية فأشاعت السرور في نفوس مئات الالوف • ولمن لا يعرف القراءة والكتابة جعلت مصلحة من كتومي السر (السكرتيرية) مؤلفة من متطوعين مخلصين • ولن يستطيع تقدير أهمية هذا الفرع من العمل إلاّ من يدرك صعوبة تنظيم مثل هذه المصلحة ، ومن له خبرة بالقطعات الهندية وأسديت خدمة مماثلة نوعاً ما وبمقياس أصغر الى أسرى الحرب الاتراك أيضاً •

كان العمل الديني ، على ما هو عليه دوماً ، من فاعليات جمعية الشبان المسيحيين ، وكان ناشطاً بين القطعات البريطانية ، وجاد بخير في الأماكن التي لم يكن من المأمول أن يجود فيها ، وعلى سبل شتى • وما تركت الرغبة التي شاعت في نفوس القطعات وانصبّت على معرفة الأرض التي يحاربون

فيها غير مطمئنة ، وأعدّ الدكتور أيدوين بيفان كراسة أخّاذة(٥) وزع منها قبل نهاية الحرب نحو ١٠٠٠٠٠ نسخة . وكان ان اتخذت الكراسة السبيل الى أرجاء العالم فكان لها صدى طائر في أرجائها ، وما ألّف في يوم من الأيام ما هو أفضل منها .

ولقد ساعدت هيئة الاركان العامة عملهم في بلاد ما بين النهرين اطّراداً فقدرت المراتب العون ، حق قدره ، عموماً . إن شهادة الأميرال ويك بشأن العمل المنجز والتي كتبها في آذار سنة ١٩١٨ تعكس الآراء الشائعة الذائعة عنه ، واليك قبساً منها :

> إني لغارق في لجّة من إعجاب بهذا التنظيم الذي عليه جمعية الشبان المسيحيين والقدرة الذكية التي تصرّف شؤونها ، وآسف لأن الكشف عن مثل هذا الرصيد القومي الذي تملكه البلاد قد تأخر وترك إليّ شخصياً .

وأشار سر پرسي ليك الى خدمات (الجمعية) في رسالة مؤرخة بتأريخ الـ ٣٠ من نيسان بالعبارات الآتية : وعلى الرغم من أن (جمعية الشبان المسيحيين) ، عن طريق موظفيها ، وأذكر منهم على التخصيص : مستر ديكسن والقس المحترم ماكلين والقس المحترم ردل والسيدة ويبلي ، فقد جادت بشيء محسوس ملموس على سلامة القطعات ، جسمياً وروحياً ، في خارج المستشفيات عموماً ، وبشكل يستأهل الاعجاب كثيراً . وكتب الجنرال مود (١٠/٤/١٧) يقول : « ان جمعية الشبان المسيحيين لم تألُ جهداً في سبيل تحسين محيط القطعات، ومدّه بمقومات الحياة ، وقد فتحت ، بموافقتي ، فروعاً في البلاد كلها ، نال التقدير والاقبال كثيراً » . وكتب الجنرال مارشل (٢٩/٨/١٩١٨) يقول : « لقد اتسعت فاعليات جمعية الشبان المسيحيين ، خلال الشهور الستة الأخيرة ، اتساعاً كبيراً . فهنالك

---

(5) The Land of the Two Rivers, Bevan 1916. 2nd Edition 1918 (London Edward).

اليوم ما عدته ٧٠ مركزاً من مراكزها ، وبوشر بنظام (نوادي الجنود) في طول البلاد وعرضها • إني لأقدّر عمل هذه الجمعية الممتاز ، وذلك بقدر تعلّق الأمر بتوليها تصريف شؤون هذه المراكز الترفيهية التي تجود على سلامة القطعات كثيراً » • وبعد ثمانية شهور كتب يقول أيضاً : « ومنذ أن ألقت الحرب أوزارها ، شرعت بدرس نظام من أنظمة التدريب التربوي في (القوة) مستهدفاً إعداد الجنود للحياة المدنية لدى التسريح • إنه جار الآن حقاً ، وسيحفّز ، على ما أعتقد ، الرغبة في الدراسة ويساعد الرجال على النهوض بأعمالهم عندما يتخذون الى وطنهم سبيلاً • ولقد عاونتني ، في الناحية النظرية من النظام المذكور (جمعية الشبان المسيحيين) كثيراً ، كما مدّت الدوائر المختلفة يد المساعدة في باب التعليم الفني والعملي أيضاً » •

وأُسندت فاعليات قساوسة الجيش الملكيين وجمعية الشبان المسيحيين ، خلال سنة ١٩١٦ بصنيع المجلس الهندي ، المنسوب الى مستشفى القديس جون في القدس ، وجمعية الصليب الأحمر البريطانية ، وبضمنها فرعها الهندي • وكانت هذه المنظمات ، في بادىء الأمر ، مستقلة ، لكنها سرعان ما اتحدت تحت ادارة الراحل العقيد جاي كولد الذي كان زمام جمعية الصليب الأحمر بيده وكان يمثل في الوقت نفسه ، (المجلس الهندي) التابع الى (مؤسسة سيارات اسعافات القديس جون) • وعرقلت أعمالهم في بادىء الأمر ، بدلاً من مساعدتها ، السلطات الطبية البريطانية في الهند • لقد كانت هذه تصرّ على أن جميع ما تقدمه (جمعية الصليب الأحمر) من مساعدة يجب أن يكون عن طريق دائرة (مدير المصالح الطبية في الهند) ، وان الهدايا يجب أن توزع بالمشاورة مع السلطات الطبية العسكرية ، منعاً من طغيان عمل على عمل • ولم تتقدم حكومة انكلترة بمثل هذه الدعوى في يوم من الأيام أبداً •

كانت (دائرة المصالح الطبية في الهند) عاجزة ، سيئة الذكر ، كما كانت في معزل عن المتطلبات في الخارج تماماً • وعقبى ذلك ان حاجات

القطعات ، سواء في بلاد ما بين النهرين أم في غيرها ، لم تكن لتلبّى ،وكل ذلك علي الرغم من أن حسن النية في الهند لم يكن معدوماً ، شأنها شأن المال والعون الشخصي معاً •

جلي ، من وجهة النظر العسكرية ، أن كل عمل يجري في منطقة حرب، لا عمل جمعية الشبان المسيحيين حسب ، يجب أن يجري تحت الاشراف المباشر للسلطات العسكرية ، وبموافقتها • لكن هذه القاعدة الاولية لا علاقة لها بطغيان عمل على عمل • وبقدر تعلّق الأمر بهدايا جمعيةالصليب الأحمر ، يجب أن تتذكر أنه ما لم تهمل الحكومة أو الصليب الأحمر أو تجاوز صلاحيتها ، على التوالي ، فلن يحدث الطغيان الملمح إليه ، بمعنى قيام عملين من النوع نفسه في آن واحد ، وهو التبذير بعينه • ذلك أن جهد الصليب الأحمر ينصب على تقديم مرفّهات اضافية ، متميزة تماماً عن الضرورات التي تلتزم الحكومة بتقديمها •

وبصدد التوزيع ، يمكن ، بطبيعة الحال ، رفض أية هدية ، لكن رفض هدية شيء يختلف عن تقرير مصيرها ، ما لم تكن هذه ، بسبب بعض الضرورات العسكرية ، لازمة للسلطات لسد حاجة تتطلبها،وعندها لا تصبح البضائع المستحوذ عليها شيئاً يختلف عن الهدايا •

وخلال سنة ١٩١٥ أُسديت معونات ، كرّة اثر كرّة ، الى البصرة من قبل (لجان الحرب المشتركة الهندية والبريطانية) ، لكن ما عرضته هذه من الهدايا ، والمهندسين لزوارق الصليب الأحمر ، كان نصيبه إما الرفض أو التجاهل • وفي أواخر شهر كانون الاول ، ٢٨ منه سنة ١٩١٥ ، وعندماكانت الحال أسوأ حال ، في البصرة وعلى دجلة ، والمستشفيات قد شحّت فيها اللوازم الاولية للراحة والنظافة وحفظ الصحة ، تلقى عرض قوامه « وسائل راحة ترفيه والملابس واللوازم الجراحية جواباً متأخراً عن تأريخه باسبوعين، وموقعاً بتوقيع «نيكسون» ولعل الذي أرسله هو مدير الخدمات الطبية :

الجراح العام هاثاوي ، ونصه : « لا حاجة اليوم لهذا ، وإن أُحتيج الى شيء فلن نتردد في طلبه منكم » • إن من يسعى الى إيجاد العذر للسلطات الطبية في البصرة على هذا العمل ، أو لمثل هذا الاحجام عن العمل ، في سنة ١٩١٥ وينحي باللائمة على حكومة الهند أو النظام ، يسقط في يده ويتحيّر في تفسير أمثال هذه البرقيات وما شاكلها ، وأكثر من ذلك تبريرها •

ومهما كان من أمر ، فإن (لجنة الحرب المشتركة) شحنت من تلقاء نفسها لوازم ومؤناً ومدّخرات الى البصرة في اليوم العاشر من أيلول ١٩١٥ كما أرسلت شحنات أخرى في كانون الثاني وشباط وآذار من سنة ١٩١٥ • وكان المقر العام للعقيد كولد ، خلال سنة ١٩١٦ ، في البصرة ، على حين كان الرائد (فالمقدم بعد ذلك) موينز يقبض على زمام أمور الفرع في العمارة • وكان مع العقيد كولد المستر (فالسر بعد ذلك) أورلين ردزديل ، مفوض الصليب الأحمر البريطاني • ثم التحق بهما ، بأخرة العقيد ستانلي ، وقد تسلم زمام الأمور ببغداد بوصفه مفوض الصليب الأحمر البريطاني ، لقد ساعدت هؤلاء الرجال بنبل غاية وسمو قصد ، الليدي ويلنكدون من (دار الحكومة في بمبي) كما ساعدتهم « الهيئات الأم » في انكلترة ، فتمكنوا من سد العوز العظيم في التجهيزات الطبية الضرورية ، في المستشفى وفي كثير من وسائل الترفيه والراحة الذي تراكم بنتيجة قصر نظر السلطات الطبية العسكرية واهمالها ، وكانت مواطن هذا العوز في زوارق الصليب الأحمر ، ووسائل الراحة والترفيه الطبية ، وضمادات الجراح ، وفي الأدوات كالمحقنات ، في بعض الحالات •

لقد سجل المقدم موينس على وجه شامل متقن ما قامت به هذه المنظمات في بلاد ما بين النهرين وشمال فارس ، وليست نوعية ما سجّل بأسمى من نوعية العمل الذي أنجز ، وهو عمل يعدّ من أفضل الجهود التي بذلها الصليب الأحمر في الحرب • وهو يشير في الكتاب الذي أرفق به تقريره

الى اسم ضابط واحد من (ضباط الخدمة الطبية) وأعني به المقدم ويلكوكس « الذي اليه مردّ الفضل في التحسين الكبير المطّرد الذي طرأ على صحة القطعات ، وهو الذي أفاد (الصليب الأحمر) من عونه الذي لا يني ولا يفتر ، بشكل منقطع القرين والنظير » •

وكتب سر پرسي ليك (٢٧/٨/١٦) يقول : « تزجي (قوة بلاد ما بين النهرين) كلها الحمد الى (نظام القديس جون في القدس) خصيصاً والى (جمعية الهلال الاحمر البريطانية) وبضمنها (الفرع الهندي) ، ولقد قامت الأخيرة بوساطة ممثلها (العقيد كولد) برصد مواردها في سبيل اسناد المعدات الطبية ووسائل الترفيه والراحة التي تجود بها الدولة على المرضى والجرحى • إن جميع من مرّوا بالمستشفيات ، في أي وقت من الأوقات ، لراغبون في الأفصاح عن شكرهم لهذه الجمعيات » •

وكتب الجنرال مود (١٠/٤/١٩١٧) يقول :

« احتفظت جمعية الصليب الأحمر البريطانية بسجلها الرائع واستحقت التقدير خلال الحملة كلها • لقد كان العمل الرصين الذي قامت به هيئة موظفيها ، وما جادت به بسخاء من زوارق بخارية وسيارات اسعاف وهدايا، سبيل تخفيف كثير من الرزايا • إن جهود (المنظمين) المستمرة للجمعيات بهدايا الحرب العديدة ، سواء أكانت في انكلترة أم أكانت في الهند ، وسخاء المسهمين في تمويل صناديقها ، كل ذلك كان سبباً في راحة القطعات وسلامتها ورفاهيتها كثيراً ، وبقدر تعلّق الأمر بتزجية أوقات الفراغ خصيصاً ، وان شكرنا القلبي يزجى اليهم جميعاً » •

وأضاف الى تقدير هذه المآثر (الجنرال مارشل) بعبارات عامة إذ كتب في ٢٩/٨/١٩١٨ يقول :

« الى جميع السيدات والسادة الذين عملوا ، تحدوهم السماحة ، فجادوا على القطعات بالرفاه والراحة وقدموا هدايا الحرب وسفن المستشفيات

وزوارقها ، على سبل أخرى لا حد لها ولا حصر أزجي ، نيابة عن القوة كلها ، الشكران الجزيل مؤكداً لهم أن فضلهم سوف لا ينسى على توالي الأيام وكرور الليالي أبداً » .

وفي رسالة تالية (٢٠/٢/١٩١٩) سجّل شكره الجزيل ، نيابة عن (القوة) الى الجهات الآتية :

« صندوق ترفيه القطعات الهندي (الليدي جيلمن فرد) ، صندوق الرئاسة للفرع النسوي لاغاثة الحرب في بمبي ، وفرع السند منه ، (ليدي ويلنكدن) وصندوق الترفيه والراحة في بلاد ما بين النهرين (المركيز ليكو) وصندوق الجنود الهنود (سر تريفين وين) ، صندوق ليدي اودواير للترفيه والراحة البنجابي وصندوق الترفيه والراحة للاقاليم المركزية (ليدي روبرتس) وصندوق الترفيه والراحة لشنغهاي (السيدة سوسماريز) ، وذلك على ما جادت به بسخاء من هداية مالية ونوعية لصالح القطعات العسكرية .

ومن أكثر الصناديق هذه قيمة صندوق (ستيلا مود) للترفيه والراحة لكنه لم يحظ بتنويه في أية رسالة رسمية . ومهما كان من أمر ، كان هذا الصندوق يدار على أفضل وجه من بين ما ذكر جميعاً ، وما كان صندوق آخر يقدره الجنود بأكثر منه أبداً .

إن تأثير هذه الدلائل الوافرة على السماحة الفردية في أرواح أفراد القوة لا يمكن أن يوسم بالافراط إلاّ نادراً وأن تصوّر بلاد ما بين النهرين من المشاهد الجانبية ، وأن القطعات المسهمة فيها مهملة منسية ، لا من قبل الحكومة حسب بل من مواطنيها أيضاً ، قد بدد وذهب الى غير رجعة . لم يكن هناك إلاّ القليل من بعثرة المال والجهد . وان الأخطاء التي نجمت ، بين حين وحين كان مبعثها حسن النية في الأيام الأولى — وذلك حينما أرسلت علب من تمور البصرة ، بكلفة ليست قليلة ، من انكلترة لتوزّع على القطعات ، فعدّت دليلاً على الاهتمام العاطفي باعتبارها مثلا على

حماس جانب سبيل الارشاد • وكانت الادارة في ميدانها على حظ من كفاية، وما كان هناك شيء من الأساليب الرتيبة في المعاملات الرسمية • كما لم تعدم الاتصال الشخصي • وسيتذكر – كثير من الجند – كرم الضيافة والفطنة الفاحصة التي دعمت جهود المنظمة الرسمية في البصرة والتي جادت بها السيدة كوكس ، والسيدة نوكس ، زوج الضابط العدلي الأعلى، وهي التي نظمت (مكتبة اعارة) في مستودعات القاعدة في البصرة كانت لها بنظر كثير من الجند البريطاني قيمة كبيرة •

وما كانت ثمة ضرورة ماسة في أي ميدان من الميادين ، وأشد عسراً من تلبية طلبات انهالت على ما سمي بـ « وسائل الترفيه والراحة » والتي ما كان يؤمل أن تقوم (مصلحة التموين) بتجهيزها • لقد كانت القطعات راغبة ومشوقة الى شرائها نقداً • وفيما خلا العمارة والبصرة ثم ببغداد بأخرة ، لم تكن المشاريع الفردية قادرة على تلبية إلاّ نسبة ضئيلة من الطلبات المشروعة المنصبّة على الأغذية والمشروبات ، مما يدعم الجراية الرسمية • وما قامت به جمعية الشبان المسيحيين في هذا الباب كثيراً، لكنها لم تستطع أن تتناول المشكلة إلاّ من أطرافها • ولم ينجز في هذه الناحية، في الأيام المواضي الأولى من الحرب في بلاد ما بين النهرين ، وحين كانت تحت السيطرة الحكومية الهندية ، إلاّ القليل• لقد كان نظام اعطاء حوانيت الوحدات الى المتعهدين شائعاً ذائعاً في الهند وانكلترة تقريباً • إن عامل الجذب الخارجي الذي يتميز به هذا النظام هو هذا الاسقاط الذي يتعهد بدفعه المقاول ، لكن الهنّة الداخلية فيه أن المقاولين يستطيعون اختيار الحوانيت التي يجنى من ورائها ربح ، وفرض نسبة الاسقاط التي يعطونها في حالات كثيرة • وشاعت الرشوة وعمّ الفساد ، وأصبحت نوعية المواد المسلّمة رديئة غالباً ••• والضحية هو الجندي طبعاً •

وعندما تولت (وزارة الحرب) زمام (حوانيت الحملة الاستكشافية) التي كان نجاحها في فرنسة باهراً ، شأنها شأن أماكن أخرى ، قامت بمدّ

عملياتها الى بلاد ما بين النهرين والى (لجنة حوانيت الجيش) (التي أصبحت فيمابعد مجلس حوانيت الجيش والبحرية) ، وأوفدت هيئة من الموظفين الأكفاء ومواد تموين كثيرة . وعملت (الهيئة) في بادىء الأمر تحت وطأة صعوبات جمّة . وما كان الثلج أو المياه المعدنية من الكماليات ، انها ضروريات لا يمكن شراؤها في أي مكان آخر ، ولا يمكن استيرادها أيضاً . وكان جلّ القطعات من الهنود ، ولهم حاجات خاصة بهم ، كما كانت (الحوانيت) تعتمدفي تجهيزاتها على انكلترة بالدرجة الاولى ، والمسافة شاسعة ومجال الحمل نادر . وبوشر بحانوت عائم اتخذ مجاله في القارب التجاري المسمى «المسعودي» ، وكان ذلك في خريف سنة ١٩١٦ ، وما ان حلت أيام الهدنة إلاّ كان ما لا يقل عن ٣٧ من فروع الحوانيت عاملاً في بلاد ما بين النهرين وعلى خطوط المواصلات المؤدية الى فارس .

وأنجز العمل على وجه يحمل على الاعجاب ، ذلك ان الذي تولته أيدي الخبراء ، التي تدربت إبان ممارستهم حرفهم المعتادة في انكلترة وأداروا مؤسسات كبيرة كالفنادق والمطاعم . لقد تم العمل من دون أن تتحمّل (الخزانة الوطنية) أية كلفة مباشرة . ولقد عني بالجندي القائم بالخدمة الفعلية على وجه أفضل مما لقيه من عناية فيما مضى دوماً ، وكان الجندي في انكلترة يستمتع بوسائل ترفيه وراحة لا تكلفه إلاّ قليلاً بالنسبة الى ما كانت تكلفه هذه قبلاً . لقد كان الجنود ، هنا وهناك ، يحصلون لدى صرف دراهمهم على فائدة أفضل مما كانوا يحصلون عليه في زمن مضى وانقضى . ولم يصبح أي مقاول موسراً على حساب الجندي أيضاً » .

وتأسست هذه المنظمة الممتازة على وجه دائم ، عندما بلغت الحرب خاتمتها . أطلق عليها عند ذاك (مؤسسة الاسطول والجيش والقوة الجوية: نافي) وأصبحت ملكاً الى ضباط وجنود القوات المسلحة التابعة للتاج البريطاني حصراً . إنها تاج الضابط في الجيش يعلو رأسه علواً كبيراً .

ولم تكن خلال السنتين الاوليتين من الحرب بلاد ما بين النهرين، إلاّ محاولة منهجية واهنة الشأن في باب وضع علامات فارقة على قبور من قتل في حركاتها ، أو لعل ذلك كان معدوماً . وكان هؤلاء القتلى يدفنون غالباً قرب المكان الذين يهوون فيه صرعى ، ويكون ذلك في قبر واحد أو أكثر . وفي الأماكن التي تبعد عن المراكز السكنية لم يعتد وضع اشارة تجذب انتباه السكان البلديين الذين يجنحون الى انتهاك حرمة الموتى ، للحصول على الاغطية التي لفّوا بها ، والملابس وحتى الأزرار التي فيها ، أما في المراكز العسكرية فلقد صبّت كل محاولة ممكنة في سبيل دفن الموتى في مقابر خاصة وتأشير كل قبر فيها ، وجرى ذلك في كل من البصرة والعمارة والأحواز والمحمّرة والقرنة والناصرية والكوت حيث أفردت فيها مقابر يعود زمنها الى سنة ١٩١٥ وعهدت سجلاتها الى القسس العسكريين المحليين . ووضعت على القبور صلبان من خشب وروعيت في الدفن الشعائر الدينية المسيحية الخاصة به . وعين أول مرة سنة ١٩١٦ ضباط سجل القبور ، وفي سنة ١٩١٧ تألفت (لجنة قبور حرب الانبراطورية) لقد أقرت حكومات الدول المختلفة في الانبراطورية أن تكون كلفة الدفن وتبجيل الموتى عليها جميعاً ، لذلك تألفت (اللجنة) المذكورة باعتبارها دائرة مسؤولة تجاه هذه الحكومة نفسها ، إدارياً ومالياً . إن هذه الحكومات هي التي تجود بالمال اللازم لأعمال اللجنة من اعتماداتها . وتحملت كلفة العمل (على ما أقره مؤتمر الحرب الانبراطوري في سنة ١٩١٨) كل من الحكومات المسهمة بنسبة عدد القبور لموتى رعاياها ، ولما كانت الحكومة البريطانية (التي ألقي على عاتقها أكثر من ٨٠ بالمئة من النفقات) قد وافقت على أن تتعاون هذه الحكومات جميعاً في السيطرة على ادارة (اللجنة) وماليتها . وعلى هذا الأساس ظهرت أول منظومة ادارية حكومية انبراطورية حقاً .

إن من أهم المبادىء التي انطوت عليها قرارات (مؤتمر الحرب الانبراطوري) المعقود في سنة ١٩١٧ : ضمان ديمومة (مقابر الحرب) .

وجاء في خطاب ألقاه مستر ونستن شرشل في (مجلس العموم) يوم الرابع من أيار سنة ١٩٢٠ وبوصفه رئيس اللجنة ما يأتي : « إن المقابر التي ستشاد لمن هوى من البريطانيين صريعاً في ميادين الحرب طراً ستكون مختلفة عن المقابر الاعتيادية التي يرقد فيها من غادروا الحياة الفانية على سنة الله في البشر ، سنة اثر سنة . انها ستسند وتدام بمال هذه الأمة العظيمة ، والانبراطورية الكبيرة ، ما دمنا نبقى أمة عظيمة وانبراطورية كبيرة ، وليس ثمة سبب لأن لا تكون المقابر ، وفي أزمان تبعد كثيراً عن زمننا هذا كبعدنا عن التيودور ، رمزاً للتجلة وذكرى الجهود السامية ومجد الجيش البريطاني ، والتضحية التي استهدفت تحقيق قصد عظيم » .

إن تطبيق هذا القرار في العراق ، بغية ضمان ديمومة الأضرحة ، وبوصفه تجلة للمعتقدات البشرية ، أسفر عن مشكلات خاصة . لقد تناثرت مقابر الموتى على أرضين أكثر سعة من الاراضي التي خصصت لمثيلاتها في الجبهات الأخرى ، فيما خلا جنوبي افريقية الالمانية . لقد صيّرت طبيعة التربة ، وتعرّض ميادين الحرب الرئيسة للفيضانات ، وضلالة السكان ، في حالات كثيرة أي تعيين للمقابر على انفراد ، من رابع المستحيلات . كان الحصول على الاراضي اللازمة للمقابر في العراق على حظ من الاعسار على حين كان الفعل الكيميائي الناجم عن وجود الملح في التربة ذا تأثير على شواهد القبور . وانشئت مقابر للهنود وللمسلمين في أمكنة عدّة ، ذلك ان عمل (اللجنة) غير مقصور على دين من دون دين . وفي سنة ١٩٢٨ نقلت الى بغداد جثث نحو ١٢٤٦ من الضباط والجنود الانكليز من آسية الصغرى ، وهي جثث من مات في الأسر فيها ، وأعيد دفنها في مقابر منفردة . وليس انتقادي ، مهما كان نصيبه من الاستحياء ، وهو ينصب على قرارات اتخذتها هيئة بهذا الشأن من صحة التمثيل وسلامة التقرير في أمثال هذه الأمور . ومع ذلك فمن الجائز في هذا الافصاح عن رأي ، يسهم فيه ، على

ما أعتقد ، كثير من العسكريين ، ومحصله : ان الرغبة الاسطورية في نقل حفنات تراب الموتى ، كانت ، في الغالب وإن لم تكن في جميع الحالات ، تجاوز المعقول ، في هذه العملية بعينها وفي مثيلاتها أيضاً . إن العرف العسكري ، عبر القرون الخوالي ، لا يجيز مثل هذا ، كما ان الكلفة كانت كبيرة . ارتكاناً الى أساس عاطفي قد يبرر نقل جثث الموتى الى الأرض التي اكتحلت عيونهم وهم أحياء وبنور الحياة عليها ، لكن نقلها ، والى الأرض الخراب التي شهدت ما منوا به من بلايا ورزايا ، كان أمراً يجافي الروح التي انبثقت عنها (اللجنة) نفسها . وهذا يعيد الى ذهني كتابة هربرت التذكارية التي خلّدت شجاعة كومودور شركة الهند الشرقية : النقيب شيلنيغ الذي لقي حتفه في (جاسك) من أعمال الخليج العربي في سنة ١٦٢١ واثر جراح أصابته في أثناء الحركات : « هنا يرقد شيلنيغ ، وقد ذبحه البرتغاليون المعتدون ، وا أسفاً إن عظامه لتعدم الاحساس والتعبير ، وإلاّ خبرتك أن الأرض لن تستأهل ضمّ جثمانه ، وان الناس فظاظ غلاظ كائدون » .

ومن بين الضحايا الموتى في قوة بلاد ما بين النهرين ، وعدتهم: ٥١٩٧٨ تم تعيين قبور ١٠٩٢٨ منهم فقط ، وهؤلاء جمعوا في الأغلب الأعم في ١٥ مقبرة(٦) . أما في فارس فمن بين الضحايا الموتى ، وعدتهم ٤٠٢٥ لم تعيّن قبور أكثر من ٤٢٦ ، وهؤلاء جمعوا في ١٥ مقبرة أيضاً(٧) .

---

(٦) في الموصل ٣ وفي بغداد ٤ وفي البصرة ٣ وفي العمارة ٢ وفي كل من الكوت وسامراء ١ . (المؤلف)

(٧) الارقام المسجلة لموتى الحرب البريطانية في العالم كله هي على وفق ما يأتي:
عدة الاسماء المسجلة ١٠٨٩٩١٩ .
المعينون والمدفونون في قبور معروفة : ٥٨٥١١٤
والذين عثر عليهم ولم يعينوا على انفراد : ١٧٤٠٥
(المؤلف)

وفي الـ ٢٧ من آذار سنة ١٩٢٩ أزاح سر كلبرت كلايتن ، بوصفه (المفوض السامي البريطاني في العراق) الستار عن النصب التذكاري في البصرة للذين سقطوا صرعى في الحرب ولا يعرف لأحد منهم قبره ، لقد وضع تصميمه مستر ادورد ورن •

ويمكن أن نقول أنه النصب التذكاري الوحيد في العراق ذو حظ من مزية عمرانية • يبلغ طوله حوالي ٢٦٠ قدماً وعرضه ٤٢ قدماً ، ومركزه مكوّن من شبه دائرة ، عرضها ٥٠ قدماً ويرتفع من وسطها شاهد مربع علوه الكلي ٥٥ قدماً • إن هذا يبدأ من قاعدة علوها ١٤ قدماً وتحمل لوحة على واجهتها نقش عليها ما يأتي : الى المجد الالهي في الأعالي والى الذكرى الجليلة لضباط جيوش الانبراطورية البريطانية وجنودها ممن سقطوا صرعى في حملة العراق خلال السنوات ١٩١٤—١٩٢١ وممن لا يعرف لهم قبور أبداً • بنيت الأسوار جميعاً ، وبضمنها ما على النهايتين خصيصاً لتكوّن جبهة وواقية مفتوحة طولها ٢٦٠ قدماً ، وبضمنها شبه الدائرة المركزية ، ولكي توضع فيها رقيمات تخليدية ، منظمة على طول السور ، خلف الاعمدة ، على الوجه اللازم • وينقسم الرواق الى فرجات عن طريق عقود مطوقة ، وهي مسقوفة لتقي من أوار شمس بلاد ما بين النهرين ، وأمطارها التي لا تقل شدة عنها وان لم تكن تهطل دواماً • وكله مبني من حجر دولبر الأبيض الهندي تناولته يد البنائين الهنود في الهند ، بالدرجة الاولى • وواجهة النصب محمية بقضبان من حديد مينة الشأن طولها نحو ٧ أقدام ، ومدخله أبواب مزدوجة تقع في وسط هذا السياج ، وعلى جانبيها دعامات من حجر •

ويقوم في مركز مقبرة الحرب الكائنة خارج الباب الشمالي في بغداد ، نصب الفرقة الـ ١٣ الحربي ، والذي يشير الى قبر سر ستانلي مود • إن الالواح الأربعة تسجل أسماء الوحدات التي كانت الفرقة مؤلفة منها ،

وأسماء المعارك والمشاغلات التي أسهمت فيها • لقد جادت الوحدات المختلفة بالمال اللازم لسد كلفة النصب ، لكنه يفتقد أسماء بعض الاشتباكات التي لم تصطفَ من قبل (لجنة تسمية المعارك) ، ومن العسير ، أو المستحيل ، تعيينها اليوم •

لقد شيد هذا بدلاً عن نصب (جبل المائدة Table Mountain) في جبل حمرين ، شمالي شهربان ، وتقوم بالمحافظة عليه (لجنة قبور الحرب الانبراطورية) كما ينفق عليه من اعتمادات فردية • وشيدت لوحة تذكارية خاصة في سنة ١٩٢١ من قبل رئيسها السابق في الكنيسة الدومينيكية الفرنسية في الموصل ، تذكرة وذكرى لبعض الحكام السياسيين ممن فقدوا حياتهم في ولاية الموصل خلال سنة ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ • وللفرقة الـ ١٥ نصبها التذكاري الخاص في الرمادي ، وتشهد عليه كتابة موجزة • ولم يشيد في العراق من النصب التذكارية الدائمة ، ومن قبل الوحدات الأخر ، شيء • إن ما يشيد بذكر الفرقة السادسة هو ، قطعة ضخمة من مرمر الموصل ، تمثل شعارات السيادة في الانبراطورية العثمانية ، نقلت من (دائرة المكس) في البصرة ، باعتبارها تذكار نصر حربي في كانون الثاني سنة ١٩١٥ وأقيمت في ساحة دار الحكومة في بمبي • إن الذاكرة العامة لقصيرة المدى ، فلسبب لا سبيل الى تفسيره رأي حاكم لاحق في بمبي (من دون علم المسؤولين عن إقامة النصب التذكاري في ساحة دار الحكومة أو موافقتهم) إنه ليس من اللائق أن يبقي في عهدته نصباً تذكارياً يخلّد أفضل فرقة من الفرق التي غادرت بمبي • لقد نقل الحجر منذ ذلك الحين الى القسم الآثاري من متحف البرنس أوف ويلز في بمبي ، حيث هو اليوم مرمى مع ما عفى عليه النسيان ، وذلك على الرغم من الكتابة التي دوّنت لتربط بينه وبين الفرقة السادسة • ولعل أمين متحف (كريماً) يعمد في يوم من الأيام الى وضع بطاقة متحفية على النصب عليها : « تثنية الاشتراع (من التوراة) ١٧/٢٧) •

ولا يوجد إلاّ نصب تذكاري واحد لمن صرعوا من جنود الاتراك في بلاد ما بين النهرين ، أقيم خلال حصار الكوت في مشارف المدينة . لقد تولّت تبعة المحافظة عليه حكومة الملك فيصل ، وهو صنيع جدّ صحيح . وانصافاً لأعدائنا السابقين ألحق بهذا الفصل ترجمة كراسة ، وجدت نسخ منها في حوزة الجنود الأسرى الاتراك في سنة ١٩١٦ يتراءى انها نشرت قبل زحفنا الأول على الكوت وسلمان باك (طيسفون) ، ويجب أن تقرأ موصولة بالفصل التاسع من كتابي هذا أو كملحق لهذا الجزء .

بقي أن نشير الى تمثال الفارس المقام للجنرال مود(٨) والذي نحته سر كرسكوم جون من الاكاديمية الملكية وأنفق عليه من تبرعات جاءت من أغلب أنحاء بلاد ما بين النهرين . إنه نصب تذكاري يخلّد اسم رجل سيبقى مقروناً بالفتح الذي حققته الشجاعة العسكرية البريطانية في بلاد ما بين النهرين ، وبقرار الحكومة البريطانية القاضي بخلق حكومة عربية مستقلة. يقوم التمثال على قاعدة (وضع تصميمها مستر أدورد ورن) قرب دار الاعتماد البريطاني على جانب دجلة الأيمن في بغداد ، وهو يستأهل أن يقام لرجل تسترعي ذكراه انتباه الأجيال القابلة . لكن كثيراً من الناس كانوا يفضلون أن يشاد التمثال في البلاد التي ولد (الرجل) فيها ، ليذكّر المارة بالتضحية ، دماً ومالاً : التضحية التي جادت بها الانبراطورية البريطانية في سبيل الحرية (كذا) .

سيكون منهم من يخلّف وراءه اسماً يبعث في الناس حمداً ، وسيكون منهم من لا يخلف وراءه ذكراً ، لقد هلكوا ، وكأنهم لم يعيشوا أبداً أو لعلهم لم يولدوا في هذه الدنيا أبداً ، ومثلهم أطفالهم أيضاً .

لكن هؤلاء كانوا رجالاً مُثلوا رحمة فلا تنس ما جبلوا عليه من استقامة وذلك منذ أيامهم حتى يوم الناس هذا .

---

(٨) أزيل هذا التمثال بعد ثورة الرابع عشر من تموز سنة ١٩٥٨ وزوال الملكية وقيام الجمهورية في العراق . (المترجم)

الفصل الخامس والعشرون

مشكلات ادارية

١٩١٠ — ١٩٢٠

> « عقول ثلاثة حاضنة تتشاور تتناهض ، ما لها من فواق ! ولا تجسر على تنفيذ آرائها ، وتشفق من بعضها بعضاً ، وبذلك يجعل الآراء المسرة (كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء) . وتصطنع الحكومة كلها في تأليف ما توافق من الآراء وما اختلف » .
>
> بليك ، في (القدس)

وقّعت يوم الـ ٢٨ من حزيران سنة ١٩١٩ معاهدة فرساي ، وعلى الرغم من الزعم الشائع ، وإن لم يك شاملاً ، القائل بأن الدولة التي ستكون منتدبة على العراق هي بريطانية العظمى ، فإني لم أكن مخوّلاً ، على ما أوضحت قبلاً ، اصدار بيان يتصل بنوايانا . إن كلمتي : « الانتداب والمنتدبة — عندما نجمتا أول مرة ، شابهما تفسير مغلوط وما كان ذلك على لسان الحرب ، حسب ، انهما فهمتا على المعنى الأولي ، أو السوي كـ(أمر)، ومن يصدر أمراً (مأمور) . كان مستر شرشل قد أشار في البرلمان الى أمل حصولنا على انتداب ندير بوساطته البلاد ، وما كان فكري يتسم ، كما لم تكن التعليمات التي وردت عليّ من وزارة الهند تتسم بالوضوح التام ، بقدر تعلّق الأمر بمدى تبعة بريطانية العظمى ، باعتبارها دولة منتدبة ،

المأمولة على وفق الميثاق(١) . كانت الارهاصات الوحيدة التي تناهت من قبل ، واتصلت بآراء حكومة صاحب الجلالة مضمّنة في برقية مؤرخة بتأريخ الـ ٣٠ من تشرين الثاني ، مصدرها وزارة الهند واليك نصها :

« تساعد حكومة صاحب الجلالة باعتبار ذلك جزءاً من سياستها ، على تأسيس حكومة وطنية في الاراضي المحررة ، ولا ترغب في أن تفرض على السكان أية حكومة غير مستساغة من قبلهم . إننا نصبو الى أن نرى بلاد ما بين النهرين أقوى حكومة شأناً وأرضها استقراراً ، وأن تكون على وفق هذين الشرطين معاً ولتحقيق هذا الهدف اننا عى استعداد لتقديم كل معونة بريطانية ، وبضمنها جيش احتلال ... » . « ومهما كان من أمر ، إننا لا نرغب في ضم البلاد ، أو ، على ما يتراءى في الوقت الحاضر ، اصدار تصريح حماية رسمي . يجب أن يقاس الوضع بوضع مصر قبل الحرب ، باستثناء الامتيازات الأجنبية . ويجب أن تسترشد في الاجراء الاداري ، والتصريحات الرسمية ، بالمبدأ الذي ذكر آنفاً ، وتستطيع أن تطمئن أصدقاءنا بأننا لن نتركهم ، ولن نربك العمل الممتاز الذي قمنا به ، حتى يوم الناس هذا . وفي الوقت نفسه يجب أن يراعى هنا موضوع أفضل نمط من أنماط الحكومة التي تشكّل . ويسرنا أن نقف على المشورة والمعونة اللتين تقدمهما ويقدمها مشاوروك في هذا الصدد » .

وكخطوة أولى في سبيل البدء باجراءات موسّعة والسير نحو الحكم الذاتي وارشاد المؤسسات الوطنية ، خصصنا ، خلال سنة ١٩١٨ ، بعض

---

(١) يمكن استخلاص آراء الرئيس ويلسون في الموضوع ، وبقدر تعلق الامر بانتداب امريكة المقترح على ارمينية ، من تصريح أدلى به يوم الـ ٢٨ من شباط ١٩١٩ الى جماعة التام شملها في (البيت الابيض) واليك نصه : لا أعدم الامل بأن شعب الولايات المتحدة الامريكية سيوافق على أن يكون وصياً على مصالح الشعب الارمني ، وأن يرعى أمر كسر رقاب الاتراك ومن هم مثلهم من الاكراد ذوي المراس الصعب العسير ، ليتلقوا في أدب التصرف درساً (كذا) . (المؤلف)

الوقت والتفكير الى ابتعاث المجالس البلدية ومجالس الألوية • وكتبنا بصدد نوايانا حول البلديات الى وزير الخارجية برقية مؤرخة بتأريخ العاشر من تشرين الثاني ، هذا نصها :

« وفيما خلا التنظيم القبائلي الذي دأبت سياستنا على المحافظة عليه وابتعاثه ، فلقد كانت البلديات في المدن الرئيسة هي المؤسسات الوطنية الوحيدة التي مكّنت الأهلين من اهتبال فرصة الاسهام في تصريف شؤونهم العامة •

إن هذه البلديات تخرج اليوم من خناق مالي مسبّب ، بالدرجة الأولى عن رحيل الموظفين الاتراك ، ونقلهم الاموال البلدية وسجلاتها ، وما أعقب ذلك من استطالة أوضاع الحرب والضرورة التي قضت بحفظ الصحة ، لأسباب عسكرية وما شاكل ذلك ، ••• وكلها بمستوى ما كان أحد يحلم به فيما مضى ، لكنه اليوم يلقى تقديراً واعجاباً عاماً • إنها اليوم على حال مالية رصينة طيبة •

إني مقيم ، اعتباراً من اليوم الاول من كانون الثاني ، مجالس بلدية ، في بغداد والبصرة ، وعلى الآساس التي اختطها (هول) ، حاكم بغداد العسكري ، بالمشاورة مع سراة بغداد ووجهائها •

ستتألف هذه المجالس من أعضاء معينين وآخرين منتخبين ، وستتمتع بصلاحيات واسعة ، بقدر تعلق الأمر بالواردات البلدية ، أعني الصرف الى حد ٥٠٠٠ روبية كل مرة و١٥٠ روبية شهرياً للمصروفات الجارية ، شريطة أن تكون هناك اعتمادات في الميزانية ، في الحالتين •

سيكون الرئيس ونائب الرئيس وأمين السر (السكرتير) في الوقت الحاضر من الموظفين • إن نسخاً من وثائق تأسيسها وقواعدها هي الآن بسبيل الاعلان •

وستشكل مجالس بلدية مماثلة في المدن الأخرى ، حيث لا توجد مثيلات لها حالياً ، وبسبب من المستوى العام ، التربوي والحضاري ،

الخفيض ، ستكون صلاحيتها مقيّدة ، وتحت اشراف أكثر وثاقة نوعاً ما» .

وبحث في موضوع (مجالس الالوية) في رسالة خاصة مؤرخة بالتأريخ نفسه ، واليكها :

« ضماناً للحصول على الفائدة المرتجاة من تعاون رؤساء العشائر والمالكين الكبار في ميدان ادارة هذه البلاد ، أنا مبتعث تشكيل المجالس الادارية التي كانت موجودة في العهد العثماني على وجه مقبول نوعاً ما» .

إن هذه المجالس تختلف عن المجالس البلدية التي تطرّقت اليها في برقيتي السابقة مباشرة ، اختلافاً تاماً . لكن الغاية منها أن تقوم بأعمال مشابهة لأعمالها في المناطق الريفية ، وستكون ، على كل حال ، في طالعة أمرها ، استشارية محضة .

لقد قامت في عدد من الالوية مجالس غير رسمية من هذا القبيل ، وكانت الى قلوب الناس حبيبة . إن الاتجاه اليوم نحو إعطائها شكلاً أكثر تحديداً وكياناً رسمياً أبين مظهراً ، والطلب على مثل هذا ظاهر للعيان . وسيتألف المجلس الواحد منها من أعضاء لا يزيد عددهم على ١٢ ، كلهم في الوقت الحاضر ممن يعينون من قبل حاكم اللواء السياسي ، وسيجتمعون في فترات مختلفة . إن الوحدات الادارية في الوقت الحاضر هي امتداد النظام التركي ، وقد رتّبت على وفق أحاسيس بلدية وعشائرية . إنها تمثل وحدات ادارية ذوات سعة مقبولة . وكل وحدة منها منسجمة متراصّة . وليست هذه الوحدات عديدة بحيث لا يمكن إدارتها من بغداد مباشرة . إن الوصول إليها من بغداد يسير ، ولا أستثني منها أحد . إن هذا الاتصال الوثيق نال من الشيوخ تقديراً .

إن تأسيس مجلس استشاري ، أو تشريعي في قابل الأيام ، وعندما يأزف الحين المناسب ويشمل بلاد ما بين النهرين كلها ، ميسرة ابتعاث هذه المجالس ، والبلدية منها أيضاً ويمكن آنئذ من اصطفاء مندوبين من أعضائها .

كان إحياء هذه المجالس الادارية ، لحين من الدهر ، تحت الدرس ، وكان المنتظر أن يسفر ذلك عن انضاج أمرها بيسر واسماح • وبالنظر الى شروط التصريح الانكليزي — الفرنسي المنشور في اليوم الثامن من تشرين الثاني ، وجد من الضروري الاسراع في الأخذ بمثل هذا التطوير الذي يضمن على كل حال الدعم المحلي ، ويقوّي دعايتنا المحلية المتوافقة مع نوايانا •

إني لآمل الى اتخاذ أي إجراء على هذا الأساس ، سيظهر للناس ،هنا وهناك ، أن سياستنا في العراق ، ترسم على وفق ما يصدر من تصريحات في اوربة ، ما استطعنا الى ذلك سبيلاً •

وكان من شأن مستر هول إعداد الانظمة التفصيلية للمجالس البلدية والادارية ، ومن القبس الآتي يمكن استخلاص آرائه عينها • لقد ورد ذلك في رسالة طوت موضوع المجالس البلدية وأرسلها إليّ بتأريخ الـ ٩ من تشرين الثاني :

« إن اللائحة والى حد كبير تفسّر نفسها بنفسها ، لكن ثمة ملاحظات قليلة أراها ضرورية • لقد أعلنت دول الحلفاء ، المرة بعد المرة ، الحرية والحكم الذاتي للشعوب التي جرى تحريرها من الاتراك ، وعدّ ذلك موضوعاً رئيساً في سياستها • إن الخطوات الاولى التي تؤدي الى هذه الغاية يجب أن تكون ذات صلة بالشؤون البلدية والمحلية • إن الدروس التي علمتنا إياها الأيام يمكن الاستفادة منها بتطبيقها على وجه أوسع•وان الغاية من التجديد المقترح هو إعداد درس أولي •

لهذا السبب بعينه لن يصار في الوقت الحاضر الى مبدأ الانتخاب إلاّ في النادر القليل • إنه آت في إبانه ، ولكن لم يحن حينه اليوم• وكل ذلك على الرغم من أن التعيينات التي ستجري من قبل الرئيس ستكون اثر مشورة ، واسترشاد جزئي بآراء الهيئات التمثيلية •

لقد كانت نيتي الأصلية معقودة على أن يكون للهيئات التمثيلية المؤلفة من المختارين (الذين يجب أن يكونوا أعضاء في المجالس ، ممثلين للفقراء والأميين) ، المقام المشابه لمقام الأعضاء المعينين من جميع الوجوه • لقد عارض الاخيرون الأمر بشدة مما جعل تكييف الخطة الاصلية أمراً ضرورياً • إن هذه الحقيقة بنفسها ، على ما أرى ، كافية لاظهار ضرورة التزام الصبر قبل الأخذ بمبدأ الانتخابات عموماً •

وبصدد البقية الباقية ، ان غاية التشكيل إعطاء المجالس مقداراً حقيقياً من السلطة والتبعة ، على حين يتم تهيئة الاشراف اللازم عند الطلب •

وكان أن تأسست المجالس البلدية في منتصف ١٩١٩ على الآساس المذكورة اجمالاً فيما سلف ، في بغداد والبصرة معاً ، وعلى قواعد أقل سعة في أغلب المراكز الأخرى • وما كان ذلك أمراً يسيراً ، فاعداد قائمة انتخابية وحده كان عملاً ضخماً •

يضاف الى ذلك : إن حكومة صاحب الجلالة رفضت السماح بإجراء حتى المجالس البلدية ، الى حين عقد الصلح مع تركية • لقد كانت القوانين التركية نافذة المفعول اسمياً ، فمكّنت عقول الأفراد المشاكسين من إثارة الصعوبات • لقد اضطررنا ، على سبيل المثال ، الى قصر العضوية على الرعايا العثمانيين ، فمنعنا منه كثيراً من الفرس والهنود والبريطانيين المقيمين في البلاد منذ أمد مديد •

لم يثر تشكيل هذه المجالس من اهتمام الجماهير إلاّ القليل ، ولم تسهم الصفوة المختارة من السياسيين في مداولاتها أبداً • إنهم كانوا يحثون ويحتوون نظام التعيين ، وإن تمّ فبحياد تام ، وما كان ثمة نظام آخر مسموح به قانوناً • ولا ريب أني ارتكبت خطأ إذ لم أجعل للمشاور البلدي معاشاً إذ لو تم ذلك لكان الفارق كبيراً • وتراءى ، يومذاك ، ان العمل الذي ينطوي عليه لا يبرر ذلك أبداً •

كانت المجالس الادارية الى حد ما أكثر نجحاً ، ذلك ان المجالس كانت ممثلة حقاً ، وفي الغالب تمتلىء حيوية ونشاطاً . ولولا متاعب سنة ١٩٢٠ لتطورت وأصبحت قيمة يدعمها رأي عام أكثر مما يدعم مجالس متمركزة ببغداد ، يدفع معاش لكل عضو فيها . ومما يجدر بالذكر أن أول مجلس اداري في الحلة أيد عريضة كانون الثاني ١٩١٩ التي تحبذ على وجه لاهب جلي الادارة البريطانية ، يرأسها مفوض سام بريطاني . ومهما كان من أمر، ففي حالة أخرى استقال جميع أعضاء مجلس ادارة الشامية المعين حديثاً بحجة محصلها أنه ما لم يقرر مستقبل البلاد فانهم لا يشعرون بأنهم في وضع يستطيعون فيه التعبير عن آرائهم ، على الوجه النافع ، والحر الطليق . كانت هذه الحادثة ، جاءت في شباط سنة ١٩٢٠ ، ذات صلة وثيقة بمجرى الحوادث في سورية ، وما كانت حزبية محضة . ذلك ان عجز حكومة صاحب الجلالة عن اصدار تصريح يتناول موضوع الانتداب ، أو تخويلها إياي باصدار مثل هذا التصريح ، جعل المفكرين العرب يمتلئون رعباً، هذا وان رجوع الاتراك كان أمراً محتملاً ، ويشغل تفكيرهم كثيراً .

وراجت قصص عن الحكومة العربية في سورية محصلها أنها تدفع مشاهرات سخية الى العاملين فيها (والحكومة البريطانية كانت تجود عليها بمنحة شاملة مقدارها ، على ما أعتقد ، ١٥٠٠٠٠ من الجنيهات شهرياً) . وكان في دمشق جيش عربي فيه مئات من الضباط العرب،تدفع لهم مشاهرات عالية . وكان الزعم أنه لو طبق النظام نفسه في العراق ، وهو بلد أكبر وأغنى ، لجاد بمناصب مريحة لآلاف مؤلفة . وأثارت المذابح التي قام بها الجيش اليوناني في أزمير في أيار سنة ١٩١٩ في بعض الجهات غضباً.وكان مسار الحركة القومية في تركية بقيادة مصطفى كمال باشا يرقب من كثب .

وفي الـ ٦ من تشرين الثاني أضاف السكرتير المالي في وزارة الحرب الى متاعبي شيئاً ، حين صرح في مجلس العموم انه لا يستطيع أن يقول قولاً فصلاً يتصل بادارة بلاد ما بين النهرين وحكومتها .

إن الأمر – على حد قوله – لا يمكن حسمه من دراسة مستأنية كبيرة ومشاورة مع السلطات الهندية وغيرها .. إننا نقوم بأفضل ما نستطيع في سبيل استعادة القطعات البيضاء من بلاد ما بين النهرين وبأسرع ما يمكن ، وآمل أن لا نلتجيء الى المحافظة على حامية بيضاء عدتها ٢٠٠٠٠ من الجنود ، على ما هي عليه اليوم .

وفسّر بعض العرب في بغداد هذا التصريح بأنه يدل على ان فكرة إناطة السيطرة على بلاد ما بين النهرين بالهند هي قيد الدرس . هذا وان الاشارة الى سحب « القطعات البيض » مشفوعة بتصريح سابق للمستر ونستن شرشل قد ساعدت على إثارة المشاعر الرسّية . والتزم الوزير المسؤول ، مستر مونتاكيو جانب الصمت .

وفي خاتمة المطاف وفي اليوم الثامن عشر من كانون الاول عمد رئيس الوزراء مستر لويد جورج الى إيضاح السبب في التأخير الكبير الذي طرأ على عقد الصلح مع تركية . إن تناوله الموضوع يستأهل اقتباساً تاماً :

« إذن ، هناك الأناضول ، التي أشار اليها أحد النواب المحترمين ، وهناك طوائف نصرانية في آسية الصغرى ، يجب أن تؤخذ بنظر الاعتبار . أتسهم أمريكة يا ترى في الأمر ، فإن كان ذلك حقاً فما سهمها ؟ إن فرنسة لتنوء تحت أحمال ثقال ، وان انكلترة لتنوء تحت أحمال ثقال ، وان ايطاليا لتنوء تحت أحمال ثقال . إن كثيراً من الامر يرتكن على استعداد أمريكة ، التي لا تنوء تحت أحمال ثقال شداد ، ولديها موارد ضخمة ، الى الاسهام في واجب حضاري عظيم كهذا ، وفي بلد شهير تأريخي كهذا . وحتى تعلن أمريكة ما هي فاعلة فإن أية محاولة تنصب على تركيز وضع قد يسفر عن سوء تفاهم معها ، أو عن قدر كبير من الريب . إن التفاهم مع أمريكة نعتبره أمراً حيوياً بحيث يهوّن علينا أية كلفة ممثلة بزيادة العبء على عاتقنا ، واحتمال نشوب ثورة ما ، إننا نعدّ عدم تركيز الوضع ، وهو ما كنا قادرين

عليه في أي وقت ، أمراً مقيداً •• إن هذا هو السبب في عقد الصلح مع تركية •• لست أعلم ما هو قرار أمريكة الذي ستتخذه ، ولكنه لا يبدو شيئاً حسناً • لو اطمأن المرء الى أن أمريكة ستتدخل ، فمن المفيد الانتظار الى مدة شهرين آخرين أو ثلاثة أشهر • وبصراحة أقول أن هذه هي الدلائل القائمة في الوقت الحاضر • لذا فإننا نرى في الوقت الحاضر أننا ذوو حق في عقد الصلح مع تركية من دون ازدراء زملائنا في مؤتمر الصلح ومن دون أن نسلب من (الولايات المتحدة الامريكية) شرف حراسة الطوائف النصرانية أبداً • واننا سنقوم بذلك في أول فرصة ممكنة(٢) •

لقد جاء هذا التصريح متأخراً ، أي بعد مرور شهور طوال • ذلك أن الحركة القومية اتخذت في كانون الثاني من سنة ١٩٢٠ شكلاً محدداً بعد أن كانت تتنامى ، لشهور ، اطّراداً • وسيطرت على الحال وزارة جديدة ومجلس جديد مشبع بميول وطنية قوية وصدر الميثاق القومي • لقد اختط هذا (التصريح) تقرير المصير الذاتي للاقاليم العربية الكائنة جنوبي خط الهدنة• وتطلّب ، صراحة أو ضمناً ، محافظة تركية على ولاية الموصل• وبانتظارنا ما يحلو للولايات المتحدة أن تفعله ، فقدنا السوق ، على ما يرد في لغة التجارة ، ولم يعد ممكناً عقد معاهدة الصلح مع تركية ، على أساس معاهدة فرساي • إن الكتابة على طلاء الجدار وجزء اليد التي كتبت فيها(٣)

---

(٢) وقعت معاهدة سيفر التي أريد من ورائها عقد الصلح مع تركية المقطعة أشلاء وأوصالا من قبل جميع الاطراف المعنية فيما عدا تركية نفسها وذلك في اليوم العاشر من آب سنة ١٩٢٠ • (المؤلف)

(٣) تقول التوارة (دانيال ٩/١٠٥) ان الملك بيلشاصر ، الذي عهد اليه أبوه نابو نهيد بادارة المملكة لانشغاله بالبحوث التاريخية وتحول شمس الحضارة البابلية وهو الذي رأى (الكتابة على الحائط) ذلك ان هذا الملك كان في وليمة خمر فظهرت أصابع يد انسان وكتبت بازاء النبراس على مكلس حائط قصر الملك ، والملك ينظر الى طرف اليد الكاتبة ،

←

كانتا ظاهرتين الى كل ممثل بريطاني في الشرق الأوسط تقريباً ، وما كان ذلك بالنسبة لرجال السياسة الحلفاء طراً • لقد جابهوا أوضاع أشد سوءاً في السنين القليلة المواضي ، فاستطاعوا التغلب عليها • وما كانوا هيابين أبداً ، لكنهم ، بسبب من انشغالهم في الجهات الأخرى ، وانصرافهم عن قراءة امارات الزمان ، أقدموا على وضع لائحة معاهدة سيفر والمفاوضة حولها ، على حين كان الموظفون الدائمون في (وايت‌هول) و(القسطنطينية) و(سملا) و(القاهرة) و(بغداد) يتراكضون معجلين ، والعيون منهم زائغة مرعوبة ، في أروقة وزارات الخارجية والسفارات •

لقد نزلت بهم لعنة أبولوا ، وخاب فألهم جميعاً •

إن الواجبات الادارية اليومية الدائبة المتصلة بالقضية التي لخّصناها في الصفحات الماضيات ، ونفخت فيها حياة ، انها على العموم عدّت معقدة، بسبب قدوم زوار جدد ، رسميين وغير رسميين ، وقد جاء كل منهم بعنصر جديد من عناصر تفسّر الوضع •

ومن أوائل الزوار المونسنيور مارتن الممثل البابوي(٤) ، لقد جاء من روما وباريس حديثاً يحمل تعليمات تقضي بلمّ شعث رعايا كنيسته بغية ضمان الحصول على أفضل المنافع من قبل الادارة المدنية مشفوعة بالمحافظة

فخاف الملك ولما لم يستطع أحد من كهنته أن يفسر الكتابة التي نصها : (منا ، منا تقبل وفرسين) أحضر اليه دانيال الذي فسرها على الوجه الآتي :

(منا : أحصى الله ملكوتك وانهاه ، وتقبل : وزينت بالموازين فوجدت ناقصاً ، وفرسين : قسمت مملكتك وأعطيت لمادي فارس)

راجع (في بلاد الرافدين ـ صور وخواطر ـ ليدي دراور ـ ترجمة فؤاد جميل ص٣٤ •

(٤) وصل من دون أوراق اعتماد ، وحتى من دون مشورات رسمية ، ولعل مرد ذلك الى أن دوائر الفاتيكان كانت غير واثقة من وضع العراق الدبلوماطيقي • (المؤلف)

على جميع المزايا والحصانات التي تمتعوا بها تحت ظل الاتراك باعتبارهم رعايا فرنسيين . وعلى ما يتبادر للذهن باديء الأمر كانت لديه طلبات كثيرة ، كل منها ينطوي على مبدأ لا يمكن البحث فيه جيداً حتى الوقت الذي يجيء في أعقاب الهدنة .

وسار في أثره مطارنة الأرمن والكلدان ورأس الكنيسة الآشورية والآشوريين ، والمتنازعون على رئاسة يزيدية جبل سنجار . وكان هناك وفد من والي بشتي كوه وعشائر كالهور وسنجابي ورؤساء أكراد ، لديهم منازعات على الحدود يجب أن تسوّى ، ودعاوى بأزاء العرب الغوّارة ، وشيوخ لا عد لهم ولا حصر . وكان من المستحيل الأخذ بنصيحة (جثرو: Gethro) التي أسداها الى موسى وجعل العمل المتعلق بهذه القضايا لا مركزياً حقاً ، ذلك انه لا يمكن وضع مبدأ عام قبل عقد الصلح مع تركية، وكل قضية يجب أن تعالج معالجة تجريبية .

ووصل مع المونسنيور مارتن المونسنيور رو المنسوب الى السلك القنصلي الفرنسي ، بعد أن تلبّث في البصرة بسبب رفض (المقر العام) ، لأسباب شتى ، السماح له باتخاذ مستقر له ببغداد . ولم أستطع أن أفهم آراء سر ويليم مارشل أو آراء مستشاريه العسكريين بقدر ما يتصل بمستر رو ، فباعتباره ممثلاً لحليفتنا الأولى أرى لزاماً علينا أن نعامله كواحد منا. وبحجة شحّ في وسائط النقل لم يسمح له ، ولا للكومندان سيار ، الملحق العسكري الفرنسي ، بزيارة الموصل لعدة أشهر .

كتب الجنرال مارشل يقول : لم أكن مطمئناً تماماً من أن الكومندان سيار سينصرف بكليته الى القيام بدوره المشروع ، باعتباره ملحقاً عسكرياً، ولما كانت صفحة الحركات العسكرية قد ختمت فلقد أرسلت برقية الى انكلترة تطلب فيها سحبه ، وأفهم بذلك. لقد خلق هذا الفعل على التقريب، وضعاً دولياً .. وأرسل سيار برقية الى حكومته يشكو فيها من إخراجه ، على النقيض من رغبته ، وكان عليّ إبقاؤه أخيراً .

وما كان انزعاج الحكومة الفرنسية مدعاة عجب ، فبالنظر الى الفاعليات السياسية الصرف ، المناهضة في الاحيان للفرنسيين (حقاً) والتي كان يقوم بها الضباط البريطانيون الملحقون بالجيش العربي في سورية ، ما كان يصح لنا في العراق أن نعارض في وجود ملحق عسكري فرنسي بين ظهرانينا وإن لم تكن غاياته عسكرية كلها(٥) •

إن دعوى الفرنسيين بالموصل مشروعة قائمة ، ولا يمكن إزالتها إلا بالاتفاق • وان اثارة مثل هذه القضايا اعتباطاً لم تخدم الذين يعملون في سبيل احلال السلام ،بل جعلت واجباتهم أشد عسراً •

إن السياسة التي التزمت بها ، وبقدر ما سمحت به سياسة « المقر العام » ، **هي المحافظة على العلاقات الودية الشخصية والترحيب بالممثل** الفرنسي على الصعيد العام جنباً الى جنب مع القائد العام • وبقدر تعلق الأمر بالمونسينيور رو بذلت أفضل ما أستطيع لازالة الريب والتبرم ، وما كانت هذه غير طبيعية ، لقد أثارتها معاملته بخاصة • وكانت علاقاتنا ودية في بغداد والبصرة •

كانت المحافظة على علاقات طيبة مع المونسنيور مارتن أمراً أشد عسراً • لقد كان يعني في الحاضر المحافظة على مدارس معينة ، كائنة في ولاية الموصل بالدرجة الاولى ، وقد كانت هذه تحت الاشراف الفرنسي أمداً طويلاً ، ودأبت على تربية الاطفال المنحدرين من آباء مذهبهم الكثلكة الرومية خصيصاً • وكانت دعواه ان الاشراف والسيطرة اللذين تمارسهما الحكومة على هذه المدارس ليست بفعالة إن قيست بما تمارسه المؤسسات الدينية المحلية المعنية مباشرة ، والمندفعة بحوافز تختلف عن حافز الموظف

---

(٥) كنت واقفاً تماماً على فاعليات الكوماندان سيار ، ولكنني لم اعتبرها في يوم من الايام ازعاجاً سياسياً ، وأقل من ذلك خطراً على الادارة المدنية •

(المؤلف)

الطيب الذي يعدم الفاعلية طراً • لقد عالج ممثله الوضع القائم يومذاك حسب ، ولكنه لم يلجّ بالتطلع الى مرأى بعيد • إنه لحالم أيضاً •

وسبّب مبعوثو بعض الهيئات التجارية للادارة المدنية حرجاً كبيراً ولحكومة صاحب الجلالة البريطانية أيضاً • لقد كانوا ينشدون استكشاف الوضع في بلاد ما بين النهرين⁽٦⁾ •

إن القاعدة التي كنت أسترشد بها ، بموافقة حكومة صاحب الجلالة، وفي معالجة أي ادعاء يعود الى ما قبل الحرب،سواء تعلّق بالنفط بالحافلات الكهربية (ترامواي) أو السكة الحديد هي : لا مناقشة ، بله الحسم ، حتى يتم توقيع معاهدة الصلح • وسيكون ، آنئذ ، من شأن الحكومة الجديدة معالجة أمثال هذه القضايا • ومن « قانصي الامتيازات » من لا يعتبر (لا) جواباً • وعلى ذلك بقوا في البلاد بضعة أشهر يتربصون • وكانت الجرائد اليومية في الولايات المتحدة الامريكية وأوروبة ، خلال الشطر الأخير من من سنة ١٩١٩ وطوال سنة ١٩٢٠ ، طافحة بما يبين الصلة المالية بين رواسب النفط ، نابهة الذكر ، في بلاد ما بين النهرين وبين قبول بريطانية الانتداب عليها ، ولم تستطع أقوال الساسة البريطانيين أو أفعالهم أن تصمد بأزاء الهجمات التي ظهرت على صفحات الصحافة الاوروبية وصحافة الولايات المتحدة الامريكية • وكانت الصيحات مدوّية ، فاسترعت انتباه من في بغداد ، حيث يستقرّ « رجال النفط » ، وما كانت عنايتهم بالاختلافات الجارية تنطوي على حصافة أو بعد نظر ، فأنذرت ببعث مصاعب جديدة لنا•

هذا ومن الجهة الأخرى ، دعت المستر اوسكار هايزر القنصل الامريكي أن يقول انه لم ينجرف، مع التيار الهائج المندفع في يوم من الأيام•

---

(٦) لدي شعور زمالة يتجاوب مع القاضي البيثاني الاغريقي الذي خلد عدله كتاللس • هذا ان الـ Cato الكاتو الآسن خبر مصاعب مع المبعوثين التجاريين في ساردينية • (المؤلف)

لقد شهد بغداد من قبل ، وشهدها خلال الحرب ، تحت الحكم التركي والبريطاني معاً ، وكانت مشورته ، عندما كان يطلب اليه ، سديدة معتدلة.

ورجوت أن يسمح لي باصدار بيان عن الموضوع ، لكن ذلك لم يحصل . لقد شعرت وزارة الخارجية أن ذلك أمر غير مرغوب فيه الخ.. حتى يمنح الانتداب . إن آراء ضابط الادارة المدنية السري معبّر عنها على الوجه الحسن على لسان (مان) — الذي قتل في الكوفة بعدئذ — وقد ورد في رسالة الى كلبرت مور ، أي مؤرخة بتأريخ ٢١ أيار سنة ١٩٢٠ ، واليك نصها :

« أرى أن ثمة ما يقال بصدد الحكم الصالح . وعندما تسنح لك الفرصة بإعادة الازدهار الى شطر كبير مخرّب من العالم ، هناك ثمة حجة لهذا الصنيع ... أقرّ أن قد قيلت أشياء سخيفة بشأن النفط والحنطة . ومهما كان من أمر ، فان أمر الحنطة ، على ما يخيّل لي ، خارج الصدد . إن العرب سيحصلون على ثمن الحاصلات المتزايدة ، ويتراءى لي أنه كلما ازدادت الحنطة في العالم كان ذلك أفضل . إن من شأن عصبة الأمم النظر في (الأفضلية) ، وأما الحماية فمشكلة عالمية . والأمر بالنسبة للنفط مختلف وذلك أنه يظهر في أرض قفر ، ولا يمكن أن يستغله العرب (كذا) . يضاف الى ذلك ان مصالح النفط في انكلترة والولايات المتحدة على حظ كبير من خطورة . (وكان ثمة رجل امريكي في النجف يستطلع لشركة ستاندر النفطية) . وعلى كل حال ، ليس من اليقين في شيء ان رجلاً ما سيعمد الى ابتعاث هذا النفط ، وما لم تقوموا بتدويل تجارة العالم تحت اشراف (العصبة) ، فإني أرى أن ستنجم لكم مشكلات دائمة مع (الاحتكارات)الخ. لم يكن احتلالنا الموصل للحصول على منطقة النفط (كذا) فلقد عمدنا الى احتلال الموصل لانزال ضربة بالاتراك . ولا أتصور أن هناك أحداً من الضباط السياسيين أو العسكريين يعني بضربة تأتي ما دمنا نملك حدوداً

جيدة • لقد اطلعت على كثير من المخابرات الدائرة مع حكومة انكلترة ، ولا شك أن (الأمة) تقرّها ، وليس فيها للاستثمار ذكر • طبيعي أنه لا يعرف أحداً شيئاً عن الاتفاقات الشيطانية (لبعض أقطاب المال) المعقودة مع (بعض) متقدمي السياسة ، ولكني أثق بأن ويلسن سيهزمهم » •

* * *

الواقع أن (ويلسننا) كان يعنى بنواحي شتى من المصالح التجارية العظمى • وما كان أمر الاتفاقات الشيطانية المالية ، عقدها سياسي بريطاني أو عقدت مع سياسي بريطاني حسب ، لكنها كانت لجماعات مالية متنافسة، ومن جنسيات مختلفة ، يقودها رجال على حظ من المقدرة كبير ، ونزاهة لا يتطرق اليها ريب ، وممن سعوا الى حماية المصالح التجارية الواسعة وكانوا عليها أحراساً معينين ، بالحصول على حق الاسهام في ابتعاث الموارد الطبيعية وأنظمة النقل فيها •

إن موقفي من هذه القضايا واضح جلي • فأنا ، في هذا الحين بعينه، رئيس حكومة موقتة ، وواجبي أن أعرض الأوجه البلدية للقضايا المختلفة على حكومة صاحب الجلالة البريطانية ، في الوقت المناسب ، وإذا ما تيقّنت وحصلت تماماً على الوقائع ومدلولاتها المحلية ، فإني أنفّذ تعليمات وزير الدولة لشؤون الهند ، إن وردتني ، وفي حال ورودها •

ومهما كان من أمر ، فالأوضاع التي نجمت بعد الحرب مباشرة كانت شاذة تماماً • ذلك أن الدولة كانت تعالج ، وجوهاً عدة ، في آن واحد ، ومتواقتة ، وما كانت تتبادل المشورة غالباً • ولم تكن تنسّق العمل في (وايت هول) ، فكل قضية كانت تعالج بمجرد نجومها وبوساطة البرق عموماً ، بقدر تعلّق الأمر بما تنطوي عليه من مبدأ ، وبالتطبيق محلياً •

ومن هذه المشكلات الناجمة ، قضية تصفية الاسطول النهري العظيم، والمسافن • والمعامل التي جمعت لمقاصد الحرب في بلاد ما بين النهرين •

وكانت تتصل بهذه المشكلة مشكلة تصفية الذخائر الحربية الفائضة ، من كل نوع ، المتجمعة في البلاد كلها . وكان ماكمن قد أسس ، بموافقة وزارة الحرب دائرة مبايعات(٧) لتنسيق أعمال الدوائر العسكرية المختلفة، وجعل على رأسها : (مدير مصالح الميرة) ومهمتها المواد القابلة للبيع في بلاد ما بين النهرين . وكان أمين السر (السكرتير) العقيد ماكي ضابطاً من ضباط (الادارة المدنية) . وكانت النتائج التي تم التوصل اليها مدعاة الطمأنينة والرضا ، واتسع نطاق المبايعات وشمل منطقة واسعة ، على وفق

---

(٧) كتب (فوربس Forbes) في الموضوع يقول : « للنظر في البضائع الفائضة شكّل مجلس مبايعات رئيسه مدير مصالح الميرة وأعضاؤه مديرون آخرون كمدير التموين والنقليات والسكك الحديد والنقليات النهرية الداخلية والمشاور المالي وممثلو الحكومة المدنية . وكان كل مدير مسؤولا عن التفصيلات المتعلقة بعمله . وكان للمفوض المدني الكلمة العليا في تثمين أي مادة يرى تصفيتها . وقام المجلس مجتمعاً بتنسيق الاجراءات ومعالجة السياسة المتبعة . وعين ضباط أكفاء باعتبارهم دلالين، والفضلات من أمثال الاحذية القديمة والقدور والاواني كل هذه بيعت سريعاً . وانتهى الامر عند هذا . فلقد تشبع السوق المحلي وهو صغير ولم يبق فيه مجال للمواد الضخمة الفائضة ذوات القيمة الجوهرية . وتراءى ان العلاج هين يسير اذ بعد أن سلم الى الادارة المدنية كل ما هو مفيد لابتعاث البلاد ، وما اتصل بالسكك الحديد بالدرجة الاولى ، والارصفة والسفن النهرية، كان في مقدور مجلس المبايعات تصفية البقية على وفق تعليمات ترده من (مجلس التصفية في لندن) سواء بنقلها الى محل آخر أو تدميرها .

لكن (مجلس التصفية) رأى غير ذلك ، فلقد استبدل لجنة المبايعات التي لا تكلف دافع الضريبة شيئاً بجماعة كبيرة من الموظفين التابعين اليه ممن لا يكلفون كثيراً منهم المفوضون ونواب المفوضين والدلالون والكتبة بلغت رواتبهم نحو (١٠ر٠٠٠) من الجنيهات شهرياً ، وما كانت لديهم المعلومات الوثيقة عن البضائع على ما كانت لدى أعضاء لجنة المبايعات. لقد فرغ مجلس التصفية من كلفة مؤسساته في بلاد ما بين النهرين بحيث استدعيت ، اثر رجوعي الى انكلترة . وسألوني ان كانت ثمة حاجة لهؤلاء الموظفين وكان جوابي أنني لم أجد أي مبرر لبقائهم .

(المؤلف)

الحاجة المحلية ، وعني بأن لا يغمر السوق بكميات كبيرة ، في مكان واحد ووقت واحد . وما أستطيع بيعه محلياً عهد الى (المازاد العلني) بتصفيته. وكان الدلال الرسمي ، وهو النقيب لاد ، ذا خبرة متجمّعة ، وسرعان ما استطاع أن يتحرّى عن (حلقات) ويعثر عليها . ومهما كان من أمر ، فلقد أستثنيت الزوارق النهرية من اجراءات التصفية ، وأعلن في أيلول أن ضابطاً خاصاً سيوفد من قبل (وزارة العتاد) ليعالج أمرها على الأسس المقترحة من قبلي في مؤتمر عقد بوزارة الهند في نيسان . إن هذه الأسس هي :

(آ) يجب اعلام لجنة المبايعات في بغداد عن جميع السفن النهرية التي تصرّح السلطات العسكرية بأنها فائضة عن المتطلبات العسكرية .

(ب) يجب تخويل لجنة المبايعات تصفية أمثال هذه السفن بيعاً ، إن وردها اعلام بشأنها ، وأن تدعو الراغبين الى تقديم عطاءات مختومة ، إن كانت السفن كبيرة ، شريطة أن تستخدم قدرتها الفاحصة في بيع السفن الصغيرة بالمازاد العلني ، إن كان ذلك أمراً مرغوباً فيه .

(ج) تقرر (لجنة المبايعات) شروط الدفع ، وما الى ذلك ، ولها أن تصطنع قوتها الفاحصة المميزة في السماح بالدين ، بضمان مناسب ، شريطة أن لا يزيد أجله عن ١٢ شهراً .

(د) للمفوّض المدني رفض اعطاء أي عطاء ، من دون بيان السبب . عُدّ هذا الشرط ضرورياً كيلا تقع السفن في أيدي غير المرغوب فيهم .

(هـ) تمنح شركة النفط الانكليزية ـ الفارسية حق اختيار جنائب (دوب) النفط والسفن الجرّارة والزوارق البخارية الخ .. التي يتطلبها عملها ، شريطة أن يكون ذلك خاضعاً لترتيبات مرضية ، بقدر تعلّق الأمر بالشراء والسعر وشروط الدفع ، وما الى ذلك .

يجب أن تتذكر أن سكة الحديد بغداد ـ البصرة ، في مثل هذا الوقت ، لم تكن قد كمل مدّها ، وان هناك كثيرين (وما أنا في عدادهم) لا يعتقدون بأنها تستطيع منافسة النقل النهري • وكان هناك من الناس عدد ممن ذكرنا ينظرون ، وقد ملئوا رعباً ، الى أن مستقبل النقل النهري مقصور على شركة واحدة • وكان معدل أجر نقل البضائع على ظهر السفن البحرية من البصرة الى بمبي ٦ من الجنيهات للطن الواحد • كما كان التحميل من لندن أو من الهند الى البصرة بيد شركة واحدة ، أيقن الناس بأنها راغبة في الحصول على انحصار النقل النهري من البصرة الى بغداد ، كما كانت تحاول العناية بالطريق البري المؤدي الى فارس • وفي تشرين الثاني سنة ١٩١٩ أعلمتني (وزارة الهند) ، بأنها ، اثر دراسة مستأنية شاملة ، أقرّت قيام (الادارة المدنية) بامتلاك وادارة ما هو ضروري للمتطلبات العسكرية والمدنية من السفن النهرية (ولم يطلب للحاجات المدنية أكثر من سفينتين تجاريتين و٣٥ من الزوارق) • وكانت شركة النفط الانكليزية الفارسية تروم شراء اسطول النفط والتأسيسات الكائنة على الشاطىء برمتها • وتجري تصفية البقية الباقية • وكان أن أجبت على وفق ما يلي :

« إن النتيجة الحتمية لسياسة الحكومة البريطانية المعلنة حالياً هي : ان الحكومة نفسها يجب أن تطوّر السكك الحديد والميناء وتسيطر عليها ، وأن لا تسمح بتملّك هذه المرافق العامة من قبل الشركات الخاصة ، وذلك بصرف النظر عن كونها سبّاقة في تنفيذ التزاماتها وأعمالها وقدرتها التي لا يتطرق اليها ريب • سأطلب قريباً كمية كبيرة من قضبان السكك الحديد ، إذ من دونها ، لا يمكن استخدام سكة حديد البصرة ـ بغداد ، وقد قاربت الانتهاء ، في النقليات المدنية ، الى أي حد • واني لعلى يقين من أن الأمر سيحظى بالنظر العاطف في ضوء الملحوظات المذكورة في أعلاه • لن تجود السكة الحديد بالثمرة المرتجاة من دون تجهيزها للنقل التجاري ، وهو أمر لم نبدأ به حتى الآن • أعتقد أن تقدماً عظيماً سيتحقق في سبيل التفاهم

المرضي ، لو حاولنا الدخول في مفاوضات أولية مع ممثلي (انجكيب : Inchcape) وعلى أساس الاتفاق التام بين هذه الجماعة والادارة المدنية مرتكناً الى الحد الاعلى للتحميلات النهرية ، والتفضيلية بحراً ونهراً العائدة للادارة المدنية ، والعوائد النهرية ، واصدار اجازة الشحن من لندن الى بغداد ، بحراً الى البصرة ، وبالسكة الحديد بعد ذلك . من الطبيعي أن تقدم نتائج المفاوضات الأولية على ما اقترحنا سابقاً وقبل المصادقة ، الى حكومة صاحب الجلالة البريطانية ، وذلك قبل أن تصبح اتفاقية ملزمة . أعتقد أن لدينا ببغداد جميع المعلومات المتعلقة بالمواد المطلوبة والمشورة الفنية مما يؤدي الى ترتيبات عملية عادلة بقدر تعلّق الأمر بالموضوعات نفسها . إن الشخصية التي أشير اليها بأسم (انجكيب) هي ، بطبيعة الحال، الفايكونت انجكيب الذي عهدت اليه الحكومة البريطانية القيام بتصفية عدد كبير من السفن ، عابرات المحيط ، التي تبلغ قيمتها : ٣٣ مليون من الجنيهات ، ولقد قام بتوزيعها ، من تلقاء نفسه على من يمتلكون السفن من البريطانيين وذلك من دون أن يجني لنفسه نفعاً ، أو أن تجني الشركات التي كانت تتصل به نفعاً ، وبشروط مرضية بالنسبة للحكومة البريطانية ، وكان عليه الآن أن يصفي أسطول العراق النهري بموجب الشروط نفسها وعلى ما قال نصّاً : بأنني لن أحصل على بنس واحد ، سواء لي مباشرة أو على وجه غير مباشر ، أو لشركاتي ، على حساب الغير بموجب هذه الصفقة » .

ورجوت الآن أن تعطى الشركات المحلية فرصة عادلة لتشتري السفن البخارية ، وأن تمنح قرضاً معقولاً ، لئلا تخيب في ميدان التنافس.وجواباً عن هذه البرقية (كانون الثاني ١٩٢٠) أن :

« الخزانة على استعداد لمنح شركات التجهيز المعتبرة سلفات من الواردات المحلية لمدة لا تزيد على المدة المحتملة لديمومة السفينة . إن الحد الأدنى للفائدة التي تستوفى بموجب الأسعار المحلية الجارية هو ٦ بالمئة .

ومن المعلوم أن ثمة رأسمالاً سائلاً عظيماً ببغداد • أوصي بأن تدفع الشركات نقداً الى (انجكيب) وترتب أمر الدين، إما معك، بموجب الشروط التي سلف القول عليها ، أو مع رجال المال المحليين • يجب الاخبار عن الديون التي تقوم بإقراضها » •

وأضافت (وزارة الهند) الى ذلك : أن ليس هناك من حق رفض شراء السفن تحتفظ به (الادارة المدنية) • لذلك أبرقت موضحاً ما يأتي :

يتراءى أن الترتيب الذي جرى مع لورد انجكيب يفرض أن دجلة والفرات مفتوحان للملاحة الحرة • وليس هذا بالواقع • يمكن اعتبار شركة الملاحة البخارية في الفرات ودجلة حائزة على حق مقرّر في اجراء ثلاث سفن مع جنائبها الضرورية ، وسفينة احتياط • وليس لأي شركة قائمة مثل هذه الحقوق •

في النية منح اجازات ، تحت تحفّظات سديدة ، الى الشركات المعتبرة والى الأشخاص القاطنين في العراق ، وعلى وفق أسس السياسة العامة ، وبموجب مصالح الملاحة ورعاية المسافرين • لذلك لا يمكن أن يسمح لأي فرد باجراء باخرة ما لم يحصل على اجازة كهذه • وان الامتناع عن منحها يجب أن يكون بموجب ممارسة حق الرفض • وقد تتجنب الصعاب لو أقرّت حكومة صاحب الجلالة حق الادارة المدنية في الرفض ، وأعلمت لورد انجكيب بذلك •

ولم يستطع لورد انجكيب ، مع الأسف ، زيارة البصرة أو بغداد شخصياً ، لذلك قرر أن يجري بيع السفن الفائضة عن الحاجة العسكرية في بلاد ما بين النهرين ، في بمبي • من الجلي أن هذا المكان كان عقبة في سبيل الشركات العربية في بغداد والبصرة ، وقد أثار عاصفة من الاستنكار ازدادت بسبب من أن (المقر العام) وقد حرم من تلك اليد الايدة والفطنة القوية ممثلة في سر جورج ماكمن ، قد رفض السماح بنشر أية قوائم تحوي السفن الفائضة محلياً وذلك بحجة عدم التوثق من أنها فائضة

حقاً ، وانها ستحتاج الى مصلحة النقل المائي العائدة لها لمدة طويلة قابلة. وأشير الى أن لحم الخنزير يمكن تغليفه مع سائر مواد التموين التي تحتاجها القطعات الهندية ، إن سمح للشركات المدنية أن تقوم بالشحن العسكري . على أن ثمة اصراراً قائماً حول خفض التأسيسات العسكرية . يضاف الى ذلك كله ، أن العرب البلديين لم يتيقنوا من تصفية أسطول لورد انجكيب، نيابة عن الحكومة البريطانية باعتبارها نابعة عن وطنية نزيهة مخلصة شاملة. لقد كانوا يرون فيه ذا سلطان مهيمناً ، فيما يهيمن عليه ، على شركة الملاحة البريطانية ـ الهندية ، وشركة شبه الجزيرة والبلاد الشرقية للملاحة البخارية ، وشركة الملاحة البخارية في دجلة والفرات .

وكانت للتجار اجتماعات في البصرة وبغداد أريد بها الاحتجاج على البيع في بمبي ، وكان تاريخه قد حدد قريباً ، بحيث لم يستطع الراغبون تقديم العطاءات في إبانها وهو أمر ، (لم يكن لورد انجكيب مطلعاً عليه بطبيعة الحال) .

وأثيرت العصبيات القديمة والعداوات العتيقة ، وعاد الى الأذهان أنه في سنة ١٩٠٩ حاولت شركة ستيفن لنج أن تحصل على شركة الملاحة التركية فسبّب ذلك سقوط الوزارة التركية في اصطنبول وجرّ ذلك الى استنكار عام في بغداد نفسها .

وقامت غرفة تجارة بغداد البريطانية بالاصرار على تأجيل البيع وضمنت ذلك في كتاب وقّعه رئيسها (مستر كري) حوى الفقرات الآتية :

« بالنظر للغموض الذي يلف صيغة الاعلان ، وفقدان المعلومات ، وقصر الوقت .. فإن بيعاً يقترح تحت شروط بمبي ، يبعث ، على التحقيق، وضعاً على دجلة هو الانحصار الحق كما يثير التبرم العظيم » .

وأعقب ذلك ارسال برقية مدوّية من البصرة وقّعها كل شخص من ذوي الوجاهة فيها ، تطلب أن يكون البيع في البصرة نفسها:

« إن ازدهار البلاد — على ما قالوا — يرتكن الى حد كبير الى المواصلات النهرية ، وان التجار المحليين يجب أن يمكّنوا من الاسهام في التجارة . إننا شديدو الأمل بأنكم سترعون ذلك فلا يحرم أهل هذه البلاد من المنافسة الحرة » .

وكان أن قامت (غرفة التجارة البغدادية العربية) بتقديم مطالب أشد قوة وقدّمت في مجلس العموم أسئلة كانت عاصفة في فنجان ، لكنها كانت طافحة باليمن والاحتمالات ، ذلك ان الرأي العام سمع له أول مرة دوياً . وبذل لورد انجكيب ما في وسعه لمجابهتها ، فأجل ميعاد البيع مرتين ، كما خوّلت من قبل وزير الخارجية أن أتخطى كل من (المقر العام) و (وزارة الحرب) في قضية نشر القوائم . وعادت (غرفة التجارة البريطانية ببغداد) الى الأمر فقدمت احتجاجاً مطوّلاً آخر(٨) وهذه خاتمته : « تنظر الغرفة الى المعاملة كلها ببالغ القلق ، ومما يزيد فيه وقوفها على الرأي العام المحلي بشأن الموضوع . إن قلق الغرفة ليس بناجم عن المصالح المالية التي ينطوي عليها ، لكن من حقيقة كون ظروف البيع(٩) هذا تعكس في نظر المجتمع العراقي صورة الحكومة البريطانية . إن هذا المجتمع ليعتقد أن مصالحه قد نبذت جانباً .. وان الغرفة لتؤمن بأن هذا المعتقد سيتنامى وسيسبّب ضرراً خطيراً ، ويشين اسم الحكومة البريطانية الطيب أيضاً . إن الغرفة تحذّر حكومة صاحب الجلالة من أنه (ما لم يعهد البيع الى موظف حكومي مستقل) فان سلاحاً سياسياً سيشهره أعداء الاحتلال البريطاني لبلاد ما بين

---

(٨) لقد تحقق لدي ، بعد ذلك ، أن حافزه الرئيس خبر لا سند له شاع وذاع ومحصله أن اللورد انجكيب سعى الى سراء سكة حديد البصرة — بغداد من وزارة الحرب ، وهو ضرب من الخيال لم يكن الاحساس العام على استعداد له . (المؤلف)

(٩) ان مجموع المبلغ الذي حققه بيع السفن النهرية في بلاد ما بين النهرين في حسابات وزارة الحرب ومن قبل لورد انجكيب هو : ١ر٠٨٠ر٠٠٠ من الجنيهات . (المؤلف)

النهرين في وجهها • إن العراقيين يباينون اليوم ، على وجه غير مستحب، بين فعل حكومة صاحب الجلالة البريطانية ، وفعل الحكومة التركية التي أطلقت مشاعر البلاد من عقالها قبل عديد من السنين ، مناهضة البيع المقترح للبواخر التركية ، الجارية في النهر ، الى شركة لورد انجكيب ، وبذلك حالت دون المشروع الأول الذي كان يمثل الاحتكار المطلق ، غير المساهم فيه أحد ، للملاحة النهرية » •

وقبل ورود هذا الاحتجاج عليّ ، كنت قد طمأنت نفسي بأن لورد انجكيب قد فعل ما في وسعه ، وما هو مأمول منه ومعقول ، وان المخابرات التي لخّصت فيما سلف قد ختمت بالبرقية الآتية المرسلة من قبله يوم الثالث من آذار :

« شكراً جزيلاً على برقياتكم • اعتمدوا على تعاوني معكم • وأني لواثق من أننا لو كنا قد اجتمعنا لحسم كل شيء بشكل يدعو الى طمأنينتكم التامة ، ومن دون أن يستغرق ذلك أكثر من نصف ساعة » •

لقد كان لورد انجكيب محقاً في اعتقاده بأنه استطاع أن يقابل تجار البصرة وبغداد ويحسم أمراً من دون إعسار • واني لأخشى من أنه سيجد (المقر العام) في هذه الفترة أقل حصافة ، ذلك انه كان يرسل البرقيات الى وزارة الحرب يطلب فيها ابقاء ٥٠ بالمئة من اسطول سنة ١٩١٩ لمقاصد حربية ، ويرفض أن تعهد النقليات العسكرية ونقل رجال القوات المقاتلة نهراً الى وكالات تجارية • كما ان المقر العام لم يكن ليرغب في أن يرى السيطرة على السكك الحديد مناطة بالادارة المدنية • لقد كانت السكة الحديد ، في هذا الوقت (آذار سنة ١٩٢٠) قادرة ، بسبب شحّ القضبان، على نقل ٢٠٠ من الاطنان يومياً فقط ، على حين كانت الحاجات العسكرية تتمثل بـ ٨٠٠ من الاطنان يومياً •

« إن خطوط المواصلات في هذه البلاد ، على ما أبرقوا ، دقيقة الشأن، ولو تم الحصول على أقوى الضمانات وأدقها ، بقدر تعلق الأمر بتلبية

الحاجات العسكرية في السلم والحرب ، لوجب أن تكون الفترة الانتقالية التي سيجري خلالها بيع الاسطول وتسليم السكة الحديد الى الادارة المدنية مبعث قلق بالنسبة للجيش . لا سبيل الى الحصول على الضمانات هنا ، ومما لا طائل تحته أن نسعى اليها .. وما لم تحسم فإننا لا نوافق على نقل السكة الحديد من السيطرة العسكرية ، شأنها شأن الاسطول النهري » .

وجاءت تعليقاتي على هذا القرار ، على الوجه الآتي:

« أعلم المقر العام وزارة الحرب أنه لا يوافق على تسليم السكة الحديد إلاّ بشروط لا يمكن اقرارها قبل مرور شهور .. ولعل من الهين اليسير أن أوضح القواعد العامة التي ينطوي عليها رأيي في نقل الدوائر من الجهة العسكرية الى الجهة المدنية .

الوجهة المالية :

بقدر ما أستطيع تبيّنه : أن كلفة الخدمات العسكرية في العراق ، خلال السنة المالية ، ستكون ، ما لم تتخذ خطوات في سبيل خفض النفقات ونقل بعض الخدمات الى الادارة المدنية ، أكثر من ٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ من الجنيهات ، وهو رقم يبعث برودة الموت عند التفكير في الابقاء على الانتداب في هذه البلاد . إنني أعتقد أن الخفض الضروري يمكن اجراؤه بوضع المصالح العامة ، وشبه المدنية على الصعيد السلمي ، وذلك بأسرع وقت مستطاع ، وعن سبيل إدخال الطرائق السلمية في حساب الكلفة وسائر الأمور المالية . ستكون هناك صعوبات موقتة ممثلة في فقدان الكفاية ، ولكن لا معدى عن مجابهتها .

الاعتبارات السياسية :

من المرغوب فيه أن تصبح الدوائر ذوات الاتصال الوسيع بالجمهور تحت الادارة المدنية بأسرع وقت مستطاع ، وذلك بغية اتخاذ الخطوات

الأولية لاحلال الموظفين العراقيين محل الموظفين الهنود ، في كل فرع من فروعها بقدر المستطاع .

الاسباب التجارية :

من المرغوب فيه تنمية التجارة مع فارس بأية وسيلة ممكنة ، على أن تصطنع السكة الحديد لهذه الغاية .

لقد اتخذ القرار القاضي بالمحافظة على (مصلحة مدنية للشؤون البحرية) ، تنطوي على الحاجات العسكرية ، اثر تحريات شاملة ، فأدى بي الى النتيجة القائلة : ان الطلبات العسكرية واسعة الى الحد المبالغ فيه ، والذي يحمّل الادارة المدنية تبعات غير مرغوب فيها ، وان الموظفين الحاليين والادارة الراهنة ، وأنا بسبيل تحمّل مسؤوليتها ، ستجدان أنهما غير قادرتين حقاً على ممارسة الالتزام بالاقتصاد الشحيح الذي لا يمكن المحافظة من دونه على مصلحة النقل البحري المدنية .

لقد عالجت هذه القضية بشيء من التفصيل ، لأن المخابرات تدل على المدى الذي ذهبت اليه ، في كل مناسبة ، مصطنعاً الخفض وملتزماً بالاقتصاد التام على ما أرى ، واستخدام العرب في الوظائف العامة . وفي متابعة هذه السياسة كنت ألقى مقاومة عند كل عطفة ، وبسبب الشكوك السياسية من جهة ومن جهة أخرى بسبب وجود قوات عسكرية في العراق ودوائر عسكرية بمقياس كبير وعلى ما تبيّن بأخرة ، ان قيمتها في المحافظة على النظام كانت ضئيلة . وعلى ذلك ، كانت (الادارة المدنية) متسمة بالاكتفاء الذاتي . لم يكن مؤملاً أن تستمر العائدات الكمركية وغيرها من الموارد التي تعتمد جزئياً على العدد الكبير من القطعات الموجودة في البلاد الى ما بعد نهاية سنة ١٩٢٠ .

كان الوضع في اليوم الأول من نيسان سنة ١٩٢٠ كما يأتي :

التخمينات الوقتية للواردات والمصروفات

١٩٢٠ — ١٩٢١

الواردات		المصروفات	
واردات الأراضي	١٥٨ر١٥ر٠٠٠	الواردات	٢٧ر٩٨ر٠٠٠
ضريبة التمور	١٨ر٣٧ر٠٠٠	الطابو والوقف	٦ر٤٥ر٠٠
الكودة	٢١ر٣٧ر٠٠٠	تسوية الأراضي	٢ر٨٠ر٠٠٠
الطابو	٥ر٧٢ر٥٠٠	المساحة	٦ر٠٠ر٠٠٠
واردات منوعة	١٤ر٥٤ر٧٩٠	الري	٥٧ر١٧ر٠٠٠
المساحة	٧٠ر٠٠٠	المالية	٨ر٠٠ر٠٠٠
الزراعة	٥٠ر٠٠٠	الزراعة	٦ر٧٧ر٠٠٠
الكمارك	٢٥٧ر٨٢ر٠٠٠	الكمارك	٤٤ر٠٠ر٠٠٠
العدلية	٧ر٨٢ر٨٠٠	السياسية والعامة	٢ر١١ر٥٥٠
السجون	٢ر٧١ر٥٠٠	العدلية	٧ر٥٥ر٠٠٠
السياسية والعامة	٢١ر١١ر٥٥٠	السجون	١٢ر٠٠ر٠٠٠
الشرطة	٧٠ر٠٠٠	الاشغال العامة	٩٤ر٠٠ر٠٠٠
التربية	٣٧ر٠٠٠	الشرطة	٧٠ر٠٠ر٠٠٠
الصحة	١ر١٧ر٠٠٠	الليفي	٤٥ر٠٠ر٠٠٠
المطابع	٦ر٦٠ر٠٠٠	التربية	١٨ر٣٥ر٠٠٠
المطبوعات	١ر٨٥ر٠٠٠	الصحة	٤٥ر٠٠ر٠٠٠
الفائدة	٣٠ر٠٠٠	النقل البري والنهري وبضمنه نفقة النقل للاشغال العامة والدوائر الأخرى	٧٠ر٠٠ر٠٠٠
البريد	٤٧ر٩٣ر٦٠٠		
البرق	٤٥ر٨١ر٠٠		
النقليات	٤ر٠٠ر٠٠٠		

المخازن	٤ر٥٠ر٠٠٠	المخازن	٧ر٥٠ر٠٠٠
الأشغال العامة	٣ر٠٠ر٠٠٠	البريد	٣٨ر١٤ر٠٠٠
متفرقة	٦ر٩٦ر٠٠٠	البرق	٣٥ر٨٩ر٠٠٠
الركائب	٦٥ر٠٠٠	المطابع	٨ر٢٠ر٠٠٠
ما دفع لواردات الحنطة المبيعة للجيش سنة ١٩١٨	٣٥ر٠٠ر٠٠٠	المطبوعات	١ر٦٨ر٠٠٠
		متفرقة	٤٨ر٠٠٠
		مخصصات المعيشة	١٨ر٥٤ر٠٠٠
ما جاد به الجيش على واجبات شبه عسكرية قامت بها الشرطة والليفي	١٨ر٠٠ر٠٠٠	الركائب..الخ	١٠ر٨٢ر٠٠٠
		خدمات دينية	٢٠ر٠٠٠
		آثاريات	١ر٠٠ر٠٠٠
المجموع	٧٤٠ر٦٨ر٦٦٦ روبية	المجموع	١٠٠ر٥٢ر٧١٠ روبية

كان هناك عجز جار يقدر بنحو ٤٤ من الكاك الروبيات ، يقابله ما تجمّع لدينا من فائض مقداره ٣١ من الكاك الروبيات . إن ميزانيتي السكك والحديد عولجتا على انفراد على أسس الاكتفاء الذاتي والتجاري . واستثني (الدين العثماني العمومي) أيضاً ، على جانبي الحساب . وخضعت التخمينات الى تنقيح ، وخفض محسوس ملموس ، وكان كثير من المصروفات من نوع لا خطورة له . لذا كانت (الادارة المدنية) في سنتها الاولى مكتفية بذاتها ، ولكن ذلك لم يبلغ حدّ التمام .

لقد كانت (الدائرة المالية) ، منذ طالعة أمرها ، بيد سليمة مجربة ، يد الرائد ماي المنسوب الى دائرة المالية السودانية ، أولاً ، وهو من بذل كثيراً من الجهد في سبيل إقامة نظام عملي ، ثم صارت الى العقيد سليتر، المنسوب الى الخدمة المدنية الهندية ، والذي غدا بعد ذلك للحكومة العربية مشاوراً مالياً[1] .

لقد كان واجبها معسراً جداً ، فالمصروفات كانت تفرضها الضرورات العسكرية الى حد كبير . وكان من المستحيل اجراء خفض في الملاكات ، على حين غرّة ، من دون إحداث حالة فوضى مرتبكة . وكان الانتقال بحراً غير متيسر خلال شهور ، على ما ذكرنا آنفاً ، والى أن يصل الأشخاص انكلترة أو الهند كانت مشاهراتهم على حساب الادارة الدنية خصماً . وكانت كلفة المواد في صعود ، لكن القوائم كانت تستغرق سنة أشهر وزيادة قبل ورودها علينا . وأرخيت السيطرة على كلفة التحميل فبلغت أرقاماً لم تعهد قبلاً . وكنا نشكو من قلة في عدد الموظفين كما كنا بأيدي الدوائر العسكرية في كثير من القضايا ، وهذه كانت تسعى الى توازن ميزانياتها على حساب خراب ميزانياتنا . لقد كانت فترة حرجة ، ما لها من قرين أو نظير ، ولن أبالغ في عظمة موقف سليتر بازاء العواصف الهوج التي عصفت نظير ، ولن أبالغ في عظمة موقف سليتر بازاء العواصف الهوج التي عصفت بنا .

وما دمنا في معزل عن مِنَح يجود بها البرلمان الانبراطوري ، علينا ، فكنا نستطيع أن ندعي بشيء من الاستقلال المالي ؛ وكان من الواضح للجميع أن السيطرة على الخزانة على الآساس السورية ستكون عسيرة ومعقّدة بالنظر الى الحالة الانتقالية التي تتسم بها (الادارة ، وصعوبة المواصلات) التي لا يمكن تذليلها ، ولو عمد الى مثل ذلك لأسفر الأمر عن خطر كبير .

وفي منشور صدر الى الحكام السياسيين بتأريخ نيسان سنة ١٩٢٠ ذكّرتهم بكلمة لورد مورلي الواردة في كتاب معنون الى نائب الملك في الهند ، هي : « في بلد فقير ، يعدّ الاقتصاد عنصراً من عناصر الدفاع ، شأنه شأن المدافع والقلاع » . لقد طلبت الى المعنيين جميعاً بخفض النفقات الى الحد الذي يمكننا من موازنة (الميزانية) . واني على يقين من نجاحنا في ذلك لو كانت الأوضاع سوية .

وبصدد السيطرة على (الخزانة) أبرقت البرقية الآتية بتأريخ (ايار سنة ١٩٢٠) : ان ميزانية هذه السنة ، على غرار ميزانية السنة السابقة، لتكشف عن ضرورة قيام الادارة بتسديد النفقات الجارية غير ذات الصبغة العسكرية من دون الرجوع الى البرلمان للحصول على منحة ..

إن المقترحات الدستورية التي هي الآن على طرف الثمام من يد حكومة صاحب الجلالة البريطانية تنطوي على فرض السيطرة التامة من قبل المفوض السامي على مالية البلاد ، وعلى ما يراها مجلس الدولة والمجلس التشريعي بأخرة ، ولا معدى عن نجوم حالة فوضى عميمة واستنكار كبير ، لو حددت السلطة التنفيذية في هذه البلاد على وفق ما اقترحت الخزانة تنفيذاً لقرار مجلس الدولة . وارتكاناً الى أسس عملية أقترح ما يأتي :

« إن اخضاع كثير من القضايا والنظر فيها تفصيلاً من قبل كثير من دوائر الحكومة البريطانية يتطلب استخدام جماعة من الكتّاب الأكفاء الذين يجب أن يؤتى بهم من الخارج، فضلاً عن آخرين من ضباط الادارة المجربين ممن لا نستطيع الى إعدادهم سبيلاً .

لا معدى عن تأخير كبير ، بالنظر الى بعد الشقة بين العراق ولندن ، ووطأة العمل في انكلترة ، وفي الدوائر المعنية كافة .

إن الادارة في حالة انتقال حرجة وستبقى على هذا طوال ١٢ شهراً . إن نقل الدوائر على اختلافها من سطوة الجيش ، قد تأخر كثيراً ولن يتمّ قبل نهاية هذه السنة بعينها . إن كل انتقال جديد ينطوي على إضافات وتغيرات ، بالنسبة الى عدد من الدوائر الأخرى .

إن ضرورة الاكتفاء بما لدينا من وسائل تفرض على (الادارة) واجب الالتزام بالاقتصاد التام في مصروفات الدوائر كلها . واني لأعرض بأن هذا أفضل ما يمكن القيام به في ظل الترتيبات الحالية ، حيث نيطت السلطة المالية التامة بالمفوض المدني يشاوره فيها السكرتير المالي .

لذا أقترح أن تستمر الترتيبات الحالية لمدة ١٢ شهراً على أن تخضع لدراسة أكثر من قبل حكومة صاحب الجلالة البريطانية اثر تسلمها ميزانية سنة ١٩٢٠ — ١٩٢١ .

وتراءى لي أن قضية السيطرة المالية وقصة التدقيق لا يمكن فصلهما عن القضية العامة، أعني درجة السيطرة التي تمارسها الدولة المنتدبة وانهما يجب أن تدرسا في ضوء موازنة هذه السنة والسنة التي سبقتها .

ومهما كان من أمر ، وبصرف النظر عن هذه الاعتبارات ، ان القضايا كلها مائعة ومتحوّلة الى الحد الذي يجعلني أشفق كثيراً من الأخذ بترتيبات جديدة خلال السنة المالية الحالية واني لواثق من الصميم بأنه يمكن إرجاء النظر في هذه القضية في الوقت الحاضر .

إن لم تسفر الاضطرابات التي وقعت بعد ٦ أسابيع من هذا الوقت عن شيء ما فانها في الأقل حررت العراق من سيطرة (وايتهول) المالية ، ومن دقايق الأمور وتفصيلاتها التي تعنى بها (الادارة) — ومن هذا النمط الذي يتّسم بفقدان الحماس ، وعلى ما حدث في فلسطين بقدر تعلق الأمر بالنظام الحالي للحكومة تحت الانتداب ، وعلى الوجه الذي لا يدركه أحد » .

* * *

الفصل السادس والعشرون

الاشهر الاربعة الاولى من سنة ١٩٢٠

الأثيني : لنتذكر الخلق المقدام المندفع جنونياً ، الذي خلق مدينتنا هذه .

كلينياس : ما هذا الذي دار في رأسك ، فظهر على لسانك ؟

الأثيني : في ذهني هذا النهج الحر الهين اليسير الذي نتخذه ليتقبل المستعمرون ، من غير ذوي الخبرة قوانيننا . ليس من المحتم أن يكون المرء حصيفاً ، يا كليناس ، لكي يرى أن لا احد يستطيع أن يتقبل القوانين بيسر واسماح ، وهي تسن لأول مرة . ولكن لو صبرنا حتى يسهم في الانتخابات العامة في البلاد من تشبّع بها منذ الطفولة واشنف من أفاويقها واعتاد عليها . أقول لو تحقق ذلك كله وعلى وجه الصواب ، بأية وسيلة لما بقي في آخر الدهر على ما يخيل لي ، إلا خطر قليل على دولة روّضت على هذا الوجه، وهي ليست بمستديمة .

افلاطون (القوانين)/٦ عن ترجمة (جويت)

لو جرى تنبؤ سياسي على الأسس التقليدية في مطلع شهر كانون الأول من سنة ١٩١٩ ، وارتكن الى التقارير المقدّمة الى (الادارة المدنية) يومياً، والمنهالة من كل مركز اداري في العراق ، لكشف عن هوة فاغرة ، أصلها في سورية ، زاحفة دائبة من دمشق الى دير الزور . إن الخطوط البيانية للتنبؤات الجوية السياسية التالية لتظهر أن هذه الهوّة سارت من دير الزور الى (تل اعفر) مسبّبة اضطرابات جوية خطيرة ، وأضراراً مادية

كبيرة في كلا الموضعين على حد سواء • إن المخطط البياني ليبيّن خفضاً في (البارومتر) في بغداد وكربلاء والنجف ، وهي مراكز عاصفة معروفة لدى الجميع ، على حين يتراءى البارومتر السياسي في غيرها « حسن الوضع » دالاً على رعود محلية ، مفصحاً عن أن الهواء مشبّع بالكريهة ، بسبب فقدان مانعة الصواعق • سأحاول في هذا الفصل أن أيسّر الوقوف على أصل هذه الظواهر ومجراها ، وهي التي كانت تنذر باضطرابات داخلية أشد خطراً •

أقيمت في تشرين الاول من سنة ١٩١٨ حكومة مستقلة على رأسها الأمير فيصل تمتد رقعتها من حلب الى دمشق ، واجهتها عربية ، لكن الضباط البريطانيين فيها كانوا ، على ما فرض ، يسدون المشورة اليها ، كما تجود حكومة صاحب الجلالة البريطانية عليها بالمال بمقياس أصبح العرب الموجودون في جزء بلادهم الغربي معتادين اليوم عليه • وكان كثير من رجال حاشية الأمير فيصل عراقيين بالأصل • وهم يرون أنهم قاتلوا في الحملة السورية بقصد تحرير بلادهم نفسها ، كما أنهم أسسوا منذ شتاء سنة ١٧/ ١٩١٨ ، خلال القتال الذي دار قبل معان ، جمعية تدعى بـ (العهد العراقي)، ترمي الى الحصول على استقلال العراق من كل سيطرة أجنبية واتحاده الوثيق مع سورية المستقلة تحت ظل أسرة الملك حسين ، ملك الحجاز • لقد كان على رأس هذه الجمعية (ياسين باشا) الذي أسر ، إثر سقوط دمشق ، وبدّل مركزه الرفيع في الجيش التركي بمنصب رئيس أركان جيش فيصل • انه المسؤول عن نماء المطامح الوطنية في العراق نماءً معجلاً • ومن المشكوك فيه إمكان الوقوف على المدى الذي كان يذهب اليه فيصل في معاونتها • لقد أربكته (شوفانية) قادتها السياسيين ولم تمد له عوناً (كذا) • لقد استنكر مرات عديدة إجراءات رتّبتها العصبة ، ما الى الشك في ذلك من سبيل • ذلك أنها عن طريق إسهام الضباط العراقيين كانت على الجيش مسيطرة ، فلا حول له على توجيهها ولا قوة • إن طبيعة

الحافز الوطني الرومانطيقي ، غير المحدودة شكلاً ، والذي بدأ يتدفق على العراق من سورية في هذه الفترة ، صيّر معالجة القضايا الادارية ، على أسس عريضة ، أمراً عسيراً معسراً • وما كان للحركة خلال سنة ١٩١٩ في العراق من قادة ، ولا كان لها ممثلون معتمدون أيضاً • كان حافزها ما ولّدته الحرب من أوهام مزالة ، لكن مدلولاتها المحلية كانت متذبذبة غير ثابتة • لقد رأيت فيها بذور أمل ، لكنني شعرت أن الخضوع الى اتجاهاتها من دون تمحيص لا يمكن أن يؤدي إلاّ الى كارثة • ففي البلاد الشرقية ليس العنصر المفكّر بأقل هيمنة في الأيام الشداد على القضايا السياسية من القضايا الرسمية والدينية • إن الاعتبارات التأريخية والدينية أسوأ من ذلك كله • إن دعاة التقدم السياسي ينبذون الحقائق الواقعية جنباً ، ذلك أن من المسرّ أن يستطيع المرء تحرير نفسه من واجب الولاء للحقائق، وهو واجب سهل يسير •

ما كان خط الحدود بين سورية والعراق في زمن الهدنة محدداً• وكانت ولاية بغداد تحت ظل الحكم التركي تضم قضاء عانة الممتد على الفرات الى أميال قليلة فيما وراء (القائم) • وبين القائم و(الرقة) التي هي أقصى مدينة في ولاية حلب جنوباً • وتقع هناك متصرفية دير الزور التي لم تكن مضمومة الى أية واحدة من الولايتين بل كانت مرتبطة باصطنبول مباشرة • لقد جرى تغيير في هذه الوحدات الادارية قبيل الحرب ، واتسع لواء الدير الى الجنوب كثيراً وبضمن ذلك عانة واليها كنت قد أرسلت ، بناء على طلب جادّ ملحّ من وجهائها ، اثر انسحاب الاتراك ، كمساعد حاكم سياسي بريطاني • وفي أواخر تشرين الثاني ألح أيضاً سكان بليدة دير الزور الكائنة على الفرات ، على بعد نحو ٤٠٠ ميل من بغداد ، على ايفاد ضابط بريطاني للمحافظة على الأمن والنظام فيها • وكنت أقدّم رجلاً وأؤخّر أخرى ، بشأن توسيع تبعاتنا في هذه الجهة ، كما رفض الجنرال مارشل أن يوسّع منطقة حمايته العسكرية فيما وراء القائم • لكن ، تراءى أن من

الخطر ترك منطقة بين سورية وبين العراق لا الى هذا ولا الى ذاك ،والترك منها على قاب قوسين أو أدنى • وعلى ذلك أحيل الأمر الى حكومة صاحب الجلالة ، فعمدت على الرغم من احتجاج الحكومة العربية في الشام الى إيفاد ضابط بتأريخ الـ ١٣ من كانون الاول ، واقتقته من (الادارة المدنية) ليتولى الأمر موقتاً حتى يصدر قرار مؤتمر الصلح (أي على أساس احتلالنا ولاية الموصل تماماً) •

وعلى هذا أرسل النقيب كارفر من (عانه) الى (الدير) ، وما أن بلغ (البو كمال) إلاّ وجد فيها قائممقاماً ممثلاً للحكومة العربية ومرسلاً من قبل والي حلب ، ومعه موظفون مرؤوسون وأربعون من الدرك ،وقد وصلوا جميعاً يوم الـ ٢٣ من كانون الاول ، مزوّدين بتعليمات تقضي باحتلال (عانه) • ووصل الى (الدير) في الوقت نفسه ، متصرف عربي وشغل بتعيين عدد كبير من الموظفين وتجنيد الدرك بمشاهرات نسبتها تعلو على نسبة مشاهرات العراق كثيراً • إن المبالغ اللازمة لهذه كانت ، بطبيعة الحال ، تسحب من (خزانة صاحب الجلالة البريطانية) ، وبوساطة المساعي الحميدة التي يبذلها المستشارون البريطانيون في حكومة الشام ممن أهمل اعلام الجنرال اللنبي في القاهرة أو حكومة صاحب الجلالة البريطانية أو بغداد عمّا يقوم به تابعوهم ، هم ، على ما تراءى لا يأبهون بأمرهم •وعلى ذلك أطبق جهل مظلم على هوية من أصدر الأمر ، أعني حاكم حلب العسكري ، أكان انكليزياً أم فرنسياً أم عربياً • ولدى مراجعة حلب تبيّن أنه (شكري باشا الأيوبي) الذي أعلن ، بعد ثلاثة أسابيع من الحادث ، أن الموظفين العرب قد اتخذوا سبيلهم الى (الدير) و (البوكمال) خلافاً لأوامره ، وأنه على استعداد لسحبهم فوراً •

وعلى الرغم من أن الأمر في الوقت الراهن قد تم حسمه سلمياً ، لكنه ترك طابعاً من التنافس في المطامح التي لا توفيق بينها ، وهو تنافس لم

تخب (جمعية العهد العراقي) في الافادة منه • وفي شباط ، ثم في تموز سنة ۱۹۲۰ ، كرّة أخرى ، قام معتمد للعهد العراقي ، وتحقّق بأخرة أنه المدعو رمضان الشلاّش ، بالطواف على قبائل دير الزور واستحصال مضابط في صالح الحكومة العربية • لقد كان رمضان نفسه ، بالأصل ، مختاراً لأحدى العشائر البلدية المسماة (البو سراي) ، وهي عشيرة مزارعة وتربي الأغنام ، قاطنة فوق الدير وتحتها ، كما كان ضابطاً في الجيش التركي وتركه في المدينة بالشريف ملتحقاً •

وما كانت الأنباء التي تبثها العصبة مقصورة على الدير • لقد حمل العراقيون الذين في سورية رسائل الى ذوي قرباهم وأصدقائهم في العراق، غايتها جمع العراق الى سورية والمطالبة بالاستقلال التام • ولقد أرسلت مبالغ من سورية لمساعدة العراقيين في نشر هذه الأفكار •

وعلى ما ذكرت سابقاً لم أكن داعية متحمساً الى ضم دير الزور وجعلها ضمن حدود العراق • لقد كانت تعدّ من أقدم الأزمان التأريخية جزءاً من سورية • وصيّرت الاعتبارات العسكرية نبذها خارج العراق أمراً سديداً، إذ لا يمكن المحافظة على قطعات في نقطة بعيدة مثلها ، كما لا يمكن الاعتماد على المجندين المحليين فيها • ومهما كانت الحال ، لقد استطاع النقيب كارفر ، ثم النقيب جاميز والملازم بويز ، بمساعدة سيارتين ملحقتين بإمرة النقيب كورنك من المحافظة على السلام طوال شهور ثمانية ، فبقيت الطرق على الفرات صعداً مفتوحة • وكل ذلك على الرغم من أن أقرب المفرزات اليهم كانت في الرمادي والموصل • وزرتهم ، في الغالب جواً وبذلك استطعت أن أكون واقفاً على الحوادث من كثب وقوفاً حسناً • وعلى الرغم من أنهم كانوا يعدمون العون العسكري تقريباً إلاّ أنهم سعوا الى معاودة إقامة سلطة الحكومة وخفض أسعار القوت ، فغدت أقل ممن كانوا عليه قبل وصولهم ـــ وهو أمر ذو أهمية كبيرة بنظر الطبقات المملقة من أهل المدينة

ومرد فضل ذلك اليهم • وكانت بطبيعة الحال ادارة موقتة ناء تحت ثقلها الموظفون المعنيون كثيراً •

لقد اقترحت حكومة صاحب الجلالة حدوداً وقتية خلال صيف سنة ١٩١٩ تعبر الفرات جنوبي الدير عند فم الخابور بأميال ، وتتابع بعد ذلك مجرى هذا الرافد صعداً ، لكنها لم تعد موافقة للأوضاع المحلية • لقد كانت العشائر أنفسها تقطن على جانبي الخابور ، وكان من الضروري ولمصلحة السلم ، وضعها جميعاً تحت ظل دولة منتدبة واحدة • ومع ذلك، تقرر في المحادثات التي جرت بين بريطانية العظمى وفرنسة في أيلول سنة ١٩١٩ الاحتفاظ بالخابور حداً موقتاً • وكان الأمير فيصل حينذاك فيأوربة، يحضر بعض المؤتمرات ولكن لم يكن من اليقين أن اطلاعه على طبيعة القرار كان بوجه دقيق ، وإن اتصل بعلمه أن في نية دول الحلفاء من دون شك استثناء الدير من رقعة الدولة العراقية • وكان الانطباع السائد في سورية أن بريطانية العظمى ستخلي المتصرفية كلها ، ليكون الحدّ الجنوبي عند القائم ، وهو الحد التركي القديم نفسه ، أو في أسفل عانه عند النقطة التي اتخذها الاتراك حداً موقتاً • وباءت بالفشل جميع المحاولات في سبيل الحصول على معلومات من لندن ، إذ تراءى أن أحداً لا يعرف ما القرار المتخذ حقاً • وما كانت هناك (بروتوكولات) أبداً ، وما تراءى أن شيئاً ما قد تم حسمه خطياً •

أخلت القوات البريطانية ، خلال تشرين الأول سنة ١٩١٩ سورية • وسمع بعد أيام قليلة النقيب جامير ، وكان يومذاك الحاكم السياسي في دير الزور ، أن قائممقاماً تركياً ورد على الحسكة ، شمالي — شرقي الدير• ووزّعت على القبائل في الوقت نفسه رسائل تعلن أن الاتراك عائدون تواً• وكان أن أوفدت النقيب جامير الى الحسكة لمقابلة القائممقام ، وباقتراح منه اتخذ سبيله الى (رأس العين) وكلّم القومندان التركي في (ماردين)

مستوضحاً . وأجاب القومندان أنه سمع أننا أخلينا الدير ، ولما كان الأمر بخلاف ذلك ، فانه سيستدعي القائممقام . وما كانت في شروط الهدنة موانع تحول دون قيام الاتراك بمثل هذا ، ذلك أن دير الزور لم تكن جزءاً من سورية كما لم تكن جزءاً من ولاية الموصل أيضاً .

وأبرق المفوّض السامي في القاهرة يوم الـ ١٩ من تشرين الثاني مبيّناً أن رمضان الشلاش قد غادر حلب مزوّداً بتعليمات من حكومة دمشق تقضي بأن يتخذ الى الدير سبيلاً .

وفي أوائل كانون الاول بلغ (الرقّة) وشرع يدسّ الدسائس بين العشائر متخذاً له : (حاكم الفرات والخابور) عنواناً . إن جميع المعلومات التي وردت علينا في هذا الحين لتدل على أن العلاقات بين متقدمي العرب في حكومة دمشق والاتراك أصبحت وثيقة ، وهذا شيء طبيعي حقاً ، ما دام كثير منهم الى الجيش التركي حتى الهدنة منتسباً . وعلى ذلك كنت أميل الى الاعتقاد بأن هذه الحركة موحاة من قبل الجهات التركية ، وليست من دمشق نفسها ، وما كنت أعتقد بأن الضباط البريطانيين يكوّنون جماعة راضية ، كما لم يصلني منهم بصدد الموضوع شيء أبداً إلاّ على الندرة ، شأنهم في ذلك شأن وزارة الهند أيضاً .

ودخلت القبائل دير الزور من الجنوب في اليوم الـ ١١ من كانون الاول ، وهاجمت المستشفى والكنيسة وجامعاً أو جامعين ودائرة الحاكم السياسي وكسرت خزانة الحديد وأخذت ما فيها . ونسف مستودع البترول فكان خسار المهاجمين تسعين ، وأطلق سراح جميع المسجونين . وأطلقت النار على سيارة مسلّحة كانت خارجة لتقوم بمهام الاستكشاف في المدينة وألحقت بها أضراراً بالغة . ثم أطلقت النار عند الضحى على الثكنة . وأجابتها الرشاشات المنصوبة على السطوح ، ولكنها سرعان ما عطلت عن العمل بنار العدو . ودعي بعد ذلك بقليل النقيب جامير لينزل من المدينة

ويحضر مؤتمراً يعقد مع المحافظ وسراتها • وتراءى أنهم تواقون الى عقد هدنة ، وتجلّى أنهم ما أن أدخلوا الأعراب الى المدينة إلاّ وجدوا أنفسهم غير قادرين على فرض السيطرة عليهم • وكان أن قابل الشيوخ الذين قادوا الثورة ، وقد أخذ الهياج منهم مبلغاً عظيماً • وكان الرأي العام قد انعقد منهم على أنهم وقد بلغوا هذا المدى ، فعليهم قتل الضباط البريطانيين وموظفيهم أيضاً ، وكان من المحتمل أن يقدموا على مثل هذا لو لم يتراءى في السماء ، وحسناً ما جرى ، طائرتان أرسلهما (المقر العام) من الموصل ، وأخذتا تصليان المدينة ناراً• وبدّل الشيوخ من لهجتهم حالاً ، واسترحموا من النقيب جامير بأن يوقف قصف المدينة • وما ان غادرت الطائرتان إلاّ عقدوا هدنة أمدها أربع وعشرون ساعة •

ووصل رمضان شلاش (الدير) فيما بعد الظهر ، واستدعي النقيب جامير فوراً ، وأعلن أنه لما كان البريطانيون قد دعوا للمحافظة على الأمن والسكينة في كانون الاول سنة ١٩١٨ ، فعليهم الآن أن يرحلوا • وكان جواب النقيب جامير أن ليس لديه تعليمات بإخلاء الدير ، ولكن ، بسبب عجزه عن المقاومة فانه يرغب في الرحيل إن اضطلع رمضان بالمحافظة على الأمن والنظام وامتنع عن اتخاذ أي إجراء بازاء الموظفين العرب الذين خدموا الادارة المدنية ، أو بازاء النصارى • (كان هناك عدد من اللاجئين الأرمن في الدير يعنى بسلامتهم ولذلك مبرر) • ووافق رمضان على هذه الشروط ، لكنه عدل عن ذلك خلال الليل ورجا النقيب جامير بأن يضمن عدم قصف (الدير) من البر أو الجو ، اثر وصوله الى الخطوط البريطانية • وما كان في مقدور النقيب جامير أن يعد بمثل هذا ، لكنه وافق على استرعاء انتباه طائرة وحمل ربّانها على النزول الى البر • وفعل ذلك خلال النهار ، وارسلت رسالة الى السلطات البريطانية تبيّن أن البريطانيين في الدير رهائن لضمان سلامة البلدة •

وما ان دخل رمضان (الدير) إلاّ كانت دعايته تنصبّ على تعيين كل من هب الى معاوتته ، على أن يحدد معاشه فيما بعد • وكان أن علم رؤساء القبائل بأن في نية الحكومة العربية إقامة مؤسسات بلدية تحت ظل الشيوخ أنفسهم • وجاء عـدد من المختارين في العشائر القاطنة بمحاذاة النهر وجلّ الشيوخ المعادين لحليفنا : فهد بك ، يسعون الى زيارته ، على الرغم من أنهم صرحوا علانية بوجوب إثارة القبائل بازاء الانكليز ، وحتى نقل الحرب الى الهند ، إلاّ أن الشيوخ ذوي الخطر ، بعد أن تناولوا الهدايا وسبروا الوضع ، عادوا الى مضاربهم ، ولم يتخذوا أي إجراء يتجاوز ذلك• لا ريب أن رمضان قد خدع كثيراً بمدى العون الذي قد يحصل عليه من هاته القبائل•

وبعد أن حدث ذلك كله ، وردت من وزارة الداخلية في اليوم الـ ١٨ من كانون الأول برقية مؤرخة بتأريخ ٢١ تشرين الثاني « لم تحل شفرتها بعد تكرار إلاّ جزئياً » ومحصلها أن قد تقرر في مؤتمر الصلح أن لا تكون (دير الزور) تحت الانتداب البريطاني • ووردتنا في اليوم نفسه صورة برقية أرسلها الأمير فيصل ، وهو في باريس ، الى أخيه ونائبه في الشام : الأمير زيد ، يستنكر فيها بشدة ما قام به رمضان شلاش ويأمر الموظفين العرب بالانسحاب من الدير •

انه يضيف الى ذلك أن جميع المسؤولين عمّا حدث سيعاقبون باعتبارهم ثواراً • وألقيت هذه الرسالة على (الدير) من قبل الطائرات يوم الـ ٢٢ من كانون الاول ومعها خطاب من (القائد العام) يطلب فيها من رمضان ارسال الضباط البريطانيين والجنود البريطانيين الى البو كمال سالمين ، وإلاّ اتخذت الاجراءات بازاء (الدير) • ومما لا ريب فيه أن رمضان كان يعلم أن لا مبرر للاستيلاء على (الدير) ، وان دعمه بالادعاء القائل بأن الدير قد أعطيت الى الحكومة العربية من قبل مؤتمر الصلح • ومما لا مشاحة فيه أنه كان يتشوف الى حركات الاتراك ، وهذا طبيعي بالنظر الى كونه

هارباً من الجيش العثماني حديثاً • وفي الـ ١٩ من كانون الاول أعلم النقيب جامير أن الاتراك يتجمعون في (رأس العين) ، ومن حسناته أن يضيف الى ذلك أنه لا ينوي اشهار الحرب على الحكومة البريطانية • كما رجا أن يبين له إن كانت المساعدة المالية تقدم له في حالة هجوم تركي ، مهما كانت درجة المساعدة هذه •

وفي اليوم الـ ٢١ من كانون الاول وصل من حلب ضابطان هما: رؤوف بك وتوفيق بك ، والأخير هو مرافق (جعفر باشا) حاكم حلب العسكري آنذاك ، والتابع الموالي للأمير فيصل ، ومن يستأهل الاعتماد عليه من قبل الجنرال اللنبي وضباطه • وحمل رؤوف بك رسالة من جعفر باشا الى النقيب جامير ، فلم يسمح له بايصالها اليه إلاّ بعد يومين اثنين • وفي الرسالة يطلب جعفر باشا من الضابط البريطاني أن يتشاور مع رؤوف بشأن أفضل السبل المؤدية الى استتباب الأمن • وأبلغ رؤوف بك النقيب جامير بأن لديه تعليمات تقضي بطرد رمضان من منصبه كقائممقام للرقّة وارساله موقوفاً الى حلب • ولما كان ممثلا الحكومة العربية لا حول لهم ولا سلطان في تنفيذ هذه الأوامر ، ولما كان رمضان هو الوحيد الذي يقف بين الضباط البريطانيين والشيوخ المحليين ذوي العصبية ، فلقد اقترح النقيب جامير إرجاء اتخاذ أي إجراء وأن يذهب الملازم توفيق مع ضابط بريطاني الى (البو كمال) في ذلك اليوم بعينه فألحّ عليّ توفيق بك بطرد القوات البريطانية (رمضان شلاش) • وكان جوابي عن ذلك أننا لم نرغب في المحافظة على (الدير) إلاّ بغية استتباب النظام ، ولما كان رمضان هو خالق الحال الراهنة ، وهي فوضى ، فان من واجب حكومة دمشق أن تقوم بتصحيح الأمر بنفسها • وألقي خطاب على الدير بهذا المآل أيضاً ، ولمّح الى رمضان أنهلو أرسل الضباط والجنود البريطانيون سالمين الى البوكمال في غضون ٤٨ ساعة فلن تمس الدير بسوء أبداً • وأطلق سراح الأسرى يوم الـ ٢٥ من كانون الاول وغادروا بعد أن تلقّوا تأكيدات بأن سكان

المدينة النصارى لن يمسهم سوء ما . وفي ضوء الحوادث التالية ، ومن المشكوك فيه أن يكون حكمي في هذه القضية كان خاطئاً ، وانه كان عليّ أن ألحّ على سر جورج ماكمن بالعودة الى الوضع القائم بقوة السلاح وذلك الى أن يتم حسم القضية مع الحكومة السورية على الأسس الديبلوماطيقية . هذا ويجب أن لا تنسى من الجهة الأخرى :

(١) أن دير الزور قد أعطيت الى سورية .

(٢) واننا بسبب عجز وزارة الحرب والحكومة السورية وضباط الارتباط البريطانيين الملحقين بها في وضع خاطىء الى أبعد حد .

(٣) وان الشح في النقليات والقطعات ، المسبّب عن التسريح صيّر الحركات العسكرية في أمكنة بعيدة عن بغداد القاعدة أمراً مستحيلاً ، وانه في حالة قيام اضطراب ما يتعذّر المحافظة على خط مواصلات بين ديرالزور وبغداد والموصل .

ومهما كانت الظروف فالظاهر أن القرار المتخذ هو القرار الممكن . وفي الـ ١٢ من كانون الثاني احتجت الحكومة العربية في دمشق على الحد الوقتي (الخابور) وذلك ببرقية أرسلتها الى القاهرة مصطنعة الحجة التي قدمتها من بغداد قبل ستة شهور ، وأعني بها ان الحد يفرّق بين الوحدات القبائلية . وطلبت أن تكون (ميادين) و(البو كمال) ضمن المنطقة السورية . كانت الطرائق التي اصطنعها رمضان شلاش ذات صفة مباشرة أكثر من هذه . لقد اتخذ موقف التحدي ، بادىء ذي بدء ، بازاء أوامر الأمير فيصل معلناً أن على البريطانيين الانسحاب الى وادي حوران ، أي الى نحو ٥٠ ميلاً جنوبي عانه ، مؤكداً أن هذا هو الحد الذي أقرّه مؤتمر الصلح . وأعلن في الوقت نفسه أنه سيتقدم نحو الموصل زاحفاً ، كما عمد الى جباية الضرائب حيث استطاع الى ذلك سبيلاً ضمن الحدود البريطانية ، وشجّع

القبائل على السرقة والغزو ، وأرسل رسائل تهديد الى الحكام السياسيين في البو كمال وخطابات لاهبة الى الشيوخ في المنطقة البريطانية • وتلقّى على رسائله أجوبة لا تبعث التشجيع أو الهمّة ، لكنه أصاب نجحاً أكثر في محاولاته المنصبّة على إثارة فروع ، كالعكيدات اتصل بها • إن الأمل في حرية السلب على الطرق العامة كان يداعب خيالها كثيراً ، كما كانت على استعداد لرفع عقيرتها بما يبرر السلب والنهب سياسياً ودينياً (كذا) •

وكان التجار ببغداد ينظرون الى الوضع نظرة مختلفة ، وهم من كانوا يشترون الذهب في سورية وينقلونه الى بلاد ما بين النهرين فيجنون من ذلك ربحاً عظيماً • وكانت قصصهم الدائرة حول مخاطر الطريق والخسار الذي منوا به تنتهي غالباً بوصف محبّب الى القلب يدور حول بلوغهم البوكمال، ومشاهدتهم الحامية البريطانية وهم سالمون •

ونقلت الاحتجاجات الرسمية على أعمال رمضان العدوانية بالطائرة الى ميادين والدير • لقد حذّر من أنه إذا تمادى على خرق حرمة ما يقع ضمن الحدود البريطانية ، فان القائد العام سيضطر الى مقابلة الشر بمثله ، وان كل ما يريد عرضه بشأن موضوع الحدود يجب توجيهه الى حكومته، وهي التي تقوم بالبحث مع الحكومات المعنية ودّياً • وأجاب منكراً الاطلاع على الاتفاق المعقود • وجاء في أعقاب التهديدات التي ختم بها رسالته هجوم مصمّم على البو كمال شنته قبائله فدخلت ضواحيها ونهبت بيوت العرب الذين كانوا في خدمة البريطانيين وخرقوا حرمة نسائهم(كذا)• ولم تتحسن الأمور إلاّ في منتصف كانون الثاني حين غادر رمضان الى حلب فخلّفه مولود باشا الخلف ، وهو سبق أن أشغل قيادة فرقة في دمشق• إن مولوداً ، كسلفه (موصلي) من بلاد ما بين النهرين وهو عضو بارز في جمعية العهد العراقي • وكانت أولى خطواته بعد تسلمه القيادة ، ان كتب الى القائد العام في بغداد يبيّن له أن من المستحيل الانسحاب الفوري الى

(وادي حوران) ــ وهو بديل فيه مجال صريح للاعتراض ، سواء بسواء ــ ذلك أنه يشطر قبيلة الدليم الى شطرين • واقترح في الوقت نفسه معاودة فتح المواصلات البريدية والبرقية •

وما كان في الامكان أن يجاب على مثل هذه الرسائل إلاّ بما تلقاه منها رمضان من قبل ، أي : أن الحد قد تقرر موقتاً في اوربة ولا يمكن البحث فيه إلاّ بالسبل الدبلوماطيقية المعتادة • وأرسلت قوات الى البو كمال ، وتفادياً لصدام لا ضرورة له ومنعاً من سفك الدماء لم يتم احتلال الأراضي الممتدة الى الخابور صعداً • ودأبنا على اعتبار الحكومة العربية غير مسؤولة عما يقوم به ضباطها ، وأن لا توجد حالة حرب ، لكنه فرض من العسير المحافظة عليه • وكان مولود نشطاً في الدعاية المعادية على غرار ما فعل سلفه • وبلغت رسائله شيوخ العمارة جنوباً ، وتراءى أنه كان مزوداً بمال وفير (لا ريب أنه من حكومة صاحب الجلالة البريطانية) أخذ يوزعه بين زعماء القبائل ، ذلك أنه شعر بقدرته على إثارة الاضطرابات ضمن منطقته • إن صبرنا أرهق من كان يوالينا وزعزع ولاءهم ، لقد خابوا في تعليل : لِمَ لا تقوم الحكومة البريطانية بشيء حاسم تجاه شخص ضئيل الخطر (كذا) كمولود ، وتلك الحفنة من الغزاة الغوّارة التابعين له (كذا) ، ولِمَ لا نمد يد المساعدة والحماية المباشرة الى من هم ضمن حدودنا وهم الذين على استعداد للوقوف في صفنا ، إن ضمن لهم عدم التعرض الى الثأر والانتقام ؟• والى ترسيخ هذا الوضع زحفنا في نهاية كانون الثاني الى الصلاحية الكائنة على منتصف الطريق بين البو كمال والخابور • واستغل مولود هذا الزحف للقيام بأعمال عدوانية جديدة (كذا) ، وأعلن أنه لا يستطيع كبح جماح القبائل • وكان ان هاجمت القبائل بإمرة ضباط عرب (البو كمال) في منتصف شباط ، على حين تعرّضت خطوط المواصلات البريطانية الممتدة جنوباً حتى القائم الى غزوات مستمرة • وأرسل جورج ماكمن خطاباً ينذر فيه مولوداً ، كما أعلمت حكومة صاحب الجلالة البريطانية،

في الوقت نفسه ، الحكومة العربية في دمشق أنها ستعتبر مسؤولة عن أي تجاوز على الحد الموقت يقوم به العشائريون أوالموظفون الذين هم في إمرة مولود ، وان الاستمرار على دفع المنحة التي تدفع الى الحكومة العربية من قبل بريطانية العظمى رهين بقدرتها على تنفيذ أوامرها •

كانت هذه التحذيرات عبثاً لا جدوى من ورائها ، على غرار ما سلف منها • وسمح لرمضان بالعودة الى الدير • وجاء مولود بقوات صغيرة من النظاميين في حلب ، وعيّن عراقي معروف بالعنف على (ميادين) • ووصلت دعايات متعصّبة كربلاء والنجف مصدرها تلكم الأمكنة بعينها • ولم تتوقف مساعدة (الخزانة) للحكومة العربية ولم تخفض •

وعلى حين كان مولود يحث على الجهاد في الفرات ، عاد الأمير فيصل من باريس الى دمشق • وكان أن أرسل على الفور رسائل الى القاهرة يعرب فيها عن أسفه على ما حدث في الدير ، مشفوعاً بتأكيدات بأنه سيتخذ الاجراءات اللازمة لمنع وقوع حوادث من هذا القبيل ، لكنه أبان أيضاً أن خط الحدود الموقت يقسم العشائر وفروعها وان من المحتمل أن يبعث ذلك سوء التفاهم والاضطراب • لذلك اقترح تعيين لجنة مختلطة مؤلفة من البريطانيين والعرب لتكييف الترتيب الذي تم الوصول اليه في كانون الثاني • ووافقت حالاً على هذا الاقتراح ، وتبيّن ، في الوقت نفسه ، أن موقف مولود أكثر سداداً • واستدعي رمضان شلاش الذي جاء الى ميادين بناء على طلب القائد العام فعاد الى الدير ، حيث اختلف مع مولود ثم عاد الى قبيلته ، وما كانت هذه ببعيدة جداً • وفي مطلع أيار ، وبعد استيفاء الغرامات من القبائل المعادية القاطنة حوالي (صلاحية) ، أعيد مركزنا المتقدم الى البو كمال حيث يمر خط الحدود الحالي بين العراق وسورية •

وقبل أن يتم الاجتماع على الفرات ، التأم مؤتمر سوري في دمشق وأعلن في الـ ١١ من آذار (فيصلاً) ملكاً على سورية • على حين قامت جماعة

في سورية تدعي أنها تمثل بلاد ما بين النهرين مؤلفة من ضباط أصلهم عراقي بالمناداة بأخيه الشريف عبدالله أميراً على العراق • وكان من بينهم رجال ذوو مقدرة حقة وشجاعة اكتسبوا ثقة الضباط البريطانيين في سورية • لقد شجعوا لحين من الدهر على الاعتقاد بأن الانتداب على سورية لن يعطى ، على ما كانوا يشفقون منه ، الى فرنسة ، وإنما تناله بريطانيا العظمى، وسعوا جهدهم ، على طريقتهم الخاصة ، للحصول على مثل هذا • وفي حوالي هذا الوقت أدركوا أن هذه الآمال هي (كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء) لذا انصرفوا الى العراق بأبصارهم • لقد أعطوا كل ما يحملهم على الايقان بأن البيان الانكليزي — الفرنسي الصادر في تشرين الثاني من سنة ١٩١٨ سيطبّق من قبل بريطانية العظمى على العراق ، لكن شكل الحكومة القائمة فيه آنذاك : الاحتلال العسكري • وما كانوا شاعرين بالاعتبارات الدبلوماطيقية التي حالت دون تخويلي من قبل الحكومة البريطانية لأتخذ الخطوات اللازمة في سبيل إقامة ادارة وطنية • وكان ثمة ضباط بريطانيون في سورية يجهلون الأمر أيضاً ، وإن كان الذي يشفع لهم في ذلك أقل ، ولا يعلمون شيئاً عن التعقيدات التي جاءت في أعقاب الاضطرابات في كردستان ، والمحافظة على قوة كبيرة في فارس ، وحراسة أكثر من ١٠٠٠٠٠ من أسرى الحرب واللاجئين فأخذوا يشجعونهم على الاعتقاد بأن ما يدعى بسياسة تهنيد الادارة في العراق هي العقبة التي تقف في سبيل مطامحهم •

وفي نحو هذا الوقت تراءى أن الزعماء وصلوا الى النتيجة القائلة بأن هجوماً عنيفاً بازاء الادارة المدنية هو السبيل العملي الفذ الذي يؤدي الى تحقيق مطامحهم السياسية • وكان ثمة مبرر ، على كل حال لنظرتهم هذه ، ذلك أن حكومة صاحب الجلالة البريطانية رفضت بثبات اصدار أي بيان يتعلق ببلاد ما بين النهرين ، اشاعة للتصريح الانكليزي — الفرنسي الصادر في تشرين الثاني ١٩١٨ ، أو السماح لي بمثل هذا •

وعندما التأم البرلمان الانبراطوري في شباط وألقى لورد كرزن خطابه في مجلس اللوردات الدائر حول السياسة الخارجية بدا غامضاً متفيقهاً . فقال : « انه بالنظر الى موقف الولايات المتحدة الامريكية التي كنا نرحّب بها دولة منتدبة على الانبراطورية العثمانية كلها ، حدث تأخر كبير في عقد الصلح مع تركية . إن العالم كله يدفع ثمناً كبيراً له » ومهما كان من أمر ، فلا معنى لقبولنا الانتداب على البصرة من دون بغداد » . أما بقدر تعلّق الأمر بالموصل فقد لزم جانب الصمت .

وبعد أيام قليلة من ذلك ، كان كل ما استطاع مستر بونارلو قوله في مجلس العموم ما يأتي : « ان الادارة المدنية في بلاد ما بين النهرين تخضع لتوجيه وزير الدولة لشؤون الهند ، أما الادارة العسكرية فمن أمر (وزارة الحرب) . ولا يمكن إقامة ادارة مدنية حتى يعقد الصلح بين الحلفاء وتركية ، ويتقرر وضع الأقسام المختلفة للانبراطورية العثمانية السابقة » .

وبقدر تعلّق الأمر بطبيعة الحكومة القابلة ، لم يفه مستر مونتاكيو بكلمة واحدة ، وهو من رجوته اصدار بيان معيّن ، وبذلك لم يستطع إلزام حكومة صاحب الجلالة بأية وجهة . وتكلم مستر ونستن چرچل ، بوصفه وزير الدولة لشؤون الحرب بحرية أكثر وبوضوح جرياً على عادته وبشكل يفوق أي زميل له عند تناول القضية العامة ذات الصلة بالالتزامات العسكرية .

قال : « إن بلاد ما بين النهرين تمور وتضطرب بسبب هياج العرب المنبعث عن الوضع في سورية بسبب اشتداد الحركة التركية في آسية الصغرى ، والزحف البلشفي على الشمال . ولا يمكن تنفّس الصعداء قبل أن يعقد صلح حق مع تركية . لقد مادت الأرض من تحتنا خلال السنة، وأني لواثق من أننا ، وقد فرّقنا جيوشنا ، لن نخطو خطوات تؤدي الى رمي الشعب التركي في وهدة اليأس ، أو نلتزم بواجبات جدد ، فمواردنا ليست على وفق مصادرنا » .

انها لكلمات سديدة ، لكن السياسة التي كان يدعو اليها لم تنفذ من قبل الوزارة • ثم مضى يلخّص نظاماً فيه القيادة العليا مناطة بضابط من (القوة الجوية) ، وفي إمرته قطعات مساعدة •

لقد دُرست الفكرة هذه قبل أشهر من قبل نائب مارشال الجو سر جيوفري سامندو والكومودور الجوي درو ، وبتأمل مستأنٍ في الوضع المحلي خلال السنة المنصرمة • ومنذ بدء سنة ١٩١٨ استخدمتْ الطائرات كوسيلة انتقال ، وذلك من دون أية وسيلة نقل أخرى ، حصراً • وكانت الطائرات المجهزة ليست طيعة لربانها أو للمسافرين عليها سنة ١٩٣١ ـــ انها من طراز بي•أي/٢ ، و سي آرأي ، مقاتلات برستل و دي اج/٢٤ ، كما كانت المطارات في المطارات الخارجية في حالة تدعو الى الرثاء ، وكانت محاولات الربابنة تفوّت عليهم الحكمة والسداد • لقد أسهمتْ في قصف بعض القرى الكردية (تأمّل قوله هذا أيها القارىء ـــ المترجم) التي ذبح أهلها الحكام السياسيون واستخدمنا الرشاشات بازاء ثوار الشيخ محمود وعلمناهم بذلك شيئاً على الامكانات التي ينطوي عليها السلاح الجديد هذا • إن فكرة السيطرة على العراق ، جواً ، بعون من القوات المحلية لقيت منذ طالعة أمرها تقبلاً عظيماً ، لذلك أيدتها بقوة ، وانني ، على ما أعتقد مسؤول عن الأخذ بها ، الى حد ما • لقد أصررت عليها ، على وجه خاص ، في مذكرة مؤرخة بتأريخ أيلول سنة ١٩١٨ وفي مذكرة مؤرخة بتأريخ نيسان سنة ١٩١٩ أيضاً ، على ان هذه الآراء لم تحظَ حتى بالاسناد القليل في كل من (سملا) أو (المقر العام) ببغداد • ولحظ اللواء سيلي:

« ان كثيراً من المنتسبين الى المدرسة القديمة في العراق لا يرون ذلك ••• ولا يسمحون بأن تستخدم القوة الجوية على ما ينبغي• فإن كانت عندكم قوة جوية منفردة تماماً وفي مكنتكم أن تنفذوا ذلك في إمرة الرؤساء السياسيين ، فإنكم ستحافظون على ملايين الجنيهات وآلاف الأرواح » •

كانت عدة قواتنا في العراق عند بدء السنة ١٧٠٠٠ من البريطانيين و٤٤٠٠٠ من الهنود، أما في فلسطين فكانت ١٠٠٠٠ من البريطانيين و١٣٠٠٠ من القطعات الهندية. وقدرت نفقات الحاميات في البلدين بـ ٣٥ر٥٠٠ر٠٠٠ من الجنيهات .

وكانت آراء مستر ونستن چرچل ، كالعادة ، مفيدة وبناءة ، وان لم يسفر عنها في العراق حل قريب لمشكلة الساعة . لا ينكر أن القرار المتخذ بشأن حكم العراق بوساطة القوة الجوية أدى الى المحافظة على الانتداب وفي ظل أي نظام آخر لو انخفضت كلفة الحامية بأي حال من الأحوال ، رقماً ، لأسفر ذلك عن شل فاعلياتها بسبب استطالة خطوط المواصلات . هذا ، ومن الجهة الأخرى : ان القوة الجوية لم تكن قادرة على معالجة أمر الثورة التي نجمت سنة ١٩٢٠ ، ومن حسن الحظ انه لم يطلب اليها مثل ذلك .

« كانت آراء مستر ونستن چرچل بشأن معاملة تركية ، وقد سلف اقتباسها ، تتفق مع آرائي تماماً ، واني دونت في نيسان من سنة ١٩١٩ مذكرة تدور حول الموضوع اليك قبساً منها : « وقّعت الهدنة مع تركية في الـ ٣١ من تشرين الاول ، وما كان الحلفاء قد أعلنوا نواياهم بشأن القسطنطينية والأناضول ، ومن المعلوم أنهم لم يتفقوا على الخطوات التي يجب اتخاذها لتحقيق نواياهم في الأجزاء الاخرى من هذه البلاد أعني : سورية وارمينية » .

إن الشكوك التي حامت أثارت آمال الاتراك ، ومخاوف النصارى . وكان المسلمون في العالم كله ، وبضمنهم مسلمو بلاد ما بين النهرين على استعداد لأن يشهدوا تركية تفقد بنتيجة الحرب الأقاليم العربية وحتى القسطنطينية ، لكنهم مع ذلك كانوا يعقدون الخناصر مع الأتراك والأكراد في مناهضة كل تجزئة لبقية الانبراطورية التركية أو تنسيمها من قبل مؤتمر صلح نصراني على أسس من الأنانية .

وما كنا لنستطيع أن تفعل ما كنا نستطيع فعله قبل ثلاثة أشهر ، ففي الشرق ، كما في الغرب ، روح جديد تراود الناس • لا يمكن اليوم تحطيم الانبراطورية التركية ، انها تمثل المثل الاسلامي الأعلى لحكم روحاني يضطلع به الحكام المسلمون في الارض • انه أمر حفّزه عجز الدول النصرانية عن الاتفاق ، حين كانت الشعوب العربية منهوكة القوى ، وأبعد ما تكون عن الاشتباك في حروب أخرى •

إن الحل الوحيد الذي أرتأيه هو الاعتراف بانبراطورية تركية تمتد من القسطنطينية الى القفقاز ، تضم كلاً من الطوائف الأرمنية والنسطورية وفرض السيطرة الاوربية على القسطنطينية من قبل هيئة دولية •

إن هذا يلزمنا بمد يد العون الى تركية — وبلوغ هذا الحد يرضي من يتعامل معنا من المسلمين • وليس في هذا ما يوجب الاعتراف بالهيمنة على البلدان العربية ، وإن كان ذلك سيجيء باعتباره نتيجة للحركة الشعبية ، وليس فيه ما يحول دون تدويل القسطنطينية •

إن هذه السياسة ستقف دون الحاق أو الحمايات ، التي تناهض رغبة الناس ، ويجب أن تكون مقبولة من قبل الاحزاب السياسية التقدمية في البلاد المتحالفة ، وبضمنها الولايات المتحدة الامريكية ، وهي التي يجب أن يؤخذ رأيها بنظر الاعتبار ، إن أردنا ضمان الديمومة •

إن إعادة السلطة التركية ، تحت ظل مشاورين أجانب (يفضّل أن يكونوا من الانكليز) في المناطق الشمالية ييسر الوضع على الحدود الشمالية لبلاد ما بين النهرين — وفيها قتل حاكم سياسي مؤخراً نتيجة مباشرة لمكائد تركية — كردية » •

ومهما كان من أمر ، وبقدر تعلّقه بالعراق ، لم ينشر شيء ما منذ أن نفذ الرئيس ويلسون من الضباب الذي اكتنف فرساي ، وعلى غرار خروج موسى من ظلام (سيناء) المطبق الدامس ، حاملاً ألواح (عصبة الأمم) ،

ليجد على ما وجد موسى شعبه ، بعدئذ بقليل ، يسعون وراء الآلهة القديمة، بدلاً من اتباع أوامر الله الجديدة . وقمت بمحاولة أخرى في سبيل حمل حكومة صاحب الجلالة البريطانية على أن تسمح لي بالمضي قُدُماً بالاجراءات الدستورية . ففي برقية مؤرخة بتأريخ الـ ١٩ من آذار طلبت اجازة لإقامة مجلس تشريعي مركزي يكون المفوض السامي لدى مقدمه رئيساً له ، وفيه أعضاء من العرب يضطلعون بشؤون الدوائر ومعهم أمناء سر من البريطانيين . وأكدت أنه ، سواء أعقد الصلح مع تركية أم لم يعقد، فإن اصدار بيان على هذه الأسس أمر ضروري . وأضفت الى ذلك : « أن من العقبات الرئيسة في سبيل الأخذ بأي مشروع إصلاحي نجوم المتاعب مع السلطات العسكرية بصدد القضايا الادارية . فإن شاءت الحكومة أن أدأب على العمل هنا لستة أشهر قادمة ، من دون أن يتردى الوضع تردياً خطيراً ، وجب أن يسدى إليّ عون كبير من بلادي بازاء كل ما ينجم من اختلافات مع السلطات العسكرية وبوجه يفوق ما شعرت بضرورته حتى يومي هذا » . ولم أتلق على هذه البرقية جواباً . وكان من الضروري استشارة وزارة الخارجية ، وان غياب اللورد كرزن بسبب المرض كان يسبب تراكم الاعمال الرسمية تراكماً عظيماً .

وبعد أيام قليلة ، وفي اليوم الـ ٢٥ من آذار على التحديد جرت مناقشة على حظ كبير من خطر في مجلس العموم . لقد أثارها مستر اسكويث ، وهو من ألحّ بإسناد من سر سي. طاونسند في مناقشات أخيرة على وجوب حصر واجباتنا المباشرة في العراق ضمن « منطقة البصرة » ، حيث على ما قال ، وبقوله جانب محجة الصواب كثيراً ، صرفنا الجزء الأكبر من مصروفاتنا المريجة المؤملة .

ورفض مستر لويد جورج رئيس الوزراء هذه المشورة رفضاً باتاً . قال : « قد نترك البلاد كلها . لكنني لا أفهم لِمَ الانسحاب من أهم شطر

من بلاد ما بين النهرين وأكثره أملاً • إن الموصل على حظ كبير من الامكانات • فيها رواسب من النفط غنية •• وهي تحتوي على أغنى المصادر الطبيعية في أي بلد من بلدان الدنيا •• انها تعيل سكاناً عدتهم تزيد على مليونين بقليل • ما الذي سيحدث إن انسحبنا ، يا ترى ؟ لو لم نقم بالواجب ، فمن المحتمل أن تقوم به بلاد أخرى • أما بلاد ما بين النهرين فستبقى على ما هي عليه اليوم تماماً ، أو لعله أسوأ من ذلك بكثير • وبعد أن صرفنا كثيراً على تحرير هذه البلاد من طغيان الاتراك المهلك ، فمن الخطل إعادتها الى حال فوضى واضطراب ، أو عدم الاضطلاع بالابتعاث ، كما لا يمكن الدفاع عن مثل هذا الرأي أبداً •• فإن جردتم العرب من حكومتهم المركزية فلا معدى عن إحلال حكومة أخرى محلها • لقد استشيروا بصدد رغباتهم في هذه الناحية ، واني أعتقد أنهم توّاقون ، من دون استثناء ، الى أن تبقى الحكومة البريطانية حيث هي • انهم لمختلفون بشأن الحكومة المستقلة التي يرومونها ، واختلافهم كبير • ليس من المقترح أن تحكم هذه البلاد باعتبارها جزءاً ضرورياً من الانبراطورية البريطانية • ليست هذه بوجهة نظرنا • انها تنصبّ على أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم وأن نكون مسؤولين باعتبارنا الدولة المنتدبة عن اسداء المشورة ، والمشاورة والمعونة ، لكن الحكومة يجب أن تكون عربية •• سنلتزم بعهدنا القاطع الذي أعطيناه للحلفاء ، في تشرين الثاني من سنة ١٩١٨ الدائر حول الموضوع ، لكن من التهلكة أن لا تقوم بلاد ما بحمل التبعة ، التبعة العليا المنصبّة على تأليف الحكومة واسداء المشورة اليها • أهناك حكومة أخرى غير الحكومة البريطانية تتعهد بحمل مثل هذه التبعة يا ترى ؟ • ان تسليمها الى غيرها يناهض رغبات السكان العرب فيها • إنهم مجمعون على عدم الخضوع الى الحكم التركي كرّة أخرى ، وانهم مجمعون أيضاً على نشدان الحكم البريطاني واشرافه • لكنهم منقسمون بشكل يدعو الى الأسى في أمر مَن يكون لهم رأساً ، أهو أحد الشرفاء أو آخر ، وان هذا لمن الصعاب

حقاً • ليس من حقنا أن تتكلم وكأننا الدولة المنتدبة على بلاد ما بين النهرين ، على حين لم يتم أمر المعاهدة مع تركية • إن تقرر ذلك نهائياً ، وعيّنت الدول المنتدبة بوجه قاطع ، فإننا على التحقيق سندعي بالحق كدولة الانتداب على بلاد ما بين النهرين وبضمنها الموصل » •

وعلى الرغم من أن أحداً من الأعضاء الذين أسهموا في المناقشة لم يزر العراق أبداً ، فلقد كان ثمة اجماع بين الأحزاب كلها على قبول الانتداب وإقامة حكومة عربية • وتكلم مستر اورمسبي ـ غور ، وهو من اتسمت انتقاداته لسياسة الحكومة في بلاد ما بين النهرين ببعد النظر والواقعية ـ العملية ، عند بحث تخمينات الجيش قبل أيام قليلة واليك ما قال :

« إننا قادمون على القيام بواجب ضخم وأعني به إعادة القدرة على الانتاج لهذه الـ ١٤ مليوناً من الفدانات ، التي كانت ، في يوم من الأيام جزءاً من الاراضي القابلة للزراعة في بلاد ما بين النهرين ، البلاد التي كانت في يوم ما أرض السواد ، لكنها اليوم وبسبب التخريب البشري ، غدت قفراً يباباً •• إن ابتعاث بلاد ما بين النهرين من الأمور التي يجب أن ينظر اليها ، إن أُريد خفض الأسعار وزيادة الانتاج العالمي » •

وكان أن اختتم النقاش حول هذه المذكّرة ، ومع ذلك لم يكن هناك ما يدل على : (متى؟) و(أين؟) تتخذ الاجراءات في العراق لتنفيذ السياسة التي أكّدها اليوم رئيس الوزراء • ومهما كان من أمر ، تجلّى لي أن المشروع الذي قدمته في نيسان سنة ١٩١٩ ، وإن ووفق عليه من قبل حكومة صاحب الجلالة البريطانية يومذاك ، لم يعد الآن صالحاً ، وان علينا ترك المرحلة الأولى منه وتتقدم الى الثانية • لذلك عيّنت لجنة تنوم بتقديم المقترحات بشأن دستور للعراق طبق ميثاق عصبة الأمم وتصريح حكومة صاحب الجلالة المعلن • وكانت اللجنة برئاسة سر ادكار بونام كارتر ، السكرتير العدلي

السابق في الحكومة السودانية ، مؤلفة من (هويل)(١) و (تايلر)(٢)و(بلفور) الذي غدا حاكماً لاقليم البحر الأحمر في السودان بعد هذا ، و(بولارد) المنسوب الى السلك القنصلي الشرقي والذي يمتلك معلومات وثيقة تتصل بتركية والعراق اكتسبها قبل الحرب وخلالها • انها لجنة أيدة تجنح الى الحرية ، لذلك بحثت القضايا المعروضة ، خلال اجتماعاتها ، بحرية • وكان الأفراد ذوو المكانة المحليون طرفاً في ذلك • لن أعتذر عن اقتباس تام للعبارات البارزة الواردة في تقريرها المجمع عليه ، وذلك كي لا أظهر أن الادارة المدنية في سنة ١٩٢٠ وفيما قبلها لم تكن صمّاء أو عمياء بازاء هذه الأشياء •

« نرى أن من الضروري أن تقوم محاولة أكثر اتقاناً في سبيل تحقيق رغبات الشعب ، لكننا نعتقد أنه ، قبل القيام بها ، وبأمل النجح :

(أ) يجب أن يمنح الانتداب •

(ب) يجب تصريف الحكم في هذه البلاد لمدة قصيرة ، في ظل دستور موقت ، وذلك لكي تستقر حالها بعد أن اضطربت بسبب الحرب •

وما لم يمنح الانتداب فمن المستحيل أن يكون هناك تعبير صريح عن الرأي • إن غالبية السكان قبل الاحتلال مطمئنة الى شكل الحكومة التي تقيمها السلطة • لكن هناك من السكان من لا يرضى بذلك ومنهم بعض الطوائف الدينية الخطرة وشطراً آخر قليل ولكنه نشط من المشاغبين السياسيين • إن جلّهم يتمركز في بغداد ، ويضاف اليهم الحزب الموالي للأتراك وحزب سوري صغير •

---

(١) سكرتير حكومة الهند بعد ذلك • (المؤلف)

(٢) سكرتير حكومة مدراس سابقاً • وفي سنة ١٩٢٠ سكرتير لجنة الهند المركزية المعينة للاجتماع في مؤتمر حر مع اللجنة القانونية برئاسة سر جون سيمون • (المؤلف)

لقد خبرنا ما لهم من نفوذ يستطيعون ممارسته في بغداد والنجف ، وعن طريق الضرب على أوتار المشاعر الدينية والقومية • ومن الصعب على المعتدلين الوقوف بوجه ضغط المتطرفين إن صوّروا قبول الخضوع الى دولة نصرانية خيانة لدينهم ولقومهم • ان لدى المتطرفين جميع وسائل الرجوع الى العاطفة والتعصّب الديني وجميع إمكانات الإفساد (كذا) •

ليس من الانصاف في شيء أن يتعرّض الذين يدعمون سياسة الانتداب الى معرّة الكفرة والخونة ، وفي حالة إنعدام أي تصريح من قبلنا عن السياسة القابلة ليس لنا أن نرجو دوام العون الى غير حد • وبوجود احتمال عودة الاتراك ، لا يمكن الوقوف على رأي مخلص تعبّر عنه طائفة كبيرة من السكان « للاجهاز على القلق وتمكين الحكومة البريطانية من تحديد سياستها وايضاحها • يجب أن يمنح الانتداب بأسرع وقت مستطاع » •

لذلك نوصي بأن يمنح الانتداب بأقرب وقت ممكن واتباعاً لما جاء في ميثاق عصبة الأمم نصاً ، فإن تنفيذ الانتداب يعهد به الى الدولة المنتدبة فرضاً ، وان الهيمنة على بلاد ما بين النهرين تمارس نيابة عن عصبة الأمم • ونعتقد أن المرغوب فيه أن ينصّ على أن تخول الدولة المنتدبة الصلاحيات اللازمة لممارسة شؤون الانتداب ، وعلى سبيل المثال (وعلى ما جاء في الميثاق) ضمان مصلحة الشعب وابتعاثه •

ويتراءى لنا أن هناك صعوبات عظيمة في باب التوثّق من رغبات الناس إثر منح الانتداب توّاً • صحيح أن بياناً قاطعاً بشأن الشروط التي قبلت بموجبها حكومة صاحب الجلالة البريطانية الانتداب على هذه البلاد يجهز على كل اصطياد في الماء العكر ، لكن تأثير مكائد الاتراك واضطراب الحال في سورية ، والقيود التي فرضتها الحرب على العراق ، كل أولئك سيُشعر به الى حين • يضاف الى ذلك أن الناس لم يعتادوا على النقاش الحر ،

والافصاح عن آرائهم علانية ، ويجب أن تسنح الفرصة لهيئة تبدي رأيها في الساعة وقضية الدستور ، وأن تكون هناك حكومة دستورية عاملة لمدة قصيرة تدرك نتيجة أي قرار تتخذه .

لذلك يُقترح التحقّق من رأي المجلس التشريعي (على ما وصفنا آنفاً) بشأن الدستور ، وليس من الضروري أن يكون ذلك فوراً . يجب أن ينص ، بمجرد نشر المقترحات المتعلقة بانتخاب المجلس ، على أن يدعى قبل الجلسة الثالثة لبحث الدستور (ضمن الحدود المقرّرة في شروط الانتداب) ، وانه حتى ذلك الحين تصرّف شؤون البلاد تحت ظل الدستور الموقت الذي نلخّصه فيما يأتي . من الصواب المحافظة على صلاحية حل المجلس الأول ومنحها الى المندوب السامي ، وعرض القضية الدستورية أمام خلفه .

حقوق الدولة المنتدبة :

نرى أن الوثيقة التي تقيم الدستور يجب أن تجلي أمر تلك الدولة المنتدبة الصلاحيات اللازمة لاضطلاعها بالانتداب .

وبقدر تعلّق الأمر بالشؤون الخارجية ، والعلاقات الخارجية وبضمنها معاهدات الحرب ، فإن ذلك يجب أن يكون من شأن الدولة المنتدبة حصراً .

وبقدر تعلّق الأمر بالشؤون الداخلية يجب أن يوضّح بأن الدولة المنتدبة لها حق الاصرار على أن تكون مشورتها التي تراها ضرورية «لصالح الشعب وابتعاثه» (وعلى ما ورد في ميثاق عصبة الأمم نصاً) مرعية .

فلو نصّ على هذه الصلاحيات في (الدستور) ، لحال ذلك دون كثير من سوء التفاهم في قابل الأيام .

ان قسماً كبيراً من تمرمر المعارضة اليوم في مصر يرد الى وضع بريطانية الغامض فيها .

ترشيح عاهل على العراق :

إن أيسر الطرائق المؤدية الى تشكيل حكومة وفق تصريح الحكومة البريطانية هو أن يكون على رأسها أمير يرغب في التعاون مع الدولة المنتدبة، وهو ، في الوقت نفسه ، مقبول من قبل الشعب ــ وذلك إن أمكن العثور على مثل هذا الشخص •

ومما لا شك فيه أنه عندما أُستشير وجهاء البلاد إن كانوا يرغبون في أمير أو لا يرغبون ، فإن غالبية السكان راغبة عنه •

ليس في البلاد شخص ذو مقام بارز يؤهله لأن يَكون أميراً مرتجى عموماً • ولما كان الوجهاء قد اُستشيروا بأخرة ، وبالنظر لإزاحة المرشحين الآخرين ، وبالنظر الى أن فيصلاً استطاع أن يؤيد دعواه في سورية ، فإن الحزب الذي يميل الى تنصيب أحد أبناء شريف مكة أميراً قد اشتدّ ساعده وعظم شأنه • فلو عرض اليوم على المجلس أمر وجود أمير أو عدم وجوده ، لكان الجواب ، على ما نعتقد ، وعلى وجه الاحتمال ، إيجاباً ، وان عبدالله ، أو أحد أبناء الشريف حسين الآخرين ، سيختار • وليس ذلك ما سيكون بعد سنين قليلة آتية •

وإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار انقسام الرأي دينياً في البلاد ، والتحاسد الشائع محلياً ، فليس أحد من المرشحين ، حتى الآن ، يستطيع المحافظة على مركزه ما لم تسنده الدولة المنتدبة نفسها • هذا من جهة ، ومن الجهة الأخرى فإن أميراً لا يطمأن الى الانتداب مخلصاً ، يغدو مصدر الحرج الى الدولة المنتدبة • فلو كانت القصص التي بلغت هذه البلاد بشأن الوظائف والتعيينات التي قام بها عبدالله ، أو جرت بأسمه ، وبالنسبة الى أعوانه من السوريين صحيحة ، فإننا نعتقد أن ليس في الامكان قبول ترشيحه ، وان هناك اعتراضاً عاماً على تنصيب أحد أفراد أسرة الشريف أميراً على العراق • وان مثل هذا لن يكون بالنسبة الى أمير نجد موافقاً •

إن هذه الاعتبارات ، على ما نرى ، تقوي الحجج المنصبّة على التأجيل، وهي التي سردناها آنفاً • وفي البقية الباقية من هذا التقرير نذهب الى أنه لن يكون في خلال فترة الدستور الموقت ثمة أمير أبداً •

مجلس دولة ، أو مجلس وزراء :

(١) نقترح تأسيس (مجلس دولة) ليصبح السلطة التنفيذية الرئيسة في الدولة ، وعلى ما وضحناه آنفاً ، والمجلس التشريعي الثاني أيضاً •

(٢) يتألف مجلس الدولة من رئيس ، ولنقل ١١ عضواً ، يعيّنهم المندوب السامي وبمكنته أن ينحّيهم على ما يشاء ويهوى •

(٣) يكون الرئيس عربياً ، ويبقى الرئيس الاول الى أن تعرض القضية الدستورية على المجلس • يجب أن لا يكون ذا صلة بعمل دائرة ما حتماً • وبما أنه سيكون ، الى حد ما ، رئيس دولة عربياً ، وجب أن يكون شخصاً ذا مركز اجتماعي مهيباً ، وأن يكون الى الواجبات الاجتماعية متفرغاً • وقد لا يكون في الامكان العثور على شخصية كهذه ترغب في القيام بعمل وظيفي وقادرة عليه أيضاً •

(٤) يكون أعضاء المجلس أما ممثلين عن دائرة من دوائر الدولة أو أمناء سر لهذه الدوائر • ومن لا يستطيع الحضور من الأعضاء يمثّله نائبه •

(٥) يجب أن لا ينص في الدستور على عدد الأعضاء العرب أو على عدد الأعضاء الانكليز ، فلو كان الاعضاء باستثناء الرئيس : ١١ فإننا نقترح أن يكون : ٦ منهم من الانكليز و : ٥ من العرب (كذا) • إن الدوائر التي لا تمثل في هذا المجلس مباشرة ، يجوز تمثيلها من قبل عضو أو أكثر من (المجلس) ، وعلى ذلك فلو كان أمين سر التجارة غير عضو، فبالامكان تمثيله من قبل أمين سر الداخلية •

(٦) يكون لرئيس المجلس صوت مرجّح عندما تتساوى الأصوات كلها •

(٧) يكون لرئيس المجلس حق نقض قرار الأكثرية في المجلس ، وعلى ذلك يجب أن يعدّ قرار المعتمد السامي كقرار المجلس ، وللمقاصد كافة •

(٨) يكون مجلس الدولة (السلطة التنفيذية الرئيسة) في الدولة • إن القرارات التنفيذية في الدولة ، والقرارات التنفيذية لمختلف الدوائر والتي تذاع على الناس ، يجب أن تصدر بأسم (مجلس الدولة) •

(٩) إن أمين سر الدائرة البريطاني يجب أن يكون الموظف التنفيذي الأول ابتداءً • ويجب أن يلحق أعضاء عرب بالدوائر المختلفة ، يستشيرهم أمين السر بشأن جميع القضايا ذات الخطر ، وأن يكون لهم الحق في الاطلاع على جميع أوراق الدائرة ، وكذلك حق إحالة أي اختلاف في الرأي بينهم وبين الأمناء الى مجلس الدولة • إن الدوائر (باستثناء الدوائر الفنية من أمثال الاشغال العامة) والتي ليس فيها أعضاء من العرب في المجلس ، يكون لها في العادة مستشارون عرب أو مساعدون •

(١٠) لا ينتقى الأعضاء العرب في المجلس من المجلس التشريعي حتماً،لكنهم من خارج أعضاء المجلس التشريعي ولهم حق التصويت •

لأمناء السر البريطانيين ، وغيرهم من رؤساء الدوائر الحق في حضور المجلس التشريعي والكلام فيه ، لكن ، لا صوت لهم فيه •

المجلس التشريعي ــ الدستور :

(١) نعتقد أن من الضروري إما أن تنتخب الهيئة التشريعية ، أو ، وهو الأفضل ، أن تعيّن من قبل الهيئة المحلية ، وهي منتخبة • ومهما كانت الحال ، لا يطبق هذا على الأعضاء العرب في مجلس الدولة ، وهم ، على ما نصحنا ، أعضاء خارجيون في المجلس التشريعي • وفي الواقع أن المجالس الادارية الحالية أقوى تمثيلاً للشعب مما لو كانت تحت

ظل نظام الانتخاب ، ولما كانت هذه هيئات معيّنة فإن مجلساً تشريعياً ينتخب بوساطتها يكون معرّضاً للاعتراض وتوصف بأنها معيّنة من قبل السلطات البريطانية نفسها •

إن طريقة الانتخاب تتطلّب دراسة أخرى ، ومشورة مع السلطات البلدية ، ولسنا في وضع يؤهلنا لتقديم توصيات نهائية ، لكننا نعرض في الملحق (ج) طرائق الانتخاب التي ، بتكييفها ، تصبح موائمة للحاجات المحلية • وعلى ما نرى ، عملية •

(٢) يحتاج موضوع تأليف المجلس التشريعي الى درس آخر ، وعلى الوجه الموقت نقترح أن يضمّ :

(آ) أعضاء منتخبين عن المدن والأرياف ، بنسبة تقرب من عدد السكان فيها ، وعلى أساس نائب واحد عن كل ٥٠٫٠٠٠ من الأهلين •

(ب) أعضاء منتخبين يمثلون طائفتي اليهود والنصارى •

(ج) أعضاء من العرب من مجلس الدولة ، وهم ، على ما نصحنا آنفاً، يختارون من الأعضاء الخارجيين فيه •

(٣) وعلى الأساس المذكور يكون عدد أعضاء المجلس التشريعي ،وبضمنهم الأعضاء الخارجيون في مجلس الدولة في حدود : ٥٠ •

(٤) يجب أن يكون رئيس المجلس التشريعي عربياً يعينه مجلس الدولة • وليس من الضروري أن يكون عضواً منتخباً ، إذ قد لا يوجد من بين الأعضاء المنتخبين من هو المرشح الصالح لهذا المنصب •

(٥) وعلى الرغم من الهنّات التي قد يعمل تحت وطأتها هؤلاء ، فإننا نعتقد بالنظر الى صعوبة العثور على أعضاء أكفاء في المجلس التنفيذي ، أنه يجب أن يكون لأمناء السر البريطانيين في الدوائر حق الحضور في المجلس والكلام فيه وتقديم القضايا ، شريطة ألاّ يكون لهم حق التصويت •

(٦) يجب أن يكون للمجلس أمين سر مشارك يسدي العون اللازم في قضايا أصول تصريف العمل .

(٧) يتقاضى أعضاء المجلس التشريعي مخصصات معينة عن كل جلسة .

المجلس التشريعي – واجباته :

(١) يصلح القانون الأساسي المصري الصادر سنة ١٩١٣ أن يكون سابقة.

(٢) تسن القوانين وتفرض الضرائب من قبل مجلس الدولة :

(آ) بموافقة المجلس التشريعي عادة .

(ب) إذا رفض المجلس إمرار القانون على الوجه المرغوب فيه من قبل مجلس الدولة ، فإن لمجلس الدولة ، إثر المداولة ، ومعاودة تقديم القانون ، الحق في اصداره من دون موافقة المجلس . ونعتقد أن من الضروري أن يكون للمجلس التنفيذي ، عند الضرورة حق إمرار القوانين ، من دون موافقة المجلس التشريعي .

(ج) يجب أن يكون ثمة نص يقضي بأن اللوائح المقدّمة الى المجلس، إن لم ترفض قبل تأجيل جلساته ، تعد وكأنها قد مرّت منه .

(٣) وعلى غرار ما كان في الدستور التركي ، يكون لمجلس الدولة الحق في اصدار قوانين موقتة ، يشترط ، على كل حال ، تقديمها الى المجلس التشريعي في دورته التالية .

(٤) للأعضاء حق تقديم التشريعات ، فيما خلا ما اتصل منها بالدستور وفرض الضرائب .

(٥) للمجلس سلطة إمرار القرارات المتصلة بالحكم الداخلي في بلاد ما بين النهرين ، فإن لم تقبلها الحكومة وجب أن تبيّن أسباب ذلك .

(٦) تصدر الميزانية السنوية بموجب قانون من مجلس الدولة ، وقد سبق عرضه على المجلس التشريعي مشاورة ومراقبة . فإن لم تقبل المشورة المسداة ، وجب بيان الأسباب .

لا تزاد نسبة الضرائب الحاليـــة ، ولا تفرض ضريبة جديدة إلا" بقانون •

(٧) تقديم الحسابات السنوية للمراقبة •

(٨) للأعضاء توجيه الأسئلة كتابة •

وختاماً ننصح بأن يكون فضلاً عن تمحيص الدستور المعروض آنفاً، وإثر مدة معينة من السنين ولنقل ٧ في تصريف شؤون نظام الحكم ، ونماء التعليم ، وفي توسيع أو تحديد سلطة الحكم الذاتي • يفترض في التحري أن يجري على يد حكومة صاحب الجلالة البريطانية ، فإن جرى ذلك وجب أن تجعل الحجة على سبيل السرد وأن لا توضع في صلب الوثيقة التي يبنى عليها الدستور •

وأبرقت خلاصة وافية لهذا التقرير الى وزارة الهند في اليوم الـ ٢٧ من نيسان سنة ١٩٢٠ مشفوعة برجاء صادق بالسماح باصدار بيان في بغداد يبنى على هذه الأسس ، بأسرع وقت مستطاع •

إن وزارة الهند كانت راغبة في الأمر ، لكن وزارة الخارجية كانت ، ما تزال تقدم رجلاً وتؤخر أخرى بشأن اصدار أي بيان يتصل بمستقبل بلاد ما بين النهرين ، حتى تعقد معاهدة الصلح مع تركية وتحسم شروط الانتداب • وفي اليوم السابع من حزيران أعلم رئيس الوزراء (مجلس العموم) بذلك(٣) •

* * *

---

(٣) لم تمنع الأحاسيس القانونية على كل حال ، تعيين سر صموئيل هور كمندوب سام في فلسطين في حزيران واثر الاضطرابات التي نجمت في القدس ، وشروعه بتأسيس ادارة مدنية في اليوم الأول من تموز ، وبذلك استبق الانتداب كما أستبقت معاهدة الصلح أيضاً • (المؤلف)

الفصل السابع والعشرون

قبول الانتداب ـ وما بعده

> **« اني لأعجب في الاحيان ، وتعتريني فزعة واهنة من الطريقة المنسيبة المطلقة التي يصل بها السياسيون الى تكوين أحكامهم ، وبين المعايير الدقيقة الممثلة بالبرهان والبينة والحقيقة التي يلتزم بها كل ناقد نزيه أو مؤرخ مجرد • ان بينة ما واهنة لتذهب بعيداً عندما يكون عقلك قد قطع شيئاً وان الظروف تستدعي قراراً واجراءً » •**
>
> الفايكونت مورلي في (خواطر : Recollections ٢/١٩٠)

تناهت الينا الأنباء ، في اليوم الأول من أيار ، بأن بريطانية العظمى قد قبلت في (مؤتمر سان ريمو) الانتداب على بلاد ما بين النهرين ، فقررت أن أصدر بياناً حول الموضوع حالاً ، تنشره الصحف في الوقت الذي تشير اليه (رويتر) في برقياتها • وما كان في الامكان أن يذكر في مثله شيء كثير ، ذلك ان مستقبل الموصل لم يكن قد تقرر بعد ، كما ان مقترحاتنا الدستورية لا تزال قيد الدرس في انكلترة • لكن من الضروري ، بالإذن أو بغيره ، أن يقال شيء اشباعاً للبيان الأجرد الصادر من (سان ريمو) • وكان أن صدر البيان على الوجه الآتي :

---

(١) ان الكلمتين العربيتين المستعملتين هما : انتداب Mandate والدولة المنتدبة ل أجنبي Mandatory • ان هاتين الكلمتين مشتقتان من جذر (ندب) ومن الجذر نفسه كلمة (مندوبين) أيضاً • ان الكلمتين لتدلان على الوجه الظاهر (الحكومة المختارة) و(الاختيار) • ومما لا شك فيه أنه قد استخدمتا على سبيل التورية ، ومنعاً لاستعمال التعابير المحتواة الواردة في المعجم العربي : (أمر وأمير ومأمور) • (المؤلف)

الانتداب على العراق

« أعلن (رويتر) في لندن أن مؤتمر (سان ريمو) أقرّ إناطة الانتداب على العراق وفلسطين ببريطانية ، والانتداب على سورية بفرنسة[1] • يجب أن يطمئن أهل العراق الى أن الحكومة البريطانية لم تقبل بما نيط بها من دون إدراك تام للتبعات التي ينطوي عليها • إن كون الدولة منتدبة يتطلب كثيراً من الجهد لتحقيق نوايا (عصبة الأمم) ، والانتداب يمارس تحت ظلها • إن المثل الأعلى الذي يجب أن تهدف اليه هو خلق شعب صحيح يرشده رأي عام سليم ويسيطر عليه • لا يكفي أن يُعنى بالازدهار المادي للبلد المنتدب عليه إن أُريد إدراك هذا الهدف • إن واجب الدولة المنتدبة هو القيام بواجب الحارس الحصيف ، بعيد النظر ، الذي يتخذ العدة لتدريب من في عهدته بغية تأهيله ليتخذ مكانه في المجتمع البشري • لقد عاني العراق خلال قرون من فساد الحكم فحدّ ذلك من حيوية الشعب ومن خصوبة أراضيه • إن ذِكر ماضيه المنتشرة فيه طولاً وعرضاً ، شاهدة على الحضارة التي خلفها أسلاف أهله الحاليين مصطنعين المصادر التي لم تتضاءل أو تقل • إن قوة الشعب الخلاّقة هي التي كُتبت على يد حكامه الذين استكانوا الى اللا أبالية والسبات العميق •

وليس إلاّ بعث بعمل يوم واحد ، لكنه بالنسبة الى شعب كالعرب ، سريع التعلّم ، تواق الى الإفادة من العلم ، يمكن أن يصبح التقدم سريعاً • ان امارات الابتعاث ظاهرة اليوم في كل مكان • لقد حلّت السكينة محل الاضطراب ، وأخذت الأرض القفر تزدهر وتخصب ، كما غدا البائس الفقير

---

(١) ان الكلمتين العربيتين المستعملتين هما : انتداب لـ Mandate والدولة المنتدبة لـ أجنبي Mandatory . ان هاتين الكلمتين مشتقتان من جذر (ندب) ومن الجذر نفسه كلمة (مندوبين) أيضاً . ان الكلمتين لتدلان على الوجه الظاهر (الحكومة المختارة) و (الاختيار) • ومما لا شك فيه انه قد استخدمتا على سبيل التورية ومنعاً لاستعمال التعابير المحتواة الواردة في المعجم العربي : (أمر وأمير ومأمور) (المؤلف)

بمنجاة من الظلم والاضطهاد ، والغني يستمتع بثروته آمناً مطمئناً . إن أمثال هذه النتائج لا تدرك من دون معونة يسديها الأهلون أنفسهم . وان الحكومة البريطانية لتعتمد على روح المعونة هذه بعينها. إن تأسيس الادارة المدنية سيهيىء مجالات واسعة للقوى الأهلية ، على حين ستسفر عن انتشار التعليم إفادة شعب العراق من الفرصة التي يخبئها لهم المستقبل في طياته . وعلى غرار فرحة الحارس من نماء من أوكل اليه حراسته ، وصيرورته رجلاً مستقلاً كاملا ، فإن الدولة الحارسة تنظر بعين الطمأنينة والرضى الى ابتعاث المؤسسات السياسية ، سليمة حرة . هذا هو موطن النجح في العمل الذي أضطلع به ، وانه لقاعدة ركينة للتفاهم المتبادل والود المصفّى الدائم.

وتلقيت في اليوم الخامس من ايار التعليمات القاضية بنشر بيان على الأسس الآتية :

« في اجتماع لمؤتمر الصلح المعقود في (سان ريمو) الذي استهدف حسم شروط المعاهدة مع تركية ، اتخذت الخطوات اللازمة للوفاء بالوعود التي أُعطيت للشعوب العربية (كذا) ، والتي ستستخدم في كل الأزمان وفي جميع البلدان التي تسكنها الشعوب والتي كانت تحت ظل السلطان . لقد أُنقذ العراق من تركية بالفتح العسكري (كذا) وان جيوش الانبراطورية البريطانية اليوم تحتل البلاد . لقد أعلنت حكومة صاحب الجلالة البريطانية في أكثر من مناسبة ، نيتها الراسخة في بناء نمط من الادارة المركزية المدنية يرتكن الى ممثلي مؤسسات وطنية ، يمهد الطريق الى إقامة دولة عربية مستقلة في العراق . لقد اتخذت خطوات مهمة في هذا الاتجاه وذلك عن طريق استبدال تدريجي للادارة العسكرية بالمدينة وتشكيل مجالس تمثيلية وبلدية في مختلف أنحاء البلاد .

لقد حان الوقت لأن يجني العراق ثمرة ذلك كله ، وأن يخطو خطوة أخرى الى الأمام في سبيل الابتعاث القومي لشعبه. لذلك أوعزت الحكومة

البريطانية الى (المفوض المدني) ليتخذ الاجراءات الفورية ، بالاستشارة مع المجالس وبموافقة الرأي العام في أرجاء البلاد كلها ، في سبيل وضع مقترحات محددة تنصب على إدراك الهدف الذي سبق ذكره • إن نتائجه ذات عون مادي بالنسبة الى مؤتمر الصلح ، وذلك بسبب محاولتها الصادقة لايجاد حل سلمي وضمان التقدم في الشرق في قابل الأيام •

واختتمت البرقية بتذكيري بأن مقترحات لجنة بونام — كارتر لا تزال تحت الدرس ، وان ثمة تعليمات أخرى آتية » •

إن هذه الرسالة بتأكيدها على تحقق آخر من الرأي العام المحلي ، صيّرتنافي مركز صعب حرج • إن المبدأ الذي تقوم عليه الاستشارات مضمّن في شروط الانتداب ، وهو بالضرورة سديد • لكن التأخير المديد أثار أحاسيس قوية في أولئك الناس المعنيين بالسياسة والذين كان لهم ببغداد نفوذ وهيبة • وبالاشارة الى لجنة بونام كارتر أجبت على ما يأتي :

« يتراءى أن الشطر الثاني من برقيتكم يحملنا على القيام باستشارات معينة أخرى وبالتباحث مع الناس في هذا البلد ، والقصد من ذلك: الوصول الى نتائج تساعد مؤتمر الصلح في إبانه » •

« ومما يبعث على الأسى أن أضطر الى رجاء حكومة صاحب الجلالة بأن تعاود النظر في هذا الشطر من بيانها :

« واني لأعرض بأن لحكومة صاحب الجلالة البريطانية ، باعتبارها الدولة المنتدبة أن تقرر نمط الحكومة التي ستشكل في القريب العاجل• إن إحالة الأمر مجدداً الى المجالس الادارية والى الرأي البلدي تسفر عنها نتيجة واحدة • إن المتطرفين (كذا) الذين ينهجون نهج زملائهم في سورية يطالبون نظاماً يهيىء استقلال العراق التام سواء أكان ذلك مع عبدالله أم بدونه ، وانهم على طريق التهديد والرجاء ، وخلال شهر رمضان القادم سيعمدون الى إثارة التعصب الديني ويكسبون المعتدلين الذين كانوا حتى

الآن يتطلعون الى الحكومة عساها تضع فرصة معقولة للتقدم فيكونون له ظهيراً لا يقوى المعتدلون على الوقوف بوجه المتطرفين ما لم يعلموا أن الحكومة مستعدة لأن تسدي لهم في ذلك عوناً نشطاً . لقد أفصح إليّ عن أحاسيس مماثلة مراراً وتكراراً وذلك من قبل سراة العرب » .

« فإن أمكن تخويلي ، خلال الأيام السبعة القادمة ، الاعلان عن موافقة حكومة صاحب الجلالة البريطانية على رأي معتدل قوي متراص . وما أن يتم ذلك إلاّ ونصبح قادرين على معالجة أمر المتطرفين » .

« إن الاعلان عن مقدم سر پرسي كوكس كمندوب سام ذو قيمة كبيرة في هذا الباب . أرجو أن تصدروا الأوامر على هذا الأساس في أقرب وقت مستطاع . وباعتباري ضابط ركن من ضباط القائد العام وذو تبعة بازائه، لست بقادر أن أتخذ أي إجراء ما من دون موافقته ، إجراء قد يعرّض سلامة قواته ومن في عهدته من الاطفال والنسوة الى المخاطر.إن استشارات أخرى تنصبّ على استمزاج الرأي العام في هذه المرحلة ستؤدي على ما أرى الى هذه النتيجة بعينها » .

وفي رسالة مستقلة نقلت آراء لجنة بونام — كارتر على الوجه الآتي:

« ترى اللجنة ان نشر البيان الوارد في برقية سكرتير الدولة فوراً هو شيء مبتسر . فإن قبلت مقترحاتها ، فلا معدى عن تكييف للبيان . وترى (اللجنة) أن الخطوة الاولى يجب أن تكون: نشر شروط الانتداب،وبضمنها فحوى ومحتوى الفقرة الثانية من المادة الـ ٢٢ من (الميثاق) ، شأنها شأن الفقرة الرابعة . وإذا ما تسلمنا قرار حكومة صاحب الجلالة البريطانية بشأن المقترحات المتعلقة بالدستور ، وجب نشر خلاصة ما سواء كانت متوافقة مع ميعاد اعلان الانتداب أو بعيدة عنه . وبالنظر الى الأسباب الواردة في التقرير ، يعدّ أخذ المشورة من مجالس الألوية بشأن شكل الحكومة من وجهة النظر المحلية ، أمراً لا طائلة من ورائه ولا فائدة ، ولعله

يسفر عن نتائج وخيمة بالنسبة الى الأمن العام. لقد تألفت (مجالس الألوية) لمقاصد محلية غير وطنية ، وليست لها صلاحية إبداء الرأي في القضية القومية . ستنجم مصاعب خطرة إن أبدت مجالس مختلفة آراء متناقضة . لقد استرعت اللجنة الانتباه الى حقيقة كون قلة من أعضاء مجالس الألوية تملك معلومات سياسية أو خبرة ، والى احتمال حدوث انفجارات وطنية متطرفة وتعصّب ديني ، وهي تورد مثل التربية في بلد يبلغ فيه الاعضاء من أبناء العشائر في مجلس (اللواء) في العمارة ممن يقرأون ويكتبون الى غيرهم : ٤ من ٦ . إن اللجنة تتمسك بالرأي الذي سبق بيانه ، والقائل بأن السياسة الحقة هي اصدار دستور موقت والسماح للمجلس التشريعي جانباً من عمله قبل أن يطلب اليه ابداء رأي حول قضايا لا يعرف عن نتائجها شيئاً ولا يملك الخبرة اللازمة لإدراكها » .

وأخيراً ، وفي الـ ٢٠ من أيار أبرقت وزارة الهند بما يأتي :

« ان الحكومة البريطانية لتقدر كثيراً العناية التي صبّتها لجنة بونام-كارتر وأسفر عنها : (المشروع) . ستنال توصياتها الدرس التام اللازم . إن صياغة الانتداب هو الآن شغل حكومة صاحب الجلالة البريطانية الشاغل ، وعلى ما تدركون ، لا يمكن إمرار قرارات بشأن مقترحاتكم التي قد تتخذ شكلاً مغايراً ، والى أن يصدر قرار بشأن هذه القضية . يمكن إرجاء نشر البيان الوارد في برقيتي المؤرخة بتأريخ ٤ ايار بالنظر الى تصريحكم المؤرخ في ٣ ايار . هذا ، وفي الوقت نفسه يجب الامتناع عن اتخاذ أي إجراء آخر بشأن البيان المنشور . آمل أن أرسل لكم تعليمات وافية في القريب العاجل .

لقد أزعجتني الأنباء القائلة بأن الانتداب يشغل الآن ، والآن حسب البال على الوجه الحق ، لكن ، لم يكن هناك شيء يمكن القيام به من قبلنا في العراق ، وما علينا إلا التوقف والانتظار وبالمعنى الذي ذهب اليه ملتون ،

وأن نقوم بما نستطيع بازاء العاصفة التي أخذت تهب • إن البيان القائل بأن بريطانية قبلت بالانتداب قد أثار الوطنيين وحفزهم على المطالبة بالاستقلال التام الناجز ، على غرار سورية • لقد تلقوا ، أو تصوروا أنهم تلقوا ، من بعض الضباط البريطانيين الملحقين بالحكومة الدمشقية تشجيعاً صريحاً أو ضمنياً إبان مقاومتهم السلطة الفرنسية في سورية وذلك باعتبارها الدولة المنتدبة • لقد تلقوا من (الخزانة البريطانية) عوناً مالياً ومعنوياً وفيراً ينصب على تشكيل دولة عربية مستقلة في المنطقة • فلِمَ يقبلون بأقل من ذلك في العراق ؟ لقد استثنوا شروط البيان الصادر بشأن الانتداب والدولة المنتدبة• إن كلمة (انتداب : Mandate) في اللغة الانكليزية لها معنيان مختلفان واضحان هما :

(١) أمر انبراطوري ، أو أمر إجرائي أو توقيع قضائي أو كنسي •

(٢) وفي القانون الروماني : لجنة يرجو فيها شخص أن يقوم شخص آخر مقامه تفضلاً ويحصل على ما فقده ، وللكلمة معنى مشابه في القانون الاسكتلندي • ولا تستعمل الكلمة عادة إلاّ بالمعنى الأول ، وهي لا تزال مستعملة على ذلك في اللغة الدبلوماطيقية[٢] ، وان اختيارها من قبل الجنرال سمطس للتعبير عن معنى الوصاية يذهب ، على الرغم من وضوحه في نصوص الميثاق الى بعض النواحي غير مأمونة العاقبة•

لقد خلق الميثاق وضعاً جديداً ، وعلى الرغم من أن الانتداب يحمل اسماً رومانياً ، فإن له معنى حديثاً • انه سليل قانون الوصاية البريطاني ، المضمّن في تصريح الملكة فيكتورية المذاع في (اللهآباد) سنة ١٨٥٨م• لقد كان دليل السياسة البريطانية طوال ١٠٠ سنة ولقد طبقناه حقاً على الساحل

---

(٢) يذهب معجم اكسفورد للغة الانكليزية (٦/لسنة ١٩٠٦) الى أن تعريف الكلمة واستعمالها لا يشيران الى تعبير «وصاية» • (المؤلف)

العربي من الخليج العربي ، وعلى غيره لمدة قرن وزيادة . وعلى الرغم من ذلك خلقت الكلمة تعصباً منذ طالعة الأمر ، فلقد فهمه الوطنيون على انها تنطوي على هيئة متعالية ذات سلطة وصلاحية تمكناها من أن تكون صاحبة الأمر والنهي — وهو ما لم يستطيعوا أن يوفقوا بينه وبين الوصاية — . لقد فهمتها الصحافة في اوربة على هذا الوجه أيضاً ، شأنها شأن عامة الناس سواء بسواء . ولقد استعملت بهذا المعنى من قبل الساسة البريطانيين في البرلمان وفي غيره دوماً ، ولا يزال لها هذا المعنى ، ولبس غيره ، في فرنسة وفي سورية ، ولا يلحق بها معنى آخر في فلسطين إلاّ لماماً . ولو استعمل تعبير : « الحكم بالوصاية » ، لأمكن تجنّب بعض الاعتراضات العربية والشكوك العامة التي سادت في انكلترة والولايات المتحدة الامريكية .

لقد انحصرت هذه الآراء ، على كل حال بجماعة صغيرة من الطامحين ، فأغلب القادة كانوا يأملون الاسهام علانية في دور طليعي في الدولة العربية الجديدة . أما الشعب فكان اهتمامه بمثل هذه الأمور قليلاً . إن (الادارة المدنية) التي كان يصوّرها في فلسطين غالباً رجال (أخص منهم بالذكر في فلسطين : سر جي.دي. ريز ولورد ازلنتكتن) على انها غير حبيبة الى الناس ، استطاعت أن تحصل على أعظم درجة من الرضى العام تفوق الدرجة التي وصلت اليها من أتت قبلها . لم يكن هناك من واجب اداري ، أو نشاط مصلحي غير محفز من جهة ومن الجهة الاخرى فان المصالح المركّزة ومنها مصالح الملاكين المتغيبين والاقطاعيين العشائريين كانت لا تستسيغ المسوح الكادسترالية التي تساعد على تثبيت الحقوق المقرّرة للمزارعين الذين يعتبرون « مستأجرين » شكلياً .

لقد كان بعض السياسيين يتوق الى المشاهرات التي كانت تدفع لمن يمثل العراق في مجلس اصطنبول . وكان روحانيو النجف وكربلاء والكاظمين ، باستثناء قلة ملحوظة منهم يعادون حكومة دنيوية منظمة مهما

كان نوعها ، وكل ذلك على الرغم من زيادة مواردهم كثيراً نتيجة معاودة الزيارة الى العتبات المقدسة من جميع أنحاء العراق وفارس وبمقياس لا نظير له من قبل • لقد اجتمع في كربلاء ٥٠٠٠٠ من الزوّار ومثلهم في النجف خلال عيد الأضحى • لقد كانت الترتيبات المتخذة لراحتهم ، وفي سبيل المحافظة على الصحة العامة والأمن ، والتي اضطلع بها الحكام السياسيون (وأخص بالذكر منهم النقيب براي في كربلاء) مبعث رسائل حارة وبرقيات شكر تلقتها (الحكومة المدنية) ووقعها كثير من متقدمي الروحانيين • لقد كان نظرهم الى الأمور جلياً ، فعلموا أن قيام ادارة منظمة على حظ من كفاية، تسعى الى خير الجماهير ، وتصطنع سياسة تربوية حرة ، سينسف عمّا قليل نفوذهم ويعرّض فكرتهم الدائرة حول الحكومة الثيوقراطية (الدينية) • وما كانوا بذي نظر بعيد يدرك أن هذا هو الاتجاه الشائع الذائع في العالم طراً • وظاهروا الحركة الوطنية في أقوى وجهاتها الرجعية (كذا) ، ومالوا بحججهم التي لا يفهمها إلاّ السواد الأعظم من الجاهلين (كذا) • لقد سعوا الى التعصب الديني فوجدوا طلبتهم (كذا) •

لقد تجلّى للوطنيين خلال وقت مضى وانقضى ، أن من الضروري ، بالنسبة اليهم أن يعرضوا جبهة اسلامية موحّدة • لقد تمّ التغلّب على التعصب العميق• إن (المواليد) التي تقام إحياء لذكرى النبي، وغيره من الأولياء المسلمين (كذا) كان محلها كل مسجد سنّي أو شيعي ، على التناوب، وكان يحضرها أبناء الطائفتين وبدعوة من الموكلين بأمر المسجد أو رؤساء الجهة التي يقع فيها المسجد • وفي بعض الحالات كانت (قراءة المولد) ، وهي سنّية متمايزة ، تعقب بتعزية ، وهي شيعية تخلّد ذكرى استشهاد الحسين، لكن المظهر العام لهذه الاجتماعات في جميع الحالات ، كان سياسياً في خطبه ، كما كانت تعقب ذلك قصائد وطنية تنشد إثر الاحتفالات الدينية •

ويخلب الخطاب البليغ لبّ العربي ، بخاصة ، وان استنفار الدين والقومية بحماس ، ودعوة الأمير عبدالله بإلحاح ليسرع في انشاء دولته المقدسة أثار الأحاسيس بشكل منقطع النظير • وفي أولى حفلات (المولود) برز شاب هو كاتب في دائرة الاوقاف فألقى خطاباً عدّ خطراً على الأمن العام • لقد استُغل توقيفه لعقد اجتماع كان هدفه المبيّت اتخاذ ما يلزم لاطلاق سراحه عنوة • وأرسلت السيارات المسلحة لتجوب شوارع المدينة الرئيسة، لكنها لم تصادف مقاومة منظمة(٣) • وأنذر القادة بأنه لن يسمح بما يخل بالهدوء والسكينة ، وبعد محادثات أجريتها مع العقيد بريسكوت ، مفوض الشرطة والعقيد بلفور ، حاكم بغداد ، قررت عدم اللجوء في الوقت الراهن الى أساليب القمع • لقد توصلت الى النتيجة في ضوء الوقائع التالية وكان ذلك خطأً في الحكم عظيماً • لقد قلّلت من نفوذ الوطنيين والوقوع في شراك دعاياتهم ، والعلماء المعادين الذين تتبعهم جماهير الفرات الأوسط • كنت أعلم أننا بسبيل البدء بتشكيل حكومة وطنية ، وكنت أرفض بشدّة زج أفراد سيدعى بعضهم ، على التحقيق ، في غضون أشهر قليلة الى اسداء المعونة في تشكيل الحكومة • لذلك سمح بـ (المواليد) أن تستمر ، وان من كان ينظر الى عقد الاجتماعات السياسية في الجوامع نظر الكاره ، كان يشفق من رفض الاشتراكات التي كانت تنفق على ما يلزم من وجوه الانفاق ، أو عدم الحضور ، لئلا يوصموا بالكفر والخيانة بالنسبة للحرية العربية • لقد كانت الشائعات تدور حول الاضطرابات المرتقبة يروجها بالدرجة الاولى المعلمون في المدرسة الوطنية • وكان من نتائجها غلق

---

(٣) ان القائد المحلي ، وهو اذ يذكر قصة الجنرال داير ، رجاني قبول التبعة وجهاً لوجه بازاء حكومة صاحب الجلالة البريطانية بالنسبة لأي اجراء قمع يتخذه • وكان أن وافقت على ذلك شريطة أن لا تطلق أكثر من خمس اطلاقات وأن تصوب هذه فوق رؤوس المارة لا الجماهير لئلا تتعرض حياة الأبرياء الى الخطر • (المؤلف)

الأسواق تكراراً ، وبلبلة حياة المدينة السوية . إن تقلّص حدودنا على الفرات ، بصورة مطّردة ، والهجوم على تل أعفر وطريق الموصل ، قوّى من الاعتقاد القائل بأن مركزنا العسكري ليس على درجة من القوة بحيث يمكن إيقاف العشائر عند حدها .

وفي أوائل حزيران أنذرنا الشيخ علي السليمان وهو أشد أعواننا ثباتاً من بين الشيوخ العشائريين الموجودين قرب بغداد ، هذا ، وفي الوقت نفسه ، أعلن شيخ مشايخ عنزة الذي أعار الدعاية التي وجهت عليه أذناً صاغية ، بأننا ، ما لم نظفر بنصر مبين فلن يستطيع الاجابة عن تساؤل أبناء قبيلته بعد اليوم . لقد ألحّ على معاودة احتلال (الدير) .. ولكن مهما كانت الفوائد المرتجاة من ورائه فقد كان خارج قدرتنا من حيث التنفيذ. وعلى حين ريع من يرجون لنا الخير من فشلنا في إنهاء الاضطراب العشائري، ومن المعاناة المنسوبة الى سخرية المتطرفين ، كان هؤلاء يقتبسون مقالات باعتبارها بيّنة على أن الانتداب مرفوض في لندن وبغداد على حد سواء .

إن الخلاصات البرقية البتراء التي وردت عن طريق رويتر بشأن المناقشات التي دارت في مجلس العموم استغلها الوطنيون أيضاً باعتبارها بيّنة على أن قبول الانتداب لم يكن مرغوباً فيه في انكلترة ، وانهم لو عملوا ما يقتضي فان الحكومة البريطانية ستتركه .

لقد كان عليّ في مثل هذه الظروف غير المؤاتية أن أصدر تصريحاً بشأن سياستنا . لقد طلبت لجنة فرضت نفسها بنفسها مؤلفة من ١٥ عضواً، كلهم من بغداد نفسها ، واتخذت لها (المندوبين) اسماً ، فرصة لعرض آرائها عليّ ، وذلك لأقوم بنقلها الى الحكومة البريطانية عيناً . وما كان في مقدوري أن أستقبلهم باعتبارهم ممثلي الشعب العراقي ، ذلك ان جماعة كبيرة من العقلاء كانت تشك في سداد منهجهم (وكان يضمّ رفض الانتداب) وترفض طرائقهم ، وتشك في نواياهم الحسنة . لذلك دعوت نحو ٤٠

شخصاً بالأسماء ، وكلهم من سراة بغداد ومن دون النظر الى اتجاهاتهم السياسية وبضمنهم ممثلو الطائفتين اليهودية والنصرانية(٤) والمندوبين جميعاً للاجتماع في (السراي) يوم الـ ٢ من حزيران وافتتحت الاجتماع بالخطاب الآتي:

« علمت أن لبعضكم ما يريد عرضه عليّ اليوم ، ولكي تدرس الحكومة البريطانية أيضاً ما يتصل بمستقبل هذه البلاد ، فمن نافلة القول أن أذكر بأني أرحب بهذه الفرصة التي سنحت أيضاً لي لأوضّح لكم بقدر ما أستطيع الاتجاه العام للسياسة التي تلتزم بها حكومة صاحب الجلالة البريطانية في هذا الصدد • لقد قرأتم التصريح البريطاني ــ الفرنسي الصادر في الـ ٨ من تشرين الثاني سنة ١٩١٨ والمادة الـ ٢٢ من معاهدة عصبة الأمم • إن هذه التصريحات تمثل سياسة حكومة صاحب الجلالة البريطانية ، وما انحرفت عنها (الحكومة) في يوم من الأيام • ترغب حكومة صاحب الجلالة البريطانية في إقامة حكومة وطنية في هذه البلاد ، وفي نيتها أن يتم ذلك في أسرع وقت مستطاع • وليس هناك من آسف على التأخير الذي حدث كأسفي • إنه لأسباب في خارج مقدورنا ــ انه بسبب استطالة الحرب والصعوبات التي اكتنفت عقد الصلح وتمكيننا من السيطرة ، والأوضاع القلقة على حدودنا سواء تلقاء فارس أو تلقاء تركية وتجاه سوريا مما حال دون تأسيس حكومة مدنية هنا جهد استطاعتنا ، لكنني لا أريد أن تعتقدوا أن هذا التأخير كان شيئاً يمكن تفاديه ، واني لأطمئنكم بأن أولئك الاشخاص الذين في بغداد سعوا بدافع الوطنية ، أو بغيرها من الحوافز ، الى الاسراع في تأسيس حكومة وطنية هنا ، واصطنعوا العنف في الاثارة وقاموا بتأجيج أحاسيس الجهلة ، وبذلك ارتكبوا ، ولا يزالون

---

(٤) لقد هوجم هذا الاجراء في عمود الرسائل في جريدة التايمس على أساس ان ادخال هؤلاء لا يعدو حشر مرشحي الادارة المحلية في المجلس •
(المؤلف)

ما يناهض خدمة البلاد • ليس من أمل في تأسيس حكومة مدنية على الأسس التي يصبون اليها ، ما لم يستتب الأمن وخلال فترة الانتقال • إن الذين يشجعون الاخلال بالنظام ويثيرون الناس بازاء النظام القائم إنما يحفّزون قوى تستطيع الادارة الحالية أن تسيطر عليها ، وهي فاعلة ذلك ، لكنها قد تثبت بأنها أشدّ قوة بالنسبة للمؤسسات الوطنية التي نسعى الى إقامتها ، وهي لا تزال في المهد صبايا • من واجبي ، باعتباري الرئيس الموقت للادارة المدنية ، أن أحذركم من أن أية إثارات أخرى ، ولجوء الى العنف واصطناع التعصّب ، كل ذلك سيجابه بإجراء شديد ، سواء كان ذلك على يد السلطات العسكرية أم على يد الادارة المدنية • إننا نملك القوة التي تضمن المحافظة على النظام في هذه البلاد وفي نيتنا القيام بذلك حتى يتم تأسيس حكومة مدنية • لن أتردّد في الطلب من السلطات العسكرية لاصطناع أية درجة لازمة فيها ضماناً لذلك ، ولن تتأخر هذه السلطات عن إجابة هذه الطلبات • واني لآمل من الصميم أن لا أضطر لتكرار هذا القول عليكم ، وأن لا تستخدم القطعات العسكرية في المستقبل في القيام بإجراءات أخرى حفاظاً على النظام العام •

وأشير الآن الى شكل الحكومة القابلة التي ستتأسس في هذه البلاد ، وهو أمر ننوي أن نستمزج ، بشأنه ، الرأي العام بأسرع وقت مستطاع • وعلى ما يعلم جلّكم ، كنت خلال الاسابيع الاخيرة أشاور حكومة صاحب الجلالة البريطانية وكبار الضباط في (الادارة المدنية) وأنا أهدف الى اختطاط حكومة مدنية موقتة تستطيع أن تعمل حتى يتسع الوقت لمشاورتكم بصدد اختطاط مشروع دائم •

لقد طبعت المقترحات المتصلة بهذا الموضوع وقدمت الى حكومة صاحب الجلالة البريطانية منذ أسابيع خلت • ولم تستطع حكومة صاحب الجلالة أن تخولني اعلانها قبل أن يصفّى الحساب مع تركية ، أو ، على كل

حال ، قطع مسافة ما ، في سبيل الغاية قدماً • في مقدوري أن أقول لكم أن الآساس التي نسير عليها ، هي على وجه العموم :

« إننا راغبون في تشكيل (مجلس دولة) يرأسه عربي يستمر في منصبه الى أن تقدم قضية الدستور النهائي العراقي الى (المجلس التشريعي) وهو الذي نريد دعوته • بذلك تعطى الى الجمهور فرصة يكوّن خلالها حكماً مدروساً ، ويستطيع إنهاء آرائه ، بوساطة (المجلس التشريعي) إثر تشكيله • ليس من فائدة يحصل عليها من وراء إجراء سريع • وأخيراً أذكّركم بأن العراق هو من هذه البلدان القليلة التي صارت ميدان قتال ، ولا تعاني من عقابيل الحرب • ترد علينا تقارير من سورية وتركية والقفقاز ، ومن بعض أرجاء فارس ، تفيد ارتفاع الاسعار ، والتفسّخ ، وأن في تركية وسورية شحّاً بالغاً ، وان التذمر العام قد بلغ درجة الحدّة • سنخون أماتنا إن سمحنا لأنفسنا بإرخاء زمام الحكم قبل أن نكون في وضع يمكننا من تسليمها الى (الحكومة المدنية الوطنية) التي سنختط تشكيلها في قابل الأيام • لا تخدعنكم المظاهر ، لقد بقي العراق تحت ظل حكومة أجنبية طوال ٢٠٠ سنة ، وان تأسيس حكومة وطنية على أفضل نية معروفة في العالم ، لا يمكن أن يتم كلمح البصر • يجب أن تكون العملية تدريجية ، وإلاّ فالكارثة لا مفر منها • أرجو أن تؤمنوا بأني ، ومن معي من الضباط ، مشبعون برغبة عامة تنصبّ على تنفيذ التصريحات التي قرأتها عليكم ، لكننا لا نستطيع القيام بالمستحيلات • إن مصالحنا هي مصالحكم بعينها • أشكركم على القاء السمع الى ما عندي من أقوال بمثل هذا الصبر ، ويسرني أن أنصت ، الآن ، الى ما لديكم من معروضات لن أتردد في نقلها الى حكومة صاحب الجلالة البريطانية ، وهي المعنية ، بأقصى توق بقضية مستقبل العراق »؟ •

ثم كان أن أخرج المندوبون مضبطة يطلبون فيها تشكيل مؤتمر عراقي على الفور ، منتخب طبقاً لقانون الانتخاب التركي ، ويناط به اختطاط

مشروع حكومة عراقية وطنية بموجب الوعد الذي قطع في التصريح الانكليزي ـ الفرنسي الصادر في ٨ تشرين الثاني سنة ١٩١٨ • كنت قد تنبأت بأن ذلك التصريح الغامض سيجرنا الى مشكلات ذات خطر • وكنت آمل ، قبل ذلك ، قيام وضع تتعارض فيه رغبات الأهلين المنصبّة على اختيار الدولة المنتدبة مع قرارات الدول(٥) • لقد جوبهنا اليوم بهاته المشكلات ، إذ لم يكن سراً خافياً أن المندوبين ينوون اتخاذ ما يلزم لكي يصدر (المؤتمر) تصريحاً يقضي باستقلال العراق ثم يعقب ذلك رفض الانتداب البريطاني ، وعلى غرار ما فعله (المؤتمر) في سورية ، وهي التي كانت تؤكد مشابهتها العراق كثيراً •

أُديرت الجلسات بغير الضبط الذي لازم المفاوضات السابقة • ففي دخولنا السراي وخروجنا منه كانت تنهال عليّ وعلى : بونام كارتر ، وهويل ، وبلفور ، أنواع الشتائم والمسبّات تطلقها جماعات الطلبة ، الموظفون الأتراك السابقون • لقد كانت أولى مظاهرة من نوعها وأُريد بها شكل من أنواع اعلان الحرب • وأرسلت طلبات المندوبين ، فيما بعد ظهر ذلك اليوم ـ أي يوم الـ ٢ من حزيران ـ الى (وزارة الهند) وأفصحت عن آرائي على الوجه الآتي :

« من الضروري أن أؤكد أنه لو سمح لي بإصدار البيان الذي طلبته في الـ ٨ من ايار ، وقبل رمضان ، أعني يوم الـ ١٩ من الشهر ، لما جبهتنا حركة غدت اليوم معقّدة ، تسندها جبهة شعبية ثائرة حفّزت بمهارة • وعلى مثل الهياج الحالي من المحتمل أن يقابل الوطنيون الاقتراح القاضي بخضوع البلاد حتى لمدة محدودة الى دستور موقت لم يستشاروا بشأنه ، باعلان الاستقلال • سينظر الى هذه المقترحات باعتبارها مناهضة للتصريح البريطاني ـ الفرنسي ، وان معناها لن يفهم إلاّ فهماً ضيقاً ، بل سيساء

---

(٥) ان العبارة المتعلقة بها من المادة الـ ٢٢ هي بنصها •

(المؤلف)

فهمه كثيراً ، وسيؤدي ذلك كله الى تصلّب الرأي العام بازائنا ، على حين لو استمر المزاج الراهن لأحال المجلس التشريعي نفسه ، عند دعوته ، الى مجلس تأسيسي، وإن لم يكن مخولاً به • وبالنظر الى التصريح الانكليزي-الفرنسي ، لا أتبيّن طريقاً منفتحاً آخر لنا غير اصدار بيان مآله : عندما يمنح الانتداب ستتخذ الاجراءات اللازمة لدعوة المجلس التأسيسي واستمزاج رأيه في شكل الحكومة القابل •

أقترح أن يمضي سر پرسي كوكس أياماً قليلة في بغداد ، أثناء رجعته لمقابلة متقدمي الناس والتباحث معهم بشأن القضايا الدستورية ، وذلك قبل أن يتخذ طريقه الى بلاده • ليس من الضروري أن يضطلع رسمياً بالأمر لهذه الغاية ، نيابة عني ، وعلى ما قلت آنفاً ، فاذ الأمل بعودته الى هذه البلاد ، بوصفه مندوباً سامياً سيؤدي من دون شك الى معاودة ثقة الناس التي قد اهتزت •

كنت قد زرت البصرة قبل اسبوع لاستقبال صاحب الجلالة الانبراطورية السلطان أحمد شاه ، وقابلت الطائفة العربية فيها ، لقد تبرأوا بشدة مما يقوم به الوطنيون في بغداد (كذا) • ثم غادرت بغداد جواً قبل فجر اليوم التالي لمقابلة متقدمي رؤساء العشائر والوجهاء والحكام السياسيين في الحلة وكربلاء والنجف • لقد كان الموسم في عزّ الصيف ويخيّم على السهل هواء حار على علو ٢٠٠٠ قدم ، وان الطائرة التابعة الى صنف المهندسين الملكيين التي كنت راكباً فيها فشلت في اختراقه • وحاول الربان ذلك مرة تلو مرة ، وفي كل مرة وحرارة الطائرة ترتفع الى الحد الأقصى ، بحيث لا يمكن انقاذها إلاّ بهبوط مفاجيء • وجرّبنا طائرة أخرى، فنجحت التجربة في هذه المرة وبلغت المرحلة الاولى من الرحلة أعني : الحلة ، وقد تجللت بسواد من محروق الطائرة ، ونالت الوديقة مني كل منال • وبعد اغتسال عاجل ، قابلت وفداً من رؤساء القبائل والتجار البلديين والملاكين،

جليلاً وكان ذلك في دائرة البلدية • وقال لي أن ابن المجتهد الأعظم في كربلاء حاول إثارة الخواطر العامة ، مناهضة للانتداب ، لكن ذلك، برأيهم، لم يصب إلاّ نجحاً قليلاً • لقد أرسل جماعة من السوريين والضباط الاتراك السابقين الذين يستخدمهم اليوم الأمير فيصل رسائل يُطلب فيها الى العشائر والنجفيين بأن يحذوا حذو البغداديين بوجه البريطانيين • لم تحظَ هذه الطلبات ، أيضاً ، بالاستجابة ، إلاّ قليلاً • وعلى كل حال ، حذّرني متقدمو الرؤساء ، بصدق ، من أن الحركات الجارية في بغداد ستنتشر ما لم يوضع لها حد ، وأصرّوا على أن أفضل سبيل هو أخذالقادة بالشدة ، حين نستطيع ذلك ، وأن نوضّح على وجه تام بأننا قبلنا الانتداب، واننا سنضطلع بتبعاتنا • وذكّروني بأن أغلبية المندوبين في بغداد كانوا ، أيام الأتراك ، أعضاء في (جمعية الاتحاد والترقي) ، وهي التي كانت تعارض ، خلال عقدين من السنين ، كل نوع من أنواع الحكومة • إن هذه الحقيقة لم تكن أقل خطراً ، لكنها جعلت قيمة نصيحتهم أقل شأناً • وما كانت لدى المندوبين في مثل هذه الفترة سياسة بناءة • لقد كانت معارضة الانتداب هي غايتهم المباشرة والحد الذي تقف عنده مطامحهم • وكل ذلك على الرغم من أن بعضهم كان يتحدث في المناداة بالشريف عبدالله أميراً أو حتى على العراق ملكاً ، كما كان آخرون يتصلون خفية بالولايات المتحدة والقنصلية الفرنسية بنية استخدامهما ، بطريقة ما ، ضدنا • وكانت قلة من أصحاب النفوذ تداعب فكرة محصلها طلب تعيين تركية دولة منتدبة •

وقمت ، خلال شهري نيسان وايار بسفرات متكررة جواً شملت جميع المراكز الادارية في العراق تقريباً ، وجرت لي ، خلالها ، محادثات مسهبة مع أشخاص يمثلون كل طائفة ، وكل عشيرة كبيرة تقريباً ، وكل حملة آراء سياسية على اختلافها • لقد كانت الآراء التي أبديت لي خلال هذه المقابلات، فردية كانت أو جماعية ، وفي المراكز المتنائية ، تجمع على معارضة الأخذ بالنظام الدستوري مبكراً • واستنكرت بعض أوجه الاحتلال العسكري ،

كإبقاء عدد كبير من البيوتات الشخصية دوائر ، أما بشأن الحكم الاداري المدني فقد كان الانتقاد قليلاً ولعله كان معدوماً . وما كانوا ليصبون الى حكم أقل ، بل الى ما هو أكثر شأناً . لقد كانت المدن تطلب السيطرة على العشائر ، وكانت العشائر تطالب بحقوق التملك ، ضماناً لها بازاء المالكين الشرعيين ، واستمتاعاً بالأراضي التي يحلّون فيها من تلقاء أنفسهم . وكان التجار يطلبون المحاكم النظامية وينشدون حكم القانون ، والبلديات تطالب بالصلاحيات والمال من الواردات المركزية والمستشفيات . وكان الملاكون والمزارعون يطلبون بإلحاح القنوات والطرق والسكك الحديد والحب الذي تم اختباره ، والثيران للانسال ، والعون البيطري . وكان التقدم مرتقباً ، والضرائب تدفع من دون عسر ، وتجبى من دون دمع منهمر . وكانت التقارير الواردة من الحكام السياسيين الموجودين في مختلف المراكز ، متضافرة على ذلك حتى أوائل شهر حزيران .

وكان قد تم قبل أشهر طبع توصيات لجنة بونام — كارتر بالانكليزية والعربية معاً ، فوقف عليها متقدمو العرب في كل منطقة ولم تثر فيهم حماساً ، بل روّعوا منها في كثير من الحالات حقاً . لقد اعتبروا هذه التوصيات ثورية ، وسابقة لأوانها بأمد مديد .. وبعد أيام قليلة زرت الموصل وكركوك والسليمانية جواً . لقد أجمعت التقارير على أن الأكراد يلتزمون جانب الهدوء ولا يتجاوبون مع الوطنيين ولا يفهمون مطالبهم إلاّ قليلاً (كذا) . لقد كانت كركوك معقل الموظفين الأتراك دوماً ، كما كانت الآراء المائلة للأتراك ، والى حد ما في الموصل ، عاملاً من العوامل التي تثير قلقاً واضطراباً . وكان مصدر الخطر الرئيس : المكائد الشريفية التي تدار من دير الزور وينفق عليها بسخاء من دمشق وحلب حيث تقوم حكومة صاحب الجلالة البريطانية بدفع مبالغ جسيمة في سبيل تشييد واجهة حكومة سورية عربية . لقد ظهرت الأسلحة والاعتدة التي سلمت الى الحكومة الشريفية

بكميات كبيرة ، بعد الهدنة في العراق بأمد طويل • وعلى كل حال لم يكن هناك من دليل يدلّ على أن الرأي العام أصبح موجهاً بازاء الانتداب توجيهاً جدياً ، أو ان الادارة أصبحت مجتواة ، فيما خلا ما اتصل بجماعة صغيرة من السياسيين الذين كانوا يتلقون مشاهراتهم من دمشق • وإثر عودتي من الموصل الى بغداد يوم الـ ٩ من حزيران ، تسلمت من مستر مونتاغو برقية (مؤرخة بتأريخ السابع من حزيران) ، لو استطاع ارسالها قبل ثلاثة أشهر ، لأنقذت حياة أغلب ، إن لم يكن جميع الراحلين في الأشهر الثلاثة التالية •

إني لمسرور لأقول أني في وضع يمكنني فيه أن أخوّلك ما طلبت أن تعلنه ، وعودة سر پرسي كوكس وشيكة • إن حكومة صاحب الجلالة البريطانية إذ تشعر أن (كوكس) سيفتح صفحة نظام جديد ، فمن الصواب أن يستشار بشأن الدستور وغيره من الأمور ، شأنه شأن المجالس التي سيكون من واجبه السيطرة عليها • لهذه الأسباب لا يعدّ تنفيذ مقترحاتك حالاً أمراً عملياً • انها ، وهي خاضعة لمعاودة النظر فيها تفصيلاً ، لمقبولة مبدئياً ، باعتبارها مهيئة أساساً مقبولاً تقوم عليه المؤسسات الموقتة ، المنصوص عليها في (الانتداب) عموماً •

ومن دون أن تلتزم بشيء ، بقدر تعلّق الأمر بالتفصيلات ، أو تلتزم حكومة صاحب الجلالة البريطانية بها أيضاً ، ولنضرب طريقة تأليف مجلس الدولة ، على الوجه الدقيق ، وتعيين المناصب وما الى ذلك ، مثلاً ، ففي مقدورك أن تصدر البيان حالاً » •

وفي برقية خاصة ، أحسن مستر مونتاكيو صنعاً إذ نقل إليّ ما اعترفت به حكومة صاحب الجلالة البريطانية بالعبارات الآتية :

أنك تقدر ، من دون شك ، الاعتبارات التي حملت حكومة صاحب الجلالة البريطانية على اتخاذ قرار بعودة كوكس الى بلاد ما بين النهرين

للشروع بنظام جديد • وان حكومة صاحب الجلالة البريطانية تعدّ ذلك أمراً ملائماً على وجه خاص ، فالرجل الذي وضع اللبنات الأولى في صرح (الادارة المدنية) ، يجب أن يشرف على المراحل الاخيرة في البناء • لكنها لا تغفل العمل الممتاز الذي جرى بين الفينة والفينة ، وهو الذي أعطى الصبغة العملية الى تقدم أكبر ، وما يسعى اليه الآن • انها لتستغل الفرصة لتنقل اليك الاعتراف الصادق وأقصى الامتنان على المقدرة الفائقة والحماس الشديد الذي شاع في نفسك ، وأنت صرّفت الأمر خلال السنتين ونصف السنة الماضية ، فحققت نتائج متسمة بالنجح الملحوظ على الرغم مما شاب هذا العمل من عسر واجهاد •

ليس زهواً ، أو رغبة في تطمين رغبة شخصية ، أن أعمد الى تثبيت هذه البرقية نصاً ، وإنما باعتبارها على ديمومة واتفاق الآراء السياسية الرسمية ، في بغداد ولندن دليلاً ، وذلك خلال فترة كانت أشد الفترات عسراً • وعلى الرغم من نجوم اختلاف في الرأي أحياناً ، وهو أمر طبيعي لا معدى عنه أبداً ، وصيرورة تبادل وجهات النظر بصدد أوجه معينة من القضايا التي تعالج مشبعة بالحياة أحياناً ، فإني شعرت ، خلال المدة التي استطالت الى نحو ثلاث سنوات ، ودأبت خلالها على مراسلة وزارة الهند مباشرة ، بأن مستر مونتاكيو كان عاطفاً معواناً شخصياً وان وزارة الهند كانت ، بذات كل من سر آرثر هرزل ومستر (ثم السر) جون شكبره عوناً على المواءمة بالنسبة للقضايا المعسرة المتعلقة بدوائر أخرى ، وما استطاعا الى ذلك سبيلاً • لقد مكّنت من كل ما احتاج اليه من إسداء رأي وسلطة حقاً ، وباعتباري رجلاً عاملاً في العراق ، كما سمح لي بحرية التعبير عن الرأي ، وعلى الوجه الأشد الأقوى • ولا أتذكر حادثاً مهماً وقع خلال السنوات الثلاث الأخيرة ، أو خلال ، في الحق ، السنوات الثلاث التي سبقتها وأنا قائم بالعمل نيابة عن سر پرسي كوكس ، خلالها ، وشكت منه

الادارة المدنية أو اتخذت قراراً مغايراً لما تراه وزارة الهند بشأن القضايا الداخلة في ولايتها • إن المشكلات التي تعذّر حلها هي التي نجمت عن التأخير أولاً في اصدار بيان واضح عن نوايانا ، ايماناً بأن « الشرق يستطيع عليها صبراً » • ثم عن اخفاق وزارة الحرب وممثليها في (بلاد ما بين النهرين) (وعلى ما هو مبيّن في الملحق التالي) في تزويد أنفسهم بما يتفق مع الأحوال الطارئة على الوضع السياسي • لم يزر بلاد ما بين النهرين سر آرثر هرزل كما لم يزرها مستر شكبره ، كما لم يزورا بلاد فارس أو الخليج العربي لكنهما كانا يدركان « جوهر ما يؤمل ، ومظهر ما خبيء » مما يجعل مذكراتهما الرسمية أكثر وثوقاً بها ، وأقوى إيضاحاً من مذكرات الخبراء بالشؤون العربية عموماً • لقد استبانوا مشكلاتنا بتجرد تام بالنسبة الى مشكلات البلدان المتاخمة ، وما كانت معلوماتنا عنها إلاّ معدومة ، أو لعلنا لم نكن نعرف عنها إلاّ قليلاً • وكانا عاطفين دوماً وما كانا منتقدين إلاّ نادراً ، إن وجد نقدهما حقاً ، كما ان مكاتيبهما الشخصية ، وهي على درجة كبيرة من الندرة ، كانت مثيرة ، باعثة فينا حافزاً • وكانا في خاتمة المطاف قادرين على إدراك ما يتخذه رؤساؤهم السياسيون من قرارات • كما كانا من الجهة الثانية ماهرين في تمثيل رأي العامة محلياً أمام الوزراء المسؤولين • لقد كان اللجام في أفواهنا ولكننا لم نحس بمفصله الوسط •

وكان الجهاز المولج بأمر الاراضي المنتدبة ، على ما بيّنت ، متعثراً ، وبالوراثة عاجزاً • لقد جعل هذان الرجلان ومن في إمرتيهما هذا الجهاز سائغاً وحالا دون أن ينهار تماماً •

وإثر هذا الانحراف القصير عن صلب الموضوع ، وقد يفيد في اظهار الصلات الشخصية القائمة بين الوزراء المسؤولين في (وايتهول) ومن في بغداد ، على التوالي ، لا معدى عن العودة الى الوضع القائم في بغداد

خلال الاسبوع الثاني من حزيران ٭ ما زال الشهر شهر رمضان وفيه تثار الأحاسيس الدينية بين المسلمين الى حد ما ، وهم ، على وجه أخص ، يعانون من جرائه في عزّ الصيف ، رهقاً ينتاب أعصابهم ومزاجهم، لذا قررت إرجاء اصدار البيان حتى نهاية هذا الشهر الاسلامي وأبرقت ما يأتي يوم الـ ٩ من حزيران الى وزارة الهند :

« سيصدر البيان على وفق ما ورد في برقياتكم المؤرخة بتأريخ الـ ٧ من حزيران ، في نهاية رمضان ، أي في حوالي الـ ١٨ من حزيران ٭ انه سيطلق احتجاجات قوية من قبل المتطرفين الذين يطالبون بالاستقلال التام، وقد تنظّم مظاهرات أُخر ٭ أقترح أن يجابه الوضع باقتراح مآله شخوص وفد عراقي لا تزيد عدّة أعضائه على ثمانية ، يمثلون أرجاء البلاد كلها الى انكلترة ليعرض آراءه عليكم ٭ هناك ثمة سبب يحمل على الذهاب حيث ان هذا المقترح سيلقى ترحاباً ٭ وما أن يبدأ الوفد بالرحيل، أو يتقرر ذلك، فاني أعتبر ذلك إيغالاً منا الى أبعد حدّ مستطاع في المصالحة ، وعندما أشعر بالقوة التي تمكنني من اتخاذ إجراءات حازمة بازاء المنشقين الخارجين، ونفوذهم المتزايد يعدّ خطراً عاماً ، وهم الذين يلحّ عليّ متقدمو البلاد ، في طولها وعرضها ، بقمعهم كل يوم تقريباً، إن هذا سيثبّت قلوب المعتدلين وييسّر تشكيل حزب مركزي ، هو اليوم معدوم ، وتكون النتيجة وقوف المتطرفين وحدهم منعزلين » ٭

وأتبعت هذه ببرقية الى سر پرسي كوكس ، وكان قد غادر طهران الى لندن بطريق بغداد ، هذا نصها :

« أمامي توصية أجمع عليها السكرتير القضائي ، والسكرتير المالي، وحاكم بغداد العسكري ، يرجون فيها أن نمضي أياماً قليلة ببغداد ، نقابل خلالها سراتها ، قبل أن تعمد الى انكلترة سبيلاً ٭ لو لم يكن الشهر شهر رمضان لبادرت ، من دون تردد الى عرضها ، باعتبارها أولى الأشياء كلها،

لكنني سأضطر فيه الى القاء القبض على بعض البَرِمين في بغداد والنجف، ولعل في غيرهما أيضاً ، وأنفيهم جميعاً ، ومما لا شك فيه أن سيرسل المجتهد الأعظم في كربلاء احتجاجات شديدة ، ولعلها سترد من جهات أخرى أيضاً ، وليس من المستبعد أن تثور بغداد • لقد اتخذت جميع الاستعدادات لمجابهتها ، واننا جميعاً لمتفقون على أن إجراءً قوياً سيتخذ بشأن المتبرمين، وكلهم تقريباً من ذوي المكانة الضعيفة ، سيؤدي الى جلب المعتدلين الى جانبنا ، والى أن تطمئن القبائل بعامة الى أن التزامنا بتشكيل حكومة مستقلة تحت الانتداب البريطاني لا يعني بالضرورة تلاشي السلطة المشروعة، لتكون الحال فوضى عميمة ، وهي الفكرة الذائعة اليوم في المناطق العشائرية ، وقد زرتها خلال الأيام القلائل الماضية جواً •

لعل زيارتك لبغداد ، في مثل هذا الوقت ، ستحرجك عن طريق التزامك بشيء من الاسناد لمثل هذه الاجراءات • وعلى كل حال ، وبالنظر للرأي المجمع عليه بقوة ، أرى أن من الأفضل أن تتوقف هنا لأيام قليلة ، واني لأعدّ لها العدة » •

وبعد مراجعة سر پرسي كوكس حكومة صاحب الجلالة البريطانية وافق على هذا النحو • وكان أن وصل يوم الـ ١٨ من حزيران ، وفي اليوم العشرين منه ، واثر مراسلات أخرى جرت مع مستر مونتاكيو ، صدر بيان بتوقيعي نشرته الصحف وجاء فيه :

« إن حكومة صاحب الجلالة البريطانية ، وقد نيط بها الانتداب على العراق ، لتأمل أن يقيم الانتداب في العراق دولة مستقلة ، بضمان من عصبة الأمم ، وخاضعة الى الانتداب البريطاني الذي سيضطلع بتبعة المحافظة على الأمن الداخلي ، وسيطلب منها وضع القانون الاساسي بالمشاورة مع الشعب العراقي ، مع الاعتداد بحقوق ورغبات ومصالح طوائف البلاد كلها • سيحوي الانتداب نصوصاً تيسّر ابتعاث العراق باعتباره دولة تتمتع بالحكم الذاتي حتى تستطيع الثبات بنفسها ، وعندها ينتهي الانتداب •

وعهدت حكومة صاحب الجلالة البريطانية هذا الواجب الى السر پرسي كوكس ، ولذلك سيعود الى بغداد في الخريف ، ليعاود اشغال منصبه إثر انتهاء ولاية الادارة العسكرية بصفته الممثل البريطاني الرئيس في العراق •

سيخوّل السر پرسي كوكس دعوة مجلس الدولة برئاسة عربي ، ومجلس تشريعي عام يمثّل أهل العراق وينتخب من قبلهم مجدّداً ، وذلك باعتبار المجلسين هيئات وقتية• وسيكون من واجبه وضع القانون الأساسي الدائم بالمشاورة مع المجلس التشريعي العام » •

ونقل هذا التصريح الى مجلس العموم من قبل مستر مونتاكيو يوم الـ ٢٣ من حزيران • وادعى بعد يومين اللورد ايزلنكتن ، في مجلس اللوردين ، أنه صدر بالدرجة الاولى نظراً الى « الضغط الدائب الذي يتوقعه الجمهور والصحافة ، بحق ، خلال وقت مضى »• وبمقارنة الواردات التي جبيت في ولايات البصرة وبغداد والموصل خلال السنة التالية، وباعتبار الواردات المتأتية من الجيش والادارة المدنية ، استطاع أن يبيّن أن الواردات التي جُبيت ، على وجه التمام ، خلال سنة أظهرت ارتفاعاً مقداره ٤٣٧ بالمئة • وبإضافة ميناء البصرة والسكك الحديد والري الى ذلك طمأن نفسه بأن «المصروفات» ، قد ارتفعت الى ٤٩٠ بالمئة • وعلى هذه الأسس لم يجد إعساراً في الاستنتاج الذي ذهب اليه، ومآله أن الاضطراب السياسي مرده الرئيس الى الضرائب المرهقة ، وان هذا الشيء مازل • ثم أنه أنكر تصريح رئيس الوزراء القائل أنه لم يكن في الامكان اصدار البيان قبلاً• ولم يشر هو ، ولا من جاء بعده من الخطباء ، الى الوضع في سورية• وعزا (لورد سيدينهام) مصاعبنا الى الاتراك والبلاشفة • أما اللورد غوشن ، وهو الوحيد الذي زار العراق في سنة ١٩١٩ من بين الخطباء فقد أثنى ثناءً حاراً مستطاباً على ضباط الادارة المدنية ، إذ قال :

« انهم ينتشرون في صحاري بلاد ما بين النهرين كلها ، ويعيشون تحت وطأة ظروف أشدّ ما تكون إعساراً ، تكتنفهم الصعاب والأخطار ولا يعلمون عن مستقبل حكومة البلاد شيئاً . لقد كانت تدريباتهم وتنشئتهم مختلفة شتى ، لكنهم يرتبطون برغبة تنصبّ على ابتعاث البلاد التي يؤمنون بها ايماناً عظيماً .. إن ولاء هؤلاء الضباط الشباب وحماسهم ووحدة قصدهم، كل ذلك يؤهلهم الى حمد وشكران .. واني لواثق من أن أهل هذه البلاد لو علموا شيئاً أكثر عمّا يفعل هؤلاء لازداد ثناؤهم عليهم وعلا علوّاً كبيراً » .

وختم لورد كرزن المناقشة ، وهو من إذا تكلم في (مجلس اللوردات) جعل السامعين يفهمون أن (وزارة الخارجية) لا (وزارة الهند) هي التي تضطلع بالتبعة القصوى المتصلة بتصريف الأمور الادارية العراقية . ولو كان في وضع أفضل لاستطاع أن يبيّن للورد ايزلنكتن أن موارد الارض في سنة ١٩١٩ ــ ١٩٢٠ كانت أقل ، بوجه محسوس ملموس مما كانت عليه أيام الأتراك ، وان الكلفة باستثناء الميناء والسكك الحديد والري ، لم تكن بأكثر مما كانت قبلاً . ومهما كانت الحال عليه أن يعترف بأنه غير مزوّد بالأرقام المتصلة بهذه الأمور ، لكنه صرح بأن مردّ تأخير قضية العراق بالدرجة الأولى الى إنعدام الوقت في زخم من الاعمال الرسمية اللازم للدراسة والمناقشة والقبول من قبل الوزارة ، وكلها كانت ضرورية.وأضاف الى ذلك ان التصريح نفسه كان مرتكناً الى تقارير (لجنة بونام ــ كارتر) « وهو ما كان موجوداً مطبوعاً أيضاً طوال شهور » . وادعى أن حكومة صاحب الجلالة البريطانية لم تتخل شعورياً عن المبادىء التي أقرّتها فيخلال سني الحرب الأولى ، وان التأخير في وضعها موضع التنفيذ يردّ الى أسباب ، سبق شرحها ، على ما كانت عليه ، منصبّة على إقامة نمط من أنماط الحكم الذاتي يقبل به الشعب العراقي ويرضى . ثم قال « ليس من بيان أحب الى قلوبنا من هذا الذي يعبّر عن الرأي العام الأصيل ويحبّذ

نظاماً معيناً ، أو حتى حاكماً معيناً » • وختم اللورد كرزن كلامه مؤكداً أن الوجهاء المحليين لا يميلون الى تسلّم السلطة الاجرائية خلال الفترة الانتقالية •

قال : « إن كل من يعرف عقلية الشعوب الشرقية ليقدر ، على الفور ، أنها توازن في عقولها ما يحتمل أن يحدث لها • إن أبناءها لا يتقدمون الى معونتنا وان حجتهم كانت : « لنفرض أننا نبقى على التل الآن ويبقى البريطانيون مكانهم ، فهم كرام ذوو عفو • ومن الجهة الأخرى لو ملنا اليهم الآن فان الاتراك ، إن عادوا ، أنزلوا بنا عقاباً غليظاً » • ذلك ما حدث في واقعة الكوت حقاً ، على ما يعرفه كل من قرأ قصة عقوبات الاعدام التي نفذت في أهلها التاعسين ، بعد أن اضطررنا الى إخلائها • انه الخوف الذي كان يساور نفوس السكان ويملؤها رعباً » •

لقد كان عرضاً قوياً لحقائق الوضع في العراق ، وكان في الامكان أن يصاغ بشكل أشدّ تأثيراً • لم يذكر طبيعة المكائد الشريفية التي كانت معين مشكلاتنا ومصدرها ، ولم يشر الى المشكلات المتعلقة بالمحافظة على المركز الذي سعينا الى خلقه في فارس بموجب الاتفاقية الانكليزية ــ الفارسية سنة ١٩١٩ • وذلك كله على الرغم من ان مصروفاتنا العسكرية في فارس خلال سنة ١٩٢٠ خمّنت بـ ٥٫٠٠٠٫٠٠٠ من الجنيهات •

لقد أوردت أقباساً من هذه المناقشات البرلمانية لما كان لها من أثر قوي في الوضع العراقي • ولقد تابعتها بعناية عظمى ، وعمدت الى طبعها ونشرها الى أبعد مدى ، باعتبار ذلك أفضل ترياق شاف بالنسبة لآراء بعض صحف لندن •

وإثر مناقشة جرت مع سر پرسي كوكس ، أصدرت يوم الـ ٢١ من حزيران بياناً ، كنت قد أشعرت به مستر مونتاكيو قبل ثلاثة أيام ، أبيّن فيه ان الحكومة البريطانية المسؤولة عن المحافظة على الأمن الداخلي والنظام

في العراق ، لا تنوي سحب أية قطعة من قطعاتها ، بل على النقيض من ذلك ستبقي (قوة) كافية للنهوض بواجباتها •

كنت آمل ان هذا (البيان) سيوقف قادة الوطنيين عند حد ، ولا يبقي ضرورة ما لاجراءات قمع وصدّ • لكنه خاب في إدراك القصد ، إذ أفلتت الحركة من أيديهم • وكان ان اجتمعوا كرّة أخرى ليكرروا مطلبهم القائل بوجوب دعوة المجلس العام ليقرر ، وكأنه حق ، مستقبل العراق • وكانت هذه آخر مرة ظهروا فيها كجبهة واحدة • ثم غلب بينهم الشقاق وازداد • إن تطور الاضطراب العشائري السريع جعل أكثرهم اعتدالاً يعتزل • وقد روّعت هؤلاء النتائج التي ستسفر عن زعازع أثاروها وأفلت زمامها من أيديهم • إن إدعاء المندوبين ، حتى عندما كانوا متحدين ، بتمثيل العراق ، لم يكن على وجه غير متهم • لقد استنكر أعضاء المجلس الاداري في البصرة يوم الـ ٢٢ من حزيران فعلهم بالاجماع ، وأفصحوا عن ثقتهم بالحكومة البريطانية (كذا) • وبذلك محاولات في العمارة لدعم مضبطة تدعو الى الاستقلال ، فلم يوقّعها أحد ، وأعيدت • وما كانت الموصل ممثلة أيضاً • وكانت للبيان الآخر الصادر في اليوم الـ ١٢ من تموز فائدة ، هي تنشيط العناصر المهملة ، واتخاذ العدة لاجراء مباحثات مباشرة تتصل بقانون الانتخاب التركي ، وهو الذي اعتبر غير قابل للتطبيق بالنسبة للأوضاع القائمة وكان البيان على الوجه الآتي :

« خوّلت حكومة صاحب الجلالة البريطانية (وكيل المفوض المدني) دعوة متقدمي ممثلي الأماكن المختلفة للتعاون مع الادارة المدنية على وضع مقترحات يجري في ظلها الانتخاب للمجلس العام ، في الوقت المناسب ، واتخاذ الاجراءات اللازمة في المناطق الانتخابية ، وإعداد سجلات الناخبين وما الى ذلك من أمور تتصل بانتخاب المجلس العام بالدرجة الاولى• وبالنظر الى وجود أشخاص في العراق كانوا يمثلونه في مجلس الاعيان التركي أو

مجلس المبعوثان التركي وهم ذوو خبرة بالقضايا المتعلقة بالانتخاب ، وبمناقشة القضايا العامة ، فلقد تمت دعوة هؤلاء الاعيان والنواب السابقين من قبل (المفوض المدني) للغاية المذكورة آنفاً . ستدعى اللجنة الى انتخاب رئيس من بين أعضائها ، والى دعوة أعضاء اضافيين من مناطق غير ممثلة الآن ، بسبب وفاة من كان يمثلها سابقاً ، أو لأسباب أخرى ، وذلك بالاضافة الى المناطق غير الممثلة الآن » .

وكان من بين النواب السابقين أبرز شخصية في البصرة ، ولعله أبرز شخصية في العراق ، وأعني به السيد طالب باشا ، الابن الأكبر لنقيب البصرة . لقد عاد الى وطنه في شباط سنة ١٩٢٠ بعد أن قضى سني الحرب ، في نفي اختياري في الهند ومصر . إن شهرته متأتية الى حد كبير عن التصميم الذي إتسم به سعيه في سبيل إدراك مقاصده السياسية تحت ظل الحكم العثماني ، لكن مما لا شك فيه أنه برز قبل الحرب كناطق معبّر عن الأماني الوطنية . وكان الحزب في سورية ينظر اليه على هذا الوجه . ومنذ عودته ، لم يدع فرصة تفلت من بين يديه إلاّ عبّر فيها عن اعتقاده بأن مصلحة العراق تعتمد على قبول الانتداب البريطاني . لذلك لم يتردد هو ، كما ولم يتردد نواب البصرة السابقون ، وغيرهم ، في قبول الدعوة . كما أن نواب بغداد السابقون لم يرفضوا الحضور في (اللجنة) ، وذلك على الرغم من أن اثنين منهم سبق أن وقّعا المضبطة في اليوم الثاني من حزيران باعتبارهم مندوبين .

وعقدت (اللجنة) جلستها الأولى في اليوم الرابع من آب ، وبعد أن افتتح (المفوض المدني) جلساتها رسمياً انتخبت السيد طالب النقيب باشا رئيساً لها . وفي الجلسة التالية المعقودة في اليوم التالي شرعت بانتخاب أعضاء جدد ، بضمنهم يوسف أفندي السويدي والسيد محمد الصدر وغيرهما من متقدمي الفكر . أما وقد تشكّلت اللجنة على هذا الوجه فلا يمكن اتهامها بأنها لا تمثّل كل نمط فكري .

ورفض زعيما المندوبين الدعوة ، وعلم ، في الوقت نفسه ، أنهما ينويان الطلب الى عامة بغداد لتقيم (المولد) في أحد الجوامع الرئيسة ، ثم يأتي في أعقابه مظاهرة تسير في المدينة . لا يمكن أن ينجم عن مثل هذا إلاّ الاضطراب الخطير والعنف ، لالذلك صدر الأمر بالقاء القبض على أربعة منهم .

واستطاع الجميع ، فيما خلا أحدهم ، الافلات ، والهروب من البلاد ، لكن قرار القاء القبض ، مصحوباً ببيان يمنع إقامة مواليد أخرى ، أعاد بعض الثقة الى النفوس . وكان لاحتلال الفرنسيين دمشق وحلب ، يوم الـ ٢٥ من تموز ، وسقوط الحكومة الشريفية في سورية تأثير كبير . لقد أدى ذلك الى قطع المنح التي تجود بها خزانة صاحب الجلالة البريطانية على الوطنيين الأحرار في العراق .

وقبل أن يغادر سر پرسي كوكس بغداد لخّص الوضع في رسالة بعث بها الى وزارة الهند (يوم الـ ٢٣ من حزيران) وكانت على الوجه الآتي :

« إني لأتردد في الافصاح عن رأي ثقة ثبت إثر زيارة سريعة جاءت في أعقاب غياب استطال ، لكن الوضع معسر جداً ، ما الى الشك في ذلك من سبيل ، وليس في الامكان أن يتبيّن الانسان ما سيحدث ، إلاّ خلال أسابيع قليلة . إن الضرورة الملجئة تقضي بالسيطرة عليه ، وتفادي أية ثورة خطيرة قد تنجم في الأقاليم خلال الأشهر الثلاثة أو الاربعة القابلة ، واتخاذ الاجراءات ، في الوقت نفسه ، لكي يظهر المعتدلون في الميدان ويقفوا في صفنا ، فيحال بين توحيد كلمتهم وكلمة المتطرفين . ولإدراك هذا الهدف لا معدى عن أن تعطى لهم مادة للبحث على استعجال ، وكدليل على حسن نوايانا بشأن الغايات الدستورية . وينعقد الأمل على ان البحث في قانون الانتخاب هو الذي يهيىء ذلك . فإن لم يكن كافياً (وهناك اتجاه غام نحو رفض قبول الانتداب) فاني أرى أن السبيل الوحيد هو السماح لوفد

بالشخوص الى لندن • فإن كانت حكومة صاحب الجلالة البريطانية توّاقة الى تفادي هذه الحال المفاجئة كبديل وجب أن تقطع وعداً بزيارة يقوم بها وزير الخارجية في الخريف للتحري ، أو لجنة تنوب عنه في ذلك •

إن المتطرفين اليوم قلة ، لكن جميع العناصر المتبرّمة والرجعية تجنح اليهم ، فإن تعذر قمع هذه العناصر ، في الوقت الحاضر ، عن طريق اجراءات توفيق ، وظهرت عليها امارات إثارة الاضطرابات ، فلا أرى غير الاجهاز عليها في المهد واصطناع أساليب قمع • ستصبّ كل محاولة لتجنّب ذلك في بغداد ، ولكنها قد تكون ضرورية في الأقاليم » •

وبعد أيام قليلة انتشرت قلاقل عميقة في الفرات الأوسط وديالى، ولو كانت ترتيباتنا العسكرية أشد فعّالية ، لأمكن قمعها • وفي الفصل التالي سنظهر كيف نجمت هذه الاضطرابات ولِمَ كان الفشل في قمعها •

وقبل أن نختتم هذا الفصل لعل من الجدير أن أعرض الى محاولة قمت بها بعد رحيل سر پرسي كوكس ، وانصبّت على الانصال الشخصي ببعض القادة قبل إصدار أوامر القاء القبض • كان من الضروري كتمان أمثال هذه المفاوضات ، فثقة الناس بالقادة كانت ضعيفة ، وكانوا يعلمون أن أي شك يساور أشخاصهم بسبب من هذا الاتصال، سيسفر عنه رميهم بالخيانة• أما العنصر الطيب (كذا) من الجهة الأخرى ، فعلى الرغم من أنه لم يكن قادراً أو راغباً كشأن «المعتدلين» في العالم طرّاً ، أي التورط بالأمر أو ممالأة سياسة الحكومة قلبياً ، إلاّ أنه لم يكن ينظر إلاّ نظرة الشزر الغاضبة الى مفاوضات تجري مع القلة الثائرة • وجرى ترتيب عقد اجتماع عند منتصف الليل في مكان محايد — في دار صديق الطرفين : عبدالقادر باشا الخضيري • وشخصت اليه بحماية مراسل عربي يوثق به ، ولم يعلم بذهابي ونيتي غير شخصين آخرين • وكان هناك ثلاثة أشخاص هم على صلة وثيقة بالقادة الوطنيين • وجلسنا ، والقمر يسكب ضياءه في ركن

منعزل من شرفة تطلّ على النهر،وفي ضوء شموع احتسينا فناجين القهوة .

وإثر تبادل التحايا والمجاملات ، وحديث قصير دار حول السياسات الخارجية ، اتثنينا الى عمل الأمسية . وأصغى معارضيّ بتوق ، وبشيء من العطف الى توضيحاتي بشأن سبب التأخيرات التي لا تطاق ، والتي حدثت إبان السنوات العشر المنصرمة ، وعن عدم مقدرة حكومة صاحب الجلالة البريطانية على استباق قرارات عصبة الأمم بشأن الانتداب ، أو وضع مقترحات محدّدة قبل عقد معاهدة الصلح مع تركية .

وأجابوا : بأنهم يرون في كل ما قلته حقاً ، لكنهم أضافوا الى ذلك أن ثمة فجوة كبيرة بينهم وبيننا . وقالوا : ان العالم يعرف ان الانتداب لا يعدو أن يكون للالحاق والضمّ قناعاً . لقد قال الفرنسيون هذا ، وانهم يعملون على وفق هذا . لقد أنكرناه ، لكن ما نقوم به في فلسطين لا يتفق مع ما نحترف ، كما لم نثبت إيجابياً بأن إقامة حكومة وطنية في العراق هي نيتنا . إن المشروع الذي لخّصته لا يكفي ولا يرضي.وبالنسبة اليهم ، إن أي شيء غير الاستقلال التام للعراق هو كارثة ، ذلك لأنه ينطوي على قبول مشروع مماثل للمشروع الذي هو تحت اشراف الفرنسيين في سورية ، وانهم ليشكّون بالفرنسيين أكثر من شكهم بالبريطانيين .

وكان أن حذّرتهم من أن حكومة صاحب الجلالة البريطانية قد تجد نفسها مضطرة ، الى المحافظة على النظام ، أو إعادته الى نصابه ، بالقوة العسكرية . ورجوتهم أن يدركوا ما سيسفر عنه الأخذ بهذه السياسة من دم مسفوك. وكان جوابهم أن ذلك أقل سعر يشترى به الاستقلال.فأجبتهم بأن الثورة قد تؤخر تحقيق ما ينشدونه لمدة عشر سنوات . وأجابوا من دون إكتراث ، وباعتبار ذلك من العرف السياسي ، ان الحرية بين الأمم لا تعطى ، وإنما تؤخذ ، وان الثورة ، سواء نجحت أم لم تنجح ، ليست هي السبيل الأفضل لإشاعة الحرية حسب ، بل هي سبيلها الأوحد . ثم جاء في

مختتم حديثهم : « إن أمم اوربة تخضع للقوة دوماً ، فلقد خضعت بريطانية العظمى في قضية افغانستان(٦) ، وانها لتضعف في مصر(٧) ، كما أنها لتخضع حتى في الهند ، وستخلي السبيل في ايرلنده ، في النهاية » •

وكان آخر ما قالوه : « لقد أرهقت الحروب الأمة البريطانية ولن تجود بضحايا أخرى ، وما أن يمنح الانتداب وتقرّ شروطه إلاّ سنهتبل كل فرصة للحصول على الاستقلال التام ، ولن نرضى بغيره بديلاً ، إذ ليس من شيء يساويه أبداً » •

وذكّرتهم بأن الانتداب وحده هو الذي يقف بينهم وبين استعادة تركية وضعها السابق في العراق ، فلم يعر أحدهم هذه الملاحظة اذناً صاغية، ولكن أحدهم بيّن أن الاتراك ، بعد كل شيء مسلمون وانهم على استعداد، وفق شروط الميثاق القومي الصادر في أيلول سنة ١٩١٩ لاعطاء العراق الحكم الذاتي • هذا وبعد ساعتين من النقاش الذي جرى في جو من المجاملة وضبط النفس ، وعلى النحو هذا ، تبيّن أن من المستحيل التوصل الى حل وسط • وكان أن ختمت كلامي بتطمينهم بأننا سنعمل كل ما في قدرتنا للمحافظة على النظام • فأجابوا : ان القطعات والقادة جميعاً ، هي اليوم في فارس ولا سبيل لعودتها ، وان الشرطة والشبانة (الليفي) لا يوثق بها (وفي هذه النقطة تبيّن أنهم على خطأ تام) ، وان السكة الحديد الصاعدة بمحاذاة

---

(٦) كانت بعثة افغانية في هذا الوقت في سملا وبرئاسة محمود بك طرزي وعرف أنها تقف موقفاً عنيداً • (المؤلف)

(٧) كان زغلول باشا قد وصل الى مرحلة التفاوض مع حكومة صاحب الجلالة البريطانية • (المؤلف)

الفرات يمكن قطعها ، عندما يصدر الأمر بذلك ، وان النقل النهري يعرقل. (ولقد صحّت النبوءة الأولى . أما الثانية فلا .) .

وافترقنا في جو من الحفاوة . وورد عليّ في صباح ذلك اليوم تقرير الشرطة المعتاد وهو يحتوي على أسماء الشخصيات السياسية التي غادرت بغداد عند منبلج الفجر ، وبضمنها أسماء أصدقائي الثلاثة ، أصحاب الليلة الماضية . ورأيتهم ببغداد بعد أربع سنوات ، وما كان ثمة حاجة لنسأل بعضنا بعضاً أين التقينا أخيراً .

* * *

الفصل الثامن والعشرون

الوضع العسكري في سنة ١٩٢٠

> **ولكن ، من الذي يأمر بوقف الرمي في ثورة هوجاء ؟• لا سبيل الى مخاطبة ثورة لا تسمع حديثك •**
>
> كارلايل (الثورة الفرنسية)

لفهم سير الأحداث في بلاد ما بين النهرين لا معدى عن أن يتذكرها المرء ، على تتابعها الزمني وعلى ما تناهت الى من بيدهم مقاليد السلطة • وان قوى القدر المحتوم كانت تمضي قدماً وتسوي الارتال على جبهة عريضة • ومما يجهد المؤرخ متابعة الأفعال في ميدان الحركات هنا وهناك لذلك تجده تاركاً التطورات التي لا تمس ما يُعنى به الى سرد تال •

لقد أشرت ، فيما مضى ، الى المقدرة على التنظيم ، والعطف الشامل، اللذين ما زال سر جورج ماكمن ولفّا بشملتيهما مشكلات ما بين النهرين، وهي لا تعد ولا تحصى • فما أن عيّن في شباط سنة ١٩٢٠ لإشغال المنصب الخطير : (مدير الميرة في الهند) إلاّ اختار المستر ونستن شرشل الفريق سر المستر هولدين لمنصب القائد الأعلى في بلاد ما بين النهرين • وهو الذي استطاع أن يحصل له ، عندما كان مرافقاً لسر ويليم لوكهارت

سنة ١٨٩٨ ، على منصب عسكري ، من دون معاش في هيئةالاركان وساعده على النجاة من الأسر⁽¹⁾ .

وقبل أن يصل الجنرال هولدين خلال الاسبوع الثالث من آذار ، والصيف قد بدأ ، كان الجنرال ماكمن قد غادر الى الهند ، وبذلك حُرم الجنرال هولدين من النفع الذي يتأتى من محادثة شخصية محلية تتناول المشكلات العسيرة ، التي وقف سلفه على كل وجه من وجوهها ، خلال السنوات الثلاث المنصرمة ، وقوفاً شاملاً تاماً . وكان سر ويلمر هولدين لدى تعيينه ، محالاً على قائمة نصف الراتب ، ويبلغ من العمر ٥٨ سنة ، وبذلك كان أسنّ القادة الذين عملوا في بلاد ما بين النهرين جميعاً ، منذ أيام سر پرسي ليك . وكانت صحته أبعد ما تكون ، لياقةً ، كما كانت خدماته السابقة مع قطعات بريطانية كلها ، على حين كان ٩٠ بالمئة من القطعات في بلاد ما بين النهرين هندية . وكان الوضع الاداري معقّداً ، والوضع السياسي دقيقاً . وكان كلا الوضعين يتطلب خبرة خاصة وصفات ، ما كانت لدى القادة العاملين السابقين معدومة .

وكان سر الر هولدين ، في إدراك طبيعة الواجب المُقدم عليه بطيئاً . وفي الصفحة الخامسة من كتابه الموسوم بـ (القلاقل والاضطرابات في بلاد ما بين النهرين سنة ١٩٢٠ : (Insurrection in Mesopotamia, 1920) كتب يقول : « لم تكن لديّ فكرة ، حتى هذا الوقت ، (أي خلال سفرته البحرية الى البصرة) ، عن النظام الذي كنا نحكم بموجبه (بلاد ما بين النهرين) ، إذ لم أقدر على الحصول على معلومات كثيرة عنها ، لكن المعلومات المطلوبة كانت في (وزارة الهند) ميسورة ، غير أن حب الاستطلاع

---

(1) Haldane, A.L. How we espcapedfrom Pretoria, 1900. p. 31; also W. Churchil My Farly Life. 1930, p. 17.

لدى الجنرال هولدين ، على ما يتراءى لم يكن قوياً لجوجاً(٢) ذلك أن رحيله قد تأخر فكانت عنده فرصة معقولة لدراسة الاضابير • انه لم يكتشف وجود (ميناء) في (نهر عمر) إلاّ بعد نزوله بأشهر • انه الميناء الكائن شمالي البصرة ، وحيث مرسيان من مراسي البحر العميق و١٨ من المسنايات الواسعة ، ومقر (دائرة النقل المائي الداخلي) ، قد أنشئت جميعها قبلاً •

كان الوضع العسكري الذي يجابهه من أشد الأوضاع إعساراً • وكانت عدة القوة (باعتبار الجراية) التي في إمرته : ١٣٣٠٠٠ ، ولم يكن المحاربون منهم إلاّ ٤٧٠٠٠ ، وكان البريطانيون من بين الاخيرين : ٤٢٠٠ والهنود ٣٠٠٠٠ وهم مستعدون للعمل في بلاد ما بين النهرين ، أما البقية فكانوا في فارس ، أو مرضى ، أو على الطريق • ومن بين آحاد هذه القوة الضئيلة كانت عدة المدفعيين ٤٧٠٠٠ ، وليس هم بذي خطر بالنسبة الى المحافظة على الأمن الداخلي المدني • لذا كان لديه ٢٩٥٠٠ من المقاتلة من بينهم ٢٩٠٠ من الخيالة و٢٩٠٠ من المشاة البريطانيين والهنود • ونيطت به حراسة نحو ١٤٠٠٠ من أسرى الحرب الاتراك كانوا يستنزفون الشطر الأكبر من لواء المشاة • لقد تكرر الطلب الى وزارة الحرب بشأن نقلهم الى مكان آخر ، لكنها أبانت بأنها لا تستطيع الى ذلك سبيلاً ، حتى يعقد الصلح مع تركية أخيراً • ثم كان أن أرسلوا ، عبر الهند ، في آب سنة ١٩٢٠ الى القسطنطينية ، وكان الأجدر أن يرسلوا اليها قبل سنة •

---

(٢) ان هذه الوجهة اللا ابالية لدى الجنرال هولدين لها نظير • فلقد اكتشف المستشار العسكري البريطاني للحكومة العربية مصادفة في حزيران سنة ١٩٢١ ان لواء السليمانية لا يقع في فارس وانما يدار من قبل موظفين بريطانيين •   (المؤلف)

وكانت ثمة ذخائر حربية ، من أشكال مختلفة ، وبضمنها كميات كبيرة من الاعتدة لا تزال موجودة بعهدة عسكرية • وكانت (لجنة التصفية) قد اتخذت جميع الاجراءات اللازمة بشأن الذخائر الفائضة في لجنة المبايعات وصنف عينة الجيش الملكي • ولكنها سوّفت الى حد ما في شحن بعض المواد غير المطلوبة الى خارج البلاد • وكانت هذه الاكداس بحاجة الى حراسة بكلفة سنوية كانت ، على التحقيق ، أزيد من قيمتها • يضاف الى ذلك كله ، أنه كان على الجنرال هولدين أن يجابه الوضع العسير الناجم عن وصول نحو (٥٥٠) امرأة بريطانية ، هن زوجات الضباط والجنود البريطانيين ، ونحو ٤٠٠ من الاطفال الصغار •

لقد وصل هؤلاء تحت اشراف وزارة الحرب خلال كانون الثاني سنة ١٩٢٠ ، وكانت قد اتخذت التدابير اللازمة لاقامتهم على «التلال الفارسية» قرب (كرند) ، بموجب تخويل وارد من وزارة الحرب ، خلال الصيف المنصرم • وشعر الجنرال هولدين ان الأمر قد ذهب الى أبعد من المدى الذي يبرر الغاء مثل هذا الامتياز النافع • وكنت قد وافقت في حينه على الاتيان بهم الى بلاد ما بين النهرين آخذاً بنظر الاعتبار الاضطراب السائد في حينه لا يبلغ حداً بحيث يصبح وجودهم فيها أمراً سربكاً •

وكان أن أرسلوا الى (كرند) خلال شهري نيسان وايار وبقوا هناك حتى ايلول ، حين أرسلوا الى خارج البلاد تحت وطأة ظروف جد عسيرة •

إن طول خطوط المواصلات في بلاد ما بين النهرين نحو ٢٠٠٠ من الاميال ، وكان المحافظة عليها ، بالنسبة للمقاصد العسكرية ، أمراً ضرورياً • وكان هناك أيضاً نحو ٥٠٠٠٠ من اللاجئين الآشوريين والأرمن يحلّون في معسكر كائن في بعقوبة وفي غيرها • وكان هؤلاء قادرين على حماية أنفسهم من هجمات مفاجئة ، لكنهم كانوا ، الى حد ما عبئاً ثقيلاً • وعلى ذلك كان لدى الجنرال هولدين في اليوم الاول من حزيران قوة سيارة مؤلفة من

٥٠٠ بريطاني و٢٥٠٠ ــ ٣٠٠٠ هندي منهم فوج واحد فقط يستطيع أن يتخذ خلال ٢٤ ساعة الى منطقة الفرات سبيلاً • وكان الجنود البريطانيين كلهم تقريباً من المستجدين بالنسبة الى البلاد ، وما كانت لهم خبرة عسكرية سابقة • وما كانت السكك الحديد في هذا الوقت بعينه قادرة على نقل أكثر من ربع مجموع الاطنان التي تحتاجها القوة ، فسبّب ذلك اعتماد الجيش على خطي مواصلات منفردين ، هما خط دجلة وخط السكةالحديد• وكان لزاماً أن يحرس الخطان ، وكان كل منهما يتطلب ابقاء نحو ١٠٠٠من غير المحاربين بالإمرة العسكرية ، في كل من (دائرة النقل المائي الداخلي) و (مديرية السكك الحديد) على التوالي •

وقبل أن يمرّ شهران على الجنرال هولدين في البلاد احتل البلاشفة (انزيلي) وأصبح الوضع العسكري في شمال ــ غرب فارس خطراً مما اضطره ، بموجب تعليمات صادرة من وزارة الحرب ، الى تحويل فوجين من الجند البريطاني ، يؤلفان جزءاً من الحامية في بلاد ما بين النهرين الى (قزوين) الكائنة على بعد نحو ٤٠٠ ميلمن رأس السكة الحديد في(قوراتو) قرب خانقين • وألحّ عليه سر برسي كوكس وزير حكومة صاحبالجلالة البريطانية في طهران وقائد القوات العسكرية في شمال ــ غرب فارس بارسال المدفعية وقطعات أخرى من بلاد ما بين النهرين لتحقيق استقرار الوضع هناك • وكان من الواضح أنه يروم الذهاب الى قزوين ومنها الى طهران شخصياً ، ليرى الأمور بنفسه ويتحادث مع المسؤولين • ومهما كان من أمر ، فلقد اضطر على تأجيل زيارته بغية التحدّث مع نائب مارشال الجو سر جيوفري ساموند بشأن المقترحات التي كانت قيد الدرس وتدور حول قيام القوة الجوية الملكية بحماية بلاد ما بين النهرين • وتأخر وصول سر جيوفري ساموند على غير ما كان مأمولاً ، وأعقب ذلك بأيام قليلة رجوع صاحب الجلالة الشاهنشاهية السلطان أحمد شاه ايران الى بلاده عبر بلاد ما بين النهرين • إن السيارات الناقلة التي احتاجها جلالة الزائر

وحاشيته لا يمكن إعدادها إلاّ من الجيش ، وما كان من المرغوب فيه ، لأسباب شتى ، أن يسبقه سر المر هولدين الى قزوين وفارس . لذلك أرجأ زيارته الى فارس حتى اليوم الـ ٦ من حزيران .

وفي هذا الوقت بعينه ، أصبح الوضع السياسي في بغداد وفي غيرها ، مبعث الرعب ، لذلك ألححت عليه بأن يؤخر رحيله كرّة أخرى . ومهما كان من أمر ، فقد شعر ان التأخير الطويل الذي طرأ على القيام بزيارته التفتيشية لفارس يجب أن يستبق ، وأخذ ينظر الى الوضع في العراق نظرة التفاؤل ، بوجه لم أكن قادراً عليه . ولأسباب صحية كان بحاجة الى تبديل المناخ والمنظر ، وهو شيء تجود به « الهضبة الفارسية » . ويتجلّى من «كتابه» ان آماله ورغباته كانت تلف بشملتها حكم بصيرته . وما كان الضباط الاركان في شعبتي الحركات والاستخبارات ليشاطرونه التفاؤل ، شأنهم شأن قائد الفرقة ، لكن مطالعاتهم لم يؤبه بها .

وتناهت الينا ، لأول مرة ، في الـ ٢٦ من آيار ، تقارير قاطعة تفيد بوجود قوة شريفية على نهر الخابور ، بإمرة جميل بك المدفعي وهو الذي عيّنه الملك فيصل في منصب رفيع بأخَرَة . وجاءت ، بعد يومين من ذلك ، تقارير تفيد بوجود حركة عشائرية تتجه الى (الشرقاط) على دجلة ، وبزحف القطعات التركية على زاخو . وكانت الموصل مركز دسائس ومؤامرات دائمة ، يقوم بها الموظفون الاتراك بصورة رئيسة رعاية لمصلحة حكومتهم الخاصة . وما كنا لنعرف ان كان جميل بك عاملاً بالاتفاق مع الاتراك أم كان في عمله مستقلاً . وحذرنا النقيب بارلو ، الحاكم السياسي المحلي ، من أن ثمة اعتقاداً شائعاً ينصب على ان (تلعفر) هو هدف جميل . وأوصى الحاكم السياسي في الموصل بتلبية طلب النقيب بارلو للعون العسكري فألححت عليه في المقر العام . وكانت حامية مؤلفة من سرية واحدة تكفي ، ولكن لم يقم أحد بشيء . إن الحادث يمثل أصدق تمثيل شعار الفريق

هولدين ــ في التأني السلامة ــ . وأنفذت من الموصل سيارتان مسلحتان الى تلعفر متأخرتين نوعاً ما . وقبل وصولهما بقليل ، وفي اليوم الرابع من حزيران كان قد أطلق الرصاص على الضابط المسؤول عن الشبانة العرب وهو النقيب ستيورت وأردي قتيلاً في الشارع . أما مساعداه العريفان لولر ووكر فلقد قتلا بعد مقاومة باسلة بقنبرة ، وكان ذلك لدى وصول الوكلاء الشريفيين ، وكلهم من ضباط الجيش التركي السابقين ، وممن كانوا خلال السنتين الماضيتين في خدمة حكومة دمشق ، تدفع لهم من المنحة التي تجود بها خزانة صاحب الجلالة البريطانية . أما النقيب بارلو، الذي أُخذ أسيراً ، في الأمسية السابقة ، فقد استطاع الافلات من آسريه، لكنهم عقّبوه ، ورموه ، فخرّ صريعاً ، في مكان يبعد بمسافة ميلين من المدينة غرباً . ونصب للسيارتين المسلحتين كمين ، وأجهز على من فيهما وعدتهم ضابطان و١٤ جندياً .

كان هذا الاستثمار الدموي ، من فعل القوة الشريفية ومعاونة أهل البلدة ، وقد عوقبوا على كيدهم (كذا) بأخَرَة ، على أنه لم يكن عقاباً كافياً (كذا) ، وتمثّل بهدم بيوت الذين ارتكبوا ذلك . وغادر الموصل يوم الـ ٥ من حزيران رتل وصل (تلعفر) في اليوم التاسع ، وأجهز في طريقه على كثير من حاصلات كانت حامية الموصل معتمدة في إقامة أودها عليها. لقد طارد سكان (تلعفر) جميعاً ، المجرمين والأبرياء منهم على حد سواء ، لكنه لم يستطع أن يلحق بالمجرمين الفاعلين الجزاء .

ووقع حادث آخر في اليوم الـ ١١ من آب ، حين غادر رتل صغير مدينة الموصل ، فعثر على متمردين من شمّر على بعد ١١ ميلاً من المدينة.«وكان الحاكم السياسي يسير راكباً بحماية رعيل على مسافة ٣ أميال قدماً ، حين توقف بقية الرتل ، لئلا يعرف أمر وجود القوة بهذه السعة فيسبّب ذلك اخفاق المفاوضات » . (هولدين الصفحات ٢٣٢ ــ ٢٣٣ من الاصل) .

إن السبب لهذا الاجراء عسير الفهم ، عسر التراجع التالي للرتل (وقوامه: ٣ رعائل ومدفعان من مدافع الميدان) ، وفقدان ضابط بريطاني لم يذكره الفريق هولدين ، وذلك أمام عشيرة عدة خيامها نحو (٧٠) • وكنت أستبق احتمال تكرار التعبية التي التزم بها رمضان شلاش ، وأصاب فيها نجحاً • وأكدت طلب (تلعفر) لحامية صغيرة تسند الشبانة البلدية • ولم يشعر الفريق هولدين ، ولا سلفه ، أنهما قادرين على تلبية رجائي • لقد كان كل منهما يشعر بأن وضع حاميات صغيرات متناثرات في البلاد أمر بجانب الصواب ، لكنهما يفضلان المحافظة على القوات الميسورة ، باعتبارها قوات سيارة • وعلى ذلك كنا معرّضين الى ملمّة لن ينجو منها الضباط السياسيون ولا ضباط الشبانة العاملون في المواضع الخارجية • لقد أثنى هولدين على بسالتهم الرصينة التي تجلّت في كل واحد منهم ، من دون استثناء في (كتابه) وكان ثناءً سخياً مستطاباً استحقوه جزاءً وفاقاً • وكان الرهق الذي حلّ بهم عظيماً وكان عليهم تحمله حصراً • لقد واجهوا الموت وكأنهم يواجهون الحياة • لقد وقفوا في أماكن منعزلة ، وما كان ذلك في سبيل بلادهم حسب ، لكن وقوفهم كان في سبيل مبادىء العدالة التي ، وسيعلم العالم ذلك كله في يوم من الأيام ، فاقت مبادىء الجنسية • ومن بين الشعوب البربرية (كذا) التي كان عليهم التعامل معها حفظوا اسم انكلترة الطيب (كذا) وخلقوا تقاليد من الاستقامة والاخلاص في الواجب خدمة الدولة الجديدة أجلّ خدمة •

وفي الـ ١٩ من حزيران عاد سر المر هولدين من فارس إثر رجاءاتي الصميمية ، فقد ألححت عليه أن يطلب النجدات • كان يرفض ذلك في حينه واني لأقتبس أقواله نصاً :

« ولما لم يكن لديّ ما يحملني على الاعتقاد بأن العشائر آخذة بالتجمع ولم تكن لديّ فكرة عن أن نظامنا في الحكم هو الذي يدفعها الى

ذلك ، وان معبد جانوس(٣) بلندن لن يفتح الأبواب إلاّ بعد أن تأزف الآزفة ، لذلك بقيت ملتزماً جانب التفاؤل • يضاف الى ذلك كله ، أني ، على ما بيّنت آنفاً ، لم أكن شديد الثقة بما كان يردني من تقارير ضخمة(٤) لا أنقطاع لها أبداً • ولو قدّر لنا أن نفقد سكة حديد الفرات حيناً من الدهر فلدينا خط دجلة للمواصلات ، ولا سبيل الى قطعه أبداً • ولو عمدت العشائر الى قطع السكة الحديد لعانى القوم ببغداد كثيراً فاليهم تعزى الاضطرابات حصراً ، ولعانى أهلها من جراء ذلك رهقاً شديداً • وسيطلب الى بواخرنا الماخرة عباب (دجلة) القيام بنقل المؤن اللازمة لاطعام قواتنا • فتكون لدى المتطرفين حجة قوية يتقدمون بها الى العشائر ، شريطة ألاّ يفلت الزمام من أيديهم ، وعلى ما حدث فعلاً بعد ذلك بأمد قصير • ومما كان يحول دون الحصول على قوات إضافية علمي أن ما يراد مني هو إجراء الخفض في القطعات الموجودة في إمرتي في الخريف المقبل ، وان مقدار هذا الخفض المرتقب : لواء مشاة ووحدتان من وحدات الخيالة البريطانية» •

كان الزعم الذي ينطوي على ترقّب اضطراب الملاحة في دجلة سيقف في طريق القادة الوطنيين أو يثير الصعاب لجماهير السكان المدنيين • لقد كانت ثمة مؤن كافية من البضائع المستوردة في بغداد ، وما كان قادة

---

(٣) في الاصل : Tample of Janus وجانوس من الآلهة الرومانية القديمة وهو آله الأبواب عندهم وعلى ذلك فهو آله البداية وكان يمثل بوجهين متقابلين وانك الآن أمام أمرين : أحلاهما مرّ وخيرهما شر •
(المؤلف ــ القائد)

(٤) يتخذ الجنرال هولدين دريئة لوجهته خطاب ورد من الآنسة بيل ، لقد كان ذلك ، على أقل ما يقال يجانب الحصافة والسداد ، حين فضّل أخطاء شخصية ارتكبتها على هواجس مقدرة ومدعومة بتقارير واردة من المراكز كلها قدمها رئيسها الرسمي • وعندما حاسبت الآنسة بيل على كتابة مثل هذا الخطاب اعترفت بذنبها وأضافت ، وهي صادقة مخلصة من دون شك ، انها نسيت أن تكتب أي شيء عن الموضوع •
(المؤلف)

الوطنيين أو العشائر ليراودهم أي اشفاق من أن فعالياتهم ستخرج سكان المدن وتربكهم •

وبصرف النظر عن هذا فان التفسير الذي اعتاد سر المر هولدين أن يفسّر به التي كانت تصل من الحكام السياسيين المولجين بإدارة الالوية يومياً بأنها تختلف مما كنت أراه ويراه قادة الفرق وضباط الاركان الرئيسيون ، كان في الحق مبعث حرج كبير إليّ شخصياً•

لقد عرضت عليه ، مطبوعاً ، كل خطاب خطير جاء خلال السنوات الثلاث الماضيات من وزارة الهند الى بغداد ، أو بالعكس ، مشفوعاً بنسخ من التقارير الادارية والتعليمات الصادرة الى الحكام السياسيين مما يتصل ولو عرضاً ، بالوضع ، سياسية كانت أم كانت عسكرية • ومهما يكن من أمر ، لم تكن لديه الخبرة العملية المتجمعة التي كانت لدى أسلافه ، ولا أستطاع أن يقابل أكثر من قلة من الحكام السياسيين المستقرين في مراكز نائية ، وما كانت مقابلته لهم لتستغرق إلاّ دقائق قليلة • إن (كتابه) ليجلي رأيه فيهم ، وبأنهم « في الغالب مستجدون » ، لكن من اعتمدت عليهم ، على الرغم من ذلك كانوا من دون استثناء رجالاً ذوي مكانة عالية، متحلين بخبرة طويلة في مناطقهم الخاصة • وفي الحق ، انهم كانوا من الخبراء جميعاً ، وعموماً اصطفوا للدأب على الخدمة بوصفهم مستشارين في العراق، أو عادوا الى المسالك التي جاؤوا منها ليشغلوا فيها مناصب أعلى •

وجرى توقيف عدد من الناس في كربلاء والحلة ، خلال الاسبوع الثالث من حزيران ، وبضمنهم ميرزا رضا محمد ، نجل المجتهد الأعظم في كربلاء • وقبل اتخاذ هذا الاجراء ، على كل حال ، وردت تقارير من مراكز شتى تظهر أن القادة المسؤولين ريعوا من نماء اضطراب العشائر • لكن دفع الضرائب قد عاد وبلغت حصيلتها ، في نهاية حزيران ، حصيلة السنة ١٩١٩ نفسها • وما كانت هناك جباية قسرية ، كما لم يكن ثمة ضغط معتاد

يصطنعه الحكام السياسيون ، وهم الذين كانوا مزودين بجميع ما يدفعهم على وضع الأمور في نصابها ، وعدم افلاتها من الزمام ، وبجميع ما لديهم من الصلاحيات والامكانات • وكانت القبائل في لواء المنتفق ، وهو لواء لا تستطيع القطعات النفوذ فيه ، تمور وتضطرب ، لكن برترام رسل ، وهو الذي أرسلته للمرة الثانية اليه للقيام بجولة في هذا الوقت بعينه ، كان متفائلاً(٥) ولديه سبب يحمله على ذلك • وكان خيون العبيد ، أقوى من في اللواء ، وهو الزعيم العشائري الأول فيه ، لكنه التزم بالاخلاد الى الهدوء والسكينة ، وتنويهاً بفضله أقول : انه قام بذلك في خضم من صعاب جسام • وكان الهدوء مخيماً في الأماكن الأخرى • وما كان في كردستان ما ينم عن صعاب ، ودأبت ، حتى نهاية الشهر ، قوافل كبيرة على الرحيل بين السليمانية و(بانه) و(ساقس) ، عبر الحدود الفارسية ، ومن أربيل ، عبر راوندوز ورايات الى فارس أيضاً • وكنا لا نزال آملين بكسر حدة العاصفة ، لكن تيارات ثورية قوية كانت في بغداد هادرة ، وبغداد مركز التذمر المنظم • وكانت ثمة هجمات على ضباط وجنود منعزلين غالباً ، بدأت في الاسبوع الأخير من آيار ، فصاعداً • وريع السوق واعتراه فزع مرات عديدة ، فأغلق أصحاب الدكاكين فيه أبواب دكاكينهم وبذلك أضافوا الى تزعزع ثقة الناس زعزعة • وكانت الاجتماعات السياسية تعقد في الجوامع ليلاً ، لكن نقل القطعات الى التلال كان لا يزال دائباً •

لم يكتم سر المر هولدين ، والى حد أبعد مدى أحد ضباطه الاركان العظام رأيه ، ومحصله اني كنت ، من دون لزوم متشائماً في تقدير الموقف • وكان أن عادا مطمئنين في اليوم الرابع والعشرين الى التلال الفارسية عند كرند ، حيث كان جل الضباط الاركان في المقر العام مستقرين •

---

(٥) انظر كتابه الموسوم : Alarms and Excursion in Arabia, 1931.

(المؤلف)

كنت قد عارضت إقامة محطة التلال هذه بشدة ، إذ تراءى لي أن لا فائدة عسكرية ، أو ملطفات صحية بها مما تعادل المضار السياسية الجلية من جرائها ، لذلك راجعت وزير الدولة للشؤون الهندية ليحمل وزارة الحرب على إلغائها ، فلم أصب في ذلك نجحاً . لقد كانت الكلفة عظيمة ، والفائدة الصحية معضلة . فعلى الرغم من أن الوديقة ، خلال أشهر الصيف في بلاد ما بين النهرين شديدة ، إلا أن معدل الحالات المرضية الحقة في فارس ، خلال الصيف المنصرم ، كان على العموم ، أعلى مما خبرته بلاد ما بين النهرين . كان معدل الدخول الى المستشفيات بالنسبة الى القطعات التي كانت في بلاد ما بين النهرين خلال سنة ١٩١٩ ، أفضل كثيراً من نظيره المقابل في الهند كلها . ومهما كانت الحال ، فإن سر المر هولدين ، على ما جاء على لسانه نصاً : « لم يكن ليكتم اجتواءه فكرة البقاء في بغداد ، خلال الفصل الحار ، حيث لم يكن من السهل ، فيما خلا ساعة أو ساعتين من ساعات العصر ، القيام بتمرينات كافية تحفظ الصحة » . إن صحته ، على ماذكرت ، لم تكن على أفضل ما يكون ، وعلى الرغم من أني كنت عاطفياً ، إلا أني كنت أرى إن مثل هذا الاعتبار ليس بمبرر كاف لرحيله . وكنت أختلف معه تماماً بشأن تقديره لاحتمالات قيام الاضطراب في المستقبل القريب ، بالنسبة للوضع العام ، على انه كان يملك المادة التي كوّنت رأيي نفسها .

إن العامل الشخصي كان على حظ من الخطر كبير ، ولا يسهل التغلّب على الاختلاف في المزاج ، وفي وجهة النظر ، وفي تباين العمر بيسر واسماح . ولو نظرنا الى مخابرات تلك الأيام بمنظار الزمن ، فأني لأتبيّن كثيراً مما كان يجب أن يقال ، وبعض ما كان الأفضل ألاّ يقال . لقد انتقد سر المر هولدين في (كتابه) بشيء من الخشونة النواحي السياسية المختلفة التي كانت الادارة المدنية تنتهجها خلال الحرب وفيما بعدها . وسأتناول بعض هذه الانتقادات بإيجاز في محل آخر . وعلى كل حال ،

أني لواثق من أن القارىء سيؤمن بأني لست فاعلاً ذلك عن غلّ ، وإنما بتقدير عادل لمشكلات القيادة العسكرية في هاتيك الأيام .

ونجمت ثورة جديدة بعد أسبوع من عودة السر المر هولدين الى بغداد وموطنها ، في هذه المرة ، الرميثة ، وهي بليدة في لواء الديوانية ، أما سببها المباشر فلقد كان تافهاً الى أبعد مدى . إن شيخ الظوالم ، وهي فرع من بني حجيم ، لم يقم بتسديد دين زراعي يعود الى السنة الماضية مقداره أقل من ١٠٠ جنيه . وكان أن أرسل عليه معاون الحاكم السياسي ، النقيب هيات ، طالباً منه تسديده . لقد كان الشيخ فظاً غليظاً ومتغطرساً متعجرفاً (كذا) مما لم يبقَ بيد النقيب هيات من سبيل إلاّ إرساله الى الديوانية ، بقطار تلك الأمسية . وفيما بعد ظهر اليوم ، وجرياً على ما حدث في السماوة قبل أسابيع قليلة ، اندفع مساندوه الى السراي ، وأطلقوا سراحه . وحاولت القبائل المجاورة القاطنة شمالاً ، منع الظوالم من الدخول الى ديرتها ، بأقصى ما تستطيع ، لكن الظوالم كانت قد تلقت أوامر قاطعة من (لواء الشامية) — الذي يضم النجف والكوفة ، بأن تثور . لقد شجعتها تأكيدات محصلها أن بريطانية العظمى ، بموجب الانتداب ممنوعة من استعمال القوة العسكرية ، وان جلّ قواتنا الميسورة قد انسحبت اما الى فارس أو الى الهند . وتناهت الأخبار ان السكة الحديد قد قطعت في ثلاثة أماكن ، فعزل ذلك كل من السماوة والرميثة ، ووصل ٥٦ جندياً من وحدة المهراتا ، البليدة الأخيرة ، وكان وصولهم من السماوة في اليوم الاول من تموز ، كما وصل ضعفهم تقريباً في اليوم التالي من الديوانية . وأعقب ذلك كله وصول سرية من وحدة المشاة/٩٩ ، بإمرة النقيب براج ، الذي تولى آمرية الحامية التي كانت عدتها ٤ من الضباط الانكليز و٣٠٠ من الجنود الهنود ، ومعهم ٢٠٠ من الهنود غير المحاربين ، جلّهم من دائرة السكة الحديد . وبدأ حصار السماوة يوم الـ ٤ من تموز ، واصطنع العرب « تعبئة الخنادق » على أساس لا تترك من الشك إلاّ القليل في أن ضباطاً

أتراكاً يقومون بتوجيههم • وكان ان رفع الحصار يوم الـ ٢٠ من تموز على يد رتل قوي جداً جاء من بغداد بإمرة العميد كوننكهام • لقد حدث ذلك في إبانه ، فذخيرة الحامية من القوت كانت قد نفدت •

لم يصل العميد كوننكهام الذي يكيل له السر المر هولدين الثناء الحار على الطريقة التي عالج بها آمر الرتل معركة الرميثة من دون قتال مرير برزت فيه ، على وجه أخص ، وحدة السيك ٤٥ بإمرة العقيد ماكفين ووحدةالكركة ١٠/١ بإمرة العقيد سكوت • وكانت خسائر قوة الانقاذ ١٥ من القتلى و١٥٠ من الجرحى ، وكان من بينهم (٥) من الضباط البريطانيين ، أما البقية فكانوا من الجنود الهنود • وفقدت حامية الرميثة نصف عدتها • ويذكر السر المر هولدين اسم مستر هاربر المنسوب الى مديرية السكك باعتباره من أظهر شجاعة خاصة متميزة خلال الحصار ، ولعله كاد يختم بنهاية فاجعة لو لم تنجح القوة الجوية الملكية في رمي العتاد والمؤونة للحامية ، وفي قصف العرب المنتشرين في الموقع • وتصرّف مساعد الحاكم السياسي، الملازم هيات ، طوال الحادث ، على ما ورد في كلمات السر المر هولدين نفسها ، « بشجاعة وحصافة » • وفي اليوم الـ ٢١ تراجعت القوة كلها الى الديوانية فوصلها يوم الـ ٢٥ من تموز بعد مشاغلات عديدة مع العرب •

وبينما كانت هذه الحوادث تجري هوجمت مراكز معزولة • وأصبح النقيب بريسمتلي — ايفنز في معزل ومعه قلة من الشبانة العرب في (خان جدول) ولقى حتفه مقاتلاً إثر دفاع باسل لعب فيه النقيب ديات — هيوز، المنسوب الى دائرة الاشغال العسكرية دوره البطولي •

وشبّه السر المر هولدين الحال في البلاد « بصفحة ورق تعلو في أية نقطة يرفع عنها الثقل(٦) • وسبّب انفاذ القطعات من الحلة الى الديوانية

---

(٦) رسالة سر المر هولدين المؤرخة بتاريخ ١٩٢٠/١١/٨ الى « لندن غازيت » المنشورة في عددها ٣٢٣٧٩ الصادر بتاريخ ١٩٢١/٧/٥ • (المؤلف)

نشوب ثورة في منطقة الحلة ، حيث استولى فرع من بني حسن على بلدة الكفل يوم الـ ٢٠ من تموز • وكان من الصواب أن يتخذ قرار باظهار القوة ، باعتباره أمراً ضرورياً في هذا الاتجاه ، ولذلك سار اليه رتل مؤلف من ثلاث سرايا من : وحدة مهراتا/٣ ، سرية سيك باينيرز ١/٣٢ ، رعيلين من وحدة خيالة السند /٣٥ • وكانت الوديئة على أشدها ، كما كانت ادارة الرتل وتنظيمه تدعوان الى الاشفاق ، ولم يتخذ ما يلزم لضمان كمية ماء اضافية سداً لحاجة الجند •

وأمضى الرتل ليلته الأولى على بعد نحو ٦ أميال من الحلة • وكان الجنرال ليزلي ، وهو الذي أدار الحركات المنصبّة على انقاذ الرميثة ، قد حذّر الرتل من تجاوز هذه النقطة • لكن الرتل مضى قُدماً الى مسافة تسعة أميال أُخر في اليوم التالي ، فأصبح في نقطة تبعد عن الكفل مسافة ٥ أميال ، وعن الحلة بمسافة ١٥ ميلاً ، واتخذوا موضعاً منيعاً على وجه أخص • ولم تبدأ مسيرة الرتل إلاّ في الساعة التاسعة صباحاً ، وما أن وصلت وحدة مانجستر إلاّ كانت منهوكة القوى تماماً ، وكان وصولها قبيل الساعة الواحدة ظهراً • وهوجم المعسكر فيما بعد الظهر ، وبالنظر الى خطل في التوزيع ومعالجة الأمور ، استطاع العدو أن يتقرّب عند الغسق • وعندها قرر آمر الرتل التراجع الى الحلة ، وعلى ما أمر به عندما يصبح ذلك أمراً ضرورياً ، وعند مشاغلة قوة تتفوق عليه • لكن هذه القوة لم تكن في وضع يمكّنها من الانسحاب ، وبذل الجنود الهنود أفضل ما في مكنتهم لحماية زملائهم الانكليز ، وحافظت المدفعية على أعرافها وتقاليدها • وغدا التراجع هزيمة ، وضل بعض آحاد وحدة مانجستر طريقهم في الظلام ، ولم يصل الحلة في صباح اليوم التالي إلاّ نصفهم •

لقد كبّدنا التراجع(٧) ١٨٠ قتيلاً و٦٠ جريحاً ، وبلغ عدد من أُسر نحو ١٦٠ ، وفقدنا كثيرا من وسائل النقل ـ العجلات والحيوانات • ولم

---

(٧) منح النقيب هندرس وسام فيكتورية للبسالة المتجلية والجود بالنفس اثر مقتله مساء اليوم الـ ٢٤ من تموز عندما كان على مسافة ١٥ ميلا من

يعامل الأسرى معاملة سيئة ، ولم يمت من الأسرى البريطانيين الذين وقعوا بأيدي العرب إلاّ أسير واحد . وكتب السر المسر هولدين : « إن هذه القضية المؤسفة ما كانت لتحدث في أفضل من هذه اللحظة . ومنذ بداية الأمر كان الأمل في الحصول على نفع وراء قوة صغيرة كهذه فيه أكثر من شك »[8] . وما كان في الرتل من يعرف عن حرب العرب أو عن البلاد شيئاً .

الحلة في (بلاد ما بين النهرين) . لقد أمرت السرية التي كانت في امرته بالتراجع . وبعد أن تقدم مسافة نحو ٥٠٠ ياردة ، فتحت جماعة كبيرة من العرب النار على حين غرة ، وكانت النار جنبية مما سببت انقسام السرية وتراجعها . لم يأبه النقيب هندرسن بالخطر فعمد الى اعادة تنظيم السرية حالا ، وقادها في هجوم أجبر العدو أن يولي الادبار هارباً . وفي حالتين أخريين قاد هذا الضابط جنوده وهجم على العرب بالحراب وأجبرهم على التراجع . وفي احدى المرات ، عندما كان الوضع حرجاً للغاية ، وأخذ زمام الجنود والنقليات يفلت من اليد ، رصّن النقيب هندرسن امرته بالحذق والهدوء وحال دون تشتت السرية فأنقذ الموقف . وفي الهجوم الثاني خرّ جريحاً ، لكنه أبى التنحي عن قيادته ، وما أن وصلت السرية الخندق الذي كانت تتجه اليه الا جرح مرة أخرى . وما شعر بأنه ليس بقادر على أن يفعل أكثر من ذلك الا أمر أحد نواب الضباط بحمله الى السدة ، وقال : لقد انتهيت الآن فلا تدعوهم أن يظهروا عليكم .. « لقد مات مقاتلا » ــ لندن غازيت ٢٩ تشرين الاول ١٩٢٠ .

(المؤلف)

[8] كان انفاذ هذا الرتل بتوصية من آمر رتل الحلة وبأمر من الجنرال ليزلي بعد اتصال بالمقر العام في بغداد ، وكان ذلك بحضور أحد الضباط الاركان . ولم يوافق السر المر هولدين على انفاذه حسب ، وانما عين النقطة التي يجب أن يذهب اليها . ان هذه الحقيقة ، وعندي سجل وثائقي يؤيدها (مؤرخ بتأريخ ال ٢٣ من تموز) ، وعلى ما قد غابت عن خاطره .

(المؤلف)

هناك ثمة دلائل عديدة تدل على أن القائد العام لم يكن راضياً عن ادارة الحركات على يد الجنرال ليزلي ، وهو من كان يتولى السلطة العليا لو حدث أي شيء للسر المر هولدين نفسه •

كتب هولدين في الصحيفة ١٢٠ من كتابه : « وإثر حادث مانجستر طرأ تقييد كبير على تخويل سلطة ادارة حركات القطعات » ، وادير التراجع الى الديوانية باللاسلكي من بغداد بجميع تفاصيله • وقد ورد في الصحيفة ١٣٧ من كتابه مثل من أمثلة الصعوبات والضعف الذي اعتور نظام السيطرة هذا • إن المبدأ القاضي بوجوب اصطفاء القادة الذين يديرون حركات منعزلة بكل عناية أولاً ، ثم تخويلهم الحرية الممكنة ، سيبقى معمولاً به في الأيام المقبلة ، كما كان في الأيام الماضية ، لكنه سيقبل مبدئياً ويرفض عملياً • من المستحيل البحث في مثل هذا المقام : هل كان حكم الجنرال هولدين على الجنرال ليزلي يرتكن الى أساس رصين ؟ لكن المحوظ إن تحديد المبادأة عنده كان يتواقت مع تردد الجنرال هولدين في عزله ، الى أن يتم إنقاذ الكوفة وتقمع الثورة على يد قطعات في إمرة الجنرال ليزلي نفسه بالدرجة الاولى • ليس من عذر لفشل المقر العام في باب اعلام الجنرال ليزلي عن ماجريات الأمور • وقد كتب لي في اليوم الثالث من أيلول « إني لأشكرك كثيراً ، وأنا عاجز عن الافصاح عنه على المعلومات التي أرسلتها الى ضباطك ، وما ورد في مطبوعك السري • إذ بدونها جميعاً أعتبر جاهلاً بالحوادث العسكرية المهمة اليوم ، على ما كنت جاهلاً بها يوم وقوعها سواء بسواء » •

كانت النتيجة المباشرة لهذه النكسة نجوم اضطرابات في منطقة الفرات الأوسط • لقد كانت الكوفة محاصرة حصاراً خانقاً ، وهوجم المعسكر في الحلة ، المرة تلو الأخرى ، وكان مهاجموه من القبائل المحلية ، وقد صدّت هجماتهم بعد إن تكبدت خسائر فادحة • وبقيت الشبانة العربية ، بإمرة

الرائد بويل ، على الرغم من محاولات بني جلدتها المضادة موالية • لقد أهينت نسوتهم ، وعومل أطفالهم شر معاملة وهدّدوا بالقتل ، كما هدّدت نسوتهم بالاعتداء عندما ستكون للثوار اليد العليا • إن ثباتهم وثبات الشرطة باستثناء قلة من آحادهم لا يؤبه بها ، لشهادة فضلى ، إن احتاج الأمر الى شهادة • إنها لدليل على حصافة آحاد الشبانة والحكام السياسيين المسؤولين عن تدريبهم •

لم يكن بدّ من الانسحاب من الديوانية ، وقد أنجز الجنرال كوتنكهام الحركة ، وأصاب فيها نجحاً • وقيّدت حركة الرتل بالسكة الحديد ، وكثير من أميالها قد حطّم تحطيماً • إن قلة القضبان حمل الرتل على أن يأتي بكل قاطرة وشاحنة متيسرة ، فكانت عدتها : ٦ قاطرات ، ونحو ٢٥٠ مقطورة ، تكوّن كلها قطاراً طوله نحو ميل • وأظهر الجنرال هولدين بحركات الرتل جلياً ، وما كان قلقي بأقل من قلقه أبداً • كان عليّ أن أنظر الى المستقبل وأنظر الى الحاضر أيضاً وأن أقدّر الوضع في نحو ١٢ نقطة مختلفة ، لا تشغل إلاّ من قبل حكام سياسيين تسندهم (الشبانة) حسب ، وحيث جنود الثورة (كذا) لم يطبق بعد عليها • إن قيمة كل واحد من أولئك الحكام السياسيين تساوي ، في مثل ذلك الوقت ، قيمة فوج واحد من الجند • فإن استطاعوا أن يثبّتوا الاقدام ويبقوا على واجهة (الادارة المدنية) في مناطقهم المعينة ، على حين يقوم الجيش بما يجب في المناطق الثائرة بوجه سافر ، فهناك كل الأسباب التي تحمل على أن في مكنتنا أن نحول دون نشوب ثورة عامة تجتاح البلاد ، وذلك الى حين وصول النجدات ، وقد كانت على سبيلها من الهند • لقد علم الكل بمقتل النقيب بارلو والملازم ستيورت في (تلعفر) ، والغالب منهم كان محاطاً بظروف مماثلة ، أي أنهم كانوا يسيطرون على بقع منعزلة ليس فيها جند ميسور ضمن مسافة ٥٠ ميلاً •

وبقي النقيب ويب ، خلال حصار الرميثة وفيما بعده ، في (عفج — يريد عفك — المترجم) الكائنة شرقي الديوانية ، لا تسنده إلاّ حفنة من الشبانة . إذ كان وجوده فيها بمثابة حراسة مجنبة رتل الديوانية . لقد كان يعلم أن ثمة مؤامرات ترمي الى القاء القبض عليه وكمائن منصوبة على الطريق . وما كانت هناك طائرات يمكن استخدامها في الاتيان به الى برّ السلامة ، وقيل له أن يهرب بأفضل طريقة يستطيع اصطناعها . وما كان كل جنوده ممن يوثق بهم — وكانت معهم زوجاتهم وأطفالهم — ، وما كان المأمول منهم أن يناصبوا العداء الصميم لأولئك الشيوخ الأقوياء الذين أحاطوا بالمدينة من كل حدب وصوب . وكانت الوسيلة الوحيدة للاتصال هي بوساطة المراسلين العرب ، وقد قتل أحدهم .

وعلى الرغم من ذلك كله استطاع النقيب ويب أن يهرب ، وكان أن التحق برتل الديوانية قبل ٤٨ ساعة من بدء انسحابه الى الحلة . وكان كل من برترام رسل في (الشطرة) ، وكروفورد في (قلعة سكر) ، وهما في وضع مماثل . وكمن للأخير عندما كان يعود الى (مقره) إثر استمتاعه بضيافة شيخ صديق ، لكنه استطاع أن ينجو من غير أن يمسه سوء . وبعد اسبوعين أُجبر (النقيب ثوماس) على مغادرة الشطرة جواً ، بعد أن سلّم مقاليد الأمور الى خيون العبيد الذي طابق الخبر الخبر منه ، بقدر تعلّق الأمر بالثقة التي علقت به ، والسلطة التي خوّلها له كل من ديكسن وثوماس بغية المحافظة على الأمن في المنطقة ، خلال السنة المنصرمة . وكملاحظة عابرة تذكر هنا ، ان ما جاء على لسان هولدين في كتابه ، والقائلة أن مردّ الاضطراب في (الشطرة) يعود الى نظام مستحدث في جباية الضرائب ، يتضمن قياس الحصائل بالسلاسل، لا ترتكن إلاّ الى أساس من سوءالفهم .

لا يمكن لمثل هذا النظام أن يعمل به ، وكانت الضرائب تجبى وفق القانون العثماني ، نقداً كانت أم عيناً ، ووفق حصيلة الانتاج أيضاً . لقد كان ذلك يقرر قبلاً بما يراه المخمنون العرب الرسميون المهرة عرفاً . وأدخل

نظام بموافقة الشيوخ في مناطق معينة، وبموجبه تتخذ قطعة مقررة نموذجية مساحتها متر مربع ، ثم يحصد ما أنبتت ويكدّس ويوزن، ومنه تستخلص قيمة المنتوج وتحسب بموجبه حصة الحكومة • وما كان ذلك بنظام تام متقن ، لكنه جاء بنتائج أفضل ، ونال الرضى العام باعتباره مفضّلاً على غيره • ولما كان الاضطراب وشيكاً فكل ما يرتكن اليه في ذلك جيد • أما أنه كوّن تذمراً حقاً فذلك أبعد مما يحتمل •

وأصابت الحركات الأخرى التي جرت على الفرات وذكرها هولدين في كتابه تفصيلاً ، من دون استثناء ، نجحاً ، ولم تشبها نكسة أخرى • وجرى احتلال المسيب في اليوم الرابع عشر من آب ، وسدة الهندية في الرابع عشر منه ، كما جرت سلسلة من الحركات التأديبية ، على يد الجنرال ليزلي ، وأصابت نجاحاً • وما أن حلّت نهاية آب إلاّ وكانت السيطرة على الوضع العسكري قد تحققت• لقد كنا نسيطر على شبكة القنوات وأصبحنا في وضع نستطيع به منع انتشار الفوضى • وكانت الكوفة لا تزال محاصرة ، ولكنها ما كانت بحاجة الى إنقاذ مباشر ، كما لم يكن ارسال رتل بهذا الاتجاه عملياً ، ذلك ان اضطراباً جديداً حدث في بعقوبا وشهربان صيّر المواصلات منقطعة بيننا وبين فارس لحين من الدهر • كما قطع خط السكة الحديد قرب بعقوبا ، في اليوم التاسع من آب ، واضطر الحاكم السياسي في اليوم الـ ١٢ من آب على مغادرتها • لقد جاء ذلك في أعقاب اضطراب دفع اليه رتل من مختلف الصنوف لصدام مرير مع جماعة من الغزاة عدتها نحو (٥٠) • وبقي الموظفون المدنيون في أماكنهم في بعقوبا حتى آخر لحظة ، وعندما لم تقدم لهم المعونة العسكرية ، اضطروا الى الهروب من المدينة ولقوا في أثنائه عسراً ، ثم كان أن أعمل الأعراب فيها نهباً وسلباً •

لقد وصف أحد كبار الضباط القادة في العراق إخلاء بعقوبا باعتباره عملاً «شائناً» • ولا أتبيّن سبباً يحمل على مناهضة حكمه هذا أبداً ،

وكان عدد من يشاطره هذا الرأي كثيراً . وليس هناك من السجلات الرسمية المنشورة ما يكفي لتحديد التبعة : أتقع على المقر العام أم على القادة ؟ ولما لم تتخذ إجراءات انضباطية إثر قيام الأخيرين بالانسحاب ، فمن الحق أن يعزى الى أنه كان متفقاً مع الأوامر المبلغة . من المتحقّق أن (المقر العام) انتابه خوف على حين غرّة (ولم تشاطره في يوم من الأيام ذلك : الادارة المحلية) ومن أن بغداد نفسها ستقع تحت سيطرة أعدائنا . لقد دأب السر المر هولدين على عدم الاهتمام بالنذر أمداً طويلاً . وما أن تفتّحت عيناه على حال الأمور الحقّة ، إلاّ كان ردّ الفعل قاسياً نسبياً .

ونما في عقول أبناء القبائل الاعتقاد القائل بأننا على وشك إخلاء البلاد، وغدا ذلك عندهم يقيناً . لقد كان الدعاة الوطنيون يذيعونه جاهدين دائبين . وأصبحت اليوم شهربان في معزل وهي الكائنة على بعد ٢٧ ميلاً شمالاً ، وما كانت ثمة قطعات قريبة إلاّ في بعقوبا في جهة ، وفي كرند في الجهة الأخرى . وكان الحاكم السياسي المسؤول هو النقيب ريكلي ، وكان معه النقيب براد فيل ، آمر الشبانة العرب ــ ومنهم في المقر ٥٠ تقريباً ــ كما كان معه مدربان بريطانيان هما : نيوتن ونيسبيت أيضاً . وكان يقيم في شهربان في هذا الوقت بعينه النقيب بيوكانن المنسوب الى دائرة الري ، وهو من لا أعرف ، وقد صحب زوجه وهي سيدة بريطانية. ان اسمها لم يرد في أية قائمة من القوائم الشهرية التي تصل (دائرتي) من مدير الري والتي تبيّن الأماكن التي يستقر فيها موظفوه وزوجاتهم . لم أقابل النقيب بيوكانن في يوم من الأيام ، وعندما زرت بسيارتي شهربان ، في أوائل آب ، أثنى النقيب بيركلي على أعمال بيوكانن لكنه لم يذكر أن زوجه كانت معه . ولو كنت قد علمت ذلك لأصررت ، بطبيعة الحال ، على ذهابها الى بغداد . وفي حوالي اليوم الرابع من آب أخبرني ريكلي بأن القبائل وأهل المدينة بدأت تتحرك . ولم يبح إليّ أن لديه ما منه

يشكوان ، لكنهم كانوا تحت وطأة موجة القلق التي كانت تجتاح البلاد ، وانهم كانوا بما انتابت قواتنا من نكسات متكررة عالمون • وكان أن قلت له على ما قلت لغيره ، أن يبقى في مكانه ، ما استطاع الى ذلك سبيلاً ، وأن يطلعني ، وقائد القطعات في بعقوبا ، على الوضع يومياً وأن يكون ذلك برقياً • وكان على ذلك حتى اليوم الـ ١١ من آب دؤوباً • وفي اليوم الـ ١٢ من آب قطع العرب الخط ، فتركت القطعات البريطانية بعقوبا بسرعة ولم يقم أحد بمحاولة تنصب على ضمان سلامة الموظفين في شهربان أبداً • وثار أهل شهربان في اليوم الـ ١٣ من آب وأغارت القبائل عليها • وكان أن فرّ أفراد الشبانة ، وقتل الانكليز الخمسة جميعاً • ونقلت السيدة بيوكانن ، وقد جرحت جرحاً طفيفاً الى بيت أحد الملاكين البلديين ، وهو الذي حماها حتى اليوم التاسع من أيلول ، حين أعيد الأمن الى نصابه بوساطة رتل أرسل من بغداد بإمرة الجنرال كوننكهام ، وهو من لا يخلو ذكره من مكان ما متعاوناً مع رتل آخر بإمرة العقيد كرير يعمل من قزلرباط جنوباً • وكان جورج بينس المولج بشؤون المزرعة العسكرية في شهربان قد جرح جرحاً بليغاً ، القي القبض عليه ، لكنه لم يتعرض الى أذى •

كتبت السيدة بيوكانن قصة المأساة هذه تفصيلاً ، وضمّنها كتابه الموسوم (في أيدي العرب : In The Hands of Arabs) • ولا يشير هولدين في كتابه الى هذا التسجيل • إن ما يرويه عن الهجوم ، ونتيجته ، يرتكن بجلاء الى تقارير العرب وقد جمعت بعد الحادث بعينه ، وأنها في بعض النواحي لا يركن اليها قدر الارتكان الى شهادة السيدة بيوكانن نفسها • هذا من جهة ومن الجهة الأخرى تختلف اشاراتها الى الدور الذي لعبته (الشبانة) عن غيرها من البيّنات المعاصرة والمدوّنة في ذلك الوقت رسمياً •

ومما روته السيدة بيوكانن يتجلّى أن جميع الضباط المعنيين،ومعلمي الشبانة المدربين ، وجوز بينس ، أبدوا شجاعة فائقة • ويتبين من رواية

هولدين أنه لم يكن على استعداد لارسال قطعات من بغداد لانقاذهم أيضاً . لِمَ إذن يقال أنه لم يكن ليعلم بوجود هؤلاء الضباط في شهربان ؟ ذلك أمر لا سبيل الى استجلائه أبداً . ان اسمهم لم يكن مذكوراً في كل قائمة تضم الشبانة السياسية وضباط الري المرسلة الى المقر العام بانتظام حسب ، لكن القرار المتخذ بالمحافظة على الشبانة في بعقوبا وقزلرباط وشهربان وخانقين ، بأمر الضباط البريطانيين قد اتخذ منذ أشهر قليلة ، وإثر مناقشة تامة مع المقر العام ، وهو الذي أقرّ صرف مبالغ إدامة من اعتمادات الجيش على هذه المفرزات بعينها . لقد إعانت القطعات خلال الـ ١٢ شهراً الأخيرة وخلّصتها من واجبات تتصل بسلامة السكة الحديد .

رأيت (ريكلي) و(برادفيلد) كثيراً ، لقد اختير كل منهما بوجه خاص للقيام بواجبه بناء على توصية وردت من قائد الفرقة . وكانت سجلاتهم طيبة باعتبارهم ضباط كتائب ، وقد نال ريكلي الصليب العسكري في بلاد ما بين النهرين . وكان سجل النقيب بيوكانن حسناً أيضاً ، وذلك عندما كان في القوة الجوية الملكية قبل التعبئة . وكان الثلاثة قبل التسريح حديثي السن . إن رحيلهم عن هذه الدنيا مبعث أسى إليّ شخصياً . كما كانت خسارة الى الادارة أيضاً .

توسعت منطقة القلاقل والاضطرابات خلال النصف الأخير من آب كثيراً . لقد أُسّر النقيب لويد من قبل الثوار العشائريين في دلتاوه لكنه لم يعامل معاملة سيئة . وهوجمت بلدة كفري ونهبت على يد العشائريين وأسّر النقيب سامون الحاكم السياسي وقتل في السجن بعد أيام قليلة . لقد أجبر على نقل مقره الى محطة السكة الحديد في كنكربان حيث كان يستقر فصيلان من الهنود المشاة ، لكنه رفض ، كما رفضت زوجه ، ذلك ، وهو شاعر بأن تأثير وجوده المعنوي بين سكان المدينة ، والعنصر العشائري معادٍ لهم كان كبيراً ، وان واجبه يقضي بالبقاء في مقر وظيفته حتى آخر

لحظة ممكنة • وفي حوالي الـ ٢٢ من آب غادر المدينة لمحادثة بعض العشائريين القاطنين على تل قريب • وكان أن قبض عليه ومنع من العودة الى المدينة • وصحبت زوجه محمية الى المعسكر الكائن على بعد أميال من المدينة ، ومن قبل أهلها • ودخل بعد يومين أبناء العشائر المدينة ، وقتلوا يوم الـ ٢٨ النقيب سامون ، وإن لم يكن لديهم شيء ضده لمثل هذا • لقد كبّده قراره بالبقاء في كفري حتى اللحظة الأخيرة حياته ، ولعله أنقذ الوضع العسكري في هذه المنطقة ، ذلك ان وضعنا العسكري فيها لم يكن وثيقاً ، ويكتسب كل يوم أهمية خاصة • وبعد يومين احتلت كفري من قبل مفرزة من كركوك ، ولم تنجم صعوبات أخرى في المنطقة •

لقد بعث مقتل (سامون) ــ ولا يشير اليه هولدين إلاّ تلميحاً وبإيجاز تعليقاً في ذلك الوقت بعينه ، وعلى الرغم من أن ساحة آمر المعسكر قد برّئت باعتباره لم يفعل إلاّ طبق تعليماته ، حين رفض إسداء العون الى الموظفين المدنيين في كفري • ولكن ، جواب هذا السؤال هو : الى أي مدى كانت تلكم التعليمات سديدة رصينة؟ يقول هولدين : أن قد جرى تقليص في عدة حامية كنكربان ، الكائنة قرب كفري في اليوم الـ ١٧ من آب ، من سريتين ونصف سرية ومراتب أخرى الى فصيلين ، وهي قوة غير كافية لحماية محيط المعسكر • ويظهر أن قد استفيد من البقية ، في التأريخ نفسه لحماية موضعين ثانويين على السكة الحديد وتموينهما • وعلى كل حال لا يظهر أن تأريخ الـ ١٧ من الشهر هو التأريخ المناسب ، وذلك على الرغم من أن الجنرال هولدين لا يحدّد اليوم الذي أسّر فيه النقيب سامون • كما إنه لا يذكر عدد الغزاة الذين دهموا المدينة ، والدفاع عنها يسير من الجهة التي اتخذوها طريقاً لهم • وفي الحق انه ، على ما يظهر ، يقف موقف المدافع خلال معالجته للقضية ، وان ما يسره هو التهرّب منها ، إن القضية لتستأهل معالجة أتم ، ذلك أن قد سمح للفكرة القائلة بأن

السلطات العسكرية ، على اعترافها ، من دون شك ، بأن الهدف العام من الحركات حماية (الادارة المدنية) ومعاودة إقامتها ، كانت تميل في حالات خاصة الى اعتبار معسكراتها المحاطة بالاسلاك الشائكة ومدخراتهاوخطوط مواصلاتها غاية بنفسها ، وكل ذلك سواء أمكن الدفاع عن كفري أم لم يكن مستطاعاً • وفي المثال الذي نبحث فيه هناك من سبب يحمل على أن قد كان في الامكان إنقاذ كفري ، لكن قابلية التمييز لدى الضباط كانت مختلطة الى حد يحول دون إظهار الابتداع والمبادأة ، فيما خلا أولئك الذين يتسمون بالاستقلال الروحي الى حد اللا طاعة • يجب أن يُقرأ منشور الجنرال هولدين الصادر يوم الـ ١٣ من آب والمطبوع في كتابه باعتباره ملحقاً ، وهو الموسوم بـ (تبعة الضباط) ، وما كان أحد من اسلافه ليستطيع نشر مثل هذه الوثيقة •

وانتشرت القلاقل والاضطرابات الآن الى لواء أربيل • هوجم النقيب هاي في مضيق راوندوز في اليوم الـ ١٢ من آب ، واستطاع أن ينجو بحياته بشق الأنفس • وأُجبر النقيب كرك على مغادرة (كوي) يوم الـ ٣ من أيلول • إتّسم تصرّف هذين الضابطين ، ومن معهما في جميع الأحوال ، بالهدوء والبسالة ، وكانت تلك الأحوال على أشد ما تكون عسراً • إن القلق السائد لم يكن ليتصل بنظام الحكم الذي كان يمثله ذلك الضابطان • وما كان الأكراد متعاطفين مع آراء الوطنيين العرب ، وذلك على الرغم من أن جماعة من الموظفين الأتراك السابقين والملاكين في اربيل كانوا يعملون جاهدين في إثارة الاعتقاد بأن الاتراك سيأتون قريباً • وعُلم أن العشائر أنفسها كانت تعادي مثل هذه الفكرة • وازدادت مصاعبنا في هذه المنطقة واشتدت بسبب عدم قدرتنا على اصدار بيان بشأن مستقبل ولاية الموصل أو كردستان الجنوبية • والتزمت حكومة صاحب الجلالة جانب الصمت بشأن هذه القضية • ومهما كانت نواياها ، فلقد رفضت تخويل اصدار أي بيان بشأن هذا الموضوع ، وذلك على الرغم من أني ، قبل سنتين ،

أي في تشرين الثاني من سنة ١٩١٨ أمرت بأن أتحقق من آراء السكان البلديين أعني : أهم راغبون في دولة عربية واحدة تحت الاشراف البريطاني ، ممتدة من الحد الشمالي لولاية الموصل الى الخليج العربي ؟ (انظر الفصل الخامس) •

لقد كانت الآراء حول هذا الموضوع في سنتي ١٩١٨ و١٩١٩ متفقة: فالجميع كانوا يريدون بقاء الموصل ضمن العراق •

لقد تصرّفت (الشبانة) في أربيل ، وكانت بإمرة النقيب الشجاع ليتلديل ، وعلى ما يذكر الجنرال هولدين ، تصرّفاً رائعاً ، وتكبدت خسائر فادحة من دون أن تخور منها العزيمة أبداً • وما كان لديها من بديل عن الانسحاب من (راوندوز) و(بطاس) الى أربيل ، لكن لم يتزعزع من اغلبها الولاء لضباطها البريطانيين أبداً •

لقد كان هؤلاء الضباط ، بالنسبة اليهم ، مثالاً عسكرياً يحتذى، وقد شجّعهم ذلك كما شجّع ضباطهم الاكراد ، فبقوا موالين الى قضية أعظم من أية قضية كانت مصدر روحي لهم في السنين المواضي الأولى • وطرت الى أربيل خلال تلكم الأيام الشداد ، أريد بذلك الجمع بين زيارة النقيب هاي وبين هجمة على مركزين من مراكز الثورة كائنين بمقربة ، وكنا قد قصفناهما بالرشاشات حتى نفد جميع ما عندنا من عتاد • وقابلت في أربيل بعض آحاد الشبانة وضباطهم • وكان حديثهم على ضباطهم البريطانيين مقصوراً ، انهم لتابعوهم الى أي مكان يذهبون • وكان اهتمامهم بأسباب الاضطرابات وتطورها في المناطق الأخرى قليلاً • ومنح النقيب ليتلديل الصليب العسكري كما منح (سيد علي) مساعده النوط العسكري جزاءً على خدماتهما •

وخلّف النقيب هاي عن تلكم الأسابيع العسيرة الخطرة سرداً جلياً متواضعاً ضمه (كتابه) ، والظاهر أن الجنرال هولدين لم يطلع عليه لأنه

لا يشير اليه في كتابه • لقد كانت حكمته الهادئة وتشبثه يساويان لدينا فوجاً واحداً في مثل هذه الأوقات • لقد علم ان الحاكمين السياسيين في بعقوبا وخانقين قد أخرجا وأن دوائرهما التهمتها النار التهاماً وان الحال على نهر ديالى أصبحت فوضى ، كما ان الحاكمين السياسيين في كفري وشهربان قد قتلا ، وأخذ (لويد) في دلتاوة أسيراً • لقد قلت له إن لو نجم في أربيل اضطراب فلن نستطيع الى عونه سبيلاً ، سواء أكان ذلك بطيارة أو ما هو أقل منها ، وحتى بمفرزة من الجنود أيضاً • لقد جرت محاولة قتله في أربيل ، وسعى رجال كرّة أخرى الى إحراق بيته • وبعد أيام قليلة نصب له كمين في مضيق (راوندوز) المظلم • وهو مشهد القتل والموت غالباً • وقبل يومين اثنين أطلق النار على أحد جنوده العريف ميثوين فخرّ صريعاً⁽٩⁾ وكان يسعى الى القاء القبض على (آغا) عرف عنه أنه كان يثير قلقاً واضطراباً •

وما كان النقيب هاي لد ٢٧ من العمر بالغاً ، كما كان بالنسبة لمساعديه أقدم بسنين ، وكان في مكنته أن ينسحب عن حكمة مع هيئة موظفيه الى ملجأ تحميه أقرب مفرزة في كركوك • لكنه لم يفعل شيئاً من هذا القبيل• واتخذت الاجراءات اللازمة لارسال المبالغ الموجودة في (الخزانة المدنية)، ومقدارها ٢٠٠٠٠ من الجنيهات الى كركوك ومعها الكتبة • ودخل خورشيد آغا، وهو من الرؤساء البلديين المدينة مع حاشيته ، وتسلّم مقاليد الأمور في المدينة • ومع ذلك كله ، وما دام النقيب هاي في الموقع موجوداً، والنقيب ليتلديل في السراي ومعه عصبته القليلة فان المحافظة على مظهر السلطة كان ممكناً •

---

(٩) لقد دفن في ظاهر القرية النصرانية (عين كاوه) على تل بالقرب من مرقد أحد القديسين البلديين • ولما لم تطمئن (لجنة المقابر الحربية الانبراطورية) بمثل هذا المرقد قامت باخراج الجثمان منه ودفنه في بغداد • وتم ذلك كله من دون موافقة السلطات المدنية • (المؤلف)

ذلك ما كان عليه الوضع في أربيل يوم طرت اليها من بغداد ، في الـ٨ من ايلول آملاً أن أبعث عن طريق زيارة قصيرة ، في الوجهاء البلديين ثقة واطمئناناً . وقابلتني جمـوع غفيرة من الفرسان الاكـراد ، وعلى رأسها جماعة من الرؤساء الباشين الهاشين ، والخـانعين الخاضعين حقاً ، وممن استولى ، قبل أيام قليلة على جميع العتاد الموجود لدى الشبانة تقريبـاً . لقد قاموا باصطحابي الى بيت قريب من المطار ، حيث علمت ، بعد أن أفطرت إثر طيران عاصف مسافة ٢٠٠ ميل أن الوضع كان يائساً . لقد بلغ التوتر حدّاً بحيث يمكن أن تثير أية حادثة صغيرة ثورة ، تلك على التحقيق كـل عضو من أعضاء الادارة المدنية في أربيل بشملتها ، وعلى ما حدث في شهربان وأماكن أخرى . وعندما دخلت الطائرة كان في جيبي نسخة من (مقالات بيكون Bacon's Essays) . وعلى الصفحة التي فتحتها وجدت العبارة الآتية : « الشجاعة سيئة عند المشورة وإن كانت لدى التنفيذ حسنة ... ففي المشاورة حسن” أن يتبين الانسان الاخطار ، أما في التنفيذ فلا يمكن تبينها إلاّ إذا كانت عظيمة » . لقد كانت الساعة ساعة التنفيذ حقاً ولـم تكن ساعة المشاورة أبداً . وكان أن قابلت وفـوداً متتابعة من الرؤسـاء الاكراد في (السراي) تغمرهم الثقة ، وما كانت مثلهـا تخامر قلبي أبداً . وحمدت لهم مجهودهم في المحافظة على الأمن وحذّرتهم من الغضب الذي سينفجر ، وأجاب الناطقان باسمهم : خورشيد آغا وأحمد أفندي باختصار مؤكدين تصميمهما على المحافظة على النظام ومساندة الادارة المدنية، لكنهما أضافا الى ذلك قائلين : « نطلب منكم شيئين : أولهما ضمان بأن الاتـراك لن يسمح لهم بالعودة ، وان العرب لن يسمح لهم بحكم الاكراد ، وثانيهما إرسال القطعات الى اربيل فوراً ، وذلك لكي يظهر للمفسـدين ان سـلاح الحكومة البريطانية لا يزال قوياً معتبراً » . وكانت الاجابـة عن ما قالته هذه الوفود علناً أمراً يبعث على الأسى حقاً ، إذ ما كان في مكنتي أن أعطي أي ضمان عن مستقبل لواء أربيل أبداً . وكان معي دفتر جيب يتيسر نزع

أوراقه ، وقد سجلت فيه جميع الخطب التي ألقاها الوزراء المسؤولون بشأن العراق . وانتزعت منه ورقة ، وبعد ترجمتها ناولتها الى أحمد أفندي، وقد جاء فيها ما يأتي :

« تموز ٢٥ . جواباً عن سؤال مستر لامبرت في مجلس العموم قال مستر لويد جورج : ان معظم مصاعبنا الحالية في بلاد ما بين النهرين وقتية. انه واثق من أن سيتغلب عليها . لا ترى الحكومة البريطانية سبباً يحملها على التخلي عن الانتداب البريطاني على بلاد ما بين النهرين » .

وكان جوابي : « لا أستطيع أن أقول أكثر من هذا ، ويجب أن تكتفوا به . لقد تكلمت شخصياً مع لويد جورج ، وهو السياسي الذي عمل أكثر من غيره في قيادة الحلفاء الى النصر ، وهو من لا يعيقه الذم ولا تحركه الهجمات ، واني أكرر ما قاله : لن نتخلى عن أماتتنا. لقد كان ذلك استجداء للموضوع ، وتجنباً للتجاذب الامتحاني المتقابل . تناولت بالبحث الطلب الواقع على القطعات. ستصل هذه ولكن متى ، هذا ما لا أستطيع تحديده . وتكلمت عن الحملة التأديبية (كذا) الجارية في الفرات الاوسط وفي ديالى ورجوتهم ألاّ يسمحوا لرفقائهم العشائريين بالوقوع فريسة الموجة الجنونية التي اجتاحت مناطق الفرات الأوسط وديالى . ليس هناك من إخلال في النظام بين دجلة والبصرة . وفي بغداد ليس هناك احتمال نشوب ثورة . إن السليمانية ، وهي في قبضة (سون) القوية ، الى السلم جانحة . لقد بعد الشرّ . هذا ما طمأنتهم به ، وسيذهب مثيرو الصعاب الى الارض كما تذهب الثعالب عندما ينبلج الصبح . (والثعلب يشتهر في فارس وكردستان ، بالمكر والخديعة على ما ورد في صفحات ايسوب ، وبالمقدرة على تضليل الحيوانات البسيطة) لقد كانوا نصف مطمئنين ، لكن الجو أصبح أكثر نقاءً من قبل » .

وبعد مغادرة الوفد قابلت خورشيد آغا وأحمد أفندي على انفراد وشكرتهما على خدماتهما المسداة الى الادارة المدنية • لقد تكلمت معهما بشأن النجدات التي ستصل أكثر ، وكذلك بشأن الحركات التأديبية التي يدور التفكير بشأنها • وعاودا إثارة موضوع مستقبل ولاية الموصل • قالا : « لو عاد الاتراك فسيقتلون كلاً منا وينتهكون حرمة نسوتنا ويسلبون ورثتنا • ألا تستطيعون إعطاءنا ضماناً بعدم السماح لهم بالعودة الى هاهنا؟ وأخرجت دفتر الجيب مرة أخرى ووجدت فيه تصريح مستر لويد جورج بتأريخ الخامس من كانون الثاني ١٩١٨ مصطنعاً الكلمات الآتية : إننا وعلى حين لا نتحدى قيام الانبراطورية التركية في موطن الشعب التركي، وباعتبار استنبول عاصمة لها ••• فإننا نعتقد أن بلاد العرب وارمينية وبلاد ما بين النهرين وسورية وفلسطين لها الحق في الاعتراف بأوضاعها القومية المنفردة • وليس هذا مجال البحث في النمط الحق لمثل هذا الاعتراف بالنسبة الى كل حالة بعينها ، فيما عدا القول باستحالة إعادتها الى الدولة التي كانت تهيمن عليها فيما مضى ، والتي أشرت اليها سابقاً » •

وقلت : « إن الرجل الذي قال ذلك سيحفظ وعده إن استطاع الى ذلك سبيلاً • إن له أكثرية كبيرة في مجلس العموم، كما أن جميع اللوردات في هذه القضية معه ، وهو يعني بـ (بلاد ما بين النهرين) الولايات الثلاث: البصرة وبغداد والموصل » • وكان ان رحلا وقد سهل الأمر في نفسيهما نوعاً ما ، وعدت لأتناول الغداء في البيت المجاور للمطار • وكانت على السطح جماعة كبيرة من الشبانة والشرطة ، ومعهم ٤ من رشاش لويس ، ذلك أن هجمة كانت مرتقبة • وجاء خبر إبان الغداء مفاده ان جماعة من القبائليين آتية لتحطيمها • لقد كان تحذيراً مكذوباً ، لكنه دليل على الوضع المتوتر • وودعت الجماعة الصغيرة الباسلة وأكدت على (هاي) أن يصمد مهما كان الخطر الذي سيتعرض له ، ما استطاع الى ذلك سبيلاً ، ولكن الهم كان يطبق عليّ وأنا أشاهد آخر واحد في تلكم (العصبة) وقد لفه

الغبار المستثار من طائرتنا وهي تمضي في الجو صاعـدة . لقد قامت بين الحكام السياسيين المولجين بشؤون الالوية وبيني ، بوصفي رئيسهم من ١٩١٨ ـ ١٩٢٠ صلة لا تقتصر على الصداقة حسب بل تشمل الزمالة أيضاً . انها تابعة من التفاهم المتبادل ، ومن الأخطار المتبادلة ، ومن الآمال المتبادلة وقد تصاعدت في إمثال هذه المناسبات فبلغت حال شعور قوي يسود الجانبين مما لا تبلغها الصداقة المحضة . ولم يكن في الامكان أن تدوم هذه الى ما بعد الحوادث التي نجمت عنها . فذلك من طبيعة الأشياء . ولعلها ، طوال الفترة التي يتناولها هذا (الكتاب) تعدّ أكبر رصيد تملكه (الادارة المدنية) . لم تكن لتنطوي على المصلحة الشخصية ، لكن فيها كثيراً من التضحية والاحساس بالواجب نحو العراق لا نحو بريطانية العظمى (كذا) والولاء تجاه الأمانة التي فوضت بنتيجة الحرب علينا (كذا) .

إنه العرف العريق للجيش ، طبّق على مسلك جديد . وما كانت وحدة القصد التي شاعت في نفوس الجماعات الصغيرة من الحكام السياسيين في المراكز النائية أقل بروزاً . يجد ، في الاحيان ، ضباط الدوائر المنقولون حديثاً من السيطرة العسكرية الى المدنية صعوبة في الوقوف على مكانهم الحق من الهرم المحلي ، لكن العملية السوية في باب التكييف والتيسير والنقل في الأحيان كانت كلها كافية لاستعادة الانسجام المطلوب . ومهما كان من أمر ، لم تكن في ولاية الموصل دوائر ، والحاكم السياسي كان يمثل السلطة الاجرائية ، حسب ، ويتمتع بتبعة كبيرة نسبياً .

وصف النقيب هاي في كتابه التنقلات ، وقد شملته ، بغية المحافظة على موطىء قدم في أربيل والى حين وصول القطعات من الموصل . لقد وصلت هذه القطعات في اليوم الـ ١٤ من أيلول(١٠) فعمّت الفرحة المؤيدين:

---

(١٠) يمكن الوصول الى اربيل من الموصل في غضون ٢٤ ساعة على ظهور الخيل ، إن اتبع طريق (كلك) . لا يفسر الجنرال هولدين التأخير الذي

←

أحمد أفندي وخورشيد آغا . لقد كان الاول محصناً بازاء انتقام تركي محتمل ، بسبب حرمته الخاصة . لقد شغل طوال سنتين رئاسة البلدية واتجه بقلبه نحو صالح المدينة وحماية الطبقات الفقيرة من ظلم الاقطاعيين وسلبهم . لقد كان يرى أن الناس الذين يخدمهم، الصناع وأرباب الدكاكين اليتامى والأرامل ، معرّضون الى الوقوع كرّة أخرى بين براثن الشقاء . بعد أن انتشلوا منها منذ الهدنة .

أما خورشيد آغا فقد خلق زعيماً وعنيداً والتزم بالوعد الذي قطعه لابراهيم آغا حين كان على فراش الموت مسجى : في أن يسند الحكومة الجديدة لصالح الشعب الكردي دوماً .

كتب النقيب هاي يقول : لم أرَ مثل هذا التصميم في كردي آخر أبداً ، ومثل وحدة القصد المجرّدة عن الانانية ، على ما تجلّت لدى خورشيد آغا خلال تلكم الأيام السود .

ولم تقع اضطرابات أخرى في لواء أربيل ، وهو الذي يرد تحرره من الشقاء والتدمير اللذين يأتيان في أعقاب الاضطرابات والقلاقل الى الشجاعة الهادئة والافئدة الثابتة التي كانت لدى الشابين : هاي وليتلديل وعصبتهم الصغيرة من المساعدين البريطانيين والأكراد .

كان كل شيء في السليمانية ، التي زرتها جواً خلال أيلول هادئاً . لم يُنس الدرس الملقى في سنة ١٩١٩ بعد . وعلى الرغم من عدم الاسناد بقطعات جرى سون ومساعدوه الاكفاء على نهجهم السوي القاصد . ولو تركت أربيل فريسة للنهب والسلب لما استطاعوا الى المحافظة على مكانتهم

أسفر عنه التضحية بحياة الضابطين اللذين كانا في اربيل وسلامة السكان المحليين . يذكر حسب أنه بوصول القطعات أخلدت المنطقة الى الهدوء والسكينة وينسى أنه لم يتم احتلال راوندوز كرة أخرى فكانت النتيجة التي لا معدى عنها أن تصبح السليمانية بأخرة مصدر قلق واضطراب .
(المؤلف)

سبيلاً • وما دام مظهر الحكومة فيها وفي كركوك ماثلاً للعيان فان زعماء القبائل كانوا قادرين على معالجة أمر المفسدين المعتادين على الافساد • وكان كثير من هؤلاء يتحرك في مثل هذا الوقت بعينه • ومنهم من كان من دعاة البلشفة الذين يجمعون الى اجتداء الأجانب الشديد الكلف بحقوق الانسان عموماً ، ومساندة من يخرق القانون خصوصاً • لقد سعوا الى الحصول على السلاح التركي والعتاد بكميات جسيمة ، فكانت تجارتهم رابحة • وكان الآخرون من أنصار الشيخ محمود يداعبهم أمل عودتهم الى السلطة • ومن المستحيل أن يقرر انسان ما مدى الاصالة في ولائهم ، وما مدى نجومها من شهوة السلطة والسلب والانتقام الشخصي • كنت تجدهم في الدرجة الاولى بين صفوف الهماوند ، وهي أشجع القبائل وأشدها كلفاً بالسلب والنهب • لقد كانوا يفخرون بأنهم ذئاب كردستان وما كانوا أقل شأناً في ميدان المراوغة ، وأصعب في باب المعاملة من مَن على شاكلتهم الأسلاف •

وحذا الشيوخ النقشبندية(١١) حذو نقيب بغداد ، وأسرته ، وانثنوا بكليتهم الى (الادارة الجديدة) ، مصطنعين نفوذهم لصالحها • فإليهم يزجى الشكر الى حد ما ، والى نوعية الادارة البلدية والاجراءات التأديبية المتخذة في الصيف الذي مضى ، بالدرجة الاولى ، ذلك أن السلم في المنطقة لم يكرّه مكرّ ، طوال سنة ، أبداً •

وأثارت القبائل القاطنة الى الشرق ، والشرق الشمالي من الموصل ، قلقاً لنا ، لكنها تلقت درساً خلال سنة ١٩١٩ أيضاً ، ولم تثر منها إلاّ (السورجي) القاطنة في منطقة عقرة • لقد عالج أمرها ، على غير سداد

---

(١١) انهم على المذهب الشافعي ، وهم على العموم على طريقتين :
(آ) نقشبندية و(ب) قادرية ، وتتبع النقشبندية تعاليم شاه نقشبند (المعروف بشاه بخارى) وهو خليفة أعقب الأئمة ال ١٢ ، والشيوخ الحاليون من أحفاده • (المؤلف)

وهدى رتل انفذ من الموصل خلال الاسبوع الأخير من أيلول ، ولم تقهر نهائياً إلاّ عندما هاجم ٦٠٠ من آحادها ، منكوردي الحظ ، معسكر الآثوريين ممن جرى تبادلهم والذي يبعد ٣٠ ميلاً الى الشمال ـ الشرقي من الموصل .

وعلى الرغم من أن الآثوريين كانوا قلة بالنسبة لمهاجميهم ، إلاّ أنهم استطاعوا اختصار الأمر معهم . لقد قتل من بينهم ٤ وجرح ٨ ولكنهم استطاعوا أن يذبحوا ٦٠ من أعدائهم ، ويطردوا بقيتهم عبر نهر الزاب ، وقيل أن ١٤٠ كانوا فيه من المغرقين . لقد تكبد الإكراد في هذه المشاغلة من الضحايا ما يزيد على ضحاياهم بنتيجة الحركات التأديبية التي جرت على يد القوات النظامية بازاء الأكراد الشماليين سنة ١٩١٩ ــ ١٩٢٠ ، لكن الجنرال هولدين يقول بصدد هذه المساعدة العرضية المحضة ما نصه: « من المحتمل أن شطراً كبيراً من الموصل كاد يغرق في موجة من حال فوضى ». لعل ذلك كان صحيحاً ، لكن عون الآثوريين لم يكن عرضياً . لقد جرى تسليحهم باقتراح من (الادارة المدنية) وكان يقودهم ويدربهم ضباط بريطانيون . ولما كان استخدامهم من قبل السلطات المدنية لانقاذ أربيل أو المحافظة على الأمن والنظام في لواء الموصل ممنوعاً ، لذلك يجب أن نفرض أنهم كانوا تحت تصرف القائد العام . ولعل الجنرال هولدين قد نسى على ما نسى (ويلنكتون) في (واترلو) من قبل وجود شطر من قواته ، لذلك يعزو الى الطالع الحسن ما يجب أن يرد في الحق الى سوء التبصّر لدى أكراد السورجية ، حين هاجموا رتلاً سيّاراً كان على استعداد للمبادأة من دون ايعاز يصدر من المقر العام . ان هذه الضربة الناجحة التي جاءت في اللحظة المناسبة ذات قيمة عظيمة جداً . لقد انعدمت بعدها الانتفاضات، واستطاع الجنرال هولدين أن يركّز انتباهه على الفرات الاوسط ومنطقة ديالى ، والى ذلك سأعود ثانية واسترعي انتباه القارىء .

لم تحدث حتى اليوم الـ ١٢ من آب انتفاضة حقة بين بغداد والرمادي أو على الفرات حوالي الفلوجة • وبقي الشيخ علي السليمان ، شيخ الدليم ، ثابتاً ، أما قبيلة زوبع التي يرأسها الشيخ ضاري ، فقد كانت نحسة، لكنها لم تكن فعّالة (كذا) • وجاء (ليچمن) بالسيارة يوم الـ ١١ من الشهر للبحث في الوضع ، وكان مطمئناً الى انه ما دام علي السليمان يقبض على زمام الدليم فلن يحدث اضطراب خطير في المنطقة الكائنة بين بغداد والفلوجة •

غادر ليچمن دائرتي في نحو الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي وقال انه سيكون في الفلوجة في الساعة الثالثة ، وسيبرق إليّ تفصيلاً • وأضاف الى ذلك انه أخبر الشيخ ضاري بأن يقابله في (خان نقطة) الكائن على منتصف الطريق بين بغداد والفلوجة ، كما طلب تخويله استعادة بعض السلف الممنوحة للشيخ ضاري لشراء حب الحصيد ، خلال السنة الماضية • إن ما حدث خلال المقابلة ، بقدر ما اتصل بعلمنا ، دوّنه الجنرال هولدين في [(كتابه) ، ص١٧١ من الاصل] واليك ذلك نصاً :

« وفي نحو الساعة ٣٠ : ١٢ ركب ليچمن سيارته ومعه سائقها وخادمه والتقى بضاري عند مدخل الخان وشرعا يبحثان في بعض القضايا المتعلقة بالحاصلات والواردات ، حتى الساعة الثانية من بعد الظهر ، وحوالي هذا الوقت ، وصلت جماعة من العرب بإحدى السيارات فأفادت أن سيارتها أوقفت باتجاه بغداد بغتة وسرقت جهرة ، وكان ذلك على مسافة ميلين من الخان • وسرعان ما أرسل ليچمن أحد ضباط (المجندين: الشبانة) وعشرة منهم وخمسة من رجال قبيلة زوبع للقبض على السرّاق ، وأمرهم ألاّ يتعدوا مسافة ميلين من الخان • وترك ضاري وجماعته (الخان) خلال غياب هؤلاء الجنود ، وذلك إثر مناقشة حادة دارت بشأن السرقة المذكورة، التي عزيت الى عشيرة زوبع نفسها • ثم سرعان ما عاد ضاري وطلب الى

الحارس أن يسمح له بالدخول لمحادثة « الحاكم السياسي » ، فصدر الأمر بإدخاله ، وما أن دخل إلاّ أطلق اثنان من أتباعه ، وأحدهم ابنه : سليمان، النار على ليچمن فجرحوه جرحاً بليغاً ، وما إن سقط على الارض إلاّ دخل (ضاري) نفسه فسأله ليچمن : لِمَ أطلق النار عليه ، مع انه لم يضرّه شيئاً، وهنا استلّ ضاري سيفه وأجهز على ليچمن •

لقد كانت وفاة ليچمن ضربة قوية وجّهت إليّ شخصياً ، ذلك أني كنت أعرفه منذ سنة ١٩٠٤ ، وارتبطت معه برباط وثيق منذ نيسان سنة ١٩١٥ • لقد كان ، على ما قلت في موضع آخر شخصية بارزة معروفة في جميع أنحاء العراق • لقد شاع اسمه وذاع على لسان العرب بسبب من شجاعته ومعرفته الوثيقة بالشعب الذي كان يتعامل معه • وقد سُمّي باسمه الاطفال وانك لتجد منهم في كل قبيلة على دجلة (كذا) • لقد كان موته إرهاصاً بنجوم سلسلة من الانتفاضات على الفرات بين هيت والفلوجة، ولعله أسرع من انتفاضة شهربان بعد أيام قليلة • لقد قام رتل تأديبي بالثأر لمقتله ، وكان ذلك خلال شهر إيلول ، وعلى ما يورده الجنرال هولدين في (كتابه) مفصلاً ، ولكن لم يلق القبض على الشيخ ضاري إلاّ بعد ٨ سنوات ، وجرى ذلك على يد سائق عربي (كذا) ، كان قد عرفه وعلم أن ثمة جائزة تمنح عن رأسه • ومات بالسكتة القلبية في السجن ، في كانون الثاني سنة ١٩٢٨ ، وقبل أقل من يومين من صدور حكم بالسجن المؤبد عليه من قبل المحكمة الكبرى • وانه لتعليق ممتع يتصل بسكان بغداد حين جعلوا من الاحتفال بدفنه مظاهرة ، سار فيها نحو ٨ آلاف من الناس(١٢) •

ونقل جثمان العقيد لجمن الى الفلوجة ليوارى فيها التراب ، لكنه يرقد اليوم في المقبرة العسكرية في بغداد •

كان أن انهالت علينا الصعاب قوية سريعة • لقد أسيء تنفيذ محاولة

---

(١٢) The Times, Ist Feb. 1928. (المؤلف)

انصبّت على الحركة ببغداد • وقد أفلت الآن من أيديهم زمامها • وفي اليوم الـ ١٠ من آب جنحت الى الساحل السفينة (كرين فلاي) وكان ذلك في الفرات الأدنى على بعد خمسة أميال شمالي (الخضر) وفشلت كل محاولة في جرها منه • ولو نبذت السفينة ونقل منها نوتيتها لأُنقذت أرواح كثيرة، لكن آراء مغايرة علت على ذلك • وفي وقت متأخر بذلت جميع المحاولات لإنقاذ النوتية ، وهم الذين اضطروا بسبب الجوع القاتل الى التسليم بأخَرة ، وكان ذلك يوم الـ ٣ من تشرين الاول ، فقتلهم إثر ذلك العشائريون على بكرة أبيهم •

أعاد الجنرال هولدين طبع كتاب مؤرخ بتأريخ الـ ٣٠ من ايلول، ورد عليه من رئيس الباخرة (كرين فلاي) : الملازم هيدجر ، المنسوب الى دائرة النقل المائي الداخلي ، وكل سطر فيه يفصح عن بسالة نادرة : « لقد أطبقت عليهم — على ما كتب سر المر هولدين — مظلة من وديقة الصيف ، ولم يكن عندهم طعام ، وليس لديهم من شراب إلاّ ماء النهر الكدر ، فأخذوا يموتون ببطء جوعاً ، وهم لا يعلمون أن كل محاولة تنصبّ لإنقاذهم طراً • كان ذلك هو المصير المحتوم لمن كان على ظهرها » • على أن آمر السفينة كتب قبل ثلاثة أيام فقط من هذه الخاتمة قائلاً :

«إن التقدير الذي حبانا به آمري : الجنرال هيوز ، هيئة النقل الداخلي المائي ، كان له رجع شديد ، ولقد تلقاه كل من على ظهر السفينة بلسان يتطرّب شكراً وحمداً ، وإنا لنبادله ذلك بوعد القيام بواجبنا مؤكدين له اننا ، وقد صمدنا فيما مضى ، سنصمد حتى تصل قطعاتنا فتنقذنا • ومما يشيع في النفس سروراً أن نعلم ان العون آتٍ الينا حقاً • اننا سنصمد (وسنصمد أكثر إن كان القرويون أصدقاءنا) شريطة أن نحصل على الطعام ولا نتكبّد خساراً كبيراً • وأود أن أقول مرة أخرى إننا نرغب جميعاً في الصمود ، ولدينا الاستعداد الروحي لذلك ، ولعلنا لا نملك القوة في

الوقت الحاضر • إلاّ أننا نملك القابلية لمواصلة الصمود الى أطول وقت مستطاع والى النهاية • إننا جميعاً لشاكرون للحامية شعورها الرقيق ونأمل أن نراكم قريباً » •

إن كان أصل هذا الكتاب لا يزال موجوداً ، واني آمل أن يجد في يوم من الأيام مقامه المحترم في محفوظات أو معروضات (صنف الهندسة الملكية) • إنه ليستحق شهرة تعدل شهرة سكوت ، صاحب القارة المنجمدة الجنوبية ، وانه لأفضل دليل ، إن احتاج الأمر الى دليل ، على أن الروح التي دعمت الجنود خلال الحرب بقيت سائدة في الذين كان واجبهم يقضي بمخاصمة متعطشي الدماء القاطنين في بطائح العراق (كذا) •

وقتلت قبيلة الجويبير ضابطين من القوة الجوية الملكية ، وهي التي تتحمل تبعة قتل نوتية الباخرة (كرين فلاي) أيضاً ، وكان مقتل الضابطين يوم الـ ٢٢ من أيلول ، وحين كانا يحاولان نقل الجراية الى الباخرة المنكودة الحظ جواً •

وفي نهاية آب أصبح الوضع في السماوة مبعث قلق ، على حظ كبير من الخطر ، ذلك أن قد هوجمت قافلة نهرية تحمل اليها الميرة من الناصرية • ثم كان ان استوت إحدى سفنها (اس/٩) الى اليبس ، فتم الاستيلاء عليها ، واشعلت النار فيها ، وذبح كل نوتيتها • واستوت جنيبة (دوبة) محمّلة بالعتاد الى اليبس قرب السماوة أيضاً وخلفت ظهرياً ، ثم بلغت بقية القافلة غايتها بسلام • وهاجم العرب القطار المدرع القريب من السماوة ، المعزول عن الحامية ، واستولوا عليه ، وقتل كل رجل فيه تقريباً ، وجلّ من كان ينتسب الى سوارية (خيالة هدسن/١٠) • وسرد الجنرال هولدين في كتابه (ص٢٠٨ وما بعدها) الحركات شرحاً جلياً •

لقد أظهرت شجاعة مستميتة بازاء جموع غفيرة • إن آمر المفرزة (النقيب رسل) والنقيب هندرسن ، اللذين بحثا معي قبل أسابيع احتمال

التحاقهما بـ (الادارة المدنية) ، مقاتلاً ببطولة ثابتة مصممة حتى النهاية • إن قلة من الرجال باعت أنفسها بأعز مما باعا نفسيهما ، وكان ذلك خلال القتال الذي استطال لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات • وكان معهما النقيب بجن المنسوب الى مصلحة الصحة الهندية ، وهو الذي أخرج ورقة نقد من فئة عشر روبيات ، والقتال مستعر ، ورماها من القطار ، وما ان اندفع العرب وتكأكأوا عليها ، إلاّ رمى بقنبرة بينهم ، فقتل ، وشوّه أجساد عشرات منهم • إن الشجاعة التي أظهرها هؤلاء الرجال ومن معهم من (السوارية) ستبقى عالقة في الاذهان على الفرات والى ما بعد النسيان المتسامح الذي سيعفو على أصول الثورة •

كان الاهتمام بالثورة المتخلفة الناجمة في الشمال الشرقي من بغداد قليلاً • لقد اسبغت عليها صفة خطر اسطوري ، واتسعت كثيراً إثر الحادث المؤسف الذي وقع يوم الـ ١٢ من آب قرب بعقوبا ، ولكنها لم تبلغ سعة الحركة التي نشطت على الفرات أبداً • لقد كان التراص الذي أحدثه الضباط الشريفيون الذين كانت تسندهم المنحة المعطاة الى حكومة سورية مفقوداً ، لذلك كانت الثورة في هذا المآل فاترة فردية • وما كان ثمة عمل متضافر بين العشائر إلاّ في القليل ، وعلى الرغم من أن الهجمات التي كانت من يؤمل حدوثها في مثل هذه الارجاء عندما تغيب عنها الحكومة المدنية موقتاً • وانهارت المقاومة حالاً بوجه إظهار القوة بشكل يستلفت النظر • لقد جرى احتلال بعقوبا وشهربان ودلتاوة في أيلول من دون إعسار • وكان النقيب لويد قد أوقف في الموضع الأخير على شكل أسير محترم ، وذلك من قبل الشيوخ البلديين ، واليك قبساً مما أورده الجنرال هولدين في كتابه (ص١٦٨) : « لذلك انزل العقاب اللازم لدى وصول القطعات » • إن هذه العبارة تظهر التباين بين التساهل العاجز الذي بدا في شهربان ، حيث ذبح الموظفون البريطانيون ذبح النعاج ، والقسوة

(ولا نريد أن نستعمل كلمة أشدّ منها) التي عومل بها من حموا النقيب لويد على يد رتل التأديب • إن الاجهاز التام على دلتاوة حيل دونه، لحسن الحظ ، وكان السبب في ذلك احتجاجات قدمها موظف زراعي صحب القطعات باعتباره ذا صفة سياسية •

وفي سرد الحركات التي جرت في الشمال ـ الشرقي من بغداد ترك الجنرال هولدين القصة الجانبية للطبيب الذي أسّره الثوار في خانقين ، بسبب من تصرّفه الشجاع ، وانقذته القطعات ، لكنه القي القبض عليه إثر ذلك مباشرة • وبعد لأي استطال ، أتّهم بأنه ينشر الذعر والفزع عن طريق كتابة خطاب الى شخص لا يعرف من هو ؟ • كما ان الخطاب لم يصل الى منتهاه ولم يكن يحوي على شيء ذي طبيعة مضرّة • وقد جرى ذلك تحت ضغط وتنكيل • لقد جيء به الى مجلس تحقيقي ، ثم برّئت ساحته لغياب جميع الشهود المهمّين الذين كانوا يقومون بواجباتهم في مكان آخر •

بقي أن نسجل سير الحوادث في الكوفة ، التي ضرب الحصار عليها منذ الـ ٢٠ من تموز • حمداً لبعد نظر الحاكم السياسي الرائد نوربري وشكراً إذ تم الحصول على كمية طيبة من مواد الطعام محلياً، وبذلك استطاع الجنرال هولدين أن يعالج الوضع العسكري في المنطقة على ما يريده • ولولا النكسات المتتابعة التي عانتها قواتنا العسكرية ، جنوبي الحلة أولاً ، ثم في الرميثة والسماوة ، لما استطاعت القبائل في لواء الشامية أن تثور • وما كان عندها أن تشكو منه • لقد كانت (الادارة المدنية) عموماً محترمة، وممثلوها على انفراد ، وأخص بالذكر منهم الرائد نوربري والنقيب مان • إن سلفي هذين الضابطين ، بلفور ووينغيت ، كانا قد مارسا سلطتهما بحكمة وتعقل ، وعلى الوجه الحسن ، وكان العقاب الذي أُنزل في النجف بسبب مقتل النقيب مارشل ما زال ماثلاً بجدة في أذهان الجميع • إن كل

ما كان يشغل بال الحكام السياسيين هو الحيلولة دون نجوم اضطراب فعّال ، وكادوا أن يصيبوا في ذلك نجحاً • وكان الرائد نوربري يتمتع بنفوذ عظيم في النجف ، حيث تلقى الناس خبر القاء القبض في كربلاء على مرزا محمد رضا نجل مجتهدها الأعظم بهدوء ، وهو أمر غير مرتقب• وفي اليوم الاول من تموز أعد الرائد نوربري العدة لمقابلة زعماء عشيرة الفتلة في مقر زعيمها الأسمي مقبل الفرعون وهو رجل أنيس وقوي • ولم يكن الاجتماع شاملاً ، وقد دبّرت مظاهرات عدائية بصورة مسبقة قام بها بعض الافراد • وعقد مؤتمر آخر يوم الـ ٥ من تموز بين النقيب مان والشيخ مرزوك ، وهو من قبيلة العوابد ، وأراضيه محاددة لأم البعرور • ولم يسفر هذا المؤتمر عن نتيجة أيضاً •

ولقد انفرد بالأهمية السيد علوان ، الذي كان يفصح عن شعور عام حين قال : « لقد قدّمتم لنا الاستقلال ، وهو ما لم نطلبه أبداً ، وما كنا لنعلم به ، حتى غرستم فكرته في أذهاننا • لقد عشنا مئات السنين في حال أبعد عمّا تكون عن الاستقلال الذي يمكن تصوّره ، واليوم نحن نطالب به فتعمدون الى القائنا في غيابة السجن(١٣) •

إن الاستقلال في ذهنه ، وفي أذهان غيره ، لا يفضي بواجب مقابل • انه يعني الاستقلال العشائري ، ومحافظة الرؤساء ، في قابل الأيام ، على ما عندهم من سلطة مطلقة ، يمارسونها في حياة وممتلكات أبناء العشائر قاطبة • انهم على غرار أرقّاء الانبراطورية الرومانية ، لا يستطيعون نقل ولائهم إلاّ نادراً ، ومن دون أن يفقدوا كل غال وعزيز لديهم في الحياة ، وحقهم في الأرض وصلاتهم العائلية ومركزهم العشائري ، وهو كل شيء

---

(١٣) قارن ذلك ببرقيتي المؤرخة ٣٠ تشرين الثاني ١٩١٨ « ان الافكار التي يرتكن اليها التصريح الانكليزي ـ الفرنسي بالنسبة الى سكان هذه البلاد غير مألوفة » • (المؤلف)

في نظرهم ، وبأكثر ما تعنيه الجنسية بنظر الأوربي السوي •

لقد كانت مشكلة اليوم هي الحيلولة دون أن تعقد بنو حسن الخناصر مع الفتلة النافرة ، وضمان حياد الخزاعل وأتباعها : الشبل • وتراءى أن الهدف الأخير قد أُدرك عن طريق مؤتمر عقد في (أم البعرور) يوم الـ ٦ من تموز بين الرائد نوربري (مصحوباً بالنقيب مان) وثلاثة من شيوخ الخزاعل، حيث تعهد الأخيرون بمساعدة الانكليز لقاء وعد بإعطائهم الأراضي التي نقل الاتراك ملكيتها وأعطيت الى الفتلة •

لكن كسب بني حسن كان أمراً بعيد المنال • وخاطر (مان) بحياته وصحب (مرزوك) ومعهما حراس عرب ، وقام بجولة في اللواء • لقد كان خدامه وخدام بقية الحكام السياسيين يحذرونه كل ليلة من عدم تعريض نفسه الى خطر النوم خارج البيت (وهو أمر معتاد في الصيف) ، والنوم على السطح ، وثمة ما يحمل على الاعتقاد بأنه أفلت من الاغتيال في إحدى سفراته لسبب واحد هو انه عاد من طريق مختلف• وكان أحد أعز الأصدقاء وأكثرهم نفوذاً ، أعني الشيخ لفتة الشمخي من بني حسن على حال من مرض بحيث لم يستطع الى مقابلته سبيلاً ، فقام زعماء الفتلة بإرشاء شخص آخر هو علوان الحاج سعدون وقدموا له مبلغاً مقداره ١٠٠٠ جنيه، كما قاموا بتقديم مبالغ كبيرة ، من وراء ظهر الخزاعل ، الى الشبل ، وهذه قبيلة وان لم تكن ذات صلة بالخزاعل من ناحية الأصل ، لكنها تتبعها ، إذا ما دارت رحى الحرب • وقابلت (الادارة المدنية) هذه العروض بعرض مقداره ٢٠٠٠ من الجنيهات يدفع بوساطة الخزاعل الى الشبل لقاء تعبئة قوتهم المرتقبة ولكيلا يتعرضوا الى نفوذ خارجي • لكن الشيوخ النافرين كانوا قد حصلوا على رصيد عظيم في مساندة رجل ثري جداً ذي نفوذ كبير اعني : السيد نور • وفي الوقت نفسه أخذت الفتلة يوم الـ ١٣ من تموز بمحاصرة الكوفة •

بدأ الحصار يوم الـ ٢٠ من تموز • وبعد يومين أطلق الرصاص على (مان) فخرّ صريعاً ، وكان ذلك قرب الرائد نوربري وإبان مشاغلته في الدفاع عن الكوفة • ولم يصل الخبر بغداد حتى اليوم الـ ٢٠ من تشرين الاول ، وبعد رفع الحصار • إن موته لخسار حق بالنسبة للـ (الادارة المدنية)• لقد أظهر قابلية على العمل الذي كان يشغله فبلغ درجة النبوغ • لقد حباه الله مقدرة لغوية خارقة وشجاعة معنوية وجسمية نادرة • إني لأذهب الى أنه ترعرع في جو من الراديكالية العقائدية الى حد ما ، وان تبدل النظرة إثر اتصاله لأول مرة بالعمل الواقعي الذي تصرّفه الادارة وتعقيدات سياسة ما بعد الحرب ظاهر في عديد من الرسائل الممتعة أرسلها الى صديقه الأستاذ كلبرت موراي والى صحيفة (ذي نيشن) مما يدلّ على نضوج حنكته السريع وبعد نظره في طبيعة الناس الذي قدّر له أن يتصل بهم •

وبعد حصار دام ثلاثة أشهر تقريباً ، وفي اليوم الـ ١٧ من تشرين الأول انقذت الحلة على يد رتل أُنفذ من الحلة • وقد قتل من الحامية التي عاشت على الرز ولحم الخيل خلال الأسابيع الثلاثة الاخيرة ٢٥ وجرح ٢٧ •وكانت الحامية في الغالب تحت نقمة قذائف مدفع ، ذلك ان العرب كانوا قد استولوا على مدفع من عيار ١٨ باوناً ، يوم الـ ٢٤ من تموز ، استطاعوا به تحطيم الباخرة (فاير فلاي) التي كانت راسية على مقربة من البيوت التي تحلّ فيها الحامية • وحاول العرب اشعال النار في البيوت ، ثم تفجير لغم بأخَرَة • وخيّب هذا الفشل أملهم ، واستحال الحصار الى إماتة الحامية جوعاً • حمداً لبعد نظر الرائد نوربري وشكراً حيث كان قد أعد مؤناً كافية من المصادر البلدية ، لكن هذه السياسة كان مصيرها الفشل المحتوم• إن الفضل الرئيس في موضوع الحصار الناجح يرد الى مفرزة مؤلفة من ١١٥ من الشرطة العرب والمجندين ، وبضمنهم عدد من الفرس ، التي تؤلف نحو ربع قوة الحامية الحقة • لقد تعرضوا قبل الحصار وخلاله الى ضغط

معنوي قاس عساهم ينبذون ولاءهم بازاء ضباطهم البريطانيين وينضمون الى من هم على دينهم لتطهير العتبات المقدسة والتربة القدسية في وجود الكفرة • لقد تجلّت روح الولاء عندهم عند المحك ، إذ لم يطع أحد منهم، إلاّ في النادر القليل ، دعوة رجال الدين ، ان التهكمات القاسية التي كان ينهال بها عليهم أصدقاؤهم ومواطنوهم في المقاهي والنداءات الحارة التي كانت توجهها اليهم نسوتهم لم تجعلهم ينحرفون عن طريق الشرف (كذا) الذي اختاروه لهم سبيلاً • لقد التزم المجتهدون الكبار في النجف ، وفي مقدمتهم المجتهد الأعظم الموقر : سيد محمد كاظم اليزدي جانب الصمت المرعب ، لكن الطبقات الدنيا من رجال الدين تبارت مع القادة الوطنيين في مخاطبة الجماهير على أساس من الدين والعنصرية لمحو آخر آثار الاحتلال • وكانت حجج الجانبين مشابهة ، سواء من حيث المادة أم من حيث طريقة العرض ، لما قدّم في صالح إنقاذ الارض المقدسة من قبل رؤساء كنيسة المسيح في القرن الحادي عشر • لقد دعمت بكل فن تبدعه العبقرية• لقد منع دفن من مات في خدمة الادارة المدنية على الاصول الاسلامية ، وان زوجات الذين بقوا موالين لنا الزمن ، بوجه ما ، بالعودة الى مضارب آبائهن ، وفي حالات أخرى أعتدي عليهن علناً وضرب أطفالهم بقسوة في الشوارع •

وبقيت الشبانة والشرطة، باستثناء قلة لا تجدر بالذكر ، صادقة موالية لضباطها البريطانيين «المستجدين» الذين يتكلم الجنرال هولدين بلهجة الاحتقار أحياناً ، ولا يقل عن ذلك فضلاً ما كان عليه تصرّف القطعات الهندية — وكلها مسلمة — والتي كانوا معها على اتصال ، ذلك انه لم يكن في الحامية إلاّ حفنة من الجنود البريطانيين• لقد كانت الوحدات البريطانية في بلاد ما بين النهرين خلال سنة ١٩١٩ و١٩٢٠ مؤلفة في الغالب من جنود لا قيمة كبيرة لهم بسبب طراوة سنهم وقلة تجربتهم • إن الجيش الهندي

هو الذي نزلت به نازلة القتال الأشد والاسوأ الذي جرى في بلاد ما بين النهــرين .

وكان قد حشر في النجف الكائنة على بعد أميال قليلة من الكوفــة نحو ١٧٠ من الاسارى، منهم نحو ٨٠ إسيراً ينتسبون الى كتيبةمانجستر. إن أول خبر عنهم ، إثر القبض عليهم يوم الـ ٢٤ من تموز ، أرسله ابن عم صاحب السمو اغا خان(١٤) أعني حميد خان الذي كان يمثل الادارة المدنية في النجف منذ كانون الاول سنة ١٩١٧ وقدموا بوصفه هذا خــدمات على أثمن وأخلص وجه . وعلى الرغم من قدح أصدقائه وتهديدات إعدائه بقي في منصبه في النجف . لقد أخبر أن الأســرى عوملوا من قبل العشــائر معاملة قاسية ، إذ يطلب اليهم أن يسيروا الى الكوفة ومنها الى (أبوصخير) حفاة ، وعراة تقريباً . ودفن بعضهم في النجف إلاّ أنهم أخرجوا بعد ذلك بالنظر الى احتجاج بعض السكان المتعصبين . ثم كان ان تم جمعهــم في النجف في خاتمة المطاف ، حيث كان يعمل حميد خان في سبيل رعايتهم من دون كلل أو ملل ، واعداً وجهاء المدينة ان كل مال يجودون به على الأسرى لن يسدد حسب ، وإنما سيحسب لهم أجراً يوم الــدين . إن معاملتهم في النهــاية كانت حسنة ظاهرة مما كانوا عليه من حال صحية وحسن تغذية ، عندما أطلق سراحهم . ولم يمت منهم في الأسر إلاّ واحد فقط .

لعل هذا مكان نسف صحــة عبارة الجنرال هولدين حين إشــار الى العرب العراقيين قائلاً : « ان طرائقهم القاسية في معاملة اسراهم ســيئة السمعة وهي تعيد الى الذاكرة ما وصف في كتاب الشهداء لفوكس » .

---

(١٤) ينقل الجنرال هولدين عن الاغا خان (الذي يثني على حكــمته) انــه لا يحب فكرة المجندين البلديين ، وانه يفضل اعطاء البقشيش وتشكيل عدد من الجمهوريات الصغيرة في العراق، والسماح للقاطنين فيها باتخاذ ما يرونه في سبيل خلاصهم ، اني لأستنتج من هذه ان سموه لم يحـظ ببحث في أمثال هذه الامور مع ابن عمه : اغا حميد خان .
(المؤلف)

كنت قد تكلمت عن قسوة الاتراك في معاملة أسراهم في كتابي هذا • لقد أجرم العرب والاكراد ، في الأحيان ، وبارشاد من الاتراك ، لقد ذكرت حوادث عديدة قتل فيها العرب الأسرى والجرحى ، ومرد ذلك الى شهوة سفك الدماء تارة والى الشعور الديني (كذا) تارة أخرى ، لكنني لا أتذكر حادثة واحدة وردت في سجلات شعبة الاستخبارات التابعة للسلك السياسي من حوادث التعذيب المقصود جرى على أيدي العرب ونزل باسراهم •

لقد كانت الصعوبات التي جبهتنا في النجف عظيمة جداً ، لكنها كانت مساوية ، إن لم تفق عليها ما جوبهنا به في كربلاء ؛ حيث القي القبض فيها على عشرة من زعماء الثورة يوم الـ ٢٢ من حزيران من قبل الشرطة المحلية وبعون من خان بهادر ميرزا محمد الذي كان يمثل الادارة المدنية في هذا الموطن من مواطن التعصب الديني (كذا) • وكان من بين من ألقي القبض عليه ابن المجتهد الأعظم ميرزا محمد تقي ، وهو الذي حاولت إن أحصل منه ، في مرات عديدة ، على استنكار للوثائق التي كانت تنتشر بين العشائر وعليها توقيعه ، فلم أصب في ذلك نجحاً • لقد كان الرجل الهرم على غرار ما وصف (حبون) البابا ليو التاسع : « قديساً ساذجاً ، ذا مزاج يدعو الى أن يخدع نفسه والعالم أيضاً (كذا) وان شخصيته الموقّرة لتكرّس اسم الاجراءات القدسية التي لا تتفق إلاّ في الأقل مع ممارسة الشعائر الدينية» • ولم يكن في من أنجب حظيظاً • لقد كان منخدعاً بدعوى السلطة الدينية التي كان يردها الى تميّزه الروحاني ، لذلك لم يظهر إلاّ القليل من المجاملة الى عاهل فارس حين قام بزيارة كربلاء قبل أشهر قليلة مضت •

حقاً لقد رفض أن تذيل فتوى باسمه وتلزم أتباعه من المسلمين، الذين ينخرط فيهم جميع أبناء العشائر القاطنة على دجلة الوسطى والجنوبية ، والفرات أيضاً ، بالجهاد • لقد رفض أيضاً حتى اعلان حالة الدفاع ، وبموجبها يصبح من واجب كل مسلم أن يعدّ العدة للدفاع بازاء أعداء

الاسلام الروحيين والمدنيين ، إن تعرض الدين الى سوء النية لدى النظر أو قسوتهم الساطية . على انه حين زوّر توقيعه على الوثيقة ، لم تكن لديه الشجاعة اللازمة ، أو لعل العقيدة ، التي تحمله على انكار التبعة. لم يطل عمره ليشهد نكسات القدر التي نزلت بأتباعه المضللين بعد أشهر قليلة، لكن المشاعر الطائفية التي أختير لها كما أختير أصدقاؤه كانت لا تزال قائمة ولمدة عقد من السنين ، ومبعث ازعاج بالنسبة للحكومة الوطنية العراقية .

كان خان بهادر ميرزا محمد ، من جميع الوجوه ، رجلاً عظيماً (كذا). إنه فارسي الجنسية ، ولد في بغداد وهو من أسرة كانت في خدمة دار المقيم البريطاني والقنصلية العامة لمدة جيلين . لقد شغل ، بوصفه السكرتير الشرقي لسر پرسي كوكس ، قبل سنة ١٩١٤ في مفاوضات مهمة جرت في الخليج العربي وخليج عمان . لقد كان من درّاس العربية الناطقين بها بطلاقة ، وكان يتكلم الانكليزية ويكتب بها على الوجه الممتاز . إن قائمة الكتب الانكليزية الخوالد التي ترجمها لفائدة بني جلدته لطويلة . وكانت له معرفة حقة غير مألوفة بالقوانين الهندية والتركية وبالشرع ، ومارس لمدة سنتين القضاء تحت اشراف دائرة العدل . لقد كان عليه أن يصبر على إهانات بني جلدته أيضاً والخطر الذي مبعثه الوطنيون ، وقد كانوا أقوى في النجف ممن في كربلاء ، يضاف الى ذلك : ان طرائقهم كانت أكثر احتيالاً ، فالمطبعة كانت طوع بنانهم تنشر لهم منشورات مبتكرة . ومن هذه ما اتخذت ، كنص ، ذي أصل مصري ، واشارة الى حملة الجنرال اللنبي في فلسطين التي ذكرها لويد جورج : (انها آخر الحروب الصليبية وأعظمها) . انها تورد شيئاً مختصراً للفضائح الوحشية التي قامت بها البربرية المتعصبة للحملات الصليبية الاولى ، ودعت جميع المسلمين الى مقابلة محاولات الدول المسيحية المخاتلة في فلسطين وسورية والعراق، على حد سواء ، الى نسف دينها والى ترذيل أعرافها عن طريق جهات من أمثال

المدارس الحكومية والتسهيلات التربوية المعدّة للبنات ، والمستشفيات العامة والقوانين الصحية ، وما اليها • لقد مثلت عن طريق نشر صورة كاريكاتورية سمجة ظهرت في مجلة (بنج) في الـ ١٩ من كانون الاول سنة ١٩١٧ بعنوان (الحرب الصليبية الاخيرة) • لقد كان لمثل هذه النداءات أثر في كربلاء ، أما الأمكنة الأخرى فكان نصيبها الاهمال ، ذلك أنها أخطأت الهدف • وتراءى أن البلاشفة وجدوا موطناً روحياً في كربلاء ، ولم يضعوا في منهجهم تحرير القوميات المضطهدة حسب ، لكن للاجهاز على الملاّكين والطبقات ذوات الامتياز في المجتمع أيضاً• لقد كان الاتجاه الصريح الى مغازلة العشائر أمراً كبيراً بالنسبة الى القادة الوطنيين ، وهم الذين سرعان ما رغبوا في الانفصال من أمثال هؤلاء الحلفاء ، وإن لم يقصروا في جلب هدايا عظيمة من المال • كان الدعاة الذين جاءوا من الأمم الأخرى ، وبضمنهم دعاة الحلفاء والدول الملتحقة بها ، ناشطين في كربلاء أيضاً ، لكنهم لم يستطيعوا أن يتقدموا خطوة واحدة الى الأمام ، فلقد كانوا يفتقدون المهارة والمعرفة اللتين تمكنهم من تصريف المبالغ التي وضعت في متناول أيديهم وصرفها في جهات مثمرة •

لقد استطاع ميرزا محمد أن يمضي في مجراه في مثل هذه المياه المضطربة ، وعلى الرغم من أنه لم يكن يجهل المكر والختل اللذين يراهما الدبلوماطيقيون الشرقيون مدعاة الى الاعجاب ، إلاّ أنه احتفظ ، على غرار حميد خان بسمعة تنصب على المعاملة الشريفة ، ذلك بالنسبة للأصدقاء والاعداء ، على حد سواء ، وهذه لن تموت ما دام هناك أشخاص أحياء يستعيدون الى الأذهان ذكرى اضطراب هاتيك الأيام • إن رحيله عن كربلاء لم يكن اعتباطاً ، فلقد جاء في أعقابه قطع القناة يوم الـ ١٤ من آب ، وهي التي كانت تجهز المدينة بالماء العذب • وما كان لهذه الخطوة أي تأثير في ماجريات الحوادث ، فالصعوبات التي أنزلتها بأهل المدينة كانت

قليلة ، وعلى الرغم من أن قوات القبائل بارتها في الميدان بحرارة ، وأعني القبائل التي قاتلت طوال الوقت بشجاعة رائعة • إن الجنرال هولدين ، وهو مَن تارة يقفز وتارة يكبو في تسجيل الحوادث العسكرية وفي تفسير أثرها في السكان المدنيين ، يذهب الى إن قطع القناة كان له أثر مهم، لكنه لا يقدّم دليلاً يسند مدعاه هذا ، وهو إدعاء يناهض جميع البيّنات التي يمكن في هذا الوقت الحصول عليها •

إن عتو الرجال الروحانيين ، في الأيام الأخيرة ، أمكن إيقافه على أيدي الملوك القوية الماهرة (كذا) ، سواء أكان ذلك في تركية أم في فارس أم في العراق • إن هذه البلدان ، وفي أيام قابلة ، ستقع من دون ريب فريسة مرة إخرى في خضم اضطرابات داخلية ، لكن من غير المحتمل أن يستجيب الناس ، كرّة أخرى ، الى ما يمليه عليهم قادتهم الدينيون • لكن الحال الفوضى ، والهياج الديني كانا خلال تلكم السنوات بدرجة ، لو ظهر أيامها شخص مرموق كمثل حمدان القرمطي (كذا) الذي ظهر في الكوفة في القرن العاشر ، ونظّم القوات المسلحة تنظيماً حسناً ووجّهها ، وأثار عصبيتها الكامنة ، لغلبت على العراق ، حيناً من الدهر ، عصابات من المتحمسين ليسوا بأقل شأناً من الوهابيين في وسط الجزيرة العربية •

لقد تم إدراك الهدف الرئيس لحركة القوات التي بإمرة الجنرال هولدين في منتصف تشرين الاول • وبصرف النظر عن انتكاسات خطيرة كان مردها جزئياً الى أسباب كان في الامكان تفاديها ، ومنها نقل القطعات الى مستقراتها الصيفية في فارس •

لقد استطاع الجنرال هولدين أن يقهر الثوار (كذا) في كل نقطة، كما استطاع أن يعاود خط المواصلات عن طريق معاقل متقنة مبنية على أساس من نظام سليم ومع كل مركز ذي شأن • ومن فضله العميم إنه قرر الآن ، وفي الوقت القصير الذي بقي له، أن يعمل كل ما يستطيع في سبيل الحيلولة

دون معاودة الاضطرابات . إنه يسجّل ذلك قائلاً : «لقد اختارت القبائل السلاح حكماً ، ولقد غلبت على أمرها وعليها أن تخضع (كذا) » . إن اشارته التأريخية غامضة ، لكن ما يرمي اليه واضح . لقد قرّر أن يعاقب، وينزع السلاح بقدر ما يستطيع ممن حارب جيش الاحتلال ، وباعتبار ذلك أفضل ما يحقق فرصة النجاح للحكومة العربية التي توشك أن تولد . وما لم يفعل ذلك ، فانه لم يكن على استعداد لاصدار العفو ومعاودة الصلات الودية التي تجيء في أعقابها .

إن هذا القرار هو الذي مكّن سر پرسي كوكس ، وقد وصل بغداد في اليوم الـ ١١ من تشرين الاول متوافقاً مع إنهيار الثورة ، من اتخاذ الخطوات المباشرة لتدشين النظام الجديد وذلك بالتشاور مع العناصر المعتدلة ومن دون أن يعرّض نفسه أو حكومة صاحب الجلالة البريطانية الى تهمة اسباغ النعم على دعاة الوطنية المتطرفين ، أو مصافحة رجال الدم . لقد انتهى الهياج الذي اجتاح السكان العرب ، وان جهوده ، على ما يعلم العالم طراً ، قد توجت بدرجة من النجاح الباهر على ما يرتجى . لقد انتقدتُ في الأحيان الجنرال هولدين ، وعارضت عباراته المتناقضة في الأغلب ، وذلك عندما كان سيد الموقف ، لكنني أريد أن أدلي بشهادة على غريزته السديدة وثباته ، على ما تجلتا في اتخاذ الاجراءات التأديبية(كذا) ثم المسالمة إثر خمود نار الثورة . وفي هذه الناحية أسدى أكثر مما يعرفه الناس بعامة في سبيل انجاح الاجراءات المتخذة خلال سنة ١٩٢١ لتأسيس الحكومة العربية .

إن المأساة على ما يذهب اليه ارسطو ، تطهّر العواطف عن طريق التقوى ممزوجة بالاشفاق . انها تستثير العواطف لكي تجعلها موالية . وفي الهدوء الذي يجيء في أعقاب العاصفة يمكن العثور على البلسم الشافي من الاضطراب العاطفي . إن ميلتون ليرى فيها معالجة تشفي

العاطفة ، بعاطفة مثلها ، لكن هذه وتلك ليستا سوى فاجعة حقاً . ففي الثورة ، على ما يقول ماكولي ، يعيش الناس أيامهم سريعاً ، إن خبرات السنين ، والعادات القديمة في التفكير والتنفيذ لتكسر بحدة .

وبالنظر الى مقياسه هذا ، فثورة سنة ١٩٢٠ لم تكن في طبيعتها ولا في نتائجها بثورة ، انها مأساة (كذا) .

إن أحزان البشرية الحقة تتألف من هذا ، انها لا تنبثق من خيبة الفكر ، لكنها تنبثق من أن مجرى الحياة ومتطلباتها وأفعالها لا تتفق مع الرغبات البشرية الرفيعة وسعتها إلاّ في النادر (ورزورث) .

* * *

الفصل التاسع والعشرون

الحوادث السياسية : حزيران ـ تشرين الاول سنة ١٩٢٠

تضم « تركية الآسيوية » سكاناً من جنسيات كثيرة ومعتقدات متعددة ، وهي لا تملك القدرة على الحكم الذاتي ، ولا تصبو الى الاستقلال . أن مرد الهدوء فيها ، والأمل في الحياة السياسية الصحيحة يعود الى : السلطان . أن حكومة الأسرة العثمانية حكومة قديمة ترتكن الى القوة بأكثر من الارتكان الى أحاسيس بالجنسية المشتركة .

في رسالة للمركيز سولسبري الى مستر لايرد (السفير البريطاني في اصطنبول) المؤرخة بتأريخ ال ٣٠ من ايار سنة ١٨٧٨ وقد اقتبسها (سر هيرلم مورلي) في كتابه الموسوم ب (دراسات في التأريخ الدبلوماطيقي : ١٩٣٠ والاوراق الرسمية ص١٣٤٧)

(Sir J. Headla Morley: Studies in Diplomatic History 1930 and State Papers).

★ ★ ★

خبِّرت يوم ال ٧ من تموز (على ما جاء في الفصل الحادي عشر) بأن حكومة صاحب الجلالة قد صادقت مبدئياً على توصياتي التي تصلح أن تكون قاعدة عامة ملائمة تُبنى عليها المؤسسات الوقتية التي ينصّ عليها الانتداب . لقد مُنحت بريطانية العظمى الانتداب ، وقبلت به ، ونيط بسر پرسي كوكس الواجب الثقيل القاضي بتدشين النظام الجديد . وفي مثل هذه الظروف يحقّ لي أن آمل بأن الخطوات الأخرى التي يمكن اتخاذها

محلياً ، سعينا وراء تحقيق هذه الأهداف سيصادق عليها من دون تأخير . وسرعان ما تبيّن أن ذلك لم يكن هو الأمر الحق .

وفي اليوم الأول من تموز أبرق لي الجنرال اللنبي يقول بأن حاكم حلب جعفر باشا العسكري ، الذي يثق فيه ثقة تامة ، عرض تقديم استقالته من منصبه وانه سيتوجه الى بغداد ليزيل سوء التفاهم الدائر حول موقف حكومة فيصل من الادارة المدنية — سوء التفاهم الذي بعثه ، بدلاً من أن يزيله ، بعض الضباط البريطانيين في سورية . لقد وصّى لورد اللنبي بقوة بأن يُطلب اليه الذهاب الى بغداد ، بأسرع وقت مستطاع .

وما كنت أعرف جعفر باشا يومذاك شخصياً إلاّ معرفة قليلة ، لكن سمعته كانت على أفضل ما تكون . فبعد خدمة ممتازة خدمها في الجيشين الالماني والتركي اختاره أنور باشا لتنظيم مجندي السنوسي . وعبر البحر المتوسط بغواصة ، وألّف من قلوب القبائل الوحشية (كذا) فجعلها أشبه ما تكون بقوة محاربة ، وأظهرت هذه مقدرة سوقية في حربها للانكليز في معركتين . ثم كان أن أسّر وأبقي عليه في القلعة ، في القاهرة . وتمكن من الفرار في إحدى الليالي ، وذلك عن طريق لفّ الاغطية ، بشكل حبل نزل بوساطته الى الخندق . لكن الحبل هذا خانه تحت وطأة الثقل ، لذلك هوى وأعيد القاء القبض عليه من دون أن يجد له نصيراً . وكان أن أعطى في المستشفى وعداً فأطلق سراحه بعد أن دفع أثمان الاغطية .

وقرأ ، في أحد الأيام ، في إحدى الصحف ، خبر ثورة الشريف ، وقيام الاتراك بإعدام الوطنيين العرب البارزين — أصدقاؤه — فأدرك أنه كان على الجانب الضال .

لقد كانت المحادثة معه على حين غرّة ، وعلى غرار محادثة القديس بولص ، لكنها كانت تامة سواء بسواء . ثم قدّر له أن يخدم في إمرة فيصل في شرقي الاردن ، وقلّده الجنرال اللنبي بحق واستحقاق وسام

(كوماندر اوف سنت مايكل اند سنت جورج) وهو يتدلّى اليوم على صدره جنباً الى جنب مع الصليب الحديد الذي حصل عليه قبل سنتين . وليس هذا مقام سرد مسهب لخدماته التالية ؛ فلقد أصبح حيناً من الدهر رئيساً للوزراء في العراق ، وتقلّد مرتين منصب وزير الدفاع ، وأعطى لرفاقه مثلاً من أمثلة النشاط والتشبث عندما اجتاز امتحان الحقوق في كانون الثاني سنة ١٩٣٠ . وكان أن استدعي في الوقت المناسب الى النقابة ، ثم غادر العراق في نيسان سنة ١٩٣١ الى انكلترة كوزير العراق المفوض فيها .

وأبرقت قائلاً : إنني سأكون مسروراً حقاً من رؤيته ، واقترحت أن يقدم اما بطريق (تلعفر) أو بطريق البحر ، وأضفت الى ذلك انني كنت أنتظر تخويلي إصدار بيان ، سبق أن اقترحته في برقيتي المؤرخة بتأريخ الـ ٢٠ من حزيران ، بغية أن أبرق مضمونه بوساطة السلطات المصرية الى دمشق وحلب . وأن أدعو الضباط البغداديين الصفوة للقدوم الى بغداد واسداء العون اللازم في سبيل وضع قانون الانتخاب ، باعتباره مقدمة التطورات الأخرى .

ورفضت مقترحي وزارة الخارجية وأعلمت ببرقية جاءت عن طريق الخط العلني ، مفتوحة الجفرة يوم الـ ٨ من تموز . ولم يذكر سبب لذلك ، لا في ذلك الوقت بعينه ولا فيما بعده ، لكن جريدة (صنداي تايمس) نشرت يوم الـ ٢٠ من أيلول مخابرة جرت بين لورد كرزن ومستر اورمسبي ــ كور (الذي أصبح فيما بعد الوكيل البرلماني لوزارة المستعمرات) صرّح فيها الأول بأن جميع إجراءاته وأفكاره انصبّت على الاسراع في تأسيس حكومة عربية في بلاد ما بين النهرين .

وعندما دافع بأفضل ما يستطيع عن عصبة الموظفين الانكليز ــ الهنود في بلاد ما بين النهرين ، فانه كان يصبو الى أن يكون مفهوماً على الوجه الجلي ، بأنه لا حكومة صاحب الجلالة ولا هو شخصياً يرغبان في تهنيد ،

أو انكلزة ، بلاد ما بين النهرين ، كما انهما لا يرغبان في إدخال إدارة بيروقراطية في هذه البلاد . ولا يمكن أن ألام ، إلاّ في الأقل ، حين اعتدت موقفه كموقف الشيطان في لعن الخطيئة . كانت الاشارة الى الموظفين الانكليز ــ الهنود على ما ذكرته في حينه ، لا مبرر لها ، إلاّ في النادر القليل ، وعلى ما يظهره تشكيل الادارة ، وان كلمة (بيروقراطية) أريد بها التحيز والتنديد على ما في الحكومات الشرقية . وحتى في سنة ١٩٢٠ كانت البيروقراطية عربية ولم تكن انكليزية . ومهما كانت هناتها ، فإنها كانت ترتكن الى قالب سابقتها التركية حتماً .

وبعد اسبوعين بلغت الحوادث في سورية الذروة . لقد تقرّر في (سان ريمو) يوم الـ ٢٤ من نيسان أن تصبح سورية ويصبح العراق دولتين مستقلتين ، شريطة أن يخضع البلدان الى الانتداب لحين استطاعتهما الوقوف على أقدامهما . وقرّر المؤتمر أن يناط انتداب العراق وفلسطين ببريطانية العظمى ، وان يناط الانتداب على سورية بفرنسة . لقد أثار هذا القرار احتجاجات جمّة في سورية ، وفجّر عداءً قوياً نحو فرنسة ، باعتبارها دولة منتدبة . واستجابة لمشاعر شعبه ، أعلن الأمير فيصل ، بوصفه ملك سورية(١) انه لا يستطيع وضع أي جزء من أراضي سورية تحت الهيمنة الاجنبية . وفي الـ ١٤ من تموز أرسل الجنرال غورو، الذي كان يقود جيشاً في سورية عدته نحو ٩٠٠٠٠ من الجنود انذاراً الى الأمير يطلب فيه ، من جملة ما يطلب ، الاعتراف بالانتداب الفرنسي ، من دون قيد أو شرط .

وقبل الأمير فيصل الانذار ، لكن الشعور العام كان بالنسبة اليه

---

(١) قدم مؤتمر من وجهاء السوريين اجتمع في اليوم الـ ١٠ من آذار تاج سورية وفلسطين الى الامير فيصل وتاج العراق الى الامير عبدالله . لقد رفضت كل من بريطانية وفرنسة اجراءهم هذا . (المؤلف)

قوياً • وكان هجوم قامت به الخيالة السورية على أحد مواقع الستر الفرنسية الأمامية إيذاناً بهجوم فرنسي عام ، أسفر عنه إبادة الجيش السوري برمته ، ثم احتلال دمشق في اليوم الـ ٢٥ من تموز ، وخلع الأمير فيصل مباشرة • وعلى ذلك سقطت، على ما يقول مؤرخ مؤتمر الصلح: تمبرلي، « حكومة الأمير فيصل المستقلة » ، وهي دولة خلقتها بريطانية العظمى وترعرعت على أيديها كجزء من الايفاء بالتزاماتها تجاه العرب •لقد سقطت لأن وجودها كان يتعارض مع المطامح الفرنسية مباشرة ، وكان ذلك في ظروف حالت دون اصطناع النفوذ الفرنسي في سبيل المحافظة عليها(٢) • ومن هذا الوقت فصاعداً ، كتب على فرنسة وبريطانية العظمى أن تتبعا سياستين متعارضتين ، باعتبار كل منهما دولتين منتدبتين على سورية والعراق على التتابع •

وسرعان ما وصل العراق نبأ خلع الأمير فيصل ، وأبرقت أقترح أن تقوم حكومة صاحب الجلالة البريطانية بعرض رئاسة دولة ما بين النهرين عليه • كانت شجاعته الشخصية ، ورفعة مولده ، ومهارته الديلوماطيقية معروفة جيداً ، فمكنته من مركز فذّ عند العرب • إن كل ما سمعته يدلّ على أنه أليق من اخوته لرئاسة دولة العراق • وكنت أدرك إن الاقتراح سيلقى معارضة من الحكومة الفرنسية ــ وقد لقي ذلك حقاً ــ لكنني شعرت بأن تنكّب الخطر أمر ذو قيمة ، وان التجربة تستأهل الأخذ بها • وكانت البرقية على الوجه الآتي :

« تذكر برقيتكم المؤرخة بتأريخ الـ ٣٠ من تموز أن الأمير فيصلاً قد غادر بأمر من الفرنسيين الى (درعا) ، في منطقة النفوذ البريطاني•وعلى

---

(٢) راجع كتاب تمبرلي الموسوم بـ
(Temberly, History of the Peace Conference Vol. VI).
للوقوف على الوضع في سورية . (المؤلف)

ما يتراءى في بغداد أن هذا يعني أمرين لا ثالث لهما : انه سيتخذ الى الحجاز سبيلاً ، أو انه يروم البقاء في شطر سورية الذي تضفي عليه بريطانية العظمى ، نفوذاً .

فلو بقي في (درعا) ودأب على الدعوى بأنه لا يزال على سورية ملكاً لجمع حوله من موظفيه السابقين عدداً كبيراً ، ولغدا للفرنسيين مصدر متاعب دؤوباً . لكن ، لو سحب دعواه في سورية واقتصر على مكانة في فلسطين أولى ، فإن وجوده سيعسّر الأمور بالنسبة للفرنسيين كثيراً ويجعلنا في وضع عسير جداً .

أفي مكنة حكومة صاحب الجلالة النظر في احتمال تقديم إمارة بلاد ما بين النهرين اليه ؟ لقد انصبّت الاعتراضات الدائرة حول خلق (امارة) حتى الآن . وبالدرجة الاولى على عدم العثور على الشخص اللائق لها . لقد اعتدنا على حجز فيصل لسورية . ولم أسمع خلال الأشهر القلائل الأخيرة ما يحملني على تكييف رأيي بشأن عدم لياقة عبدالله ، هذا وان تجاربنا خلال الأسابيع الاخيرة القليلة ببغداد تجعل عدم وجود مرشح محلي يستطيع أن يحصل على العون الذي يمكنه من إصلاح الأمر ، شيئاً جلياً . إن فيصلاً ، من دون سائر القادة العرب لديه فكرة عن الصعوبات العملية التي تكتنف تصريف حكومة مدنية على آساس عربية . وفي النادر أن يخيب في إدراك كنه المساعدة الاجنبية ولزومها لديمومة دولة عربية . إنه يدرك خطر الاعتماد على جيش عربي (كذا) ، ولو قدّمنا له امارة بلاد ما بين النهرين ، لما استطعنا معاودة وضعنا في أعين العرب حسب ، وإنما نستطيع أن نذهب بعيداً في ميدان محو اتهامات التي يمكن ان تكال لنا ، فتخرّب ايماننا ، سواء بالنسبة اليه أو بالنسبة الى شعب البلاد . كما ان حكومة صاحب الجلالة تستطيع في خاتمة المطاف أن تقيّد التزاماتها في

هذه البلاد كثيراً مما يفتح بوجود فيصل باب الآمال فيها ، وبأكثر من أي ترتيب محتمل آخر •

ورحب مستر مونتاكيو بالمقترح هذا ، إنه الشخص الذي رحّب بي قبل أيام قليلة بوصفي « أحد المرتدين الى فكرة الدولة العربية أخيراً » • وهذه العبارة ليست بصحيحة تماماً ، إذ على الرغم من أني لم أكتم شكوكي في نجاح الحكومات الاهلية التي يلمح اليها في التصريح الانكليزي — الفرنسي الصادر في الـ ٨ من تشرين الثاني سنة ١٩١٨ ، لكني أفصحت، منذ طالعة الأمر ، بأيماني بأن الأمير فيصلاً هو أفضل مرشح محتمل لتسنم غارب المصير العراقي واصابة النجح فيه أيضاً •

إن بياناً يصدر في هذا الشأن يلف حولنا العناصر الوطنية في العراق طراً ، لكن حكومة صاحب الجلالة التزمت جانب الصمت المطبق ، ولم أخوّل حتى بحث المقترح مع القادة العرب • وعلمت بعد أشهر أن رأي وزارة الخارجية هو الذي وقف في الطريق حجر عثرة •

لقد فضّل اللورد كرزن ترشيح الأمير عبدالله للعراق ، كما مال آخرون الى اصطفاء وجيه بغدادي أو بصري بارز ، باعتباره للدولة الجديدة رئيساً موقتاً • إن قبول الأمير فيصل كان أمراً لا يستساغ مرة واحدة • كان عليه ، بطبيعة الحال ، أن يفكر في التأثير المحتمل لمثل هذا العرض في الرأي العام الفرنسي ، وأن يسبر غور الحكومة الفرنسية ، وقد فعل ذلك بعد أشهر فكانت النتيجة على ما كانت متوقّعة • لقد أوضحت وزارة الخارجية الفرنسية (كي دورسيه) : « إن استخدام الأمير فيصل في بلاد ما بين النهرين ، بعد إخراجه من سورية مباشرة ، أمر يعدّه الرأي العام الفرنسي عملاً عدائياً » • (إن التوكيد في هذه العبارة يجب أن يكون على كلمة : مباشرة) • وبلغني خبر هذا القرار في اليوم الـ ١٣ من ايلول، وبعد خمسة أيام أبرقت ما يأتي : « يبذل الثوار قصارى جهدهم ، وليس

من المحتمل أن تزداد قوتهم . إن هذا لصحيح على ما أرى ، بالنسبة الى بلاد ما بين النهرين عموماً . وثمة سبب سليم يحمل على الذهاب الى أن الأمور ستنضج في منتصف شهر تشرين الاول أو في نهايته لحل ما » .

لن أحاول تناول المشكلات العديدة المعسرة ، التي نجمت خلال هذه المحادثات ، لكن ثمة نقطتين ، إحداهما مهمة والأخرى تافهة ، جديرة بالذكر . ففي الصنف الأول تأتي قضية السيادة . لقد طلب إلي أن أبين بمن يجب أن تناط السيادة خلال فترة الانتقال، أي بعد ان تشرع الحكومة الدستورية بأعمالها على الأسس التي اقترحتها ، وقبل اختيار العاهل ، فكان جوابي على الوجه الآتي : « ستكون بلاد ما بين النهرين ، على وفق المادة ٢٢ من (الميثاق) تحت «الحماية» ، وذلك يعني فرض بعض القيود على «السيادة»، ويتضمن استخدام السلطة النهائية من قبل الدولة المنتدبة .

يجب ألا يكون لكلمة «السيادة» محل في مفردات تتصل بهذا الموضوع . جاد نظام الانتداب الذي جاءت به عصبة الأمم بمفاهيم على (الحكومة) تستشرف على ما اتصل منها بكلمة «السيادة» .

إن مصدر السلطة النهائية في منطقة الانتداب هو اليوم : عصبة الأمم، وبالنسبة لبلاد ما بين النهرين ، قررت تخويل بريطانية العظمى تنفيذ واجباتها التنفيذية .

إن هذه النظرة التي تتراءى لي ، من وجهتي القانون والمنطق سليمة ، لم تكن من قبل وزارة الهند مقبولة . إنها كانت مشوقة ، منذ طالعة الأمر ، الى أن تودع السيادة الى رأس الدولة الجديدة ، سواء أكان هذا ملكاً أم كان أميراً ، أو كان مجلس دولة ، وهو أمر لم يتقرر بعد . كنت أعطف على هذه الرغبة ، لكنها تراءت لي على غير وفاق مع نوايا الميثاق . لقد تجنّب الفرنسيون في سورية ، حتى الآن ، خلق أي سيادة ، وحتى ما كان محدوداً منها . أما بريطانية العظمى فلقد اختارت في العراق ما تأمل

أن يكون سبيلاً أفضل ، وبعد تكييف الانتداب عن طريق نصوص معاهدة، وبموافقة العصبة ، استطاعت خلق دولة كاملة السيادة •

دعونا نأمل بأن الملوك الذين اخترناهم سيكونون أكثر نجاحاً من الدساتير التي وضعناها •

ونجمت القضية الثانية من احتجاجات قدمت في البرلمان ، وعلى أعمدة (التايمس) بازاء كلمات استعملتها وزارة الحرب ، والنشرات الحربية الأخرى ، بصدد حوادث العراق ومنها (ثوار : Rebels) أو (فتنة : Sedition) • واقترح عليّ رسمياً أن استبدل بها كلمة (فوضويين) — كذا — أو تعبيراً مماثلاً يوحي بأن للعرب ولاء لبريطانية العظمى • وكان أن أجبت (في الرابع والعشرين من آب) ما يأتي :

« لقد اختيرت كلمة (ثائر) ، إثر محادثة مع (المقر العام) الذي استعمل كلمة (عدو) أصلاً • لا أتذكر شخصياً استعمال كلمة (فتنة) أبداً » •

« إن معجم اوكسفورد للغة الانكليزية لا يرى أن تعبيري (ثائر) أو (فتنة) ينطويان على معنى (الولاء) ، وان كانت كلمة (فتنة) في القانون الانكليزي تنطوي على هذا المعنى » •

إن الفصل الرابع عشر من القانون العسكري ، الفقرة ٤٤٤ ينص ، على وجه التخصيص ، على ان قيام سكان البلدان التي تعزى ، بأعمال عدائية غير مشروعة ، يسمى عادة : ثورة •

« وعلى كل حال فسأستعمل كلمة (متمرد) ، بدلاً من كلمة (ثائر) ، في المستقبل » •

« وبصدد القضية العامة أعرض : إننا اما أن نلتزم بالنظرة التي تفرض بأن الانتداب يتفق مع رغبات الاكثرية ، أو أن ندعم حق المجلس الأعلى بفرضه ، على الرغم من رغبات الناس • وفي الحالتين : ان الحكومة القائمة في بلاد ما بين النهرين مشروعة تجب طاعتها » •

وازدادت مصاعبنا خلال الأشهر الحرجة بإصرار الحكومات المتعددة على أن يعود الى الواجب الضباط الكبار في (الادارة المدنية) • ففي آذار سنة ١٩١٧ روّع وزير الدولة لشؤون الهند حين قال ان ضباط الصنوف الهندية العاملة في بلاد ما بين النهرين سيسمح لهم بالتطوّع في خدمة هذه البلاد • ولم يسمح بهذا فعلاً • فعلى سبيل المثال ، أعلنت حكومة الهند أن (آر• مارس) وهو ضابط ذو نفوذ خارق ومقدرة (وقد غدا رئيساً للكلية الجامعة في كولومبو بأخَرة) لن يسمح له بالبقاء في العراق بعد اليوم الاول من حزيران ، « وفي هذا التأريخ سيتقرر مستقبل بلاد ما بين النهرين » إن عدم عودته سيعني استقالته • وأصرت حكومة البنجاب على عودة كل من فيلبي وطومسن • وسحب كل ضابط من ضباط (الخدمة الطبية الهندية) تقريباً ، وباستثناء عضوين من أعضاء (دائرة الاشغال العامة) ، الانبراطورية والاقليمية ، قيل لكل عضو فيها انه ما لم يعد الى الهند حالاً ، فلن يضمن له استخدام آخر •

وطلبت حكومة السودان بشدة عودة كل من بلفور ونالدر ، كما أصرت الحكومة المصرية على تسليم (بومن) ، مدير المعارف ، وهو رجل ذو آراء حرة (كذا) ، ومحبوب كثيراً ، وعلى حظ ملحوظ من المقدرة ، وكنت أستشيره كثيراً • وكان يُضغط عليّ ، على مثل هذا الوجه ، بصدد خبراء الشرطة والكمارك والدوائر الاخرى ، من أمثال كريهم ، مدير الزراعة •

وكان متقدمو العرب ، على اختلاف طبقاتهم ، يشدّون الرحال الى بغداد من الأمكنة النائية كالبصرة ، لدعم الاحتجاجات التي كانوا يرسلونها برقياً • وكانت المضابط تنهال من جميع الجهات كل يوم ، وهي تشكو من أن الموظفين البريطانيين ذوي القيمة والخبرة العملية ، يسحبون في وقت

فيه نحن الى خدماتهم على أشدّ ما يكون . وبعد عرض الحقائق هذه على وزير الخارجية ختمت بالكلمات الآتية :

« إن ما أسفرت عنه الأحوال في هذه البلاد هو على أشدّ ما يكون خطورة . إنه يهدم الثقة العامة ويضع حملاً على أكتاف البقية الباقية من ضباط (الادارة) ، هو أثقل ما يستطيعون الى حمله سبيلاً . أؤكد انني لا أحتاج الى عدد من الموظفين الاداريين كبير ، كما اني لا أرى أن من الضروري جلب جماعة جديدة من الضباط الكبار من البلدان الاخرى. إن كل ما أطلبه أن تقوم الحكومة الانبراطورية ، التي اضطلعت بتبعة موقتة في بلاد ما بين النهرين ، باستخدام نفوذها لدى الحكومات المحلية لضمان عدم السماح بتصريف المصالح المحلية في أماكن أخرى بشكل يؤدي الى الانهيار هنا ، وأن يسمح لي بالمحافظة على الضباط الباقين معي الى أن تتقرّر السياسة » .

وفي الـ ٢٢ من حزيران أبرقت مرة أخرى ، قائلاً :

« لقد أصدرت الحكومات المحلية أمراً يقضي بعودة كل من يومن ومارس وفيلبي وثلاثتهم خبراء في شؤون البلاد من دون ريب ، وكل منهم، على ما أعتقد ، توّاق الى أن يستخدم هنا . وثمة سبب يدعو الى الاشفاق هو ان القلة الباقية من ضباط الهيئة السياسية والشرطة والري والزراعة ، الذين حصلت على خدماتهم من الهند سيسحبون أيضاً قريباً أن يجبرون على العودة بالتهديد المضطهد ، أو بفقدان المستقبل .

إني لأستنتج من الحقيقة هذه أن حكومة صاحب الجلالة لم تشعر بأنها قادرة على التدخل رسمياً وإبقاء الضباط المذكورين أو غيرهم في العراق ، وليس لديها القدرة في الوقت الحاضر على استدانة الخبرة لمساعدة لمنطقة منتدب عليها ، تقدمها لها الحكومات المحلية . فإن كانت الحال هذه، فإني أقترح الحصول على السلطة اللازمة ، ذلك أنه لو دأبت الحكومات

الاقليمية على سحب ضباطها ، لأفصح الرأي العام هنا ، قبل مضي وقت طويل ، عمّا كان يفكّر به المتعلمون حيناً من الدهر ، وأعني به : أن بريطانية العظمى ليست بقادرة على تقديم المعونة الخيرة الى هذه البلاد على أساس الوعد الذي قطعته المادة ٢٢ ولا هي راغبة في ذلك أيضاً . وما كان لمثل هذه المراجعات من تأثير عملي ، ولعل تأثيرها كان قليلاً . إن جميع الحكومات المعنية كانت في لجة مصاعب لا تختلف ، إلاّ من حيث الدرجة عن مصاعبنا في العراق . فلقد كانت ثمة اضطرابات في الهند على حظ من خطر . وكتب في الـ ٣١ من تموز سر ستانلي ريد ، محرر جريدة (تايمس أوف إنديا) ، ومن كنت أراسله حيناً من الدهر ، بانتظام ، ومن كانت آراؤه مسموعة ، يقول :

« إني لأرغب ، إن قدرت ، في أن أبعث اليك من الهند خبراً مشجّعاً، ولكن ، لم يصح من هذا شيء . لقد مضى عليّ ها هنا ٢٥ سنة،ولاأعرف وقتاً فيه الوضع السياسي بنظر السلطات ذوات التبعة أكثر مشوّقاً ، أو فيه الناس من مختلف الطبقات أكثر اشفاقاً . لقد عدنا الى أيام الاختلافات المريرة ، والشعور الرسمي الحاد ، فلا أرى من النور بصيصاً » .

وكانت مصر تمور وتضطرب ، وحدثت فيها قلاقل ، وانتشرت بسعة. أما السودان فكان هادئاً ، لكننا كنا بحاجة الى جميع الضباط الميسورين بالنظر الى ضرورة منح إجازات الى كثير ممن كانوا دائبين على الخدمة طوال ست سنوات مستديمة .

وفي الخامس من آب ، وعندما بلغت المتاعب القمة وأوفت على الذروة وردت عليّ برقية من وزير الخارجية (بتأريخ ٢ آب ، مؤشر عليها: الخط المفتوح) يطلب فيها بياناً تاماً بشأن أسباب الثورة وأهدافها . واني أثبّت نص البرقية التي أرسلت في اليوم نفسه جواباً :

« إن برقياتي المرسلة خلال الـ ١٨ شهراً الأخيرة تلحظ انثيال دعاية

مطّردة من سورية ، وبدرجة أقل من تركية تسندها اعتمادات وفيرة • وعندما لم يكن ضعفنا العسكري ظاهراً ، فإن هذه الدعاية ، وأهدافها الى حد بعيد غريبة عن الشعب عموماً ،لم تصب نجحاً ، فيما خلا بغداد وكربلاء والنجف ، حيث كان القادة دوماً يتعاطفون مع فكرة الدولة الاسلامية الصرف نوعاً ما •

والى أن استطاع أعداؤنا في سورية أن يعرضوا على الناس في بلاد ما بين النهرين أن في الامكان زحزحتنا بالقوة العسكرية ، غدت الحركة على حظ عظيم من خطر • لقد أخلينا دير الزور والبو كمال والقائم على التتابع ، تحت ضغط من الحكومة السورية كل مرة • وأخرجت القطارات عن سككها بين بغداد والموصل ، وقتل ضباطنا في (تلعفر)• وأخذت الثقة العامة في مقدرتنا على المحافظة على الأمن تتزعزع • وأصبح المتطرفون يأملون بأن ينجحوا في إدراك هدفهم ، أعني : الاستقلال التام والانعتاق من جميع التدخلات الاجنبية بإجراء مباشر • لقد غدت كربلاء ثم النجف المراكز الرئيسة للقلق والاضطراب • (ومما يجب أن يتذكّر) ان كان عليّ أن أنفي عدداً من الكربلائيين في أيلول سنة ١٩١٩ لمنع الثورة ، وكانت النجف مشهد الاضطرابات سنة ١٩١٨ •

إن القاء القبض على مرزا محمد رضا وغيره ، في كربلاء ، في حزيران، وعلى بعض الشخصيات في الحلة جعل الوضع مستقراً • ولكن ، بالنظر الى ضعفنا العسكري لم نكن بقادرين على اتخاذ إجراء مماثل في لواء الشامية ، حيث كان لنا ٣٠٠ من الجنود ومدفعان فقط • إن هذا اللواء ، وهو سيىء السمعة وبؤرة الفساد والفتن (كذا) •

وفي الوقت نفسه كان لاعلان شروط الصلح مع تركية ، على ما كان مرتقباً ، تأثير غير مستحب في الرأي العام ، ومكّن المتطرفين من أن يعبئوا لصالحهم كثيراً من المواد المفيدة ، ومنها جهود الموظفين الاتراك السابقين

والجانب الكبير من الرأي العام ، ممن كان يرغب في المحافظة على الانبراطورية وينكر استملاك اليونان . ولما كان ذلك قد حدث في رمضان وتواقت مع إخلاء انزيلي ورشت ، والتقارير الواردة عن نجاح البلاشفة في أنحاء أخرى من العالم . كل ذلك مكّن المتطرفين من فرصة سرعان ما اهتبلوها ليمثلونا متخذين سياسة معادية للاسلام من جهة ، ومن الجهة الأخرى بأننا نضعف سريعاً .

وفي هذه الفترة بدأت تظهر تأثيرات خارجية وأخذ الناس يشعرون بها .. وبهذا الصدد نقول ان ٧٠٠٠ من الجنيهات الذهب التركية وصلت المتطرفين في كربلاء خلال آيار وحزيران .

إن بعض رؤساء الشامية ، ممن ذكرنا ، يعتقدون بأننا لم نكن قادرين على القاء القبض عليهم ، لذا صبّوا جهودهم في سبيل اشعال ثورة في منطقة السماوة ــ الرميثة . ومما لا شك فيه انهم أدركوا ان هذه ، من الوجهة السوقية ، أشدّ نقطة مكشوفة في خطوط مواصلاتنا في بلاد ما بين النهرين . إن هذه المنطقة لم يسبق أن تخللتها قطعاتنا ، وهي في الحق منطقة لا سبيل الى اختراقها أبداً . وكانت خلال السنة الماضية على حال لا تبعث على الطمأنينة . وكان ان حدث الانفجار في (الرميثة) في الـ ٣ من تموز ، ولو استطعنا انفاذ القطعات ، بأعداد كافية ، الى مشهدها حالاً ، لما انتشرت ، على ما يخيّل لي ، الى غيرها ، ولكان الوضع في الشامية ، حيث لم تحدث ثورة ما خلال الـ ١٥ يوماً التالية ، طوع إرادتنا ، ولعولج بالطرق الدبلوماطيقية . لكننا لم نكن على مثل هذه الحال ، فانتشرت الثورة بنتيجة ذلك .

لقد حملت القبائل على الاعتقاد بأنها حرب مقدّسة ، ونشط المجتهد الأعظم في الدعوة الى (الجهاد) وبعث بمئات من الدعاة الى جميع أنحاء الفرات الأوسط لهذه الغاية . وحذا رؤساء قبائل الحلة والديوانية في

الغالب حذو أبناء عشائرهم ، ولم يصبحوا قادة لهم • إن طلبات قادة الثوار ، على ما أعدّت حتى الآن تنصب على طرد البريطانيين طرداً تاماً من بلاد ما بين النهرين وعلى قيام « دولة اسلامية » • وبالنسبة الى المجتهدين تعني هذه دولة ثيوقراطية ، وهي هدفهم الأعلى • أما بالنسبة للعشائريين فيعني ذلك عدم وجود حكومة ما ، أو حكومة من الرؤساء يستطيعون إنكارها على ما يشاؤون • وبالنسبة الى أقلية ضئيلة من سكان المدن يعني ذلك وجود أمير •

« لا أعتقد أن قد كانت لدى العشائر شكاوى تتصل بالأرض ، فالضرائب كانت خفيفة والحاصل كان جيداً • ولو كانت ثمة شكاوى كهذه لما اقتصر موطن القلاقل والاضطرابات على المناطق التي يمكن الوصول اليها بسهولة من النجف وكربلاء • طبيعي أن العشائر لا تحب دفع الضرائب، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من الناس سواء بسواء ، لكن هذا لم يكن باعثاً للثورة ، كان الباعث المؤجج للثورة هو ضعفنا مضافاً اليه عوامل خارجية أخرى » •

وفي الـ ١٢ من آب ، بعد اسبوعين ، أبرقت ما يأتي :

« إن برقيتي المؤرخة بتأريخ الـ ٥ من آب تناولت الأسباب المباشرة للثورة القائمة اليوم على الفرات الاوسط ، وأهدافها • إن أهم عامل فيها هو الدعاية التي تبث من بغداد • إنني لم أتناول الأسباب التي ينطوي عليها فقدان (الادارة المدنية) سمعتها الى ذلك الحد ، وهي السمعة التي كانت تتمتع بها أول مرة •

(١) علينا في ضوء تجربتنا المكتسبة خلال الأشهر الثلاثة الماضية أن نشعر بالندم لأننا أسرعنا في بعض القضايا الادارية المتعلقة بأبناء القبائل • وعلى هذا يجب أن يوزع اللوم بين (الادارة المدنية) و (الشيوخ) وغيرهم من الرؤساء العشائريين بالتساوي • لقد سرنا على سياسة

اسناد الشيوخ ودعم سلطتهم ، فحاولوا بدورهم إلقاء حمل ثقيل على عاتق أبناء قبائلهم مفصحين عن نواياهم بتحسين الزراعة وضمان حاصلات جيدة عن طريق عمل موسّع قوامه تطهير القنوات وإقامة السداد ، وبذلك استطاعوا ملء جيوبهم بالمال الوفير • لقد اكتشف الشيوخ متأخراً جداً انهم لا يملكون النفوذ المزعوم على أبناء عشائرهم ، ولذلك كانوا يقاسون من جرائه •

(٢) وثمة حقيقة أخرى ، لا تختص ببلاد ما بين النهرين حصراً ، سبّبت نجوم عدم الرضا ، وأعني بها ظهور ما يمكن أن يسمى بأوضاع ما بعد الحرب ، وكان ظهورها تدريجياً • أسعار مرتفعة وشحّ في بعض المواد الضرورية وما اليها ••• لكن هذه قد حدّت منها لدى بعض طبقات السكان الثروة التي تدفقت على البلاد مع جيش الاحتلال • لكن طبقات كبيرة من السكان أحسّت بوخزها ، وعلينا بوصفنا المنتصرون في الحرب في بلاد ما بين النهرين وفي غيرها ، أن نتحمل تبعة خلق هذه الاوضاع فيها •

(٣) ولعل أول ما يجيء ، من حيث الأهمية النسبية : استبانة وهننا العسكري ، إن كل انسان منهار معرض لهذه الهواية الشائعة في الشرق طرز ، وقد فرضتها نظرياً وعلمياً قرون عديدة (كذا) •

(٤) نفوذ المجتهدين المعادي وهم الذين ناهضوا الحكومة من أيام الخلفاء (كذا) •

(٥) نقاط الرئيس ويلسون الـ ١٤ وما بعثته من اضطراب الشريفيين وحفزوا عليه ومعهم وكالات الاتراك والبلاشفة سواء أكانت متطوعة أم كانت مأجورة •

(٦) اختلاف الرسّ والدين بين البريطانيين والعرب ، اصطنع بوصفه العذر ، لا السبب نفسه •

(٧) التأخير الحاصل في تحديد وضع العراق ، وإبقاء (الادارة البريطانية) بالتبعية ، بعد أمد طويل من عقد الهدنة • فلو صح الذي يرد على بالي ، فلقد حذّرت في وقت متأخر وذلك في تشرين الاول سنة ١٩١٩ من اتخاذ أي إجراء أو إصدار أي بيان يلوّح بالانطباع القائل بأن قد مُنحنا الانتداب على العراق أو قبلنا به •

(٨) نفوذ سورية ، حيث كانت المنحة البريطانية السخية تمكّن الحكومة الشريفية من دفع رواتب موظفيها ، وعلى وجه أخص من كانوا في الجيش • انها أجور تزيد على ما تستطيع هذه (الادارة) ، أو أية ادارة منظمة على أساس الاكتفاء الذاتي ، أن تدفعه •

(٩) الحاجة الى العمال على سداد الفيضان • إن العرب يقبلون الطوفان باعتباره من فعل الله ، ولا يقومون بعمل جاهد على سداده • وبصدد هذا الأمر ، كانت ظروف الاحتلال العسكري ، هي المسؤولة جزئياً• كنا طوال الوقت ، ولا نزال حتى الآن حقاً ، خاضعين الى ضغط كبير مصدره السلطات العسكرية وهدفه المحافظة على السداد على درجة من الكفاية للحيلولة دون تعرّض السكك الحديد الى خطر القطع أو أن يغمر ماء الفيضان مناطق المعسكرات • وعلى هذا الشرط تسلّمت (الادارة المدنية) دائرة الري •

(١٠) جباية ضريبة الارض وغيرها من الضرائب •

(١١) الاشفاق من استغلال الغرب التجاري •

(١٢) استخدام الطائرات بازاء الثوّار •

(١٣) خيبة أمل أرباب المصالح الناجمة عن الأرض الذين ينكرون الفكرة القائلة بأن على الملاكين واجبات كما أن لهم حقوقاً ، ويرفضون «مشروعية» أية محاولة تنصب على رفع باون اللحم الذي يجب أن يقتطع من جسوم المزارعين ، وهؤلاء ، بدورهم ، يرفضون أية محاولة

تعمد اليها الحكومة في سبيل استعمال قوة القانون والنظام لاستيفاء العائدات منهم ، نيابة عن الملاكين • إذ صيّرت تعقيدات القانون التركي في هذا الباب مركز الحاكم السياسي معقّداً جداً •

(١٤) يعتقد كثير من البريطانيين وأهل البلاد ، أنني جانبت الصواب إذ لم آخذ المشاغبين البارزين بالشدة الصارمة ، وقبل أن تتخذ الحركة أبعادها الحالية • إن هذا ، على كل حال ، لرأي • لكن (ادارة) من هذا النوع ، وفي مثل هذا الوقت، لا معدى عن أن تجد أن من العسير اتخاذ قرار تعدّ فيه حركتهم خطراً يتطلب القمع ، أو أن للقمع مبرراً• إن أهدافهم ليست عملية ، لكنهم دعموا في الغالب ، وبين الفينة والفينة بالتصريحات الرسمية التي أطلقتها الحكومة البريطانية •وإذا أخذنا بنظر الاعتبار نص المادة ٢٢ من معاهدة عصبة الامم فإني لأرتاب إن كان عندنا مبرر لالقاء القبض على من يرفض قبول الانتداب البريطاني ، ما دام اتجاه مثل هؤلاء لا يعرّض النظام العام الى خطر •

لقد شعرت أن ثمة ما يبرر اقتباس مسهب من هذه البرقيات ، ومن غيرها ، ومعاودة طبعها في هذا (المؤلّف) لسببين اثنين ، أولهما ، لأني أشعر بأن التوضيح بعد مرور عشر سنوات بقدر ما يتعلق بالأسلوب الذي صرفنا فيه الواجب العسير من واجباتي الملقاة عليّ من قبل حكومة صاحب الجلالة• هذا من جهة ومن الجهة الأخرى فإني مدين لأعضاء (الادارة المدنية) سنة ١٩٢٠ بأن أعلن ، على أفضل وجه أستطيعه ، بعض الحق لي بإدخال عنصر عربي كبير في (الادارة المدنية) ، على آساس تتفق مع آراء أولئك الذين كانوا يجاهدون في (فرساي) ، بمعاودة نسج الحكومات العالمية على أسس ديمقراطية • لقد تجددت هذه المحاولات كرّة إثر كرّة ، وذلك على الرغم من أنها لم تصب نجحاً في أية مرة • كانت كلها في ظروف عسيرة دواماً •

إنني ، على كل حال ، لم أشر ، الى هواجسي حول النتيجة المحتملة لهذه البدايات الدستورية إلاّ عرضاً . لقد أفصحت عن هذه المخاوف في رسالة مؤرخة بتأريخ ١٥ تشرين الثاني ١٩١٥ ، عرضت فيها صعوبات الوضع على ما تراءت لنا ببغداد . إن الوثيقة أطول من أن تقتبس تماماً واليك خلاصة حسنة لها :

« ما زالت الهيبة التركية شديدة . فلو شكلت حكومة عربية بقرار من (عصبة الأمم) وجرى المحافظة عليها ، لحين من الدهر ، بقوة سلاحنا ، وقوة مالنا ، فإني أعتقد بأن الجمهور العربي عموماً ، سيميل بعد سنين قليلة الى رجعة الاتراك ناشطاً . إن سمو الأسرة الشريفية سيتحداها أرباب الشرف العرب الآخرون، ولن يستطيع أبناؤها الاعتماد على الاسناد الشعبي. لا تحيا أية حكومة نقيمها لمدة طويلة ما لم نكن على استعداد لاسنادها بقواتنا المسلحة . إن حوادث أزمير ، وتصريحات الساسة الاوربيين المتكررة بشأن الدولة الارمنية ، وتصرفات القوات الفرنسية في سورية ، ووجهة نظر ممثلي الولايات المتحدة الامريكية الممالئة للأرمن ، كل ذلك سبّب تصلّب الشعور العام بازائنا ، وذلك باعتبارنا ننطوي على عصبة مناهضة للاسلام. وتراءى ، في مثل هذه الظروف ، أن من المستحيل خلق حكومات كردية مستقلة . ومهما كانت الحال ، فالى أن يحسم أمر الحد الشمالي للعراق لن نستطيع أن نجود على حكام هذه الدول المرتقبين بالضمانات التي تشجّعهم على الالتزام بسياستنا .

وفيما خلا المصروفات والارصدة العسكرية ، خمّنت الاستثمارات الرأسمالية البريطانية في العراق سنة ١٩١٩ ، وبضمنها السكك الحديد والميناء بنحو ١٦ مليوناً من الجنيهات الاسترلينية ، وأكّدت ان سياستنا القابلة في فارس تعتمد ، الحقائق المتعلقة بالأمر ، ما لم يرد لها ذكر لا في

(مؤلف) سر المر هولدين الموسوم بـ (التمرد والعصيان في بلاد ما بين النهرين) ولا في (التأريخ الرسمي للحرب في بلاد ما بين النهرين) ٠

لقد خضعت إجراءاتي ، سواء كانت محققة أم مزعومة في حينه الى نقد مرير جداً ، ولعله كان مقذعاً أيضاً ، وسواء كان ذلك على صفحات الصحف(٣) أم في البرلمان(٤) ولم تقدّم حول الأمر الى البرلمان ، فيما خلا (مراجعة : Review) الراحلة الآنسة جرترود بيل ٠ إن هذه الوثيقة على ما ذكر ، أعدّت بالاشتراك معي ، لكنها لا تتناول الحوادث التي حدثت بعد ١٥ آب سنة ١٩٢٠ ، ولما كانت الغاية منها النشر المفاجيء لذلك كانت ، بالضرورة ، محدودة المجال ٠ لقد شعر رئيسي المباشر ، الراحل اودين مونتاكو وزير الدولة لشؤون الهند بعدم قدرته على تناول أمر بلاد ما بين النهرين في أي وقت كان ، سواء في مجلس العموم أم في أي محل آخر ، وكل ذلك على الرغم من اشاراته الكريمة الى شخصي في البرلمان ٠ إن امتناعه ، بلا ريب ، ناجم عن دوافع ولائه للوزارة ، وقد كان فيها عضواً، إذ لو أفصح عن آرائه حول الموضوع في مجلس العموم ، لما استطاع تفادي الخلاف الحاد مع زميله لورد كرزن ٠

وبقدر ما أستطيع الفصل فيه ليس هناك من خلاف بين طريقة عرضي للوضع السياسي ، على ما كنت أستبينه في ذلك الحين ، وبين عرضه هنا ، جوهرياً ، إلاّ في ناحية تأريخ عقد الهدنة مع تركية فصاعداً وذلك بقدر

---

(٣) وأخص بالذكر منهم : تي٠أي٠لورنس في جريدة (ديلي هرالد) و (التايمس) ومن قبل سر جورج بيوكانن في (التايمس) ٠

(المؤلف)

(٤) ومن بينهم لورد ايزلنكتن في مجلس اللوردات ٠ (المؤلف)

تعلّق الأمر بإطار الدولة العربية . إن هذه الأقباس ، على أفضل وجه أراه، تمثّل كل شيء على وجه الصواب . لقد طرأ عليها تكييف تجنّباً للمساس ببعض الاشخاص ، شأنهم في ذلك شأنُ الأمم الصديقة . إنها تظهر ، بأنني منذ طالعة الأمر ، قمت بأفضل ما أستطيع في سبيل إغراء حكومة صاحب الجلالة على السماح ، الى حد ما ، على السياسة المتّبعة في العراق . وختمت الرسالة بالعبارات الآتية :

أعتقد أن المجالس الادارية التي صودق على تشكيلها موقتاً ، وهي اليوم على الطريق الى ذلك ، ستجود على الجمهور في وقت قصير نسبياً، ولو سمح لها بالانكشاف وأسدي لها العون لتحمل حصتها من التبعة المحلية ، والاسهام والهيمنة على مصائره المحلية الضرورية لضمان استقرار الادارة ، وستستخدم باعتبارها ساحة تدريب للموهبة الادارية التي ستؤهل أهل هذه البلاد للهيمنة على مقدراتهم . ولن تمر سنون كثيرة قبل أن يصبح أهل هذه البلاد مالكين في الأقل ، على غرار أهل مصر أو الهند اليوم ، وبأنماط الحكومة الغربية . لكن الأهلين في الوقت الحاضر منقسمون بالهوّات الرسّية والدينية انقساماً عميقاً .

وأخيراً لو سمح لي أن أبدي ملحوظة شخصية ، فإني أستأذن بتطمين الحكومة بأني من حيث المولد والتدريب والمزاج عاطف على فكرة الحكومة الديمقراطية غير البيروقراطية ، واني وجدت نفسي غير قادر على مساندة الأخذ المباشر بمشروع حكومة عربية في العراق . إن ذلك مسبّب عن اعتقادي بأن النتائج التي ستسفر عن ذلك تناهض الحكومة الديمقراطية ، وان خلق حكومة عربية وطنية والمحافظة عليها في هذه المرحلة لا ينسجم مع التبديلات التي نحاول إدخالها في حكومتي الهند ومصر ، وهي تبديلات أتبيّن ضرورتها على وجه التمام وأتحدث عنها ، على العموم ، حديثاً عاطفاً.

إني آمل أن قد اتّضح بشكل كاف بأنني لن أسمح لنفسي بأن تتأثر بهذه الهواجس ، وعلى ما يستبان من الوصف التام الوارد في الفصل الحادي عشر من المقترحات الدستورية المقدّمة بين تشرين الثاني سنة ١٩١٨ وحزيران سنة ١٩٢٠ • وشعرت ، على كل حال ، بأني ما كنت قائماً بواجبي لو فشلت في بيان الاخطار المحتملة المقبلة ، على اني كنت شاعراً بأن وجهات النظر المفصح عنها كانت مناهضة لنوايا حكومة صاحب الجلالة ورغباتها • أو في الحق ، لتصريحات الحلفاء والدول المشاركة ، وذلك بإخضاعها الى التعريف الدقيق • ومن اليسير أن يستبان الآن ، بعد مضي عشر سنوات، بأني كنت متشككاً على غير لزوم ، لكن الاضطرابات التي نجمت في سنة ١٩٢٠ ، في كل من سورية والعراق وفلسطين ، والاجراءات التي جاءت في أعقابها ، في هذه البلدان الثلاثة كلها ، كل ذلك كان جنيناً في رحم المستقبل• وما كان الاتراك قد ألغوا الخلافة أو الطربوش بعد ، وكانوا لا يزالون محتفظين بولاء المسلمين الأتقياء • وما كانت لديّ ثقة باستمرار الحكومة العربية في سورية ، وما كنت أرى ان الملك حسين سيحكم في (مكة) طويلاً، وما كنت قادراً على الايقان بأن العراق قادر على الابتعاث بنجاح ، وبشكل مستقل عن بقية بلاد العرب ، باعتباره دولة ملكية دستورية • كما لم تكن هذه هي جميع الأسباب التي تحمل على الاشفاق من المستقبل •

وفي رسالة شخصية مؤرخة بالتأريخ نفسه ، عرضت شيئاً آخر لينظر فيه رؤسائي :

إن واجبنا ، بموجب الميثاق — على ما كتبت — هو تقديم مشورة ادارية ومعاونة ، والى أن يحين الوقت الذي يستطيع فيه العراقيون (الوقوف على انفراد) • ومن الوجهة العملية لا يتعلق ذلك بقدرتهم على الوقوف على انفراد بقدر تعلقه بقدرتهم على المضي قُدُماً ، على وجه

يتناسب ، في الأقل ، مع خطوات جيرانهم وخطوات اوربة . يجب أن يرتكن التقدم الدستوري والثقافي ، على المعنى الاوربي ، الى التقدم الاقتصادي. ويرتكن هذا بدوره الى تهيئة رأسمال على مقياس سخي نوعاً ما ، مقداره نحو ٢٠ جنيهاً للشخص الواحد ، أو أقل من ٥٠ مليوناً من الجنيهات الاسترلينية خلال العشرين سنة القابلة ، تصرف على أعمال انتاجية ، جلّها في باب التدريب النهري ، والري ، والسكك الحديد وعلى تحسين نوعية حب الحصيد المنتج(٥) وجنس القطعان والاغنام التي يحتفظ بها . أتقوم (الخزانة) ، تحت ظل نظام الانتداب باقراض المال ؟ لا أظن ذلك . هل تضمن (الخزانة) قرضاً ما ؟ وعلى غرار ما تفعل بالنسبة الى مستعمرة بريطانية ، أخشى أن يكون ذلك غير محتمل . هل ستقرض البنوك العراق بالمال من دون ضمان ؟ إن مداولاتي مع أقطاب المصرفيين لم تسفر عن تأييد هذه

---

(٥) لا أروم أن يستنتج من هذه العبارة بأني أعتبر الرأسمال الكبير المصروف على مشاريع الري شيئاً مرغوباً فيه في الاوضاع المتبدلة سنة ١٩٣١ . ان الوضع الاقتصادي العالمي بقدر تعلق الأمر بانتاج الحبوب قد تبدل تبدلا عميقاً وذلك منذ سنة ١٩٢٠ . ان العوامل التي تؤدي الى انخفاض أسعار الحبوب كثيرة اليوم ، وان نفقات الانتاج ستنخفض ، على التحقيق ، بمرور الأيام . وهناك احتمال قليل في أية زيادة تطرأ على الاستهلاك العالمي . ان المزارعين الافراد في كندا والولايات المتحدة الامريكية يستطيع الواحد منهم التصرف ب ٥٠٠ اكر من الاراضي التي تنبت الحبوب . ان الحبوب المفضلة والطرائق المحسنة تصطنع في كل بلاد كبيرة تنتج الحنطة . ليس ثمة ضغط سكان العراق . ان المشكلة هي ان ما يستنبت من الحنطة والشعير هو من النوع الرديء عموماً . ان ادخال نوع من أنواع الحنطة القوية في الاستعمال العام ذو أهمية خاصة ، وما لم يتم ذلك فلن يكون بيع للحبوب في العراق الا القليل ان وجد ، في السوق العالمية . ان انبعاث الزراعة في الظروف القائمة يجب أن يكون له الأولوية بالنسبة الى مشاريع الري .

(المؤلف)

الفكرة • أيقوم الرأسماليون الغربيون بمد السكة الحديد وشق القنوات في العراق باعتبارها من المغامرات التجارية ؟ وعلى غرار ما تفعل بالنسبة الى مستعمرة بريطانية ، إن من (متقدمي الصناعيين) من يقول بأن ذلك غير ذي موضوع ، واني متفق معهم فيه • إنهم ينشدون درجة من الضمان لا تستطيع دولة عربية تقديمه اليهم ، ما لم ينبجس النفط بكميات كبيرة ، وفي مثل هذه الحالة تستطيع العائدات أن «تعوّم» قرضاً كبيراً • فإن إنبجس النفط غداً، فلا معدى عن مضي عشر سنوات قبل أن يصبح الاستثمار على درجة مجدية مربحة ، ولا يستطيع أحد أن يتنكب خطر الحدس والتخمين فيقول ان النفط موجود في العراق بكميات عملية • إن المادة التي استخرجها الالمان في (القيارة) ، والتي يتصرف بها الجيش هذا اليوم على مقياس محدود ، لا تجود على أحد بثروة • إن الجمود والركود هو نصيب العراق من دون رأسمال ، على حين سيكون نصيب فارس وتركية ولربما سورية أيضاً ، التقدم ، وكلها تتمتع بأجواء أفضل وموارد أكبر وسكان متعلمين أكثر •

إني لا أرغب في أن أرى العراق يمضي قدُماً ، بخطوات جيرانه نفسها • ولهذا السبب ، لا غيره ، أتمسك بقولي بأن عنصراً بريطانياً قوياً أمر ضروري — ولو ان السير فيه سيكون أسرع من سير أغلب البلدان الشرقية » •

وفي كتاب تال ، كتبته في ٨ تموز ١٩٢٠ :

إن آرائي الخاصة هي :

(١) تجنّب جعل بلد شرقي إن أمكن « مخلب القط » بالنسبة للدول الأجنبية ، ومعاملة الرعايا معاملة حسنة ، ومعاملة رعاياه من غير سوء شديد ، ويجب أن يسمح له بالمضي من دون تدخل في أموره •

(٢) يجب أن لا تضطلع بريطانية بأية تبعة في الشرق ، كلما استطاعت تجنب ذلك من دون أن تعرّض نفسها الى خطر،أو أن تكيد للسكان.

لقد مرّت عشر سنوات وزيادة على كتابة تلكم الرسائل . ولقد أنجز بعض ما كنت أستبق وقوعه ، وبعض آخر أظهرت الحوادث زيفه . أما البقية فباقية تترقب حكم الزمن ، إذ لم يفصح عنه بعد . ومهما كانت الحال ، فإننا نأمل بشيء من الثقة بأن النتيجة النهائية ستكون أقل سوءاً مما كنت أخشى . حمداً لمزايا صاحب الجلالة الملك فيصل وشكراناً . ولكفايات بعض وزرائه أيضاً . ثم اللحظة التي أرسيت بموجبها آساس الدولة الجديدة ، التي أعدها سر پرسي كوكس، ولم تقلل من عظم منجزات الملك فيصل .

إن الأساس العام هو الذي وضعته (الادارة المدنية) بين سنة ١٩١٦ وسنة ١٩٢٠ ، كما إني لا أبخس ما جاد به خلفاء سر پرسي كوكس، ممن أشغل منصبه . لقد جابه كل منهم مشكلات خاصة آنية . والى الملك فيصل وسر پرسي كوكس يرد الفضل في اتخاذ الخطوات الاولى ، الأشدّ إعساراً ، وفي وقت كان فيه الرأي العام العربي بعيداً عن الحماس عادة ذلك إن لم يكن عدائياً .

قيل شيء كثير ، في البرلمان وفي غيره ، عن عداء العرب للهنود الذين كان يستخدمهم الجيش و (الادارة المدنية) ، وللجيش الهندي ، بعامة . لم يفصح عن مثل هذه الآراء في أية حالة من الحالات من قبل أي شخص يمتلك معلومات أصلية تتصل ببلاد ما بين النهرين أو الجيش الهندي،واني لأعتقد بأنها خاطئة . كان مثل هذا التعصب مقصوراً على بغداد والبصرة ، وكان اقتصادي الصبغة قطعاً ، أعني : أن قد ساد شعور قائل بأنهم يشغلون مناصب يجب أن يشغلها العراقيون حصراً . إنه لم يكن رسّياً ، ولم يكن دينياً أبداً . وما كانت (الادارة) في طالعة أمرها بقادرة على الاستغناء عنهم

شأنه شأن عدم إمكان دحر الاتراك من دون الجيش الهندي ، الذي قام بعد الهدنة بأكثر مما كان نصيبه المقسوم من القتال •

لقد أفصحت عن التنويه بخدمات الموظفين الهنود في البرقية الآتية المرسلة الى حكومة الهند والتي أحيلت الى (المجلس التشريعي) في أيلول سنة ١٩٢٠ :

« أرجو أن يُسرّ معالي نائب الملك في الهند لامتثال فرصة ملائمة ، وإن أمكن في المجلس التشريعي ، ليعبّر ، نيابة عن (الادارة المدنية) في بلاد ما بين النهرين ، عن تقديري الصميم واعجابي وشكراني للخدمات الملحوظة التي أدّاها الى هذه الادارة خلال السنوات الست المنصرمة، وعلى وجه أخص خلال الاشهر العسيرة الأخيرة ، الموظفون الذين هم من أصل هندي ، والذين استخدمتهم (الادارة المدنية) • فمن دون المعونة الخبيرة التي أسداها الهنود على اختلاف درجاتهم وفي مختلف دوائرهم لم تكن (الادارة المدنية في بلاد ما بين النهرين) بقادرة على أن تتخذ قوامها أو أن يستطاع المحافظة عليها • لقد كانت الخدمات التي أسدوها من دون تذمّر وتمرمر ، لأمد طويل ، وفي ظروف شديدة الاعسار على حظ كبير من خطر ، ثمينة ، وليس لديّ من سبب يحملني على الاعتقاد بأنهم لم يقوموا عن طريق فعالهم صيرورتهم مثالاً يحتذى ، إلا بما يعلى من اسم الهند الطيب في خارجها • لم أتبيّن إلاّ القليل مما يبرر العبارات التي أطلقت في بريطانية ودارت حول تعصب العرب بازاء الهنود ، بل على النقيض من ذلك لقد أثبتوا عن طريق العمل الاجرائي والاداري قيمتهم ، ولم يكن ذلك بالنسبة لرؤساء الدوائر الذين كانوا يعملون في إمرتهم حسب ، وإنما للشعب أيضاً •

وهل يؤذن لي أخيراً بأن استرعي انتباه حكومة الهند الى الخدمات الملحوظة جداً التي أسداها الى الحكومة خلال الأشهر القليلة الموظفون الهنود المدنيون وفي دوائر السكك الحديد والبرق والبريد وغيرها في بلاد

ما بين النهرين . لقد بقوا في الغالب في مقراتهم أو قضوا نحبهم فيهاوذلك بثبات نال إعجاب الجميع واحترامهم . لقد عملوا باخلاص للصالح العام فصيّروا أهل البلاد والسلطات العسكرية والمدنية ألسنة حمد دائبة وفضل لا يريم .

ولما أوشكت خدمتي في هذا المنصب على الانتهاء ، إني لواثق من أن الافصاح الآني عن شعور الامتنان تجاه حكومة الهند والموظفين الهنود الذين يعملون في إمرتي قد ينال الدعاية .

وفي اليوم الـ ٢٠ من أيلول أفصحت ، لآخر مرة ، وعلانية ، عن آرائي الخاصة بشأن الحوادث الجارية ، وكانت مناسبتها دعوة عشاء دعت اليها مديرية السكك الحديد تكريماً لي ، وقد رأسها الجنرال لوبوك وثلاثي كفء مؤلف من : تينش ، روثيرا وكيناندر . ولعل إعادة تثبيت شطر مما نشر في أحد أعمدة (بغداد تايمس) هنا يستأهل ذلك ، ولمجرد انه يمثّل آرائي في ذلك الحين .

وأرجع الآن الى الحوادث الجارية في هذه البلاد ..

لقد أحزنتنا جميعاً الأشهر الأخيرة القليلة ، وحلّ الشك محل الأمل . وإننا لنتساءل لِمَ يجب أن تحدث هذه الأشياء ؟ أعتقد ان حقيقة الأمر تتلمس في أن العالم اليوم مدفوع بأكثر مما كان في القديم ، بالقوى المعنوية لا بالقوى المادية ، بالأراء والنظريات، وليس بالحكومات والحقائق . كان زماناً تؤثر فيه الأفكار التي ولدت في الشرق ، تأثيراً عميقاً ، في الفكر الغربي ، واننا نشهد اليوم الطريقة المعاكسة لهذا الفعل .

لقد شهدت نهاية القرن الـ ١٩ ابتعاث القومية في اوربة وآسية ، وهو ردّ فعل عند رجل الحقل ورجل الشارع بالنسبة الى فكرة الانبراطوريات العظيمة ووجودها . كان للناس دورهم في هذه الانبراطوريات ، وكان الاصرار فيها على المصالح العامة ، لا الاختلافات الناجمة بين الاقسام

المكوّنة ، لكنهم لم يستطيعوا الى تبيانها سبيلاً • لقد كانوا يفضلون ما هو أصغر ، ويرونه بأنفسهم • إن القومية هي أساس معاهدات الصلح الأخيرة • لقد دخلنا الحرب لحماية حقوق الأمم الصغيرة (كذا) ، ولم نأخذ فكرة ما بقلوب الشعوب الكثيرة المكوّنة للانبراطورية ، وعلى الوجه الشائع الذائع • لقد سكت نقدة القومية باعتبارها سياسة بنّاءة ، ولزم الصمت المرتابون على كره • وسادت القومية في الميدان • ولقد أكّدها كل تصريح رسمي صدر عن الحلفاء ، وكل ناطق بأسم الدول المتآلفة باعتبارها أساس السياسة القابلة •

وبذرت بذور القومية بسعة في بلادنا ، لكن الجيش الذي نزل البصرة في سنة ١٩١٤ لم يكن مشبعاً بمثل هذه الأفكار • لقد كانت رسالتنا دحر الاتراك ، وقمنا بادائها • وفي الوقت نفسه ، وعلى لسان اللورد هاردنغ الذي زار البصرة في سنة ١٩١٥ : « إننا لم نكن نحارب منفردين ، واننا لسنا بقادرين على أن نختط الخطط للمستقبل من دون تبادل تام في وجهات النظر مع حلفائنا • لكننا كنا على ثقة من أن (ادارة) أصحّ وأسلم ستعيد لبلاد ما بين النهرين الازدهار ، فإمكاناتها الغنية هي التي أعطتها هذا العنوان الجلي » •

وعلى أساس سديمي كهذا مضينا حتى استولينا على بغداد • ونمت بذرة القومية في اوربة في الوقت نفسه ، وأثمرت شجرتها في الشرق•وكان أن أعلنت ثورة الشريف باعتبارها حركة عربية قومية بازاء الاتراك،وتعويضاً عن معونة القوى العربية التزم الحلفاء باحترام آمال العرب وتحقيقها • إن بسالة قوات التاج البريطاني المسلحة في بلاد ما بين النهرين جادت باحتلال بغداد ، ومكّن عمل ضباط (الادارة المدنية) المخلص حكومة صاحب الجلالة البريطانية من أن تتلمس القدرة العملية على تطبيق السياسة التي أعلنها الجنرال مود في سنة ١٩١٧ في بلاد ما بين النهرين ، والتي برزت

أخيراً في معاهدة الصلح التركية ، أعني خلق دول من أقسام الانبراطورية التركية التي يسكنها كلياً ، وبالدرجة الأولى سكان ليسوا من أرومة الأجناس التركية .

لقد تضمن كل نصر جديد في بلاد ما بين النهرين تقدماً آخر ، وما أن حلّت الهدنة إلاّ وجدنا أنفسنا مسؤولين عن ولايات : الموصل وبغداد والبصرة ، وملتزمين بالسياسة التي أعلنها الجنرال مود . لكننا ، على الرغم من ذلك ، لم نكن بقادرين على تحقيقها من دون مراجعة حلفائنا .

لم يتقرّر تطبيق نظام الانتداب على بلاد ما بين النهرين إلاّ بعد ستة شهور من عقد الهدنة . إنه النظام الذي وضع في معاهدة الصلح ، وبعد نحو سنة من تأريخ الهدنة حـُذ ّرنا من القيام بأي شيء ينم عن أن مستقبل الوضع السياسي في بلاد ما بين النهرين قد تقرر ، أو ان قرارات مؤتمر الصلح تستبق . وأوحى الينا في الوقت نفسه بأمل مفاده ان الصلح مع تركية سيعقد ولن يتأخر عن الخريف القادم .

لذلك تحدد عملنا المحلي بتصريف شؤون (الادارة . وما كنا نستطيع أن نبني في بلاد ما بين النهرين ، وذلك على الرغم من ان حكومة عربية في سورية ، مستقلة تقريباً ، قد أقيمت بعد الهدنة مباشرة ، وتزامن قيامها مع طرد الاتراك من حلب ، فغدت سورية مستقلة تماماً ، عندما احتلتها قواتنا في تشرين الثاني سنة ١٩١٩ .

وعلى ذلك ، بيـّنا نحن في بغداد أن أيدينا قد غلـّت بالتأخير الطويل في عقد الصلح مع تركية ، بينما بلغت العهود التي قطعها الحلفاء في سورية الشمالية حد الانجاز . إن هذا التباين في المعاملة بعث دعاية ناشطة من جهة ، كما بعث تذمراً في بعض الجهات من جهة أخرى .

قيل لنا يجب أن لا تفعلوا شيئاً حتى يتقرر مؤتمر الصلح . ومرت الشهور والصلح مع تركية لم يعقد وذلك بانتظار قرار الولايات المتحدة

الامريكية بشأن اضطلاعها بانتداب ما على أي شطر من أشطار تركية . وكانت ثمة حرب تستعر على حدودنا . وكانت بلاد ما بين النهرين هادئة، لكن البذرة التي بذرناها أخذت بالنماء ، وكان الشراب الجديد يختمر في القناني العتيقة . وغدت الادارة العسكرية الموقتة واستمرار حالات الحرب في المدن الكبيرة أمراً مرهقاً جداً ، لكننا ما كنا نستطيع العمل في سبيل إنماء الرأي العام إلاّ في القليل النادر .

لقد كانت أوامرنا واضحة : علينا أن لا نبني . وما كنا لنستطيع أن نعلم شيئاً عن قرار مؤتمر الصلح . لكننا استطعنا أن نتبين وتتنبأ بأن التأخير يخلق المتاعب . وكان التسريح دائباً حتى لم يبق في اليوم الأول من آيار في بلاد ما بين النهرين إلاّ ٥٠٠٠ من المحاربين البريطانيين و٣٠٠٠٠ من المحاربين الهنود .

وأعطى المجلس الأعلى لمؤتمر الصلح ، خلال هذا الشهر ، الانتداب على بلاد ما بين النهرين الى بريطانية العظمى ، لكنه لم يتخذ قراراً بشأن نمط الحكومة التي تقام فيها — وذلك يتطلب استشارة الرأي المحلي — وما هذا بالأمر اليسير . وفي مثل هذه اللحظة الحرجة من تأريخ بلاد ما بين النهرين رأى بعضهم ، ممن هم أشدّ من غيرهم طموحاً ، وأقصر نظراً ، وأقل صبراً وأضعف حكماً ان يبعثوا حركة مقنّعة بقناع الدستورية، غدت في غضون شهرين ثورية متعصبة(٦) . لقد حدث الانفجار في تموز،

---

(٦) ثورة العشرين المجيدة ، مركب صعب بازاء انبراطورية كبيرة في جيوشها قوية في عدتها ، لكن المركب الصعب لا يركبه الا المقدام الجسور . فهل يريد (المؤلف — الحاكم) الخنوع للعراقيين بازاء الاحتلال البريطاني الغاشم ؟ لقد استشهد كثيرون منهم في سبيل احياء تأريخهم المشرف في مواضي أيامهم ، وجادوا بالنفس والنفيس ، فهل يريد (المؤلف — الحاكم) للعراقيين أن يصدقوا بوعود بريطانية كاذبة وهم الأحرار الأعزة ؟
(المترجم)

وجاء معه الاجهاز على الحياة والممتلكات ، وستمضي سنون قبل أن تفيق البلاد من وقعه • إن ما هو الأسوأ قد مضى وانقضى • وبالطقس الذي هو أبرد وبحلول موسم الحرث ، ستقمع الاضطرابات الحالية نهائياً•وما لم يتم ذلك فلن يشرع بسياسة بناءة •

الى هذا الواجب نفسه استدعي سر پرسي كوكس • إن حزني على فراق (ادارة) كنت أزهو بها كثيراً ، وفراق نفر كل منهم هو الصديق الذي طابت مخايره ، سواء أكانوا من الرجال الرسميين أم من غير الرسميين، والذين أكبرت عملهم وكانت مصالحهم أقرب شيء الى قلبي تفوق العوض الذي يجيء به السرور الناجم عن عودته ، وهو سرور أعلم انكم تشاطرونني فيه •

لدي ثقة تامة في إمكانات البلاد وسكانها ، وفي حكمة حكومة صاحب الجلالة ومتانة القوى المادية والمعنوية الميسورة لها ، وبعون الله وتوفيقه وبالصبر الجميل سنجعل الواجب الذي اضطلعنا به مكللاً بالنجاح • يجيء الموظفون ويذهبون ، و (الادارة) تتغيّر لكننا يجب أن نطمئن أن الروح التي أقدمنا بها على الواجب ستكون هي الروح التي زهونا بالافصاح عنها والتي دفعت بنا ، في أماكن أخرى ، وان أولى مانعنى به هو مصالح شعب هذه البلاد (كذا) •

بهذه الآراء ، وبشعوري بأن كل محاولة بذلتها منذ تشرين الثاني سنة ١٩١٨ في سبيل حمل حكومة صاحب الجلالة على أن تسمح لي بالبدء باجراءات دستورية قد رفضت باعتبارها مبتسرة ، لذلك شقّ عليّ أنأجد نفسي ، اسبوعاً إثر اسبوع ، خلال صيف سنة ١٩٢٠ ، مشهّراً به في مقالات الصدر من جرائد (التايمس والاوبزرفر والديلي هيرالد) وغيرها• واعتباري بيروقراطياً جافاً ينطوي على نية تهنيد بلاد ما بين النهرين •

(ومما يواسيني أن منصب المندوب السامي فيها قد أُشغل منذ ذلك الحين وبدون انقطاع بمنتسبي الدائرة السياسية الهندية) ٠

لقد كنت السبب في نشر جميع التعليقات غير الودية في الجرائد المحلية ، وعاودت طبع المناقشات البرلمانية الدائرة حول بلاد ما بين النهرين في (الجريدة الرسمية) ٠ وكان التأثير مشجعاً، ذلك ان التباين بين الحقائق المحلية وعالم مدبجي العبارات كان كبيراً بحيث أصبح ، حتى بنظر الوطنيين مضحكاً ٠ إن الاشارات الى أمجاد الحكومة العربية في سورية ، وبلشفة جمهورية فارسية قابلة ، والاقتراح الذي قدمه المقدم لورنس نفسه والقائل بأن ملك بلاد ما بين النهرين المنتخب قد لا يكون عربياً(٧) ، بل انكليزياً ، كل ذلك كان حتى بالاسم ٠

إن رسالة سر جورج بيوكانن الى التايمس ، خالق ميناء البصرة ، والمسافن العظيمة في معقل بشأن أهمية السيطرة الحازمة على الصرف على الاشغال العامة وواجب رأس (الادارة) في تمحيص تخمينات اخوان سر جورج بيوكانن المهندسين ، كل ذلك أدخل عنصراً محبباً من الفكاهة في معمعة الخلاف ٠

وما كان ثمة شيء يفوق لطف زملائي ، سواء أكانوا من العسكريين أم كانوا من المدنيين وعلى ما ظهر في حفلات التوديع المتعددة التي تفضلوا بإقامتها ٠ ولم تقصّر الطوائف المحلية ولا غرفة التجارة في مجاملاتها ، وهي التي تسدي في الشرق شيئاً كثيراً ، على غرار ما تسديه في الغرب، إذ تجعل الحياة الرسمية حلوة ٠ لقد ألقى وجهاء البصرة خطاباً وداعياً قدموا فيه سيف الشرف ، وليس لديّ شيء أملكه أثمن من ذلك ٠ وكانت المناسبة حفلة عشاء توديعية ، رأسها سر پرسي كوكس نفسه ، وحضرها ضيوف شتى من غير النوع المعتاد إلاّ في المحافظة على الصلات الودية التي

---

(٧) The Times 21-6-20. (المؤلف)

قامت فيما بيننا لأكثر من عقد من السنين . وكان العرب على اختلاف أحزابهم حاضرين ، وكان الخطباء الرئيسون من أصدقائي ، وهم : عبداللطيف باشا المنديل ومزاحم بك الباچه‌چي(٨) وكان ان وصف الأخير نفسه باعتباره « وطنياً متطرفاً » ومن مؤسسي الحركة العربية العامة منذ سنة ١٩٠٦ واني لأقتبس من خطابه ما يأتي :

« إني لآسف كثيراً على خطل بعض العرب الذي أدى الى أن تشعر الأمة البريطانية بخيبة أملها فيما أسدته من فعال كريمة . لقد ارتكبت هذه الافعال بالنظر لعدم تحقيق الأحلام من جهة ، ولمصالح مادية أنانية من جهة أخرى . ليست الحركة الراهنة بحركة عربية صرف ، إذ أنها مزيجة بعنصر غريب ، وهو ، مع أسفي العميق ، قد نجح في استخدام السمعة العربية ، والثورة العربية والدم العربي لفائدته الشخصية ، آملاً من وراء ذلك إضعاف مركز بريطانية العظمى في أماكن أخرى . لا تغرّنكم المظاهر ، لأنها أشدّ ما تكون خداعاً ، وفي الشرق على وجه أخص . لا تعتبروا الثورة القائمة التي تشنها قبائل بدوية بثورة قومية حقّة تسعى الى الاستقلال . إن حركة كهذه لا يمكن اعتبارها ممثلة مشاعر المجتمع بأسره . إن الأسر ذوات النفوذ في بغداد لا تعطف على حركة خرّبت البلاد ودمرتها . إن مشاعر هؤلاء الناس من ذوي المكانة تنحصر في نقل ما يدور في عقولهم وقلوبهم الى من هم في انكلترة ، الى من يمالئون انسحاب بريطانية من هذه البلاد . إن الانسحاب يعني انهيار القانون لا أقل، وتحطيم الناس ، وما يجيء في أعقاب ذلك من حال فوضى تسود البلاد طولاً وعرضاً ، قد تسفر عنها حرب آسيوية لا يمكن أن تقف بريطانية منها مكتوفة اليدين أبداً » .

---

(٨) هو اليوم (نيسان ١٩٣١) وزير الاشغال والمواصلات .

(المؤلف)

وفي الـ ٤ من تشرين أعدت مفاتيح منصب (المفوض المدني في بلاد ما بين النهرين) الى المعتمد الدائم : سر پرسي كوكس ، وكنت قد نبت عنه طوال سنتين ونصف السنة • وبعد ٢٤ ساعة من ذلك غادرت البصرة • وبعد ثلاثة أسابيع ، أي في اليوم الـ ٢٨ ، وبعد ١٣ سنة من القيام بالواجب في الشرق الاوسط على وجه دائم تقريباً ، سلمت منصب المقيم البريطاني في الخليج العربي الى العقيد تريفر ، شأنه شأن منصب قنصل صاحب الجلالة البريطانية العام في فارس وخوزستان ، وكان عيد القديسين سمعان ويهودا اللذين هلكا في بلاد ما بين النهرين وفارس ، وهما من كان أسلافنا يجلّونهما ، باعتبارهما نصيري الآمال الذاهبة بدداً •

ومع ذلك لم أغادر العراق حاملاً أفكاراً كهذه • إذ لم يخامرني أي يأس سواء حين كنت في العراق ، أو بعده في بمبي حيث أقمت فيها عند اللورد لويد أياماً قليلة ، وذلك بقدر تعلّق الأمر بواجبنا ، ومقدرتنا ، ومن ثم حقنا في اصطناع حكمتنا في الاقطار الاجنبية التي نفذت اليها جيوشنا ، والسلطة التي تمكّن الأهالي المعنيين من مسايرة بقية العالم ، والابتعاث بالمعنيين السياسي والاقتصادي تحت اشرافنا •

إن «الانهزامية» التي يمكن تعريفها بأنها استبان الهزيمة والمادية ، وقبول ما تنطوي عليه سلفاً ، لم تكن في مكان ما مشهودة • لقد كان أصدقاؤنا ، كما كان أعداؤنا واثقين منا • وكنت أؤمن ، كما كان اللورد كرزن يؤمن ، قبل عشرين سنة ، أن تبعتنا في الشرق مقدّر لها الاتساع لا التضاؤل ، وهذا يوقع على حكمتنا رهقاً ، لكن ذلك يأتي بالنفع المتبادل من التجارة الدولية متزايداً • وشعرت أن في مكنتنا وليس في مكنة أي شعب آخر أن ننشد العدل ونطبقه بغية المحافظة على مصالح الأقليات العادلة وان انصافها في المعاملة أفضل مقياس لأية حضارة • كنت أشعر مع المؤرخ هتن Hutton ، ولا زلت أشعر ، وعلى غرار فريمن Freeman

أن فعلاً من الظلم يمكن أن يتفادى ويرتكب عن علم ، وتحت اشرافنا ، لهو ضربة تنزل بناموسنا هي أكبر من أغلاط خطيرة في سياستنا أو في حكمتنا • إني لأقرّ ، على غرار إقرار بنثم Bentham بأن معين الحافز الضروري للجهد البشري هو المصلحة الذاتية ، لكنني كنت أتذكر أن المصلحة الذاتية في الطبيعة البشرية هي المبدأ الرائد المؤدي الى السعادة ، وأشد الأنماط المثمرة للتكافل •

إن التأريخ الشرقي ليظهر انه لم يحدث في أية فترة من الفترات التي خلّفت مدونات ان شعباً عظيماً اطمأن ، أو استطاع حقاً ، أن يضمن حكم نفسه بنفسه من دون ممارسة القانون في شعوب أخرى ، ومن دون أن يلاقي في سبيل ذلك أقصى درجات الصرامة • لقد تراءى الوضع في سنة ١٩٢٠ ، ولا يزال يتراءى ، على انه حال انتقال ، ويأمل دبلوماطيقيو جنيف كلفين بأن تبتعث لتصبح حلاً دائماً لقضية تعسرت حتى يوم الناس هذا ، ولا يستطيع غير العقل والتأريخ تحديد اليوم الذي يولد فيه الحل هذا • وتراءى في سنة ١٩٢٠ ان ليس هناك من سبب كافٍ يحملنا على تسليم أعنّة الحكم في الشرق ، أو أن نسلّم مشعلاً كان خافت الضوء حتى ذلك اليوم ، ولم يكن من سبب يحملني ، عهد ذاك ، على أن أتصوّر أن سياسة حكومة صاحب الجلالة يجب أن تكون غير تنفيذ روح المادة الـ٢٢ من الانتداب ونصها •

وما حدث منذ هاتيك الأيام كثير • لقد فقدنا ايماننا بأنفسنا الآن ، وجنحنا الى الميل الى قرارات جنيف التقية ، لتنجز عملاً يمكن انجازه من جانب واحد على وجه أسمى وأكثر أملاً •

من الشجاعة حقاً ، ومن الرفاه ، أن يكسب الميدان ، لكن معرفة النهاية والوقوف على سبب الكسب حمق وضلالة ، لا يمكن تلقين النجح حسناً أم كان سيئاً ، وعلى حد سواء ••• فهل ثبت أن انتصاراتهم غير

مجدية ، شأنها شأن خسرانهم الخطر، وتركوا يصارعون الألم الذي يصارعه أناس غلبوا على أمرهم •

حقاً لم يكن من المحتمل أن يحدث غيره ، ما لم ينشأ أناس غير غوغائيين ، وعلى ما كانت قلة منهم ، يعرفون الفعال الباهرة القديمة ، محصنين على وفقها بازاء العناوين التي لا طائل من ورائها ولا جدوى، غير متحيزين بازاء الصداقات والصلات ، مصرفين أعمالهم • وان كثيراً ممن كان جهلهم المكشوف يفوق جهل الآخرين ، سمح لهم بحمل تبعة ليست بواهنة الشأن ، سواء كان ذلك في الكنيسة أم في الدولة ••• فما الذي يؤمل •• غير الحال الفوضى أخيراً ؟(٩)

هذا ما حرره ميلتون في سنة ١٦٧٠ عن حال هذه البلاد في القرن الخامس ، ولكن ذلك كان مقروناً بإشارات خاصة تتصل بالأحوال السائدة حين كتابته • وبعد أقل من قرن بلغت انكلترة ، في الداخل والخارج ، مقاماً علياً لم يحلم به ميلتون أبداً • وإني لآمل أن يعود ذلك كرّة أخرى •

× × ×

---

(9) Milton : History of England Vol. 111.

الملحق الاول

بيـــان ٥ تشرين الثاني ١٩١٤ :

يجب ألاّ يخفى عليكم بأن حكومة بريطانية العظمى قد اضطرت مع شديد أسفها الى الدخول في حالة حرب مع تركيا بسبب أعمالها العدوانية المستمرة ضدنا بلا مبرر بل بدافع تحريض حكومة المانيا التي لها غايات تريد تحقيقها من ذلك . فاضطرت الحكومة البريطانية حينذاك أن ترسل قوة الى شط العرب لحماية تجارتها وأصدقائها ولاخراج الجيوش التركية من هذه المنطقة. وليكن معلوماً لدى الجميع بأنه ليست للحكومة البريطانية أية خصومة مع العرب سكان شواطىء الانهار وطالما أظهروا لنا الموالاة ولم يحموا الجنود الاتراك ولم يتجولوا حاملين السلاح فلا خوف عليهم ولا على ممتلكاتهم منا .

على كل فإننا ننذرهم بكل صراحة ووضوح بوجوب عدم حملهم السلاح إذ أن ذلك سيؤدي الى عدم تمييزنا بينهم وبين العدو وسيكون الذي يتجول منهم بالسلاح معرّضاً لاطلاق النار عليه .

برسي ٠ز٠ كوكس

٥ تشرين الثاني ١٩١٤

المقيم البريطاني في الخليج العربي

(٢) البيان الصادر عن مقر القيادة العامة للجيوش البريطانية المحتلة الى وجهاء وأفراد الشعب في مدينة البصرة

في

اليوم الثاني والعشرين من شهر تشرين الثاني ١٩١٤

ليكن معلوماً لدى الجميع بأنه كانت منذ القدم ولا تزال حتى الآن ملايين عديدة من المسلمين تحت نفوذ الحكومة البريطانية يزيد عددهم كثيراً عمّا كان منهم تحت نفوذ أية دولة أخرى في العالم لا بل حتى أكثر من عدد أولئك الخاضعين منهم لنفوذ تركيا نفسها ، وكما هو معروف لدى الجميع أيضاً بأن علاقات بريطانيا مع تركيا كانت علاقات ود واحترام دائمين ، ولما انفجرت الحرب منذ أشهر قليلة بين بعض الدول الأوربية ألحّت الحكومة البريطانية بشدة زائدة على الباب العالي بوجوب عدم دخول الحكومة العثمانية بأية صورة كانت في تلك المعركة نظراً الى أن دخولها في الحرب كان مضراً بالمصالح التركية ، وفضلاً عن ذلك أكدت الحكومة البريطانية وحلفاؤها لتركية بأنها ستضمن لها تمام استقلالها وسلامتها إذا هي امتنعت عن الاشتراك في الحرب غير أنه لسوء الحظ لم تقبل تركيا بذلك كما أنها لم تصغ الى النصائح التي أسدتها اليها الحكومة البريطانية بهذا الشأن إذ أنها كانت قد خدعت وضللت بالدسائس الالمانية الى درجة أنها أخذت هي نفسها تقوم بأعمال عدوانية ضدنا واضطرتنا الى الدخول في حالة حرب معها .

وها ان الحكومة البريطانية قد احتلت مدينة البصرة غير انها وإن كانت في حالة حرب مع الحكومة العثمانية لكنها رغم ذلك لا تضمر عداءً أو سوءاً لأهالي المدينة الذين لنا وطيد الأمل بأن تثبت لهم من أنفسنا بأننا

أحسن أصدقاء وحماة لهم ، ولم يبق أي أثر للحكم التركي في هذه المنطقة وقد رفع في محل العلم التركي علم الحكومة البريطانية الذي ستتمتعون تحت ظله بفوائد ، والعدل سواء في شؤونكم الدينية أو المدنية •

ولقد أصدرت أوامر مشددة الى الجيوش البريطانية المنتصرة بأنه يجب عليهم أن يعاملوا الأهلين كافة بكل ود واحترام لدى قيامهم بالواجبات التي تعهد اليهم وعليه فلم يبق عليكم إلاّ أن تعاملوهم أنتم بالطريقة نفسها •

وأخيراً فلكم جميعاً أن تمارسوا أعمالكم اليومية ومهنكم كما اعتدتم عليه قبلاً ولي وطيد الأمل بأن الحركة التجارية في البصرة ستستأنف مجراها لا بل انها ستزداد نشاطاً عما كانت عليه في الماضي •

الفريق
پرسي •ز• كوكس
ضابط الشؤون السياسية
للجيوش البريطانية

(٣) البيـان الصادر في ١٥ آذار ١٩١٥

الى جميـع من يهمهـم الأمـر

كما هو معلوم لدى الجميع لقد أصبحت البقاع التي تمتد بين الفاو والقرنه من العراق تحت احتلال الجيوش البريطانية منذ شهرين مضيا وقد سبق وأوضحنا للجمهور مراراً بأن الحكومة البريطانية دخلت مرغمة الى الحرب مع تركية بسبب قيام الاتراك بأعمال عدوانية عديدة ضدنا بتحريض من المانيا غير ان الاعمال الحربية التي تقوم بها الجيوش البريطانية موجهة ضد الحكومة التركية وجيوشها فقط ، أما العرب فلا ترغب الحكومة البريطانية أن تعاملهم كأعداء ما داموا محافظين على ولائهم لنا وحيادهم وتجنبهم استعمال السلاح ضد جنودنا لا بل بالعكس انها ترغب في تحرير العرب من نير الاتراك وفي ترقيتهم وزيادة رخائهم وتجارتهم •

وفي خلال الشهرين الماضيين قدم الكثير من رؤساء طبقات الشعب وشيوخ القبائل العربية المختلفة في ولاية البصرة الطاعة للسلطات البريطانية بعد ما رأوا ان ذلك كان في صالحهم والبعض الآخر منهم وقفوا من تلقاء أنفسهم على الحياد من الخصومة بين الحكومتين بينما أقنع العدو غيرهم من الضالين بحمل السلاح ومساعدته في مقاتلة الجيوش البريطانية وعليه فقد أصدرنا هذا البيان لاخطار جميع شيوخ وقبائل ولاية البصرة وتوابعها أي القرنة والعمارة والمنتفك بأن الحكومة البريطانية ستصادر جميع أملاك أولئك الذين سيتخلّون عن ولائهم لنا وحيادهم ويحملون

السلاح لمساعدة العدو ضدنا وسوف يصدر اخطار في حينه عندما تجري مصادرة كهذه •

هذا ما كان مستوجباً اعلانه للجيوش البريطانية في العراق •

صدر بأمر من القيادة العامة للجيوش البريطانية في العراق

٢٠ ربيع الاول ١٣٣٣

١٤ شباط ١٩١٥

الفريق پرسي •ز• كوكس
رئيس دائرة الشؤون السياسية
للجيوش البريطانية

الملحق

أسماء المعارك والمشاغلات التي شنتها القوات العسكرية البريطانية
قبس من تقرير لجنة المعارك المصادق عليه من قبل مجلس
بلاد ما

١ــ المعارك التي دارت رحاها في

الحركات	اسم المعركة والوقائع التعبوية فيها والاجراءات الخ..	
حركات البصرة (٦/١١/١٩١٤) الى (١٤/٤/١٩١٥)	....	قضية سيحان الاجراء الأول في القرنة قضية الأحواز قضية الشعيبة
التقدم صعداً في دجلة ١٩١٥	معركة الشعيبة	....
(٣١ ايار ــ ٥/١٠/٦٧)	....	الاجراء الثاني في القرنة
	معركة الكوت ١٩١٥	

الثاني
الانبراطورية خلال الحرب العالمية (١٩١٤ - ١٩١٩)
الجيش (الصادر برقم سي ام دي ١٩٢٢/١١٣٨)
بين النهرين
بلاد ما بين النهرين السفلى

وقائع شتى	الحدود الزمنية	الجغرافيا
النزول في الفاو	٦/١١	دلتا شط
••••	١٥/١١	العرب
••••	١٧/١١	حتى
ـ فاحتلال البصرة	٢٢/١	البصرة
••••	٤ــ٨/١٢	دجلة شمالي البصرة
	٣/آذار	شمال غربي الاحواز
	٣/آذار	غربي الشعيبة الطوفان
••••	١٢ــ١٤ نيسان	غربي البصرة
••••	٣١/٥	دجلة شمالي القرنة
واحتلال العمارة بالتالي ٣ حزيران		
	٢٨/٩	دجلة شمالي الصناعيات

ــ وحركات إضافية على نهر .... قضية الخفاجية
كرخـــا
٧ ايار ــ ٣ حزيران
التقدم صعُداً في الفرات .... حركات الناصرية
سنة ١٩١٥ (٢٧ حزيران ـ
٢٥ تموز)

٢ـ أول زحف

التقدم على بغداد : ١٩١٥ معركة طاق كسرى ....
(١١/١١ ــ ٢/٦) سنة ١٩١٥

قضبة أم الطبول

الدفاع التالي عن الكوت
هجوم ليلة عيد الميلاد

محاولات لانقاذ الكوت ....
(١/٤ ــ ٢٤/٤/١٩١٦)

المحاولة الاولى ٤ ــ ٢٣ كانون الثاني	....	حركات شيخ سعد حركات الوادي الهجوم الأول على حنة
المحاولة الثانية ٧ ــ ١٠ آذار المحاولـة الثالثة ١ ــ ٢٤/ نيسان	....	الهجوم على حصن الدجيلة حركات الفلاحية بضمنه الاستيلاء على حنة الهجوم الأول على الصناعيات الهجوم الثانى » » حركات بيت عيسى الهجوم الثالث على الصناعيات

••••	١٤ــ١٦ آيار	••••
••••	٥، ١٣ــ١٤، ٢٤ تموز	الفرات غربي الحمّار
على بغـداد		
••••	٢٢ــ١١/٢٤	دجلة فوق لاج
	١٢/١ ١٩١٥/١٢/٧	دجلة فوق الكوت
	١٩١٦/٤/٢٨	
••••،	١/٤ حتى ٤/٢٤	
••••	٦ ــ ١/٨	دجله فوق علي الغربي
••••	١٣ ــ ١٤	دجلة فوق شيخ سعد
	١/٢١	دجلة فوق الوادي
••••	٣/٨ ٣/٥ ٣/٦ ٣/٩ ١٧ ــ ٤/١٨ ٤/٢٢	دجلة فوق الوادي

حركات الفرات ١٩١٦ •••• وقعة بطانية
كانون الثاني ــ أيلول

٣ــ الاستيلاء على بغداد

الحركات المنصبّة على معركة الكوت ١٩١٧ ••••
الاستيلاء على الكوت ١٩١٧ الاستيلاء على دورة الخضيري ••••
١٣ كانون الاول ١٩١٦ ــ الاستيلاء على نشز الحي ••••
٢٥ شباط ١٩١٧ الاستيلاء على دورة دهره ••••
الاستيلاء على الصناعيات ••••
المرور من دورة شمران ••••

ــ والتعقيب التالي •••• عبور ديالى
نحو بغداد (٢٥/٣ •••• ••••
ــ ١٠/٣/١٩١٧)
الحركات المنصبّة على •••• حركة المشيدية
ترصين الوضع ببغداد أول حركة في وقعة
١٤/٣ ــ ٣٠/٤/١٩١٧ جبل حمرين
وقعة دلّي عباس

وقعة دوغمة
الوقعة على نهر الخالص

اجتياز نهر العظيم
حركة اصطبلات

••••	٩/١١	شمالي الناصرية

وترصين وضعنا فيها

••••	١/٩ ـ ٢/٢٤	دجلة فوق الشيخ سعد
••••	٩ ـ ١/١٩	
••••	١/٢٥ ـ ٢/٥	
••••	٩ ـ ٢/١٦	
••••	١٧ ـ ٢/٢٤	
••••	٢٣ ـ ٢/٢٤	
•••••••••••	٧ ـ ٣/١٠	دجلةفوق الكوت
احتلال بغداد بالتالي		••••
••••	١١ آذار	•••••••••••
••••	١٤ »	دجلةفوق الكاظم
	٣/٢٥	قرب شهربان
••••	٢٧ ـ ٣/٢٨	الضفة اليمنى لنهر ديالى شمالي بعقوبا
	٣/٢٩	دجلةفوق مشيدية
	٩ ـ ٤/١٥	قناة الخالص فوق دلتاوة
	٤/١٨	دجلةفوق دوغمة
	٢١ ـ ٤/٢٢	دجلة فوق نهر العظيم

	••••	••••
		وقعة على شط العظيم

٤ـ القتال في بلاد ما

حركات الفرات ١٩١٧ ـ ١٩١٨ ٨ تموز ـ ١٣ نيسان	••••	الهجوم على الرمادي الاستيلاء على الرمادي الحركات بازاء خان بغدادي
حركات دجلة ١٩١٧ ١ تشرين الاول ـ ٦ كانون ثاني	••••	الحركات الثانية في جبل حمرين الحركات نحو تكريت الحركات الثالثة في جبل حمرين
حركات كركوك (٢٥/٤ ـ ٢٤/٥/١٩١٨)	••••	حركات طوز خرماتو
الزحف على الموصل ٢٣/١٠ ـ ٥/١١/١٩١٨	••••	حركات الفتحة
	••••	الحركات على الزاب الأسفل
	معركة الشرقاط	••••
		وقعة الكيارة

فاحتلال سامراء	٢٣ ـ ٢٤/٤	....
	٣٠/٤	شط العظيم فوق مخلطه بدجلة

بين النهـرين العليـا

....	١١ ـ ١٤/٧	الفرات فوق ذبّان
....	٢٨ ـ ٢٩/٩	
	٢٦ ـ ٢٧/٣	الفرات فوق هيت
فاحتلال عانه	٢٨/٣	
حصار النجف	١ ـ ١٣/٤	
....	١٨ ـ ٢٠/١٠	شمال شهربان
....	٢٤/١٠ و ٥/١١	دجلة فوق
....	٣ ـ ٦/١٢	شمال شهربان
....	٢٩/٤	شمال كفري
....	٢٣ ـ ٢٤/١٠	دجلة فوق تكريت
....	٢٥/١٠	دجلة فوق الفتحة
....	٢٨ ـ ٣٠/١٠	
....	٣٠/١٠	
فاحتلال الموصل بالتالي	٣/١١	

٥ ـ شمال ـ غرب

اقامة خطوط مواصلات بين بغداد وقزوين ١/٢٧ ـ ٧/٢٩	••••	الوقعة قرب الزاب الدفاع عن رشت
حركات قـزوين آب ـ ايلول	••••	••••
حركات اذربايجان ايلـول	••••	حرب مؤخرة من ميـانه

ايــران وقزوين ١٩١٨

••••••	٤/٢٥	••••••
••••••	٧/٢٠	••••••
حركات باكــو	٨/٤	
حركات كرائز وفودسك	٨/٢٧	
الدفاع عن باكــو	٨/٢٦ ــ ٩/١٥	شمال ــ غرب
••••••	٥ ــ ٩/١٥	نيكباي

ملاحظة بخصوص الملحق الثاني :

الحوظة بقلم مؤلف الكتاب : ان « انواط الشجاعة » التي منحت خلال الحرب العظمى وخلال الخدمات التي جرت في بلاد ما بين النهرين ، كانت على الوجه الذي يلي السطر :

بلاد ما بين النهرين : مع سني خدمة على وفق ما قام به الشخص الممنوح
البصرة : (عن «سيحان» أو عن «ساحل»)
الشعيبة : (عن المعركة التي جرت بين ١٢ و١٤ نيسان سنة ١٩١٥)
الكوت ١٩١٥

طيسفون

الدفاع عن الكوت : (عن أية مشاغلة سجلت تحت عنوان « محاولة دجلة ١٩١٦

لانقاذ الكوت » في مدونات لجنة القتال المشار اليها آنفاً) .

الكوت ١٩١٧ : (الى «الطراد نحو بغداد» ٢٥ شباط - ١٠ آذار ١٩١٧)
بغداد

خان بغدادي

الشرقاط

لم يصدر «ابزيم» مع « نجمة نوط الحرب البريطانية ١٩١٤ - ١٩١٥ » أو « نوط فيكتورية » عن الخدمات التي أسديت خلال الحرب العظمى .
ان نوط الخدمة العامة وابزيم صدر عن الحركات العسكرية في البلاد بين ١٠ كانون الاول ١٩١٩ و١٧ تشرين الثاني ١٩٢٠ تحت الشروط المنشورة في أمر الجيش/٤ الصادر سنة ١٩٢٣

لم يمنح نوط من قبل الحكومة التركية لأي فرد خلال حرب بلاد ما بين النهرين .

الملحــق الثالث

الحوظة بشأن اصدار طوابع البريد في بلاد ما بين النهرين خلال الحرب

بقلم : اللواء سر پرسي گوكس

وعلى غرار الحملات الاستكشافية التي قامت بتجهيزها حكومة الهند والهيمنة عليها،قامت هذه الحكومة بتجهيز حملتها الموسومة بـ(د: D) بطوابع هندية ـــ بريطانية (طبعة الملك جورج سنة ١٩١١) وقـــد طبـــع عليها (I.E.F) •

ان الضابط السياسي الاول كان يتوق الى لذاذة تنبثق عـــن ازعاج العدو عن طريق طبع حروف على الطوابع ، لذا لـــم يدّخر وقتاً في ســـبيل البحث الدقيق ، إثر دخول قواتنا أية بليدة ، وفي دوائر البرق والبريـــد ، عن الخطابات القديمة ومسودات البرقيات ، وما تنطوي عليه من معلومات أولاً ، وعما فيها من طوابع بريد ثانياً •

وبهذا الصدد ، ان السلطات التركية المدنية ، بذلت جهوداً أتمتها ، بلا شك ، تشبثات القاطنين البلديين في سبيل إخلاء الدوائر ، وغيرهـــا ، من طوابع البريد ، ونجحت في ذلك قبل أن تنسحب من البلاد مصعّدة • وعلى ذلك ، وفي خلال تقدمنا في نهر دجلة قدماً واستيلائنا على البصـــرة والقرنة وقلعة صالح والعمارة • لم نستطع الحصول على أي كميـــة من هذه الطوابع • إن أول فرصة سنحت لنا للحصول على كمية صغيرة منها جاءت على خلاف • لقد عثر على طوابع تبلغ قيمتها ٢٠٠٠ روبيـــة بضمن

أموال مسروقة كانت لدى أحد سكان الكوت ممن كان يحاكم من جراء جريمة قتل • ولدى الاخبار عن هذه الجريمة رجا ضابط الشرطة الاحتفاظ بهذه الطوابع باعتبارها من الشواهد الجرمية في القضية ، حتى انتهاء المحاكمة • ومن أسف ، ان المتهم الموقوف كان ينتظر محاكمته عندما وقعت معركة طيسفون (سلمان باك) ، والتي جاء في أعقابها تراجع (طاونسند) الى الكوت ، وفيها بقيت الطوابع ، ولعل الاتراك استرجعوها لدى تسليم المدينة • وعلى أية حال لم يسمع عنها ، فيما بعد ، شيء ما •

ولم نحصل على كمية عظيمة من الطوابع الى بعد دخولنا بغداد ولكنها لم تكن من بغداد نفسها ، وفي هذه الحالة ، وعلى الرغم من أن الاتراك لم يدخروا وسعاً في سبيل إخلاء دوائر البريد المحلية من الطوابع، لم يستطع المنسحبون الاتيان بها من الدوائر النائية ، ذلك لأن الوقت لم يكن كافياً لمثل هذا ، لذا اتخذت الخطوات اللازمة فوراً لجلب أية كميات لم ينهبها الاهلون القاطنون في أي بقعة قبل وصولنا اليها •

وباستثناء الكميات القليلة التي استعيدت أذاع الضابط السياسي الأول انه على استعداد لتسلم أي كمية لدى الأهلين من الطوابع التركية ودفع ثمن لها ، (ذلك انها ليست بذات جدوى بالنسبة الى دوائر البريد العسكرية) وبهذه الطريقة أمكن الحصول على كمية قليلة • وفي الوقت نفسه تقرر أنه ليس هناك من مبرر لاستعمال طوابع عليها كتابة ما لم تكن قيمتها لا تقل عن ١٠٠٠ جنيه ، وفي نهاية آب ١٩١٧ بلغنا الرقم المذكور ، وبعد إقرار الكميات التي يجب أن تصدر من كل فئة سلّمت الى ملاحظ مطبعة الحكومة لتطبع عليها عبارة (بغداد في أثناء الاحتلال البريطاني) • وكانت المجموعة خليطاً من اصدارات قديمة وحديثة ،وتقرر أن لا يستعمل من هذا الخليط المختلف أكثر من ٦٠ نموذجاً •

وعلى ذلك تم اصدار ١٤٥٨٠ من الطوابع من مجموع ما قيمته ١٠٣٨ جنيهاً ، ومن ٢٥ نوعاً ، وكل نوع يرجع الى عهد مختلف •

ومن الممتع حقاً أن نقيد أننا حصلنا على كمية كافية من الطوابع من فئة ٢٠٠ قرش تعود بتأريخها الى سنة ١٩١٣ ، عليها صور السلطان محمد الخامس ، مما يبرر إدخالها في الطوابع الصادرة ، لكننا لدى إحالة الأمر الى سكرتير الدولة علمنا أن جلالة الملك جورج الخامس يرغب في أن لا يطبع شيء على هذه الطوابع بعينها •

ومن الطبيعي أن نقيد هنا كمية صغيرة من أمثال هذه الطوابع تصبح بعد حين من الزمن ثمينة ، وعلى ذلك اتخذت الاحتياطات المشددة بشأنها، ومنها تجنب الاخطاء التي يمكن تبينها أولاً ، وثانياً أن يتمكن ، بقدر ما تسمح به كمياتها ، كل فرد في القوات البريطانية من شراء مجموعة واحدة فقط ، وذلك بوساطة دائرة البريد •

وفي أثناء جمع هذه الطوابع بقصد الاصدار لحظنا أن آخر إصدار تركي ، جرى سنة ١٩١٣ وهو اصدار «ادرنة» المصور الذي حفر صورته السادة برادبري ويليمسن ، وهي شركة بريطانية ، لذلك سهل الحصول على كميات أخرى للاستعمال القابل ، وعلى ذلك طلبت شحنة منها للاستعمال في أيلول سنة ١٩١٨ ، وجعلت عليها العبارة الشاملة العراق في أثناء الاحتلال البريطاني Iraqi in British Occupation بدلاً من عبارة (بغداد في أثناء الاحتلال البريطاني : "Baghdad in British Occupation" "*") •

وبقيت هذه الطوابع مستعملة حتى سنة ١٩٢٣ حين تأسست الحكومة العراقية فأصدرت لها مجموعة مصورة صممها مستر كاربيت ومس جيزمان معاً • إن عدد طوابع بغداد المطبوع عليها بحروف سبقت الاشارة اليها كانت على ما هو مفصل في الجدول الآتي ، وفي حالة واحدة حسب ليست هناك إلا ٥٩ من الطوابع ذكر أنها أصدرت ، أما الطابع الـ ٦٠ فقد ورد خطأ لذلك وجب حذفه •

قائمة بالطوابع التركية التي طبعت عليها عبارة
« بغداد تحت الاحتلال البريطاني »
(*) Baghdad in British Occupation

سلمت من قبل (الحاكم الملكي العام) الى (مدير البريد ، في قوة حملة بلاد ما بين النهرين) لتصدر من قبل (دوائر البريد المدنية) ، اعتباراً من

١ ايلول ١٩١٧

رقم التسلسل	طوابع من فئة	عدد كل نوع	المجموع	مجموع القيمة
١	آتتين	٨٢٠	—	باون • شلن • پنس
٢	«	٣٤٦	—	
٣	«	٧٤٧		
٤	«	١٣٣٩		
٥	«	٥٩		
٦	«	١٠٥١		
٧	«	١١١		
٨	«	٦٥٧	٥١٣٠	٦٤١ ٤ —
١	آنة واحدة	٦٥		
٢	«	١٠٤٨		
٣	«	٤٣٤		
٤	«	٤١٥		
٥	«	٢٨٨		
٦	«	٢٧٠		
٧	«	٢٧٤		
٨	«	٢٤٩		
٩	«	١٤٨	٣١٩١	١٩٩ ٧ —

١	أغلفة	٧٠				
٢	»	٥٧	١٢٧	٧	١٥	—
١	طوابع من فئة نصف آنه	١٢٦١				
٢	»	١٠١٢				
٣	»	٧٧٠				
٤	»	٢٧٠				
٥	»	٢٤٢				
٦	»	١١٩	٣٦٧٤	١١٤	١٣	—
١	طوابع من فئة ١/٤ آنه	١٢١٥				
٢	»	٩٠٦	٢١٢١	٣٣	٢	٣
	المجموع الكلي		١٤٥٨٠	١٠٣٨	٣	٣

بي . ز . كوكس
الحاكم الملكي

(*) أشرنا ، تذكرة لأولي الالباب ، في (تعليقاتنا) التي تضمها دفتا هذا (الكتاب) ، استطراداً ، وأكثر من مرة الى (الروح الاستغلالية) التي اتسم بها (الاحتلال البريطاني) ورجاله ، ولم يشذ منهم حتى من تبوأ أشرف المناصب في (جهازه) ، وقد انجلت تلكم الروح مقداراً فمقداراً ، يوماً فيوماً واستهدفنا كشف (علة) ذلكم (الاحتلال) ولا تنس أن (العلة) التي لا تعرف مصادرها لا يشفى منها . ان أمر هذا (الملحق) لأمر عجب ، ولكن اذا عرف (السبب) بطل العجب : ولفائدة القارىء الكريم بعامة و (هوي الطوابع : Philatelist) بخاصة نقول : ما ان احتلت القوات البريطانية بغداد الا أصدر قادتها (طوابع تذكارية) عدتها ٢٨ طابعاً وضعت في التداول يوم دخولها بغداد ١١ آذار ١٩١٧ . انها طوابع عثمانية صدرت بين سني ١٨٩٢ - ١٩١٧ ووشحت بعبارة : (بغداد ... تحت الاحتلال البريطاني) . وقام مدير البريد المشار اليه باهداء مجموعة كاملة الى (فاتح بغداد : الجنرال مود) وأخرى الى (ملك بريطانية العظمى : جورج الخامس) وآخرين من رجال الانبراطورية العظام !!

ان هذه (المجموعة) تقدر قيمتها اليوم بـ ٦٥٠٠٠٠ الف دينار عراقي . وقيل ان سر پرسي كوكس (الحاكم الملكي العام في العراق) نفسه اختطف كميات كبيرة منها وقد ظهرت في (مزادات علنية) في لندن بعد ذلك وبيعت بمبالغ عالية ، فتأمل !.

ان الاستعباد البريطاني ، كان ولا يزال ، كالذئب الذي ينام في الغاب بعين واحدة يتصيد الفريسة ويمضي النهار بسن المخلب ويحد الناب ، انه أمر لا يمارى فيه (أبهذا الحديث أنتم تمترون)

(المترجم)

الملحق الرابع

تقرير المصير الذاتي في بلاد ما بين النهرين

مذكرة الآنسة جرترود بيل : شباط ١٩١٩

كان نشر التصريح الانكليزي — الفرنسي على خطره السياسي في أي مكان ، ضرورة يؤسف لها ويتطلبه العراق . وعلى الرغم من أثره في باب توكيد نوايا سبق الافصاح عنها إثر احتلال بغداد ، لكنه كان يختلف عن البيانات السابقة في خصيصة ذات خطر ، وأعني بها : ان تصريح بغداد صدر ، ومصير الحرب محفوف بالريب الى أبعد حد ، ولهذا السبب ، بعينه ، عدّ من الضرورات العسكرية . إلاّ أن التصريح الانكليزي نشر إثر النصر الذي أحرزه الحلفاء ، ورسوخ الثقة فيهم . وقبل ظهور التصريح كان أهل بلاد ما بين النهرين ، وقد شهدوا أن الحرب كللت بالنصر ، قد انتهوا الى أن بلادهم ستبقى تحت الحكم البريطاني المباشر ، واطمأنوا على وجه العموم ، الى ما قرّره السلاح . ثم فتح التصريح مجال امكانات نظر اليها ، على العموم ، نظرة القلق تقريباً ومكّن من فرصة تهتبل لحبك مؤامرة سياسية على يد من هم أقل استقراراً وأشد تعصباً . وفي الحق انه بقدر تعلق الأمر بعدم بعثه إلاّ القليل من الاتنفاض ، يجب أن يتذكر أن نشره جرى بعيد عودة بعض الاشخاص غير المرغوب فيهم ، من وجهة نظر السكينة العامة ، وهم من عادوا بموجب أحكام الهدنة . إن رجالاً من أصل عربي جرى استخدامهم في الوظائف التركية ، مدنية وعسكرية ، ومالوا بكليتهم الى الأتراك إثر الاحتلال ، والأعداء الناشطين في جمعية الاتحاد والترقي (وهو الحزب الذي يردّ اليه مباشرة إدخال تركية في الحرب بازاء بريطانية العظمى) وغيرهم ممن لم يجسر على البقاء في بغداد

بسبب ميولهم التركية المعروفة ، كل أولئك عادوا الى الموصل في أوائل تشرين الثاني ، وشغل كثير منهم في دعاية ناشطة مناهضة لبريطانية • وتراءى أن نفوذهم المباشر ، على ما كان ، محصور ببغداد والكاظمين ، لكن الحزب المتطرّف في بغداد انتشر في مدينتي بعقوبة والنجف ، شأنها شأن منطقة الشامية وكان ذا أثر ما ، وفي كل من مدينة بعقوبا والشامية ساد الاعتقاد ، لبضعة أشهر بأن للريف وكلاء • ومما لا مراء فيه أنه قد تصاعد تأثير (التصريح) بالأخبار التي أذاعتها رويتر والقائلة بأن الشريف فيصلاً قد اتخذ سبيله الى مؤتمر الصلح باعتباره ممثل الدولة العربية المستقلة • وأنتجت الشائعات الدائرة حول الوضع في سورية نتائج شتى• فلقد هرع ، على سبيل المثال ، نصارى الموصل من هذا المثل المحسوس الملموس للحكم العربي • وعلى العموم لم يتشجّع أثرياء القوم وذوو المكانة ، على اختلاف أديانهم ، بسبب ما تناهى الى مسامعهم ، وهو قليل• هذا ومن الجهة الأخرى ، فإن قصص رفع الاعلام العربية ، وتعيين حكام عسكريين من العرب ، لم تقصّر في إلهاب أفكار السياسيين العرب المحترفين في بغداد ، أو ممن يؤمل أن يكونوا كذلك • أما في بقية أرجاء بلاد ما بين النهرين فان التصريح لم ينتج أكثر من الافصاح ، بين حين وحين عن الاشارة الصادقة الى أمير تحت ظل البريطانيين وحمايتهم ، لكن مقدمي العرائض عنوا بالحاق مستدرك يقولون فيه ان شخصاً يستطيع اشغال هذا المنصب لا وجود له اليوم • وما كان التفضيل ، على كل حال، عاماً • وكان اللواء العشائري والزراعي الكبير على دجلة : العمارة ، واللواء الصغير : القرنة ، كما كانت العناصر العشائرية القاطنة في لواء بعقوبة ، ومنطقة كفري شمالاً ، ولواء خانقين جميعاً ، ولواء الحلة على الفرات طرا ••• كلها تطالب بتوسيع النظام الحالي وديمومته • وكانت مدينة الحلة ، مركز انتاج الحبوب في منطقة الفرات ، تلحّ ، على وجه خاص ، بطلباتها • وما التقى أهل مدينة الحلة بالمضابط التي وردت من

مناطق الحلة الأخرى ، والهندية والناصرية والديوانية التي وقعها متقدمو الشيوخ العشائريين والوجهاء بل قدّموا عريضة إضافية تحمل ٤٠٠ من التواقيع ، تمثل كل رجل ذي خطر في المدينة تقريباً • لقد استنبطت العريضة الثانية من محاولة شخص ذو ميول تركية في تحرير عريضة معادية للبريطانيين ، باعتبارها تجابه العريضة الاصلية • وبصدد العشائر العراقية مما لا ريب فيه أن سياسة (الادارة البريطانية) لقيت منها قبولاً • إن شيوخ العمارة والقرنة يفصحون علانية عن رغبتهم في عدم إحالة المنازعات العشائرية الى المحاكم ، وانهم يريدون معالجتها على وفق الترتيبات الراهنة، أي من قبل الشيوخ أنفسهم وبمعادلة الحكام السياسيين • وتقدم شيوخ العمارة بطلب محصله أن لا توضع أراضيهم بالمزايدة ، ما دام المؤجرون يقومون بخدمة مخلصة للحكومة ، وهذا إن دل على شيء فعلى تقديرهم النظام الذي أدخلناه • وفي كل مكان يعرف فيه سر پرسي كوكس حق المعرفة ، وعلى غرار الحلة نفسها ، وان لم تسنح له إلاّ فرصة ضئيلة لتعريف نفسه فيها شخصياً ، كان يطلق عليه على وجه خاص (المندوب السامي) الذي يقبل به الناس ويرضى • وفي حالة أو حالتين، وفي الناصرية بخاصة، صدر تصريح يناهض الشريف باعتباره أميراً محتملاً ••• وفي بغداد ، حيث الرأي السياسي متصاعد بأعلى مما هو في الأقاليم ، أسفر البيان الانكليزي ــ الفرنسي عن نتائج آنية • إن فكرة أمير عربي أوحت للجميع أنها الحل المعقول لمشكلة تقرير المصير ، لكن اختلافاً كبيراً دار حول الشخص الذي يجب أن يُصطفى لذلك • إن إبناً ما للشريف كان هو الأمير المختار على الوجه الجلي الاختيار ، لكن كثيرين كانوا يفضلون أحد رؤساء أسرة العمري النابهة الشأن في الموصل (هادي باشا) وهو رجل أشغل مناصب عالية في القسطنطينية • على أن بعضهم كان يقترح ، على سبيل الاختيار ، مصرياً ، ابن سلطان مصر أو غيره ، وذكر اسم نقيب بغداد مرتين على لسان زوار الدائرة السياسية •

لقد كان اتجاه (النقيب) على كل حال ، مختلفاً تماماً عن اتجاه الآخرين . ففي المداولات الخاصة مع الحكام السياسيين كان يصرح بشدة مناهضاً تعيين (أمير) ، باعتبار ان البلاد غير ناضجة لحكم عربي من أي شكل . لقد كان يدافع عن استمرار الادارة البريطانية التي يجب أن تتعاون مع السكان في البلاد ، وتستخدمهم تدريجياً ، وعلى وجه يتسع قدماً . لقد كان يؤكد على ضرورة وجود حاميات بريطانية للمحافظة على الأمن والسكينة ، وكان يعبّر من أول الأمر الى آخره عن استغرابه وأسفه على استشارة الرأي العام بشأن المستقبل . من المحتمل جداً ان أي ضغط يوقع عليه سيحمله ، أو أي عضواً من أعضاء أسرته ، على قبول تبعات رئيس دولة عربية ومشاغله . لقد سعى ابن أخ له ، كان يعد الخلف المحتمل لاشغال منصب النقيب ، الى ذلك يداخله رعب . (راجع ملاحظات النقيب على الموضوع ، لاحقة) لكن الحكمة في اصطناع الضغط ، على كل حال ، معرّضة الى ريب هي على حظ من خطر ...

وكان حملة الشغب السياسي ، في الوقت نفسه ؛ تنتظم في بغداد . وكان القائمون بها رجال تقل أعمارهم عن الثلاثين ، واثنان منهم ينحدرون من أسر طيبة ، على حين كانت بقيتهم من غير ذوي المكانة ، اجتماعية أو اقتصادية . وكان أغلبهم قد عاد من الموصل حديثاً ، ومنهم كثير كان ينتمي الى جماعة من رجال (الجمعية) السابقين . وكان أحدهم ، في الأقل ، من أصل تركي . لقد كانت أولى مظاهر الشغب (كذا) تقديم طلب باصدار جريدة ، وهو طلب تطور الى تأسيس ناد تكون الجريدة لسان حال له . وعلى حين كان الطلب هذا معلّقاً ، وقعت في النجف حادثة مهمة . لقد زار المدينة (وكيل الحاكم الملكي العام) الذي قابل الشريف ، وقابل الروحانيين وشيوخ العشائر وأوضح لهم بأنه سيطلب رأيهم بصدد نقاط ثلاث معروضة على البلاد : أولهما أيرون وجوب ضم ولاية الموصل الى

دولة بلاد ما بين النهرين ؟ ثانيها : أيرأسها أمير ؟ وثالثها : ان كانت الرغبة منصرفة الى أمير ، فمن هو الذي يجب اختياره ؟ وأجمع الحاضرون على وجوب استمرار الحماية البريطانية على البلاد ، من الموصل الى الخليج ، من دون أمير • وبعد يومين ذهب أحد الشبان المسلمين من بغداد الى النجف ، لعمل تجاري في الظاهر ، وسعى فيها الى حبك مؤامرة مستبصرة تهدف الى أن يصرف عزم أهل النجف والشامية ، باللعب على أحاسيسهم الدينية وعلى الزهو الشخصي لدى بعض الشيوخ ، عن توقيع عريضة على الأسس المتفق عليها • إن صاحب الشغب هذا رجل ذو سمعة شائعة ذائعة باعتباره من الكتّاب • لقد استخدمناه في الشرطة وطرد منها لتصرفه الفظّ الغليظ قبل نحو سنة • ولما كان هذا أحد موقعي (المضابط) ببغداد، والتي تطالب باستمرار الهيمنة البريطانية ، فان قيمته كشاهد للطرف الثاني مهملة • ولدى وصوله النجف أظهر نفسه باعتباره وكيلاً للحكومة ، لذلك جرى حبسه لمدة اسبوعين إثر اعادته الى بغداد • وجرى كل ذلك في تلك الفترة من قبل الحاكم السياسي في الشامية • وبنتيجة نشاطه لم ترسل العريضة الاصلية من النجف والشامية، بل أرسلت بدلاً عنها سلسلة من المستندات التي لم تكن لتختلف عنها من الوجهة العملية إلاّ قليلاً • كانت هذه تطالب بأمير عربي تحت الحماية البريطانية عندما تصبح البلاد على استعداد لاجراء تغيير ، لكنها لم تعيّن فرداً ما ، على التخصيص •

ويلحظ أن أعظم الروحانيين ، أعني السيد محمد كاظم اليزدي ، يحمل آراءً شبيهة بآراء نقيب بغداد • وعلى الرغم من شدة الضغوط عليه كان يرفض إبداء آراء مناهضة للتدخل الأجنبي في العراق ، بل وعلى النقيض من ذلك جعل الناس يشعرون انه ضالع من الجهة الأخرى • إن هذا أقصى ما يؤمل من رجل منصرف الى الدين كلياً • ولو جاوز الحد في ذلك لتأثر نفوذه باعتباره زعيماً دينياً ، ولغدت قيمة معونته الضمنية لنا على وفق ذلك متضائلة • ولم تكن حادثة النجف الوحيدة التي أثارت

مخططات جماعة بغداد القصوى • لقد جرى تسلّم تحذيرات فردية تتصل بأهدافها من (النقيب) وغيره لذلك لم يشجّع طلب النادي أو الصحيفة، وبعد حبس مندوب النجف لم يلح عليهما •

لكن الشغب ، على كل حال ، كان دائباً ، وأصاب في كربلاء نجحاً جزئياً تالياً • فلقد أصدر العلماء الروحانيون الفرس فيها فتوى مفادها أن أي شخص يروم حكومة غير محمدية يعد كافراً • وكان سراة المدينة ، بالنسبة الى الافصاح عن آرائهم عن هذا البيان تحريرياً ، يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى • لكنهم كانوا يفضون شفوياً الى (مساعد الحاكم السياسي) بموالاتهم لنا • أما العشائر ، وهم أقل خضوعاً ، فلقد كانوا يرومون استمرار (الادارة البريطانية) وألاّ يطرأ عليها تغيير ما • كان أبرز شخصية في كربلاء ابن المرزا محمد تقي وهو شيخ بلغ من الكبر عتياً • ومحمد تقي هذا كان يشغل في العالم الاسلامي مركزاً يعتبر ، بالنسبة الى مركز محمد كاظم اليزدي ثانياً ، لكنه كان في سن الخرف (كذا) تقريباً ، يهيمن عليه ابنه محمد رضا تماماً ، وهو من كان على اتصال وثيق بمن يبدي في النجف سخطاً وتبرماً • وميرزا محمد تقي ، على غرار جميع مجتهدي بلاد ما بين النهرين المتقدمين ، فارسي ، وكان حتى يومنا هذا ، على أفضل الصلات معنا •

وبلغت سكان المدينة المقدسة الثالثة : (الكاظمين) أنباء مبالغ فيها تتصل بالذي يجري في النجف وكربلاء • وكانت المشاعر فيها تتصاعد أيضاً • وثمة بينة تدل على أن عملاء القسطنطينية في الكاظمين كانوا عاملين وقد وجدوا بين أيديهم شيئاً ملائماً ••• لذلك عندما طلب من مدينة الكاظمية إبداء آرائها بصدد ثلاث قضايا ، ذكرت آنفاً ، هدد العلماء بقطع الصلة مع كل شخص يصوّت للاحتلال البريطاني ، ومنعه من الدخول الى الجامع بتاتاً • وعلى الرغم من وعيد المنع هذا ، ثبت عديد من المواطنين

المتقدمين والشيوخ البلديين ، وما كانت شجاعتهم هذه أقل بروزاً • وحملت العريضة المناهضة لبريطانية الى الجامع الكبير ليلاً ، وجرّ القليل من المعاندين اليها • لكن التنميق الكتابي والبلاغة لم تزحزحا رئيس البلدية ، وهو من كان متقدم تجار المدينة أيضاً ، عن تقديم عريضة مناهضة تطلب استمرار الحكم البريطاني دواماً • واستطاع أن يحصل على تواقيع تجار آخرين وأغلب الشيوخ المحليين والرعايا الهنود البريطانيين • والأخيرون ينتمون الى أسر سكنت الكاظمين منذ أمد طويل ، وهم ذوو ناموس عظيم فيها • فلو اعتبروا ، من وجهة النظر العراقية ، غرباء ، فإن الرؤساء الروحانيين الفرس الذين وقّعوا المضبطة لن يسلموا من هذا النقد سواء بسواء •

واتخذ قرار ببغداد بعد أيام قليلة • لقد طلب الى النقيب وقاضي الشيوخ أن يصطفيا من أشراف بغداد ٢٥ رجلاً ينطق كل واحد منهم بلسان مذهبه خصيصاً ، وضمّ اليهم الحاخام الأكبر و٢٥ من متقدمي اليهود ورؤساء الطوائف النصرانية و١٠ من النصارى • لقد ضلّل هذا التمثيل بالنسبة الى سماحة المحمديين الذين يمثلون ٣/٥ السكان في المجلس ، على حين لا يمثلون أكثر من ٥/٨ من سكان المدينة ومتابعة لعادته التي لا انقطاع لها تقريباً ، أعني امتناعه عن التدخل في الشؤون العامة⁽¹⁾ ، وعلى اثر ذلك ، رفض النقيب القيام بشيء ما ، لكنه قَبِل أن يقوم مقامه

---

(١) بالنظر الى أفضل المعلومات المتيسرة لدينا ، لقد خرقت هذه لمرة واحدة فقط ، ففي نهاية الزحف الاول على طاق كسرى سنة ١٩١٥ عقدت اجتماع للعرب الاحرار في بيت النقيب لتقرير فيما اذا كان في الامكان انقاذ يطمنني باسداء العون الى القائد البريطاني سراً • وناهض النقيب الاقتراح على أساس انه من رعايا سلطان تركية طوال عمره ، وانه لا يستطيع في مثل هذا الوقت المتأخر نبذ ولائه له .

(الكاتبة)

قاضي السنة • إن مراجعة القاضي كانت رغبة من السلطات المدنية في جعل تعيين الأشراف بيد أناس معترف بهم كممثلين رسميين للطوائف المسلمة ، ولا يمكن أن يتهموا بالتحيز الى الجانب البريطاني بأي وجه من الوجوه • إن منصب قاضي الشيعة خلقته (الادارة البريطانية)، لكن شاغله كان شخصاً ضعيفاً لا اتجاه له ، وان تقواه هي خير سبب في ترشيحه •

وبدلاً من أن يقوم القاضيان بانتخاب ممثلين ، على ما طلب اليهما ، قاما بدعوة أبناء طائفتيهما بقصد إجراء انتقاء ما • وألقيت كلمات نارية في الاجتماعين ، والزم المندوبون الذين اصطفوا على طلب حكومة عربية من دون حماية غربية • إن هذه الأمور كانت مبيّتة وقدمت الى الاجتماعين من قبل القاضيين • وتم الحصول على أصل الالتزام ، وفيه أن العرب على حظ تام من الكفاية لأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ، وعلى (الأصل) هذا ٤٥ توقيعاً ، أولها توقيع القاضي نفسه ، وهو متوّج بالختم الرسمي للمحكمة التي يرأسها • ولم يمر الاجتماع ، على كل حال ، من دون وقوع حادث ، ذلك ان أحد رؤساء إحدى الأُسر الرئيسة ، وأكبر الملاكين في المدينة أعني : موسى جلبي الباجهجي ، غادره ممتعضاً معلناً انه لن يشترك في مثل هذا الخبال ، على حين احتج اثنان من الأشراف على المحضر فهتف القوم يصفونهما بالكفر والخيانة • ومن بين الـ ٢٥ شخصاً الذين انتخبوا ممثلين ، رفض ٧ العمل أخيراً ، ومن بين الأخيرين اثنان من آل النقيب ، واثنان من آل جميل زادة ، وان هاتين الأسرتين اللتين لا يدانيهما من حيث المال والمكانة ، أسرة أخرى ، غير ممثلتين في العريضة النهائية •

وبغية وضع من يحل محل المنسحبين أضيف خمسة مندوبين الى القائمة الاصلية • وكانت التواقيع ٢٤ بدلاً من ٢٥ ، وذلك لانسحاب

واحد منهم في آخر لحظة . إنه ملاّك نابه الصيت ببغداد وقد وثّق صلات ودية مع الضباط البريطانيين من معارفه . لقد كان يميل الى فكرة وجود أمير عربي ، أو انه ، في الأقل ، لم يكن يرى فيها ضرراً ، لكنه كان يرى في ادارة يصرّفها العرب حسب ، خطلاً وضلّة . ومهما كان من أمر ، أعلم هذا الشخص الحاكم العسكري انه غير قادر على مجابهة طعن ديني ينجم عن احتجاج سافر ، وانه قرر لذلك الانسحاب من دون ايضاح .

عسير أن يُبالغ في العداء والكيد اللذين صحبا هاته الحوادث والارتياد المشوق الذي قام به الجمع المناهض للبريطانيين وما ألقي من كلمات بليغة في المقاهي . وكان أن دوّت أصداء هذه الكلمات في الدوائر السياسية . وعلى ما قال النقيب صواباً تستطيع الحكومة البريطانية أن تتخلّص من الجواسيس في هذه البلاد ، فطبع كل عربي هو أن يسرّ الى السلطات ما يقوم به الآخرون من أبناء جلدته (كذا) .

قيل أن الجماعات الثائرة من المسلمين في المدينة لم تتأخر في تطمين مواطنيها من الأديان الأخرى بأن الأهمية غير الطبيعية برأي المسلمين التي حصلوا عليها من وراء الادارة البريطانية ستنتهي ، على حين غرّة . لقد قام اليهود مباشرة ، إثر نشر التصريح الانكليزي والفرنسي والذي روّعهم كثيراً ، بتقديم عريضة يطلبون فيها السماح لهم بأن يصبحوا رعايا بريطانيين (كذا) . ثم انهم أخذوا يجتمعون الى طوائف النصارى ، واتفقوا معها على خط مشترك للعمل . وعلى ذلك ما أن اجتمع الـ ٧٧ مندوباً يوم الـ ٢٢ من كانون الثاني إلاّ رفض اليهود والنصارى التوقيع على العريضة التي نظّمها المسلمون . لقد كان نص العريضة يقضي بعدم وجود استثناء ما ان كانت الظروف التي اكتنفت ولادتها غير معروفة على العموم . لقد أفصحت طائفتا السنة والشيعة عن رغبتيهما في دولة عربية تمتد من حدّ

ولاية الموصل الشمالي الى الخليج العربي يرأسها ملك مسلم يكون أحد أنجال (الشريف) حصراً • ومضت العريضة تقول : إنّ الملك يجب أن يسترشد من قبل (مجلس علي) وأن يقيم ببغداد • ولم يلمّح بأي شكل من الأشكال الى الحماية الأجنبية ، ولكن على ما قال أحد القلائل البارزين الذين وقّعوا العريضة وفي أثناء حوار خاص جرى له مع أحد الموظفين السياسيين وفي زيارة له فيما بعد ظهر ذلك اليوم بعينه أبان : « لم يطلب منا أن نبدي رأياً في هذا الموضوع بعينه أي (الحماية الأجنبية) • لقد اعتبر من قبيل تحصيل الحاصل قيام الحكومة البريطانية باسداء المشورة لنا والعون ، فذلك ضروري لكياننا السليم » •

لقد بذلت جهود ضخمة في الاجتماع لتحريك المندوبين اليهود والنصارى ، واتجه الى الأخيرين وسألهم من كانوا يشفقون؟ ما دام اليهود والنصارى سيكون لهم حظ في المجلس وممثلون عنهم • لقد أثارت كلماته في صدور من خاطبهم قلقاً أكثر ، وقد لحظ أحد المندوبين اليهود حين قال : «تجلّى لنا أن قد جرى التفكير في نظام تام لإقامة حكومة مسلمة» واصطنع بلاغته للتأثير على اليهود ، وكان سياق كلامه على الوجه الآتي : ألم يقدكم النبي موسى الى التيه وبقيتم فيه ٤٠ سنة لتتطهروا ؟ ونحن إذ نحذو حذوه ، حذو القذّة بالقذّة ، سنأتي لجيلكم بخليفة من البادية •

لقد رفض الذين كانوا يلقون السمع اليه وهم يرتعدون فرقاً احتضان المستقبل المرجو لهم • وكان ان وقعوا عريضة مستقلة يسندون فيها تماماً (الادارة البريطانية) ، وحذا في ذلك حذوهم النصارى • ولم يكن هذا هو الموضع الوحيد الذي أجهز المسلمون بعنفهم على أهدافهم الخاصة •

ففي خلال الأيام القليلة التالية اختلف البعض من غير الذين وقعوا عرائض الكاظمية وبغداد وقدموها الى الدوائر السياسية وأفصحوا

فيها عن نواياهم بتسجيل احتجاجات تناهض تلكم العرائض • لقد بيّن البغداديون ، بحق ، ان الوثيقة التي سلّمت لا يمكن اعتبارها بأي وجه من الوجوه ممثلة لآراء أشراف المدينة • لقد كان فيها عدد كبير من الأسماء المجهولة ، على حين لم تكن الأسر المتقدمة ممثلة إلاّ بأبنائها الثانويين، وكان أن أعدت عرائض مقابلة • كانت الاولى موقّعة من قبل التجار لكنها كانت تضم أيضاً أسماء رؤساء (المختارين) في المدينة ، واسم أحد السويديين ، وهي الأسرة التي نفي رئيسها (يوسف السويدي) من قبل الاتراك الى اصطنبول ، ومنها لم يستطع العودة •

والأسرة هذه تنحدر من العباسيين ، ويتمتع يوسف السويدي بمقام مرموق • لقد طلب موقّعو العريضة الاولى الحكم البريطاني ، ولا حكومة غير حكومته • فإن لم يكن ذلك ، فهم ، على غرار الطائفة اليهودية ، يطالبون بأن يصبحوا رعايا بريطانيين • وطالبت العريضة الثانية بحكومة عربية محلية من شمالي الموصل حتى الخليج العربي مدعومة بالمعونة والمشورة البريطانيتين ، وأن يكون سر پرسي كوكس أول مندوب سامٍ • يجب تطبيق القوانين التي قبلت سابقاً ، وان تكون ثمة مساواة في الحقوق بين جميع الطوائف وأن ترعى هذه كما تمنح الحكومة المحلية الحرية التامة في تصريف شؤونها الداخلية والمالية • لقد كانت هذه العريضة تحمل ٧ امضاءات وما زالت عرائض أخرى آتية • إن الاشخاص الستة الأوليين ، من بين السبعة الاصليين ، هم ذوو مكانة عظيمة في المدينة ، على حين ينتمي السابع الى الصنف نفسه ، لكنه كان أقل أهمية من الباقين • من المهم جداً أن يفصح السبعة أشخاص هؤلاء عن مكنون أنفسهم بعد نشر البيان البريطاني الفرنسي مباشرة ، وذلك بقدر تعلّق الأمر بتحبيذ وجود أمير عربي تحت الحماية البريطانية وسيطرتها • لقد روّعوا كثيراً بالهياج المناهض للبريطانيين الذي تلا ذلك ، حتى انهم نبذوا الفكرة لئلا تؤدي

الى مواضيع خطرة . وكانت العريضة الثالثة من غربي بغداد ، وبضمنها شيوخ القبائل المحلية . لقد صرّحت هذه العريضة بأن حكومة عربية هو مشروع غير عملي وطالبت بادارة بريطانية تحت سر پرسي كوكس . وقبل أن يختتم هذا التأريخ الغريب العجيب لنضف : إن الاشراف لا الذين وقعوا العريضة المضادة الثانية عرضوا على وكيل الحاكم الملكي العام ما مفاده ان دعاية ناشطة لا زالت تدور في المقاهي يطلقها الجماعة المعادية لبريطانية . لقد استرحموا وأن ينفي بعض القادة (كذا) على أساس أنهم خطر ، لا بالنسبة للحكومة البريطانية ، ولكن بالنسبة لاستقرار العراق وسكينته . وجرى اعتقال عشرة من بين أعضاء (جمعية الاتحاد والترقي)، ومن بين رجال عادوا من الموصل مؤخراً ، وشخص آخر جرت محاولة توقيعه ... وثمة خواطر قايلة مما يسمح بها في خاتمة المطاف . ان الوقت المعطى كان قصيراً لذا كان من العسير أن يثار غضب وهتاف ، بله الدس وتعب القلب ، بأكثر مما نجم ببغداد نتيجة التصريح والتحري عن رغبة الشعب الذي جاءت في أعقابه . إن المبرر الوحيد الذي يمكن تقديمه، في ضوء هذه التجربة ، ولمثل هذا الاجراء ، هو أنه جاء لاعتبارات دولية الأهمية ، غريبة عن العراق .

مما لا ريب فيه أن حزباً وطنياً سيولد ، تعتلج فيه أطماع ضخمة ، عاجلاً أو آجلاً . وبنتيجة الاجراءات الأخيرة ولد هذا الحزب سريعاً . انه لمبتسر ، ذلك ما هو جلي ، وقد دلّ عليه أن العناصر المستقرة في المجتمع لم تمدّ له يد العون . بل على النقيض من ذلك ، كانت هذه العناصر قد هرعت فاندفعت الى تعاون وثيق مع (الادارة البريطانية) . ان حقيقة كونها كانت تنشد العون منا خلال تلكم الأيام المضطربة لا يمكن أن تنسى سريعاً ، لا من قبلنا ولا من قبلها . كما لا يمكن أن ننسى من أسهم منا في تلك (الرواية) العون الذي تلقيناه من النقيب والسيد محمد كاظم اليزدي

معاً . لكن قيمة الدرويش كقيمة المجتهد ، ذات حدود . إذ لا يمكن أن يولج اسم أحدهما في القوائم ، كما لا يمكن لأحدهما أن يتنكب خطر الانتقادات التي تجيء في أعقاب الخطوات التي يخطوها من هو منحاز. لكن الحكمة التي تنطلق منهما سراً وتصاغ في لغة قد تتراءى لنا غير محددة ، تبقى ، لعقود من السنين ، ذات وزن في ميزان بلاد الرافدين ، وهو غير متعادل .

الملحق الخامس

آراء (نقيب بغداد) السياسية

ذهبت ، اثر مود ، لمقابلة نقيب بغداد صباح اليوم السادس من شباط وموادعته ، ذلك اني كنت أزمع على الرحيل الى انكلترة يوم الثامن من الشهر . وكان أن بلغت الدار قبل الوقت الذي كان يؤمله، لذلك استقبلني ابنه : السيد هاشم وجلست معه دقائق عدة قبل أن يدخل (النقيب) علينا. وكان النقيب ، منذ الاحتلال ، يسكن بيته الكائن قبالة تكية عبدالقادر ، وهو رأسها ، بجوار (دار المقيم البريطاني) فلقد اتخذ بموافقته مسكناً . ان ترتيب مسكنه على حظ من البساطة زهداً وتفقهاً . ان الغرفة التي يستقبل فيها زواره كائنة في الطابق الاول ، لها منافذ تطل على حديقة صغيرة في باحة الدار غرست فيها أشجار البرتقال . وقد صفّت بمحاذاة الجدار أرائك قوية منتصبة مغطاة بخام أبيض. وفي زاوية من زوايا الغرفة قرب النافذة ، وحيث يجلس (النقيب) ، منضدة صغيرة عليها غطاء أبيض وكتب وكراسات موجودة عليها دوماً . والجدران مصبوغة بلون أبيض ، والغرفة غير مزينة فيما خلا نظافتها التامة . والنقيب شيخ علاه الكبر وأحدق بحدقتيه قوس الأشياخ واحدودب بفعل السنين وهو مقعد ، نوعاً ما ، بفعل داء المفاصل (روماتيزم) . إنه يرتدي جبّة تصل قدميه ، مصنوعة من كتان أبيض في الصيف ، وقماش أسود في الشتاء ، وهي محزّمة عند خصره بطيات حزام أبيض عريض . والنقيب يعتمّ بعمامة بيضاء لفّت على طربوش أحمر .

وما ان دخل الغرفة إلاّ انسحب ابنه السيد هاشم ، وأصدر النقيب أوامره بأن لا يدخلها أحد . ثم اني قلت له أني راحلة عن بغداد بوقت

مبكر بالنسبة للذي كنت قد نويت عليه ، ذلك اني استدعيت الى باريس، ثم أضفت الى ذلك : من المحتمل وجود تفصيلات ثانوية ، مثل القرارات المتصلة بالحدود ، التي تتطلب معلومات محلية • وذكرت على سبيل المثال قضية متصرفية الدير ، ومن الدير كان قد وصل رئيس البلدية مؤخراً ومعه طلب بالحاق المتصرفية بدولة ما بين النهرين ، وسألت (النقيب) عن رأيه في ذلك •

وأجاب بأنه قابل الشخص المبحوث عنه ، وانه يعرف أخاه وهو مواطن مهم من مواطني (الدير) • لقد زار النقيب زوّارنا وسألوه أن يشير عليهم بشأن وضع المنطقة في قابل الأيام • وكان ثمة أشخاص حاضرين ، ولما كان النقيب دوماً لا يحب أن يلزم نفسه علانية فلقد أمر السائل بأن يعود في اليوم التالي ، حين يكون لديه الوقت الكافي للتفكير في الأمر • « إنه بالانتظار الآن يروم مقابلتي ، ولما كنا نسر بعضنا بعضاً ، فهذا هو الجواب الذي أروم اعطاءه له • سأقول له : يا بني ، انكم تحسنون صنعاً إن أصبحتم تحت الحكم البريطاني ، فالبريطانيون معروفون في العالم طرّاً بالعدل والنصفة » • ثم مضى النقيب يقول : أريد أن أوضح لك ما في ذهني • اني لا أحب الفرنسيين • (يجب أن يفهم من ذلك ان الفرنسيين سيسيطرون على سورية حتى حدود بلاد ما بين النهرين) • أجل إني معجب بعلمهم وانشرح لعقولهم المثقفة ، لكني أجتوي حكومتهم• لا يخفى علينا ان السكان المحمديين في الجزائر عانوا من اداراتهم • هذه أشياء معروفة • اني لأرغب في أن يكون الفرنسيون أبعد ما يكون عن بغداد • يا خاتون صاحب : أنا أتكلم الآن لك وحدك ، وأرجوك المعذرة من ما فهمت به • اني أشفق من صدام لا معدى عنه بين الفرنسيين والبريطانيين• ذلك ان البريطانيين إن وضعوا أقدامهم في مكان ما فليسوا برافعيها عنه، إن ما يمسكون به لا يفلت من قبضتهم • إنهم سيجابهون طموح الفرنسيين

وحسدهم ولو كان معنى ذلك حرباً تطول خمسين سنة . انهم لن يفسحوا الطريق . أنا درويش ، ولست أعنى بالشؤون الدنيوية لكن عندي خبرة طويلة تتصل بالرجال والأمور ، لذلك فإني أفصح لك عن مخاوفي .

وبعد أن استغرق البحث على هذا المنوال مديدة (فالنقيب استطرادي في كلامه) سألني جرياً على عادته لدى كل زيارة أزوره: متى نأمل أن يعود سر پرسي كوكس؟ « يا خاتون ، هناك مئات بل آلاف من الرجال الذين يستطيع الواحد منهم أن يشغل منصب السفير في باريس ، ولكن ليس من أحد ، غير سر پرسي كوكس ، صالح للعراق. انه من أهل العراق لمحبوب وهو معروف ومناط ثقتهم . وانه لرجل حنكته السنون » . ثم أكّد النقيب ، بايمان أخشى أن ليس هناك من مبرر له : « بأنه لن يطير الى الموصل بطيارة حتى يوم القيامة . انه سيسافر بالسيارة . يضاف الى ذلك انه ذو مقام مرموق في لندن . انه سيعمل باعتباره لساننا الناطق. فإن رامت الحكومة الوقوف على ما يدور في أذهاننا ، فإنه لقادر على أن يدلي بالمعلومات الضرورية ، وستلقى كلماته أذناً صاغية لأنها مسموعة . أقسم بالله ، لو كان سر پرسي كوكس موجوداً في بغداد لتفادينا الضلة الناجمة من الطلب الى الناس إبداء رغبتهم بالنسبة الى المستقبل . لقد كان ذلك سبباً في الاضطراب الخطير ، ولا زال الهياج في المدينة قائماً . أنت تعلمين انني لم أسهم في شيء ، ومنعت أسرتي من التدخل بهذا الأمر . وكان ولدي السيد هاشم أول من استقال من مندوبية المجلس . قلت له يجب أن لا يكون لك دخل فيه . لكن كثيرين سعوا إليّ ينشدون المشورة ، أو يلحّوا عليّ كي أوافق على وجهات نظرهم ، فأجبتهم : « لقد غلب الانكليز على هذه البلاد ، وأنفقوا ثروتهم ، وقاموا بإرواء الأرض بدمائهم. لقد روّت دماء الانكليز والاستراليين والكنديين ومسلمي الهند وعبدة الأوثان تراب العراق ، ألا يجب أن ينعموا بما كسبوه ؟ (كذا) . لقد غلب

فاتحون آخرون على هذه البلاد أيضاً ، فكما وقعت بأيديهم وقعت بأيدي الانكليز • انهم سيؤسسون • حكمهم يا خاتون : إن أمتك أمة عظيمة ، وهي ثرية وقوية ، فأين هي قوتنا ؟ إن قلت انني أروم حكم الانكليز والانكليز لا يوافقون على أن يحكمونا ، فكيف ألزمهم على ذلك ؟ وإن رغبت في حكم آخر، وصمم الانكليز على البقاء ، فكيف أستطيع اخراجهم؟ إني لأقرّ الفوز الذي أدركتموه • أنتم الحاكمون وأنا المحكوم • فإن سئلت عن رأيي في ديمومة الحكم البريطاني فجوابي اني خاضع للمنتصر• وأنت يا خاتون (وكان النقيب في ملاحظته طيباً) تدركين صنعة السياسة، وانني لا أتردد في القول بأني أحببت الحكومة التركية حين كانت عاى ما أعرفها • فلو قدّر لي ان أعود الى حكم سلاطين تركية على ما كانوا عليه في الأزمنة السابقة لما اخترت شيئاً آخر • لكنني أجتوي والعن وأقذف الى الشيطان الحكومة التركية الحالية (يلمّح النقيب في هذا الى جمعية الاتحاد والترقي) • لقد قضى التركي نحبه وذهب الى غير رجعة، وأكتفي بأن أكون من رعاياكم » • •

« أنت ذاهبة الى لندن ، وستقابلين وتحاورين العظام ، وهذا ما ستقولينه • دعوا السر پرسي كوكس يعود الى العراق وليختم الحكم العسكري • انه من الغلط الكبير أن يستمر • إني لا أتكلم بشيء ضد القائد العام • إن كرم محتده ظاهر في وجهه • لقد زرته ، وان لم يكن ذلك من عادتي • وعندما طلب مني سر پرسي كوكس أن أزور سر ويليم مارشل (وجاهد النقيب في نطق اسم القائد العام من غير أن يصيب نجحاً نوعاً ما) قبلت ذلك • وما كان من المناسب أن أرفض • لقد زرت (مود) أيضاً • إن بلادك مدينة الى مود ، بالحمد الكبير وانا لنشكره أيضاً • لقد كان في بغداد محبوباً ، لكن السلطة في أيام السلم يجب أن يتولاها السياسيون لا العسكريون • يجب أن تحتفظوا بجيش في هذه البلاد وذلك للمحافظة على النظام ، لكن الجيش يجب أن لا يحكم • إن هذا ما

يجب أن يرد على لسانك : « إننا ننشد أن يحكمنا سر پرسي كوكس » ثم أضاف (النقيب الى ذلك بشيء من الحنكة) : « ولكن يجب أن لا تقولي ، وان كان ذلك حقاً بأنك أصبحت بغدادية ، وان دماغك مشغول بمصلحة العراق كلياً، فمثل هذا يقلل من أهمية كلماتك في لندن، وستكون فائدتنا منك أقل » .

وعاد (النقيب) بعد كلمة التحذير هذه الى قضية تقرير المصير، وقال:

« ما هذا الكلام ، وما قيمته ؟ إني أرده الى امريكة وأسمع فيه صوت (الرئيس) ويلسن . أيعرف الشيخ ويلسون الشرق وشعوبه؟ أيعرف طرق حياتنا وعاداتنا الفكرية ؟ لقدحكمتم ، أنتم الانكليز ، في آسية ٣٠٠ سنة وان حكمكم لمثال للناس جميعاً يحتذى . سيروا في طريقكم . لا تخضعوا الى ما يقودكم اليه الشيخ ويلسون . إن العلم والخبرة هما دليلكم » .

وعند هذا المفتتح لم يكن بعسير ارجاع (النقيب) الى الحديث عن الحوادث التي استجدّت ببغداد .

قال : « إن أغلب من تفوّه ضدكم هم أناس لا شرف لهم ولا مقام . إن .... شخص لا خطر له أبداً وانه لمجنون . من سمع باسم ....؟ انه لا ينتمي الى أشراف المدينة » .

ثم قلت لـ (النقيب إن لدينا قائمة كاملة بمن قاد الشعب ضد البريطانيين، وبناء على طلب الأشراف تقرر القاء القبض على ستة أو سبعة منهم ، وعلى أفضل ما لدي من رأي ان القاء القبض قد تم . لقد هزّه الأمر واستمتع من الصميم ورجاني أن أعطيه أسماء الذين القي القبض عليهم .

وقدّر أن يكون في جيبي مسوّدة أولية من قائمة المشاغبين ، لكني لم أكن أتذكر على وجه الدقة مَن من هؤلاء الذين وردت أسماؤهم فيها

سينفى • وكان على رأس القائمة اسما •••• و •••• ، لكنني صرفت عنهما النظر إذ ما كانت ثمة إجراءات ستتخذ بحقهما• وقرأت أسماء البقية الباقية على (النقيب) • ولم تكن لديه معلومات إلاّ بشأن اثنين منها ، ومن الاثنين كانت لديه معلومات قليلة تمكنه من إبداء الرأي بشأنه ، أما الثاني •••• فقد كانت لديه معلومات تمكنه أن يصمه ، على التحقيق ، بالخبيث • وتذكرت انه ليس من بين من يراد القاء القبض عليه فرجاني النقيب أن أعطي وكيل الحاكم الملكي العام رسالة منه محصلها أن لا يسمح لـ (•••••) بالبقاء في بغداد • ثم اني طويت الورقة وقلت ان هؤلاء الرجال جميعاً معروفون بأنهم ألقوا خطباً نارية كل ليلة في مقاهي المدينة وعلى الرغم من أنهم ذوو مقام واهن الشأن بحيث لم يسمع النقيب عنهم شيئاً ، فمما لا ريب فيه انهم قاموا بشيء مضرّ • وعلى كل حال ، على ما أضفت قائلة ، هناك رجلان أشد ضرراً لأنهما من ذوي الناموس العظيم• لقد ألمعت الى •••• و •••• • وبالنظر الى مقامهما ••••• لم يكن في مكنتنا اتخاذ إجراءات تلجم لسانهما على وجه فعّال • وأصغى النقيب بانتباه وبقي يفكّر لأياً من الوقت • ثم قال في الأخير :

كلا ، لا تستطيعون القاءهما في غيابة السجن ولا تستطيعون نفيهما، فالفضيحة ستكون من جراء ذلك عظيمة • ولكن لو علمت بموافقة العقيد ويلسون ، لأرسلت على الرجلين ولبيّنت لهما استنكاري لتصرفهما• واني أعلم أنهما مدفوعان بدوافع دينية ، وان الاعتبارات الدينية هي محور حججهما • إني لأتكلم بثقة حول أية نقطة من النقاط التي تمس المصالح الدينية •

وشكرت النقيب بحرارة على ما عرضه وقلتاني لا أشك في أن العقيد ويلسون سيقبل ذلك شاكراً ممتناً • وكان ان أرسلت خطاباً الى النقيب بهذا المآل في اليوم التالي •

لقد بلغ الحوار نقطة من النقاط الصميمية الى حد حشر ، مع الاعتذار ، على طرح سؤال شخصي يتّعص على النقيب . انه قاد اليه ، من دون قصد ، حين تكلّم عن ترشيح الشريف ، أو أحد أبنائه ، لمنصب أمير بلاد ما بين النهرين .

قال إني قريب الشريف . إني أنحدر من السلالة نفسها وأشترك معه في المعتقدات الدينية الواحدة . إنكِ لتفهمين من هذا أنني لست مدفوعاً بعامل الاختلاف أو الدم أو الفكر حين أقول لك اني لا أقبل تعيينه أو أحد أبنائه أميراً . الحجاز حجاز والعراق عراق ، وليس من رابطة بينهما إلاّ الدين . إن سياستنا وتجارتنا وزراعتنا تختلف عن ما في الحجاز جميعاً . فقاطعت قائلة : إن ذلك كربط الأموات بالأحياء على ما أرى . وقبل النقيب بالتشبيه وأضاف قائلاً : « ان الحجاز أرض الاسلام المقدسة ، فيجب أن يبقى دولة منفصلة مستقلة يستفيد منها المسلمون جميعاً . وشبيه به فلسطين ، وهي بلاد على حظ كبير من الحرمة بنظر المسلمين والنصارى (لم يلمّح هنا الى مصالح اليهود ولم أر من اللائق طرق هذا الموضوع الشائك). يجب أن ترعى مصالح المسلمين والنصارى ، على حد سواء ، من قبل الدول جميعاً لكي يجني الجميع الفائدة من عتباتهم المقدسة . وبصدد حكومة بلاد ما بين النهرين ، فان نفرتي من الحكومة التركية الحالية معروفة عندك ، ولكني أرغب ألف مرة بأن أرى الأتراك في العراق ولا أرى الشريف أو احد اولاده ينصّب ها هنا .

وعند هذا قلت : ان حملت الاسباب السياسية التي لا يمكن استباقها في الوقت الحاضر ، على وجه لا مفر منه ، على تنصيب أمير على دولة العراق ، فهل تقبل ، تفادياً من اختيار أمير حجازي تبعة ، بإسناد منا ومعونة؟

وكانت يدي موضوعة على (يد) الاريكة الخشب ، فضرب عليها مرتين أو ثلاث مرات زاجرة ، ومدّ اصابعه وانحنى الى الأمام وقال ضاحكاً ولكن بأكثر تأكيداً :

« كيف تطرحين مثل هذا السؤال عليّ ؟ اني لدرويش ـ ألا تحميني عادتي » ؟ وقام بالعادة المعهودة أعني هز جبّته السوداء فاتحاً إياها . « إن ذلك يناهض بعمق مبادىء ديني أن أغدو الرأس السياسي للدولة . ففي أيام جدي : عبدالقادر اعتاد الخلفاء العباسيون على استشارته ، على استشارتك تلك واستشارة زملائك ، لكنه لم يكن ليرضى أن يسهم في الشؤون العامة اسهاماً فعلياً . إني لا أقبل ولن أقبل أي شخص ينحدر منه مثل هذا . إن هذا جوابي على أساس من الدين ، لكني أجيبك أيضاً جواباً يرتكن الى أسباب شخصية . إني رجل بلغ من الكبر عتياً . وان ما بقي لي من الحياة ، خمس سنوات أو ست أصبو الى قضائها في التأمّل والدراسة . عندما قدمتي اليوم جعلتك تنتظرين ، فلقد شغلت بكتبي . انها لشغلي الشاغل » . وانقطع عن الكلام فالتزمت جانب الصمت أيضاً ذلك ان كلماته مسّت قلبي في الصميم لكنه لم يكن مكتفياً بالجواب الذي أعطاه ، ورفع صوته وقال متمهلاً :

« ليس ذلك إن كان المراد انقاذ العراق من الدمار التام ، عند ذاك أغيّر ما قلته » . . واستمرت المقابلة ساعة ونصف ساعة ، واثر كلمات قليلة أردت بها الاعتذار عن سؤالي الاخير وقد طرحه جنباً باعتبار أن لا حاجة اليه ، استأذنته لأنصرف . وقبل أن يسمح لي بذلك تلطّف كثيراً فعبّر عن عطفه عليّ وذكّرني بصداقتنا القديمة التي ، على ما قال ، ترجع الى ما قبل الحرب بسنوات عديدة . وقلت له ما أعظم تقديري لها وشكرته على ثقته التي وضعها فيّ حين تكلّم بصراحة خلال المحادثة التي انتهت قبل قليل فأجاب انه يرجوني أن أعتبره أباً ، وانه يأمل أن تتجدد اتصالاتنا قريباً وتمنى لي المضي مع السلامة .

كرترود لوثيان بيل

آثار المرحوم (مترجم الكتاب) المطبوعة

١ ـ (مقالات وأحاديث ج١) ط سنة ١٩٥٨	نافد
٢ ـ (أصول ادارة الشرطة) ـ بالاشتراك مع المرحوم اسماعيل الراشد (طبعة أولى) سنة ١٩٥٧	نافد
٣ ـ (أصول ادارة الشرطة) ـ (طبعةثانية) سنة ١٩٥٨	نافد
٤ ـ (حضارة العالم الجديد) ـ فصول تأريخية شارك في اعدادها ٦٠ استاذاً جامعياً وعلماً من الكتاب ط سنة١٩٥٨	نافد
٥ ـ (في بلاد الرافدين) صور وخرائط ط سنة ١٩٦١	نافد
٦ ـ (فن الدراسة) طبع في بيروت سنة١٩٦١	نافد
٧ ـ (بغداد٠٠مدينة السلامج١) بالاشتراك مع المرحوم د٠ مصطفى جواد سنة١٩٦٢	نافد
٨ ـ (ثورة العراق سنة ١٩٢٠) ط سنة ١٩٦٥	نافد
٩ ـ (رحلات الى العراق ج١) ط سنة ١٩٦٥	نافد
١٠ـ (بغداد ـ مدينة السلام ج٢) بالاشتراك مع المرحوم مصطفى جواد ط سنة ١٩٦٧	نافد
١١ـ (رحلات الى العراقج٢) ط سنة ١٩٦٨	نافد
١٢ـ (بلاد ما بين النهرين ـ بين ولاءين ج١) ط سنة ١٩٦٩	
١٣ـ (رحلة متنكر الى بلاد ما بين النهرين وكردستان ج٢) ط سنة ١٩٧٢	نافد

١٤- (بلاد ما بين النهـرين بين ولاءين ج٢)
ط سنة ١٩٧١ نافـد
١٥- (رحلة متنكر الى بلاد ما بين النهـرين
وكردستان ج٢) ط ســنة ١٩٧٢ نافـد
١٦- (سنتان في كردستان ج١) ط سنة ١٩٧٣ ناقـد
١٧- (سنتان في كردستان ج٢) ط سنة١٩٧٣
١٨- (بلاد ما بين النهرين بين ولاءين ج٣) سنة ١٩٩٢

الفهرست

مقدمة الفصل الثاني والعشرون ٥

الفصل الثاني والعشرون ٦
شكوك تساور العراق واضطرابات تسود كردستان
كانون الاول ١٩١٨ — آب ١٩١٩

الفصل الثالث والعشرون ٥٧
الادارة المدنية خلال سنة ١٩١٩

الفصل الرابع والعشرون ١٠٥
دائرة قسس الجيش الملكي العسكريين ، جمعية
الشبان المسيحيين ، جيش الكنيسة ، حوانيت
المعسكرات ، لجنة القبور العسكرية الانبراطورية

الفصل الخامس والعشرون ١٣٥
مشكلات ادارية
١٩١٠ — ١٩٢٠

الفصل السادس والعشرون ١٦٥
الاشهر الاربعة الاولى من سنة ١٩٢٠

مقدمة الفصل السابع والعشرون ١٩٧
قبول الانتداب — وما بعده

الفصل الثامن والعشرون ٢٣١
الوضع العسكري في سنة ١٩٢٠

الفصل التاسع والعشرون ٢٨٣
المحادث السياسية : حزيران ــ تشرين الاول
سنة ١٩٢٠

الملحق الاول ٣١٩

الملحق الثاني ٣٢٥

الملحق الثالث ٣٣٥

الملحق الرابع ٣٤١

الملحق الخامس ٣٥٤

آثار المترجم ٣٦٢

٩٥٦و٧٠٣
و ٩٨٥ ويلسون ، أرنلد تي •
بلاد ما بين النهرين بين ولاءين : خواطر شخصية وتاريخية/
تأليف أرنلد تي ويلسون ، نقله الى العربية وقدم له وعلق
عليه فؤاد جميل • بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة ، ١٩٩٢ •
جـ ٣ (٣٦٨ص) ، ٢٤ سم
يتضمن : جـ ٣ أيام الاحتلال الدابر
١ـ العراق ـ تاريخ ـ الاحتلال البريطاني ٢ـ بغداد ـ
تاريخ ـ الاحتلال البريطاني ٣ـ البصرة ـ تاريخ ـ
الاحتلال البريطاني أ • فؤاد جميل (مترجم) ب• العنوان
م • و
١٩٩٢/٤٣٨

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٤٣٨ لسنة ١٩٩٢

طبع بمطابع دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد ١٩٩٢

(الكتاب) الذي تمسك منه بيمينك – أيها القارىء الكريم – الموسوم في أصله بـ (Loyalties Mesopotamia I 1914-1917 من تأليف : (سر أرنولد تي . ويلسون : (Sir Arnold T. Wilson هو من الكتب الأسانيد المعتبرة الشوامخ في فحواه ومحتواه ، بقدر تعلّق الأمر بالبرهة التي يشملها من تأريخ عراقنا الغالي الحبيب . انه صنيع رجل قدّر له أن يواكب حملة الاستعباد البريطاني على العراق ، منذ طالعة أمرها حتى نهايتها ، بوصفه ضابطاً سياسياً كبيراً فيها ، ثم قدّر له أن يتبوأ في جلّ سني الاحتلال البريطاني البغيض لهذا البلد الحرّ الأبي العريق منصب (وكيل الحاكم الملكي البريطاني العام) حتى أيام ثورته المشرقة سنة ١٩٢٠ .

وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافية العامة

الغلاف : رياض عبدالكريم

السعر سبعة دنانير

بغداد – ١٩٩٢

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة